



عناصر الموضوع

المجلد الخامس عشر

مفهوم الدفع

أولًا: المعنى اللغوي:

دفع: الدال والفاء والعين أصل واحد مشهور، يدل على تنحية الشيء. يقال: دفعت الشيء أدفعه دفعًا، ودافع الله عنه السوء دفاعًا(1).

والدفع: الإزالة بقوة(2). ومنه يتبين لنا: أن الدفع معناه: الإزالة بقوة لكل ما يعرض من ضرٍ وأذى، كدفع بلية، أو دفع صائل ونحوه، وهي تدل على عموم الإزالة والإزاحة، والدفع لكل ما يدفع أو يندفع، حتى إنهم يقولون: تدفع السيل واندفع، أي: دفع بعضه بعضًا(3).

والدفع إما أن يكون من الشخص لصالح نفسه، أي: يدفع الأذى عن نفسه، أو لصالح غيره، أي: يدفع الأذى عن غيره، كقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ۝١٦٧ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٧-١٦٨].

فإنه شمل أمرهم دفع أذى الكافرين عن أنفسهم، وعن إخوانهم من المسلمين بحسب الظاهر، والآية الأخيرة أمرتهم على سبيل التعجيز -إن هم خافوا الموت بامتثال الأمر بالدفع- أن يدفعوا عن أنفسهم الموت إن كانوا صادقين.

وقد يكون الدفع متبادلًا من شخصين أو فريقين؛ فيسمى حينئذ (دفاعًا)، و(تدافعًا)؛ لدلالة الدفاع والتدافع على الاشتراك في الفعل، فالأول فعله (دافع)، والثاني فعله (تدافع) مثل: (قاتل) و(تقاتل)، كلاهما يدل على المشاركة، ففي معنى التشارك ذكروا أن الصيغ (فاعل)، كخاصم، و(افتعل)، كاختصم، و(تفاعل) كتخاصم - تشترك كلها في هذا المعنى(4). ومنه تدافعوا الشيء: دفعه كل واحد منهم عن صاحبه. وتدافع القوم: دفع بعضهم بعضًا(5).

ومن خلال ما سبق عرضه من كلام أهل اللغة يتبين لنا أن كلامهم في معنى الدفع ومشتقاته يدور حول إزالة الشيء بقوة أو إزاحته بقوة.

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٢٨٨.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٥/ ٢٧٤.
(٣) انظر: المصدر السابق.
(٤) نزهة الطرف في علم الصرف، الميداني ص١١١-١١٢.
(٥) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٢٧٤.



ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الدفع إذا عدي بإلى اقتضى معنى الإنالة، نحو قوله تعالى: ﴿فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾[النساء: ٦].

وإذا عدي بعن؛ اقتضى معنى الحماية، نحو: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[الحج: ٣٨].
وقال: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ [الحج: ٤٠].
وقوله: ﴿لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ۝ مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾ [المعارج: ٢-٣].
أي: حام[(١)].

تبين لنا مما سبق أن الدلالة اللغوية للدفع تدل على عموم الدفع لكل ما يدفع أو يندفع، أما الدلالة الاصطلاحية للدفع فسوف نقتصر فيها على بعض تلك الدلالة العامة فتكون:

(دفع ما يلحق من الغير مما يعوق المسلم عن العمل للغاية التي خلق لأجلها، من كفر، وطغيان، وفساد، وشر، وإيذاء).

ويمكن أن يسمى ذلك (دفعًا)، كما يمكن تسميته كذلك (دفاعًا، ومدافعةً، وتدافعًا)، باعتبار أن كلًا من فريقي الحق والباطل يدفع الآخر.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]
قرأ نافع بألف وكسر الدال (دِفَاع)[(٢)]، على اعتبار أن كلاً من أهل الحق المصلحين، وأهل الباطل المفسدين يقاوم الآخر ويقاتله ويدافعه[(٣)].

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣١٦.
(٢) الكشف عن وجوه القراءات السبع، مكي بن أبي طالب ١/ ٣٠٤.
(٣) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٢/ ٤٩١.

الدفع في الاستعمال القرآني

وردت مادة (دفع) في القرآن الكريم (١٢) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ۝٦﴾ [النساء:٦]
الفعل المضارع	١	﴿۞ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج:٣٨]
فعل الأمر	٤	﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا﴾ [آل عمران:١٦٧]
المصدر	٤	﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ۝٢٥١﴾ [البقرة:٢٥١]
اسم الفاعل	٢	﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾ [الطور:٧-٨]

وجاء الدفع في الاستعمال القرآني بمعناه اللغوي، وهو: تنحية الشيء[٢]، ومما يجب التنبه له أن الدفع إذا عدي بـ(إلى) اقتضى معنى الإنالة، نحو قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ۝٦﴾ [النساء:٦].

وإذا عدي بـ(عن) اقتضى معنى الحماية، نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج:٣٨][٣].

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي ص ٢٦٠.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٢٨٨.
(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٢٦٠، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي ٢/ ١٨-١٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ الجهاد:

الجهاد لغة:

الجهاد: المبالغة واستفراغ الوسع في الحرب أو اللسان، أو ما أطاق من شيء، والاجتهاد والتجاهد: بذل الوسع والمجهود[١].

الجهاد اصطلاحًا:

بذل الجهد واستفراغه في مدافعة العدو[٢].

الصلة بين الجهاد والدفع:

جهاد الدفع نوع من أنواع الجهاد، والجهاد أعم صورًا.

قال الراغب: «والجهاد ثلاثة أضرب: مجاهدة العدو الظاهر، ومجاهدة الشيطان، ومجاهدة النفس.

وتدخل ثلاثتها في قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج: ٧٨].

وقوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٤١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٢].

والمجاهدة تكون باليد واللسان[٣].

٢ المحاجة:

المحاجة لغة:

والتحاج لغة: التخاصم، يقال: «حاجه محاجةً وحجاجًا: نازعه الحجة، وحجه يحجه حجًا: غلبه على حجته. وفي الحديث (فحج آدم موسى)[٤]، واحتج بالشيء: اتخذه حجةً»[٥].

---

(١) لسان العرب، ابن منظور ٣/ ١٣٤.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٠٨.
(٣) المصدر السابق ص ٢٠٨.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب القدر، باب تحاج آدم وموسى عند الله، رقم ٦١٢٤، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام، رقم ٤٧٩٣.
(٥) المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٢/ ٤٨٢.

المحاجة اصطلاحًا:

المحاجة إذا هي: مبادلة الخصم الحجة بالحجة، فهي مفاعلة من: حجه يحجه محاجة، والمفاعلة تكون من طرفين، كالمباراة والمباهاة والمباهلة والملاعنة ونحوها، فهي مبادلة الحجج بين خصمين، كل منهما متمسك بما معه، منافح عنه، ويحاول إقناع خصمه بما معه.

الصلة بين المحاجة والدفع:

المحاجة صورة من صور الدفع، كذلك للباطل وأهله، وهي من نوع التدافع؛ لأن كلًّا من الفريقين يحاول أن يدفع حجة الآخر ويبطلها.

أسباب الدفع

تحدث القرآن الكريم عن أسباب الدفع عند المؤمنين وعند الكافرين، وسوف نتناول في النقاط الآتية:

أولًا: أسباب الدفع عند المؤمنين:

لما كانت غاية المؤمنين هي عبادة الله تعالى، وامتثال أوامره كانت تلك الغاية هي المحرك الأول لهم في جميع أمور حياتهم؛ ومن ثم فإن أهم أسباب الدفع لديهم هي:

١. تعبيد الناس لرب العالمين وحده.

وقد كانت هذه الرسالة واضحة في جهاد الصحابة وفتوحاتهم المجيدة، فهذا ربعي بن عامر يحمل دعوة الإسلام للفرس، ويدخل على ملكهم، غير هياب، ولا وجل، «فقال له رستم: ما جاء بكم؟ فقال: الله ابتعثنا، وجاء بنا؛ لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله تعالى، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام؛ فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه»[(١)].

٢. نصرة الدين، وأن يكون الدين كله لله.

فالمؤمنون أمرهم الله تعالى أن يدفعوا الكفر وأهله؛ لئلا يكون لهم العلو في الأرض؛ فيعبدوا الخلق لغير خالقهم؛ فأمر المؤمنين أن يجاهدوا الكافرين والمشركين؛ ليكون الدين كله لله، وتكون كلمة الله هي العليا؛ وكلمة الكافرين هي السفلى.

قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

وقال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: ٣٩].

وإذا صار الدين كله لله؛ ترتب على تحقيق ذلك كل الخير للعباد؛ مما سنكشف عنه في نتائج الدفع من حرية المعتقد، وحرية العبادة وأمكنتها، وإحقاق الحق، ورفع الظلم، وتمكين الحق وأهله، وخذلان الباطل وأهله.

ثانيًا: أسباب الدفع عند الكافرين:

إذا كانت أسباب الدفع عند المؤمنين تنطلق من منطلق إيمانهم وطاعتهم لله رب العالمين، وتحقيق عبوديته؛ فإن أسباب الدفع عند الكافرين تنطلق من منطلق كفرهم بالله، وسخطهم، وعداوتهم للمؤمنين به، ومحاولة ردتهم، وصدهم عن سبيل الله،

(١) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم والثلاثة الخلفاء، الحميري، ٢/ ٤٥٨.

وإفسادهم، وإشاعة الفاحشة بينهم.

ومن أهم تلك الأسباب:

١. محاولة إطفاء نور الله تعالى بإشاعة الكفر، وإفساد عقيدة المسلمين.

لعل هذا يعد من أعظم أسباب دفع الكافرين المؤمنين، وقد يبدو ذلك مستغربًا؛ إذ قد يظن البعض أنه لا فائدة من ورائه لهؤلاء الكافرين، ولكنه الحقد -أولًا وقبل كل شيء- هو الذي يحرك أعداء المسلمين في قتالهم، ودفعهم، ورغبتهم في القضاء عليهم، ومحاولة إطفاء نور الله، ومحو كل مظاهر الإيمان وسلوكيات الطهر التي تذكرهم بجرائمهم، وتنكبهم عن سواء الصراط؛ ثم تأتي بعد ذلك بقية الأسباب من الاستحواذ على ثرواتهم ومقدراتهم وغير ذلك.

وقد أخبر سبحانه عن مدى عداوة هؤلاء الكافرين للمؤمنين، كاشفًا عن أسباب قتالهم إياهم، مبينًا أن أعظم تلك الأسباب هو إفساد المؤمنين بدفعهم عن الإيمان إلى الكفر، وأن يردوهم عن دينهم حسدًا وبغيًا.

فقال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

وأخبر تعالى عن مكنون صدورهم في ذلك، وأن عداوتهم للمؤمنين ما هي إلا بغي وحسد فقال: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ۖ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩].

كما بين سبحانه أنهم ما كفروا إلا بعد معرفتهم بالحق واستيقانهم به، وأنهم ما فعلوا ذلك إلا بغيًا على أنبياء الله تعالى وأتباعهم من المؤمنين.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۚ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة: ٨٩-٩٠].

وهم في ذلك كله يحاولون جاهدين أن يطفئوا نور الله بأفواههم؛ حتى لا يكون ثم إيمان، ولا مؤمنون.

وهذا واضح بينٌ كشف الله تعالى عنه في كتابه، ووضحه للمؤمنين؛ حتى يعرفوا

أعداءهم، فقال سبحانه: ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩-٣٣].

فأمر سبحانه بقتالهم؛ لدفع فسادهم وكفرهم وعقائدهم الباطلة في عبادة غير الله تعالى، كعزير والمسيح عليه السلام حيث يريدون إطفاء نور الإيمان الواضح المبين الذي أرسل الله به رسله أجمعين، ودعوة الناس للكفر الواضح المبين من عبادة غير رب العالمين.

وبين في مقابل ذلك أنه ما بعث رسوله صلى الله عليه وسلم إلا لدفع الكفر وأهله؛ ليظهر دين الحق على الدين كله، ولو كره المشركون.

وجاء نحو ذلك في سورة الصف كذلك، فقال تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الصف: ٨-١١].

حيث أخبر سبحانه عن أسباب وغايات الدفع عند هؤلاء الكافرين، ثم أتبعها بتهييج المؤمنين على دفع منكرهم وباطلهم؛ جهادًا في سبيل الله.

٢. إفساد أخلاق المؤمنين.

من الثابت لدى أهل الإسلام ارتباط الأخلاق بالعقيدة الصحيحة؛ فالإيمان بالله ورسوله هو القاعدة والأساس الذي تنطلق منه جميع الأعمال الصالحة عند المسلم؛ وذلك أن الدين كله عقيدة وشريعة وأخلاقًا وآدابًا تنتظمه منظومة واحدة، هي منظومة العبودية والخضوع لله رب العالمين.

وهذا هو ما يؤكده النبي صلى الله عليه وسلم حيث يقول: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان

يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت)[1].

فنراه صلى الله عليه وسلم يربط ربطًا وثيقًا بين الأخلاق والإيمان بالله واليوم الآخر، ومن ثم إذا ما انهارت العقيدة -وهي الحصن الحصين للإسلام، وهي واسطة عقد نظامه-؛ لا شك ينهار هذا البناء، وينفرط عقد هذا النظام، ومن ثم جهد أعداء الإسلام على إحداث خلل كبير في أمر العقيدة عند كثير من الناس، في كثير من المجتمعات الإسلامية؛ مما يؤدي تلقائيًا إلى تردي أخلاق هؤلاء الذين أصابهم الخلل في عقيدتهم، ومن ثم ينهار بنيان المجتمع بكامله.

وليس عجبًا أن يربط الله تعالى في سورة من قصار السور بين الوصف بالتكذيب بالدين، وبين القسوة على اليتيم والمسكين، ليلفتنا إلى أثر العقيدة في سلامة الخلق.

قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون:٦-٧].

إذن فالإيمان بالدين، وهو الحساب والجزاء، وإكرام اليتيم، والحض على طعام المسكين، والمحافظة على الصلاة في أوقاتها، وتقديم الماعون لأهله.. كل ذلك تشمله منظومة واحدة متكاملة، ويرجع إلى أصل واحد، وهو الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر.

ولذلك تجد أغلب الأوامر والنواهي التي تدعو إلى جميل الخصال، وتنهى عن رذيل الأحوال، تصدر كلها بنداء الإيمان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، وذلك كما في سورة الحجرات على سبيل المثال.

وقد أصبحت أغلب المجتمعات اليوم -بفعل دفع أعداء الإسلام بكثير من صور الإفساد الأخلاقي- تعج بمظاهر الفظاظة والغلظة والقساوة وسوء الأخلاق، وصار من الأمور المألوفة في شوارع المسلمين وسككهم، ما يؤذي الآذان من السب والقذف والصخب والفحش، وما يؤذي الأعين من مظاهر التبرج والسفور والسكر والعهر والاختلاط المحرم، وكثرة الأذى في سبيل الناس وطرقهم، ورؤية المدمنين من متعاطي الخمور والمخدرات، وما يزكم الأنوف من دخان التبغ وغيره، وما يؤذي الضمائر والأنفس من فساد المعاملات وانتشار الرشوة والربا والميسر، وأكل أموال الناس بالباطل، وما يدمي القلوب من العقوق وقطع الأرحام وتفشي التدابر والتقاطع بين

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، ٨/ ١١، رقم ٥٧٨٥.

الأهل والجيران وسائر الإخوان.

كل ذلك يستدعي ضرورة المسارعة للدفع المقابل؛ لإنقاذ مجتمعات المسلمين من براثن ذلك الفساد الخلقي، المؤذن بخراب تلك المجتمعات وانهيارها مما أشاعه أعداؤهم في مجتمعات المسلمين، لا يألونهم خبالًا؛ لأنهم دائمًا يودون ما يعنتهم، ويوقعهم في الموبقات والمهالك.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾ [آل عمران: ١١٨-١٢٠].

كما أخبر أن أعظم تلك الأسباب أيضًا هو إفساد المؤمنين بإشاعة الفواحش فيهم، ودعوتهم للميل عن دينهم الحق الذي يأمرهم بزكاة نفوسهم، واستقامة أخلاقهم إلى سبيل الفواحش والشهوات.

فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٢٧].

ومن ثم توعدهم الله تعالى على ذلك بعذاب أليم، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

٣. الحرص على التحكم في العباد ومقدرات الشعوب واستحواذ ملذات الحياة الدنيا.

الكافر لا يؤمن بالآخرة؛ ومن ثم فهو لا يطلب إلا الحياة الدنيا، ولا يريد سواها، وفي سبيل ذلك يدافع ويقاتل؛ فقد زينت له بشهواتها وأعراضها الزائلة؛ فتكالب عليها، وقاتل لأجلها، ولم ير لأحد حق فيها سواه.

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [البقرة: ٢١٢].

وقال سبحانه: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

وفي سبيل تحقيق تلك الشهوات والمآرب الدنيئة يطغى ويستكبر، ويعيث في الأرض فسادًا، والله لا يحب الفساد.

قال سبحانه في المنافقين الذين أظهروا الإيمان، ويبطنون الكفر والعداوة للمؤمنين، ويمالئون عليهم أعداءهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٤-٢٠٦].

وقال تعالى مبينًا سبب إفساد الكافرين في الأرض، وأنه يرجع إلى طغيانهم واستكبارهم: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ٦-١٤].

وهؤلاء الكافرون يرون أنه ليس لأحد حق في هذه الحياة الدنيا وطيباتها سواهم، ومن ثم فهم يزاحمون المؤمنين فيها ويدفعونهم عنها، والله تعالى ما أحل هذه الطيبات إلا للمؤمنين؛ ولذا يجعلها خالصة لهم يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢].

مجالات الدفع

أولًا: الكفر والإيمان:

لا يزال الصراع والتدافع بين الكفر والإيمان منذ بدء الخليقة مستمرًا حتى يرث الله الأرض ومن عليها؛ وذلك منذ نشأت العداوة بين إبليس وآدم، وقد حذر الله آدم وزوجه، ومن ثم ذريتهما من بعدهما من عداوة إبليس؛ فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١١٥-١٢٣].

فمن ثم تأسست العداوة في الأرض بين إبليس وذريته، ومن أعانه من شياطين الإنس والجن من جهة، وبين آدم وذريته ممن أطاع الله تعالى، واتبع سبيل المرسلين من جهة

أخرى.

لا جرم من أن يعين إبليس وجنده أهل الكفر والضلال من بني آدم المفسدين في الأرض، من الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله، من نعتهم الله بشياطين الإنس فقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢-١١٣].

ومن ثم صار الناس حزبين لا ثالث لهما: حزب الله، وحزب الشيطان، وقد وصف الله حال الفريقين بقوله: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ١٩-٢٢].

ودارت رحى الحرب بين الفريقين؛ فاقتتلوا حيث تدافع الفريقان و﴿ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وأخبر تعالى أن قتال هؤلاء الأعداء الكافرين لا يزال مستمرًا متجددًا إلى يوم القيامة، كما أخبر عن غاية هؤلاء من قتالهم المؤمنين فقال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

كما أيأس الله تعالى المؤمنين من أن يبلغوا رضا أعدائهم، أو أن يسالموهم؛ فيكفوا دفعهم وأذاهم الدائم لهم؛ فهم لا يرضون عن المؤمنين أبدًا حتى يتبعوا ملتهم الباطلة، ولا يزالون يقاتلونهم حتى يردوهم عن دينهم إن استطاعوا.

قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا

﴿النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

ثانيًا: الخير والشر:

لقد خلق الله الإنسان، وركب فيه نوازع الخير والشر، وخيره بين اتباع أي منها؛ ولكنه رتب الفلاح والنجاح على تزكية المرء لنفسه إذا عمل بالخير ودعا إليه، ورتب الخيبة والخسران على تدنيس النفس بالشر إذا عمل به ودعا إليه؛ فقال سبحانه: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٧-١٠].

وكما يتصارع ويتدافع أهل الإيمان وأهل الكفر منذ بداية الخليقة؛ يتصارع كذلك دعاة الخير ودعاة الشر كذلك، ودعاة الخير الحقيقيون هم المؤمنون، كما أن دعاة الشر هم الكافرون.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۞ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۞ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۞ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ۞ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ۞ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۞ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۞ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ۞ وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۞ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ۞ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۞ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۞ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۞ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۞ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ۞ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۞ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ [المعارج: ١٩-٣٥].

فالمؤمنون المصلون هم أهل الخير ﴿فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۞ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾، ﴿لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۞ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾، وأنهم ﴿لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾، وأنهم ﴿بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾.

والكافرون المكذبون بيوم الدين بعكس ذلك، هم أهل الشر ترى أحدهم ﴿هَلُوعًا ۞ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۞ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾[المعارج: ١٩-٢١]، ﴿يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۞ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الماعون: ٢-٣].

ومن ثم توعد الله أهل الخير المؤمنين المصلين أن يتصفوا ببعض صفات أهل الشر المكذبين فقال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۞ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۞ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۞ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٤-٧].

ولما كان المؤمنون هم أهل الخير؛ دعاهم الله تعالى ليس إلى مجرد فعله؛ بل أمرهم مع ذلك بدعوة الناس إليه، فقال تعالى مخاطبًا المؤمنين: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ

﴿يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

فالمؤمنون هم دعاة الخير الحقيقيون، أو هم الجديرون بذلك؛ لأن الإيمان بالله تعالى يأخذ بيد العبد إلى الخير كله، ولا يزال المرء على خصلة من الخير؛ حتى تأخذ بناصيته إلى البر كله، ولا يزال المرء على خصلة من الشر؛ حتى تأخذ بناصيته إلى الشر كله.

وعن عبد الله، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا)[1].

ويتصارع الفريقان أهل الخير وأهل الشر في إرادة الخير أو الشر بالناس، ونشره بينهم؛ فالمؤمنون أهل الخير ممتثلون أمر ربهم لهم في ذلك بدعوة الناس إلى الخير، وحثهم عليه ونشره بينهم، والكافرون أهل الشر عبيد الشهوات، همهم ورغبتهم أن يحولوا المجتمعات إلى مجتمعات تائهة، ينسلخ فيها الأفراد حتى من ثوب الإنسانية؛ لينحطوا إلى درك من البهيمية، مطلق من كل عقال ديني أو أخلاقي أو اجتماعي، متدثرين بشعارات خداعة من الحرية والتمدن والتحضر وغيرها من شعاراتهم الكاذبة، والتي هي في حقيقتها ليست سوى أسماء أخرى للشهوة المرادة في الآية[2].

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].

وهم لا يريدون سوى إشاعة الفواحش والفجور في مجتمع المؤمنين بشتى الصور والوسائل؛ ومن ثم توعدهم الله تعالى على ذلك بعذاب أليم، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

وانظر كيف صور سبحانه حال عباد الرحمن، وأثنى عليهم، ووعدهم على ذلك الجنة، بادئًا في الثناء عليهم بحسن أخلاقهم مع الخلق، وجميل أوصافهم في معاملاتهم وسلوكهم، مقارنًا بينهم وبين

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب قوله تعالى: (يا أيها الذين أمنو اتقوا الله وكونوا مع الصادقين)، ٨/ ٢٥، رقم ٦٠٩٤، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، ٤/ ٢٠١٣، رقم ٢٦٠٧.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٦٣١.

أهل الشر الكافرين، الذين أبوا السجود لأرحم الراحمين، فقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ الآيات، إلى قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٠- ٧٦].

فعباد الرحمن هم خير الناس للناس، هينون لينون، بعيدون عن كل لغو ولغط وجدال وشقاق، قال سبحانه: ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

ويتصارع الفريقان إلى يوم القيامة: فريق يحب الخير للناس ويدعو إليه، وهم الرسل وأتباع الرسل، وفريق يريد الشر للناس ويدعو إليه، وهم أولياء الشيطان وأعداء الرسل.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢-١١٣].

ثالثًا: الحق والباطل:

قضى الله بحكمته وعدله أن يخلق الناس فريقين: أهل حق، وأهل باطل، أهل هدى، وأصحاب ضلالة ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠].

والقضية محسومة، أهل الإيمان هم أهل الحق؛ ﴿ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد: ٢].

والذين كفروا هم أهل الباطل، وقد كتب الله الفوز والسعادة وصلاح البال للمؤمنين أهل الحق، وكتب الخزي والضلال وحبوط الأعمال للباطل وأهله، وأوجب على المؤمنين مدافعتهم بكل ما أوتوا من قوة؛ حتى إذا لقوهم في الحرب فليس لهم إلا القتال وضرب الرقاب، ثم شد الوثاق.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ

مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [محمد: ١-٩].

والحق هو سلاح المؤمنين في دعوتهم إلى الله، كما أن الباطل هو حجة الكافرين الداحضة، يجادلون بها؛ ليدحضوا الحق.

قال تعالى: ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَٰدَلُوا بِالْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [غافر: ٤-٥].

هكذا قضت سنته سبحانه أن يتصارع الحق والباطل، ويتدافعان إلى يوم القيامة، ولكنه كتب الغلبة والنصر والبقاء للحق وأهله، وضرب لكل مثلًا؛ فقال سبحانه: ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَٰطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد: ١٧].

فالباطل لا يبقى ولا يدوم، بل الحق هو الذي يدفعه ويدمغه ويقضي عليه، فهو لا يثبت أمام الحق، وصدق سبحانه القائل: ﴿ وَقُلْ جَآءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَٰطِلُ إِنَّ الْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١].

وقال سبحانه: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٨].

وقال سبحانه: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّٰمُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ [سبأ: ٤٨-٤٩].

سنة ثابتة إذًا أن تكون الغلبة للحق وأهله، وأن يندحر الباطل وأهله، ولم لا، و﴿ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ ﴾ [الحج: ٦٢].

و﴿ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَٰطِلُ ﴾

و﴿ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾!؟

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَٰطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ [الحج: ٦٢].

ومن ثم فلا بد من خسران الباطل وأهله، ولو كان ذلك في الجولة الأخيرة؛ فهم خاسرون لا محالة، بهذا قضت سنة الله تعالى: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٢].

رابعًا: الظلم والعدل:

صراع الظلم والعدل ليس مقصورًا على صراع الكافرين مع أهل الإيمان -وإن كانوا هم أكثر الناس ظلمًا-، وإنما قد يقع من بعض الفسقة والمبتدعة والعصاة من أهل الإيمان.

قال الإمام ابن تيمية رحمه الله: «إن الإمام أحمد دعا للخليفة وغيره، ممن ضربه وحبسه، واستغفر لهم، وحللهم مما فعلوه به من الظلم والدعاء إلى القول الذي هو كفر، ولو كانوا مرتدين عن الإسلام؛ لم يجز الاستغفار لهم؛ فإن الاستغفار للكفار لا يجوز بالكتاب والسنة والإجماع»[(١)].

والحق أن الظلم مذموم من جميع الخلق -مؤمنهم وكافرهم-، بل يلحق المؤمن بذلك أعظم الذم؛ لأن الإيمان ينافي الظلم ويناقضه؛ إذ مبناه على الحق والعدل، و«جماع الحسنات العدل، وجماع السيئات الظلم»[(٢)].

وإذا دب الظلم في ملك؛ أفسده وأذهبه، قال الإمام ابن تيمية رحمه الله: «وأمور الناس تستقيم في الدنيا مع العدل، الذي فيه الاشتراك في أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق -وإن لم تشترك في إثم-، ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة، ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام، فالباغي يصرع في الدنيا -وإن كان مغفورًا له مرحومًا في الآخرة-، وذلك أن العدل نظام كل شيء، فإذا أقيم أمر الدنيا بعدل؛ قامت -وإن لم يكن لصاحبها في الآخرة من خلاق-، ومتى لم تقم بعدل؛ لم تقم -وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة-، فالنفس فيها داعية الظلم لغيرها بالعلو عليه والحسد له، والتعدي عليه في حقه»[(٣)].

وليس معنى ذلك أن يخرج الناس على حكامهم إذا ما أقاموا فيهم كتاب الله وسنة رسوله، أو دون نظر في العواقب، وما يتبع ذلك من المفاسد العظام، «وقد قيل: ستون سنةً بإمامٍ ظالمٍ، خيرٌ من ليلةٍ واحدةٍ بلا إمام»[(٤)].

ولما كان الظلم والبغي قد يقع من أهل الإيمان؛ حتى يحصل الاقتتال بين الطائفتين من المؤمنين أمر الله تعالى أهل العدل والإصلاح دفع هذا الظلم والبغي، بالعمل على الإصلاح بين الطائفتين، ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾ [الحجرات: ٩]؛ فقد

(١) الحيدة، عبد العزيز الكناني ص ١٥.
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ١/ ٨٦.
(٣) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ابن تيمية ص ٢٩.
(٤) شرح الطحاوية، ابن أبي العز ٢/ ٥١٨.

أمر بقتال ﴿ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ﴾؛ وجب الإصلاح ﴿بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ﴾ والقسط.

قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

وقد تكلم العلماء في أحكام دفع البغي ومقاتلة البغاة تفصيلًا في كتب الأحكام -وليس هذا مقامه-، وتكلموا في حكم دفع الصائل الباغي، قال الإمام ابن تيمية رحمه الله: «وأما دفع الصائل على النفس الذي يريد قتل المعصوم بغير حق إذا لم يكن القتال في فتنة فهل يجب دفعه؟ فيه قولان هما روايتان عن أحمد: أن الممكن ليس بفاعل، بل ولو أراد مريد قتله؛ وجب عليه ذلك، كما يجب عليه الأكل من الميتة عند المخمصة، فكما يحرم عليه قتل نفسه؛ يجب عليه فعل ما لا تبقى النفس إلا به من طعام وشراب ودفع ضرر بلباس ونحو ذلك، فإذا أمكنه الهرب ونحوه؛ وجب عليه ذلك، وأما إذا كان دفع الصائل عن نفسه يحتاج إلى قتال الصائل فهنا فيه محذور آخر -وإن كان جائزًا- وهو قتل الآخر؛ فلهذا خرج الخلاف في وجوب دفعه عن نفسه»(١).

وقد أمر الحق سبحانه بإقامة العدل والحق والقسط والميزان في كل شيء؛ فقال سبحانه: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ [الحديد: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ﴾ [الشورى: ١٧].

وقال تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾[الأنعام: ١٥٢].

وقال سبحانه: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧-٩].

وقد أمر بذلك الرسل أقوامهم.

قال سبحانه: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥].

وقد توعد المطففين في الكيل والميزان

(١) الاستقامة، ابن تيمية ٢/ ٣٢٧.

ظلمًا وبغيًا؛ ليأخذوا ما ليس له بحق، قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [المطففين: ١-١١].

فتوعدهم ربهم بعذاب عظيم على ذلك الظلم المبين، وأتبع ذلك ببيان جزاء الذين يكذبون بيوم الدين، لما كانوا هم أكثر الناس ظلمًا لغيرهم.

خامسًا: الفساد والصلاح:

أمر الله عباده بطاعته التي فيها صلاح دنياهم وآخرتهم، ونهاهم عن الإفساد في الأرض بالعمل بغير شريعته، فقال سبحانه: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٥٥ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥-٥٦].

وقال تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

وامتدح الذين يصلحون، وينهون عن الفساد في الأرض فقال: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ۝١١٦ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٦-١١٧].

التدافع والصراع بين الفساد والصلاح صورة من صور سنة التدافع، وهو ليس مقصورًا على التدافع بين الكافرين والمؤمنين؛ إذ إن صدور الفساد ليس مقصورًا على الكافرين؛ بل قد يقع من بعض المسلمين وممن يندس فيهم من المنافقين كذلك، وإن كان أكثر ما يقع إنما يقع من الكافرين ومن تولاهم من المنافقين.

وقضت سنة الله الكونية والشرعية أن يقع التدافع بين أنبياء الله ورسله وأتباعهم من جهة، وبين أقوامهم من الكافرين المعاندين المحادين لله ورسله من جهة أخرى، وهذا ما حكاه لنا القرآن عن سائر رسل الله وأنبيائه.

قال تعالى عن التدافع بين شعيب وقومه: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ۝٨٤ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ

﴿بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ۝ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ۝ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٤-٨٨].

فقد أمرهم بترك الإفساد في الأرض بنقص المكيال والميزان، وبخس الناس أشياءهم، ونهاهم أن يعيثوا في الأرض مفسدين، وبين لهم أنه ما يريد بذلك إلا الإصلاح بفعل ما فيه نفعهم وصلاح أمرهم، لكنهم أبوا إلا شقاقه ومدافعته عن دعوته، وتبليغ رسالة ربه؛ فحذرهم مغبة ذلك الشقاق بقوله: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ۝ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٨٩-٩٠].

ولكن ما زادهم ذلك إلا شقاقًا وتعنتًا ومدافعة لشعيب عن تبليغ رسالة ربه، وتهديده بالرجم لولا رهطه: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١].

فذكرهم شعيب بالله، وقد نسوه واتخذوه وراءهم ظهريًا، وبين لهم أنه ثابت على دعوته غير آبه بتهديدهم، متوكل على ربه: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ۝ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود: ٩٢-٩٣].

وقد فصل الله تعالى فسادهم وإفسادهم في الأرض وصدهم من آمن عن سبيل الله في سورة الأعراف فقال: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥-٨٦].

ومن أعظم الناس فسادًا المنافقون، وقد أطال القرآن في بيان أحوالهم وفسادهم في عديد من سوره، فقال سبحانه في سورة البقرة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ۝١٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٨-١٢].

وأمر الله نبيه والمؤمنين بدفعهم بما يناسب حال الدولة الإسلامية، وواقع المسلمين من القوة والضعف وغير ذلك، ففي بداية العهد المدني أمر الله تعالى رسوله بدفع أذاهم بالإعراض عنهم تارة، أو بالإعراض عنهم مع الموعظة لهم.

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١].

وقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣].

وقد اختلف الحال بعد استقرار دولة المسلمين وظهورها في المدينة آخر الأمر؛ فجاء الأمر بمدافعتهم بقتالهم وجهادهم جهادًا كبيرًا بكل وسائل الدفع والمجاهدة، وجعل ذلك سنة ماضية إلى يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٠ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ۝٦١ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠-٦٢].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التحريم: ٩].

وسائل الدفع

تختلف صور الدفع ووسائله بين المؤمنين والكافرين والمنافقين؛ فيعتمد الكافرون والمنافقون كل وسيلة من الوسائل غير متقيدين لله بطاعة ولا شريعة؛ فيستبيحون إثارة الفتن والقلاقل، وإثارة الشهوات، وإشاعة الفواحش، ورذيل الأخلاق، واستباحة القتل والدماء وصنوف التعذيب بغير جريرة من المؤمنين مما فصله القرآن في مواضع كثيرة.

أما المؤمنون فمتقيدون بشرع ربهم، منطلقون في كل أعمالهم من قاعدة إيمانهم، فلا فحش ولا غدر ولا رذيلة، ولا يأتون إلا ما شرع الله وشرع رسوله صلى الله عليه وسلم.

أولًا: وسائل الدفع لدى الكافرين والمنافقين:

١ . الدفع بإثارة اللغط والتشويش.

إثارة اللغط والتشويش على الدعوة الإسلامية هي دأب الكافرين والمنافقين في كل زمان ومكان، إما بالتشويش باللغو الساذج المتعمد قديمًا، وإما بالتشويش باللغو الذي تفنن فيه أعداء الإسلام في تقديمه في صور عديدة حديثًا للتشويش على صوت الحق، إما في صورة الفن الهابط الرخيص الذي يؤجج الشهوات، أو البرامج المشككة في الدين التي تثير الشبهات في صور ووسائل عديدة، يتفنن أعداء الإسلام في اختراعها يومًا بعد يوم.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

وهم في ذلك يحاولون عبثًا ﴿أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٣٢ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٢- ٣٣].

ونستطيع القول: إن أعداء الإسلام قد كشروا عن أنيابهم بكل صور العداوة للإسلام وأهله منذ اللحظة الأولى التي انطلقت فيها دعوة النبي صلى الله عليه وسلم.

«قال أبو عبيدة، عن عبد الله بن مسعود: ما زال النبي صلى الله عليه وسلم مستخفيًا، حتى نزلت: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤]. فخرج هو وأصحابه»[(١)].

كانت هذه الصيحة من النبي صلى الله عليه وسلم بمثابة الإعلان عن هذه الدعوة، فبدأ ضعفاء الناس يتسللون إليها، ومنذ ذلك اليوم أعلنت العداوة السافرة بين حزب

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ١٤/ ٤٧.

الموحدين وحزب المشركين، فعملت قريش على مجابهة هذه الدعوة بأساليب شتى، منها:

- السخرية والتحقير، والاستهزاء والتكذيب للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين.
- إثارة الشبهات والدعايات الكاذبة.
- الحيلولة بين الناس وبين سماعهم القرآن.
- اضطهاد المؤمنين وتعذيبهم.
- الاعتداءات على النبي صلى الله عليه وسلم.
- مساومة النبي صلى الله عليه وسلم على ترك دعوته.
- مقاطعتهم للمسلمين ثلاثة أعوام في شعب أبي طالب[١].

٢ . الدفع بإثارة الفتن والشبهات.

وهذا هو لون من ألوان الدفع بالمكر والخديعة، وهو ما يهدف إليه الكافرون ومنافقو أهل الكتاب الذين دخلوا في الإسلام نفاقًا وابتغاء الفتنة للمؤمنين.

قال تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [آل عمران: ٧٢-٧٤].

«ومعنى الآية أن اليهود قال بعضهم لبعض: أظهروا الإيمان بمحمد في أول النهار، ثم اكفروا به آخره؛ فإنكم إذا فعلتم ذلك ظهر لمن يتبعه ارتياب في دينه، فيرجعون عن دينه إلى دينكم، ويقولون: إن أهل الكتاب أعلم به منا»[٢].

وقال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢].

فهذه الآية وما بعدها من الآيات إنما نزلت لتعليم المؤمنين، كيف يحاورون الطاعنين على الدين، وكيف يردون شبهاتهم، حينما استغلوا حادث تحويل القبلة لتشكيك المسلمين في عقيدتهم.

قال الإمام ابن كثير: «قيل: المراد بالسفهاء هاهنا مشركو العرب، قاله الزجاج، وقيل: أحبار يهود، قاله مجاهد، وقيل: المنافقون، قاله السدي، والآية عامة في هؤلاء كلهم، والله أعلم»[٣].

٣ . الدفع بإثارة الشهوات وإشاعة الفواحش.

---

(١) انظر: الرحيق المختوم ص ١٠٠-١٤٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ١٠٥.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٥٣.

من أخبث صور الدفع لدى الكافرين الدفع بإفساد المؤمنين بإشاعة الفواحش فيهم ودعوتهم للميل عن دينهم الحق الذي يأمرهم بزكاة نفوسهم واستقامة أخلاقهم إلى سبيل الفواحش والشهوات.

فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].

ومن ثم توعدهم الله تعالى على ذلك بعذاب أليم، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

٤. الدفع بإسماع المؤمنين الأذى والطعن فيهم.

وهذه أيضًا صورة من صور الدفع التي حكاها القرآن عن المشركين مما مر به النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وقد كانت سنة النبي صلى الله عليه وسلم خير تطبيق لحكمة الدعوة في دفع هذا الأمر؛ امتثالًا لتوجيهات القرآن الكريم في ذلك، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ينالهم الأذى من المشركين في بادئ الأمر، وكانت التوجيهات القرآنية تأمرهم بدفع ذلك بالعفو والصفح بما يناسب تلك المرحلة ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [البقرة: ١٠٩].

قال تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

ومن ذلك الأذى اللفظي الذي أسمعه الكافرون والمنافقون للمؤمنين فيما لقيه أتباع الرسل من أقوامهم في كل زمان ومكان، نعتهم إياهم بالسفهاء أو الأراذل.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة: ١٣-١٤].

ففي هذه الآيات يحكي لنا القرآن الكريم ما يدور بين المؤمنين والمنافقين من حوارات حول الإيمان الحقيقي المبني على اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ولزوم منهجه، وهو ما عليه المؤمنون الصادقون، كما يحكي لنا كذلك جواب هؤلاء المنافقين للمؤمنين، وما يشتمل عليه من سخرية واستهزاء وأنفة من اتباع ما عليه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ولزوم سبيل المؤمنين.

«وإنما عنى المنافقون بقيلهم: أنؤمن كما آمن السفهاء -إذ دعوا إلى التصديق بمحمد صلى الله عليه وسلم، وبما جاء به من عند الله، والإقرار بالبعث، فقيل لهم: آمنوا كما

آمن الناس- أصحاب محمدٍ وأتباعه من المؤمنين المصدقين به، من أهل الإيمان واليقين، والتصديق بالله، وبما افترض عليهم على لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وفي كتابه، وباليوم الآخر؛ فقالوا إجابة لقائل ذلك لهم: أنؤمن كما آمن أهل الجهل، ونصدق بمحمد صلى الله عليه وسلم، كما صدق به هؤلاء الذين لا عقول لهم ولا أفهام؟»[1].

بل زادوا على ذلك بنعت الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه بالسحر والجنون والضلالة والسفاهة وغير ذلك، والآيات في ذلك كثيرة معلومة.

بل أعظم من ذلك تطاولوا على عرض النبي صلى الله عليه وسلم إفكًا وزورًا، كل ذلك لإضعاف المؤمنين، وتوهين عزائمهم.

٥. الدفع بالسخرية من المؤمنين.

من وسائل الدفع لدى الكافرين التي يريدون بها إضعاف عزائم المؤمنين السخرية الدائمة من المؤمنين، ومما هم عليه من الحق والهدى؛ بل السخرية من رموزهم وقادتهم، فلا يزال الكافرون قديمًا وحديثًا يسخرون من الأنبياء والصالحين، ويصورونهم في صورة قبيحة منكرة مخالفة لحقيقتهم الناصعة؛ حتى صار ذلك سنة ثابتة مع جميع المرسلين.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١٠ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١٠-١١].

وقد كان هذا دأب المنافقين كذلك.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩].

وقديمًا سخر الكافرون من نوح عليه السلام، وحكى القرآن سخريتهم هذه فقال: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ۝٣٨ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود: ٣٨-٣٩].

ومن ذلك استهزاء بني إسرائيل بنبيهم موسى عليه السلام فيما حكاه الله تعالى عنهم: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧].

فالحقيقة أنهم هم الذين يستهزئون بنبي الله عليه السلام؛ إذ ينسبون إليه الاستهزاء بهم فيما يبلغ من كلام ربه.

(١) جامع البيان، الطبري ١/ ٢٩٣.

ومن حوار الاستخفاف: استخفاف فرعون بقومه في حواره إياهم وتعنته فيما اشترطه في نبي الله موسى عليه السلام من التحلي بمظاهر الزخرف والزينة الفارغة.

قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥١-٥٤].

وقد سخر المشركون من النبي صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الصافات: ١٢-١٧].

وأمثلته كثيرة في القرآن، منها ما حكاه القرآن من حوار المشركين للنبي صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤١-٤٢].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِي ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ [سبأ: ٧-٨].

قال الألوسي: «أخرجوا قولهم: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ﴾ [سبأ:٧] مخرج الظن والسخرية متجاهلين برسول الله صلى الله عليه وسلم، وبكلامه من إثبات الحشر والنشر، وعقبوه بقولهم: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، أضربوا عنه إلى ما هو أبلغ منه ترقيًا، من الأهون إلى الأغلظ من نسبة الجنون إليه، وحاشاه صلى الله عليه وسلم، فكأنهم قالوا: دعوا حديث الافتراء؛ فإن ههنا ما هو أطم منه؛ لأن العاقل كيف يحدث بإنشاء خلق جديد بعد الرفات والتراب»[1].

ولا تزال محاولات الاستهزاء والسخرية بالأنبياء والرسل ورموز الدين الحق مستمرة إلى يومنا هذا، وسوف تستمر إلى قيام الساعة؛ لأنها من صور تلك السنة الماضية سنة التدافع بين الحق والباطل.

٦. الدفع بالمبالغة في العدة المادية.

يعتمد الكافرون والمنافقون في دفعهم للمؤمنين على الأسباب المادية البحتة؛ وذلك أمر بدهي؛ حيث إنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر؛ ولأنهم لا ينتظرون عونًا ولا مددًا من الله تعالى؛ تراهم يبالغون في

(١) روح المعاني، الألوسي ١٦/ ٢٦٠.

إعداد العدة المادية إلى أبعد الحدود؛ وقد أخبر الله عن المنافقين الذين يبطنون الكفر بقوله: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة: ٤٦-٤٨].

٧. الدفع بالمبالغة في العدة البشرية.

ويتفرع مما سبق من عدم الإيمان والتعويل على الأسباب المادية: المبالغة في الحشد، وإعداد العدة البشرية -مهما كانت قوتهم وسلطانهم-؛ لما يسيطر عليهم من هلع وفزع وحذر شديد.

قال تعالى عن فرعون وحشده السحرة لمواجهة موسى عليه السلام: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٥٣-٥٦].

«يقول تعالى ذكره: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ﴾ من يحشر له جنده وقومه»[1].

ولأن أعداء الحق يعتمدون في دفعهم على الأسباب المادية وقوة العدد؛ ونظرًا لكثرة الباطل وأهله؛ فهم يغترون بتلك الكثرة، ويعولون عليها، ولكن: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٤-٤٥].

ومع هذا الحشد والجمع من الكافرين، لا يسع المؤمنين إلا الاعتصام بالله، والاحتماء به، واللجوء إليه.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

٨. الدفع بالتحالفات السياسية.

ويتفرع مما سبق من عدم الإيمان والتعويل على المبالغة في الحشد، وإعداد العدة البشرية: عقد التحالفات السياسية لمدافعة الإسلام وأهله؛ فيجمعون لذلك أحزابهم وحلفاءهم.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب:

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٣٥٠.

٩-١١].

«عن ابن إسحاق، قال: ثني يزيد بن رومان، في قول الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾، والجنود: قريش وغطفان وبنو قريظة، وكانت الجنود التي أرسل الله عليهم مع الريح: الملائكة»[١].

٩. الدفع بالمقاطعة الاقتصادية.

من وسائل الدفع لدى الكافرين للمؤمنين ما حكته كتب السيرة من المقاطعة الاقتصادية والاجتماعية للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وحصارهم في شعب أبي طالب؛ وذلك أنه: «حين بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرسالة آذاه قومه وهموا به، فقامت بنو هاشم وبنو المطلب؛ مسلمهم وكافرهم، دونه، وأبوا أن يسلموه، فلما عرفت قريشٌ أن لا سبيل إلى محمدٍ صلى الله عليه وسلم معهم اجتمعوا على أن يكتبوا فيما بينهم على بني هاشمٍ وبني المطلب أن لا ينكحوهم ولا ينكحوا إليهم، ولا يبايعوهم ولا يبتاعوا منهم.

وعمد أبو طالبٍ فأدخلهم الشعب شعب أبي طالبٍ في ناحيةٍ من مكة، وأقامت قريشٌ على ذلك من أمرهم في بني هاشم وبني المطلب سنتين أو ثلاثًا، حتى جهدوا جهدًا شديدًا، ثم إن الله تعالى برحمته أرسل على صحيفة قريشٍ الأرضة فلم تدع فيها اسمًا لله إلا أكلته، وبقي فيها الظلم والقطيعة والبهتان، وأخبر بذلك رسوله، وأخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا طالبٍ، واستنصر به أبو طالبٍ على قومه»[٢].

وواضح من هذه المقاطعة أن هدفها هو إرغام المسلمين على التراجع عن دينهم وعقيدتهم، أو على الأقل إضعافهم، ومحاصرتهم؛ لئلا ينتشر دينهم؛ لما رأوا من تأثير الدعوة الإسلامية على القلوب والعقول والفطر السليمة.

وهذا هو ما يقوم به أعداء الإسلام في كل زمان ومكان؛ لتحقيق تلك الأهداف الخبيثة.

١٠. الدفع بالمقاطعة الاجتماعية.

لم تكن مقاطعة الكافرين للمسلمين في شعب أبي طالب مجرد مقاطعة اقتصادية فقط، بل كانت مقاطعة اجتماعية شاملة شملت كذلك ألا ينكحوهم أو ينكحوا منهم كذلك؛ وذلك لما يعلمون من تأثير ذلك في زيادة عزلة المسلمين وحصارهم.

بل أعظم من ذلك وقعت المقاطعة الاجتماعية، التي تخطت مجرد المقاطعة

(١) المصدر السابق ٢٠/ ٢١٧.

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٦/ ٥٩٤، وأصله في صحيح البخاري رقم ١٥١٣، وصحيح مسلم رقم ١٣١٤، عن أبي هريرة.

إلى الإيذاء والاضطهاد الديني في محيط الأسرة؛ حيث يشير القرآن إلى مجاهدة الآباء أبناءهم الذين أسلموا لردهم عن دينهم.

قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٨].

قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٤-١٥].

١١. الدفع بقتال المؤمنين وإهلاكهم والقضاء عليهم.

من أعظم وسائل الدفع لدى الكافرين للمؤمنين هو القتال، والحق أن قتال الكافرين للمؤمنين ليس مجرد وسيلة، بل هو وسيلة وغاية في الوقت نفسه؛ فهو وسيلة من أعظم وسائلهم لرد المؤمنين عن دينهم، وفتنتهم في عقيدتهم.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

وهم لا يكتفون في ذلك بمجرد القتال والقتل؛ بل يتفننون في التعذيب بالمؤمنين، وإهلاكهم والقضاء عليهم بشتى الصور، والتاريخ قديمًا وحديثًا خير شاهد على ذلك، وقد سجل القرآن والسنة فتنة الكافرين للمؤمنين بالإحراق في الأخاديد في سورة عظيمة باقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، هي سورة الأخدود (البروج).

وقد سجلت كتب التاريخ جرائم ومجازر التتار والصليبيين واليهود للمسلمين على مر التاريخ إلى يومنا هذا، وليس ما يحدث للمسلمين في بورما ببعيد.

ثانيًا: وسائل الدفع لدى المؤمنين:

١. لزوم الإيمان والتقوى.

٢. الاعتصام بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

٣. الاجتماع ونبذ الفرقة.

٤. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وثمة آيات عظيمة في سورة آل عمران قد جمعت تلك الوسائل كلها؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ

﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٠٢ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠٣ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝١٠٤ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٢-١٠٥].

والمتأمل في هذه الآيات يجد أن الله تعالى قد بين فيها أهم سبل الدفع ووسائله وأسسه العظيمة التي ينبغي أن يقوم عليها، وهي:

١. لزوم الإيمان والتقوى والمحافظة على الإسلام والتمسك به والموت عليه.
٢. الاعتصام بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم؛ وذلك بالتمسك بهما وعدم الحيدة عنهما إلى ما سواهما من سبل البدعة والضلالة.
٣. الاجتماع ونبذ الفرقة؛ وذلك بالاجتماع حول أصول الدين وثوابته، التي أسسها الكتاب والسنة؛ ولذا جعل الله تعالى التمسك بكتابه، وسنة نبيه هما مناط الاجتماع والاعتصام.
٤. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو أعظم برهان على صدق الاعتصام والتمسك بالكتاب والسنة، ولا ينجع ولا يأتي بأثره ويكون له قوة في الدفع، ونكاية في العدو، إلا باجتماع الكلمة؛ لذا تأخر بعد الوصية بها.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٤٥ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٥-٤٦].

ومن المعلوم أن تغيير الفساد والمنكر أصل عظيم من أصول هذا الدين له أثره الماضي في صلاح المجتمع، ودفع صور الفساد التي يبثها أعداء الإسلام في مجتمعاتنا؛ ولذا فهو أحد أربعة أسس يقوم عليها بناء المجتمع المسلم.

ونستطيع أن نتبين ذلك إذا تأملنا سورة قصيرة من سور القرآن كسورة العصر؛ حيث تبين أن معالم الفلاح والنجاح للفرد والمجتمع المسلم إنما ترجع إلى أربعة أركان أساسية، هي: الإيمان بالله، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر.

والتواصي بالحق إنما هو لزوم الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر الذي هو عماد التغيير والإصلاح، وهو قرين الإيمان بالله تعالى، ودليل عليه؛ ولذا جعله النبي صلى الله عليه وسلم في علاقة مطردة مع

الإيمان بالله تعالى قوة وضعفًا؛ فجعل قوته من قوة الإيمان وضعفه من ضعف الإيمان.(١)

ولعظم هذا الأمر ولأهميته وخطورته؛ قدمه الله تعالى في وصف هذه الأمة على وصفهم بالإيمان بالله تعالى؛ وذلك لما ناط الله تعالى بهذه الأمة من مهمة التغيير والإصلاح ودفع الفساد والمنكر في العالم كافة، وأعظم المنكر كفر بالله تعالى.

قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

فجعل الله تعالى خيرية الأمة منوطة بالقيام بهذا الواجب العظيم، الذي هو أساس دفع كل فساد وظلم، ولعل هذه الآية توضح أن المراد بمن في قوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ في الآية الأخرى ليس هو التبعيض، كما ذهب إليه أحد الفريقين في تفسير الآية.

ولذا فإن البحث يرجح أن تكون مهمة الدفع والإصلاح بوسيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خطاب موجه لكل مسلم بالشروط الواجب مراعاتها في الأمر والنهي، بحسب ما يملك كل امرئ من العلم والحكمة، وعلى قدر ما يستطيع، وليس مقتصرًا على العلماء والمحتسبين المنتصبين لذلك؛ ففي مسائل الدين كالصلاة والصيام ما هو معلوم بالضرورة لكل مسلم، ويستطيع أن يأمر بذلك من ولي عليه من أهله، أو رعيته بالحكمة والموعظة الحسنة؛ فإن لم يستطع ذلك لعيٍ أو عجز أو ضعف أو جهل؛ حث غيره من القادرين على ذلك وأعانهم عليه.

وذلك على أرجح القولين في قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

ولذا نجد النبي صلى الله عليه وسلم يؤكد على خطورة إهمال تغيير المنكر فيقول صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو داود وغيره بإسناده: «عن إسماعيل، عن قيسٍ، قال: قال أبو بكرٍ: بعد أن حمد الله، وأثنى عليه: يا أيها الناس، إنكم تقرءون هذه الآية، وتضعونها على غير مواضعها: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥].

قال: عن خالدٍ، وإنا سمعنا النبي صلى

(١) وذلك في حديث أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم: (من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان).
أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، ١/ ٦٩، رقم ٤٩.

الله عليه وسلم يقول: (إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يعمهم الله بعقابٍ)، وقال عمرٌو: عن هشيمٍ، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ما من قومٍ يعمل فيهم بالمعاصي، ثم يقدرون على أن يغيروا، ثم لا يغيروا، إلا يوشك أن يعمهم الله منه بعقابٍ)، قال أبو داود: ورواه كما قال خالدٌ أبو أسامة: وجماعةٌ، وقال شعبة فيه: (ما من قومٍ يعمل فيهم بالمعاصي هم أكثر ممن يعمله)»[1].

٥. الدفع بالتي هي أحسن.

لعل من أجمل ما يتميز به أهل الإيمان في دفعهم للباطل وأهله أنهم يدفعون بالتي هي أحسن ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا؛ فما أمكن دفعه من الفساد بأخف الوسائل؛ لم يجز تعد هذه الوسيلة إلى ما هو أعظم منها فتكًا وإهلاكًا، كما هو مشاهد من فعل أهل الباطل من إسرافهم في استعمال القوة المفرطة والميل إلى الإبادة العامة للإسلام وأهله.

قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۝٣٤ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤- ٣٥].

وذلك في حال السلم، أما في حال الحرب؛ فقد نهى رسولنا الكريم عن قتل الطفل أو المرأة أو الشيخ الكبير أو من لا يقاتلنا:

عن سليمان بن بريدة، عن أبيه، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمر أميرًا على جيشٍ، أو سريةٍ، أوصاه في خاصته بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيرًا، ثم قال: (اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا، وإذا لقيت عدوك من المشركين، فادعهم إلى ثلاث خصالٍ -أو خلالٍ- فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك، فاقبل منهم، وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها، فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيءٌ إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، ٤/ ١٢٢، رقم ٤٣٣٨.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، رقم ١٩٧٣.

أبوا فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم)[(١)].

عن ابن عباسٍ، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بعث جيوشه قال: (اخرجوا بسم الله، تقاتلون في سبيل الله من كفر بالله، لا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا الولدان، ولا أصحاب الصوامع)[(٢)].

فنرى كيف ينهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الغدر، والتشفي بالأعداء، والتمثيل بجثثهم، وعن قتال من لا يقاتل من الضعفاء كالنساء والأطفال والعجزة، وانظر كيف يجعل النبي صلى الله عليه وسلم الدفع بالقتال آخر الدواء، وكأنه لا يقدم عليه إلا مضطرًا؛ فأين ذلك مما يشوه به أعداء الإسلام صورة النبي صلى الله عليه وسلم وصورة الإسلام والمسلمين.

فإن لم يكن بد من القتال والقتل؛ فقد نهى رسولنا الكريم عن التعذيب والتمثيل، وأمر بإحسان القتل حتى في الحيوان، فما بالنا بالإنسان الذي كرمه الله على العموم في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

بل حث على دفع باطلهم العقدي والفكري بالجدال بالتي هي أحسن كذلك، حيث ينبني منهج الحوار في الإسلام على أسس أخلاقية قويمة، تلتزم الصدق والعدل والإنصاف، وتحترم الآخر، وتعطيه حقوقه في الحوار كاملة، وتعترف بإنسانيته، وتجعله هو والطرف الآخر على حدٍ سواء، ولا تبيح سبه، أو إهانته أو السخرية منه -إلا أن يبدأ هو بذلك-، وترغب في العفو عن إساءته، وعدم مقابلة السيئة بمثلها؛ بل ترغب في دفعها بالتي هي أحسن، مع التزام كل ما هو متقرر من آداب الحديث والحوار والمجادلة.

وجماع ذلك في قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

قال ابن جرير رحمه الله: «﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ يقول: وخاصمهم بالخصومة التي هي أحسن من غيرها، أن تصفح عما نالوا به عرضك من الأذى، ولا تعصه في القيام بالواجب عليك من تبليغهم

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الأمراء على البعوث، رقم ١٧٣١، ٣/ ١٣٥٧.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٤/ ٤٦١، رقم ٢٧٢٨.
وحسنه المحقق.

رسالة ربك»[1].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

«قال قتادة وغير واحد: هذه الآية منسوخة بآية السيف، ولم يبق معهم مجادلة، وإنما هو الإسلام أو الجزية أو السيف، وقال آخرون: بل هي باقية أو محكمة لمن أراد الاستبصار منهم في الدين، فيجادل بالتي هي أحسن؛ ليكون أنجع فيه، كما قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقال تعالى لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ [طه: ٤٤].

وهذا القول اختاره ابن جرير، وحكاه عن ابن زيد.

وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ أي: حادوا عن وجه الحق، وعموا عن واضح المحجة، وعاندوا وكابروا، فحينئذ ينتقل من الجدال إلى الجلاد، ويقاتلون بما يردعهم ويمنعهم، قال مجاهد: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ يعني: أهل الحرب، ومن امتنع منهم عن أداء الجزية.

وقوله: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾، يعني: إذا أخبروا بما لا يعلم صدقه ولا كذبه، فهذا لا نقدم على تكذيبه؛ لأنه قد يكون حقًّا، ولا على تصديقه، فلعله أن يكون باطلًا»[2].

فالصواب أن جدال أهل الكتاب وغيرهم بالتي هي أحسن ثابت ومحكم غير منسوخ، وهو يقتضي حسن معاملتهم؛ بل والعفو عن أذاهم، وحسن الأدب في حوارهم، وعدم تكذيبهم فيما لم يرد في شرعنا ما يشهد لاعتباره أو إلغائه، وإن كنا لا نعتقد بالضرورة صدقه، ولكن الإنصاف يقتضي عدم تكذيبهم فيه كذلك، وهذا غاية الأدب والإنصاف في المحاورة.

فمقتضى قوله تعالى: ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ التزام كل خلق حسن جميل مع المحاور، واجتناب كل خلق رذيل، وهذا مع كل محاور -وقيد أهل الكتاب هنا لا مفهوم له- بعموم دلالة الآية الأولى؛ فالمسلم أولى بلا خلاف من الكتابي بإحسان معاملته، وخصوصية الكتابي في إحسان محاورته لا تنفي أحقية غيره من الكفار والمشركين والملحدين في إحسان حوارهم ومجادلتهم.

(١) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٣٢١.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٨٣.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦].

«قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه: وإن استأمنك، يا محمد، من المشركين، الذين أمرتك بقتالهم وقتلهم بعد انسلاخ الأشهر الحرم، أحدٌ؛ ليسمع كلام الله منك -وهو القرآن الذي أنزله الله عليه- ﴿فَأَجِرْهُ﴾، يقول: فأمنه حتى يسمع كلام الله وتتلوه عليه ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾، يقول: ثم رده بعد سماعه كلام الله -إن هو أبى أن يسلم، ولم يتعظ لما تتلوه عليه من كلام الله فيؤمن- إلى مأمنه، يقول: إلى حيث يأمن منك وممن في طاعتك، حتى يلحق بداره وقومه من المشركين ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾، يقول: تفعل ذلك بهم، من إعطائك إياهم الأمان ليسمعوا القرآن، وردك إياهم إذا أبوا الإسلام إلى مأمنهم، من أجل أنهم قوم جهلة، لا يفقهون عن الله حجة، ولا يعلمون ما لهم بالإيمان بالله لو آمنوا، وما عليهم من الوزر والإثم بتركهم الإيمان بالله»[١].

فأوجب إجارته ممن يتعرض له بسوء، وتأمينه حتى يستطيع أن يسمع ويعقل كلام الله بأمان تام، بل أوجب تأمينه -بعد إسماعه ومحاورته- إلى المكان الذي يأمن فيه على نفسه، ويلحق بديار أهله من المشركين.

٦. الدفع عن طريق رد الشبه وكشف حقيقة الباطل عن طريق وسائل الإعلام المختلفة والحوار والمحاجة والمناظرة.

معرفة سبيل المجرمين بهدف الحذر منها، وكشفها وبيانها وإبطالها من أوجب الواجبات لمن انتصب للدفع عن الإسلام وأهله.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥].

«قال: لتعرفها»[٢].

وإذا كانت استبانة سبيل المجرمين من واجبات الدين، ومن مهمات الدفع؛ وجب على المسلمين الإفادة من كل وسيلة صالحة لذلك، سواء عن طريق الكلمة المكتوبة، أو المسموعة، أو المرئية، سواء بكتاب أو جريدة أو مجلة أو إذاعات وفضائيات ومواقع الإنترنت ومواقع التواصل الاجتماعي، وغير ذلك من الوسائل الإعلامية العديدة التي يعج بها العصر الحديث، وبرع أعداء الإسلام في استخدامها والإفادة منها؛ لمدافعة الدين الحق وأهله.

وقد بينا فيما سبق في التعريف بمصطلح الدفع والمصطلحات القريبة، ما هو قريب

(١) جامع البيان، الطبري ١٤/ ١٣٨.

(٢) جامع البيان، الطبري ١١/ ٣٨١.

من مصطلح الدفع، كالحوار والمجادلة والمحاجة والمناظرة، وذكرنا الفروق بينها، وبعض ما يستدل به على ذلك من كتاب الله تعالى.

والمقصود هنا بيان أن هذه الوسائل هي من وسائل الدفع المهمة، بل لعلها تكون هي وسيلة الدفع الوحيدة المتاحة حينما تعجز الآلة العسكرية؛ لضعف الإمكانات، أو لعدم تهيؤ الظروف لها.

وقد امتدح القرآن الشعراء الذين ينتصرون بشعرهم لدين الله تعالى؛ حيث استثناهم من الذم الذي ألحقه بالشعراء، حيث نعتهم بالغواية والضلال والإضلال، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾، أي: انتصروا لدينهم وعقيدتهم وأعراض المسلمين بشعرهم.

قال تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤-٢٢٦].

وعن كعب بن مالك رضي الله عنه أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم: إن الله تعالى قد أنزل في الشعر ما أنزل، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: **(إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده لكأن ما ترمونه به نضح النبل)**[١].

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع لحسان منبرًا في المسجد يقوم عليه قائمًا، يفاخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو ينافح، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(إن الله يؤيد حسان بروح القدس ما نافح أو فاخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم)**[٢].

٧. الأخذ بما أمكن من أسباب القوة البشرية والسياسية والاقتصادية والعسكرية.

مما لا شك فيه أن الأخذ بأسباب القوة المختلفة، لا سيما القوة العسكرية من أهم آلات الدفع في معركة الإسلام مع قوى الشر المختلفة، ولا نكون مغالين إذا قلنا: إن كثيرًا من صور الانحراف الفكري لدى كثير من مفكري المسلمين إنما يرجع سببه إلى الهزيمة النفسية، التي ترجع إلى انبهارهم

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٤٥/ ١٤٧، رقم ٢٧١٧٤.
وصححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ١٦٣١.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الأدب، باب ما جاء في إنشاد الشعر رقم ٢٨٤٦.
قال الترمذي: «حديث حسن صحيح غريب».
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ١٨٦٥.

بالقوة المادية والعسكرية التي عليها أعداء الإسلام.

وقد أمرنا الله تعالى أن نأخذ بكل ما نستطيعه، ويمكن أن تصل إليه أيدينا من وسائل القوة.

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف)[1].

والقوة تشمل القوة المادية، والقوة العسكرية، وسائر أنواع القوة؛ لعدم الدليل على التقييد بنوع دون آخر.

٨ . التحالفات السياسية.

لا يستطيع المسلمون مدافعة أعدائهم على قوتهم واجتماعهم إلا بتحالفهم واجتماعهم، وموالاة بعضهم بعضًا؛ فقد أوجب الله على أهل الإيمان الموالاة في الدين والاجتماع والتآلف والتحالف عليه، ونهاهم عن التفرق والتخالف.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾[الأنفال: ٧٢].

وهيجهم على فعل هذه الولاية؛ بحرص أعدائهم عليها فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣].

كذلك يجوز لهم بحسب المصلحة عقد المعاهدات مع غيرهم، بحسب ما فيه مصلحة الإسلام والمسلمين، كما عاهد النبي صلى الله عليه وسلم يهود المدينة[2].

٩ . القتال.

القتال كما هو معلوم من أعظم وسائل الدفع، وقد أخر الله تشريع القتال كوسيلة للدفع من المسلمين لأعدائهم، وأمر قبل ذلك بالعفو والصفح.

قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠].

والآيات في ذلك كثيرة، ثم نسخت تلك الآيات بآية السيف، والآيات المشابهة لها، مثل قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

وقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز، رقم ٢٦٦٤.

(٢) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام ١/ ٥١٣، السيرة النبوية، ابن كثير ٢/ ٣٤٢.

[الحج: ٣٩].

وقوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

ورغم قوة النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة فكان يعمل قاعدة الحكمة والموازنة بين المصالح والمفاسد في التعامل مع المناوئين من اليهود والمنافقين والعرب؛ حتى تستوي قوة الدولة في المدينة، وذلك عملًا بتوجيهات القرآن الكريم حيث أمره بالعفو عن المنافقين في بادئ الأمر والإعراض عنهم: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا﴾ [النساء: ٦٣].

أما بعد تمكن الدولة؛ فقد جاء الأمر بتتبعهم وقتالهم وقطع دابرهم والإغلاظ لهم: ﴿لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا ٦٠ مَّلۡعُونِينَۖ أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا﴾ [الأحزاب: ٦٠-٦١].

وصالح النبي صلى الله عليه وسلم اليهود، وعاهدهم في بادئ الأمر، ثم لما نقضوا عهدهم؛ قاتلهم وأجلاهم عن المدينة.

وهكذا كان أخذ النبي صلى الله عليه وسلم بأسباب القوة؛ حماية للدعوة الإسلامية، وتمكينًا لها، مع العمل بميزان الحكمة في ذلك، وإعمال قاعدة الموازنة بين المصالح والمفاسد.

وقد أنزل الله تعالى في سورة الحج الإذن بالدفع بالوسيلة القتالية؛ فقال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٣٩-٤٠].

فأذن تعالى للمظلومين في قتال الظالمين ومدافعتهم بالقوة؛ لئلا يستشري الفساد في الأرض، وتنتهك الحرمات، وتضيع معالم الخير، بضراوة أهل الظلم والطغيان، وتعديهم على مواضع العبادة وتخريبها، وذلك عنوان على أقبح صور الإفساد في الأرض؛ لأنه هتك لسياج الحرمات الفردية والجماعية في أقدس مقدساتها[(١)].

هذا والدعوة الإسلامية مأمورة بإعداد القوة والأخذ بأسبابها في جميع المراحل بحسب الاستطاعة، وهذا لا ينافي الأمر

(١) انظر: القرآن العظيم هداية وإعجاز، محمد صادق عرجون ص٣٠٨.

بالصبر، واحتمال الأذى من أعداء الدعوة في مرحلة البيان؛ حتى تكسب تعاطف الناس، وحتى تتمحص رسالتها للكشف عن الحقيقة والدعوة إلى الحق، وحتى لا يظن بها الظنون بابتغاء نوع من المنافع الدنيوية المادية العاجلة، ومع ذلك فهي مأمورة بالأخذ بأسباب القوة في جميع الأحوال لقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠].

ولكن في مرحلة البيان لا يزيد الأمر عن إعداد القوة دون استخدامها، أو إظهارها، بخلاف مرحلة التمكن، واستقرار الدولة الإسلامية؛ فإنها يشرع لها استخدام القوة للدفاع عن الدعوة الإسلامية في وجه أعدائها والتمكين لها، وصد ودحر كل من يقف في سبيل إيصالها إلى الناس، كل ذلك بما لا يتناقض مع قواعد الحكمة، والنظر في ميزان المصالح والمفاسد، وعدم التعجل لكسب أي مكاسب سياسية أو مادية، بل المقياس الأول هو هداية الناس، وتبليغ هذا الدين.

١٠. المقاطعة الاقتصادية.

يتخذ المؤمنون المقاطعة الاقتصادية سلاحًا ووسيلة من أهم وسائل الدفع لأعدائهم، بحسب ما تقتضيه الحاجة والمصلحة؛ فمعلوم أن المال قوام الحياة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ [النساء: ٥].

فهذا ثمامة بن أثال -ذلك الصحابي الجليل- بعدما أسلم مع النبي صلى الله عليه وسلم بمكة؛ ها هو يسن للمسلمين بإقرار النبي صلى الله عليه وسلم له سنة المقاطعة الاقتصادية للمشركين والكافرين المحاربين للإسلام؛ وذلك أنه: (لما قدم مكة قال له قائلٌ: صبوت، قال: لا، ولكن أسلمت مع محمدٍ رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا والله، لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطةٍ، حتى يأذن فيها النبي صلى الله عليه وسلم)[1].

١١. المقاطعة الاجتماعية.

من أهم الأسس التي يقوم الدفع عليها عند المؤمنين، براءتهم من الكافرين، ومما هم عليه من اعتقاد فاسد ينبني على الكفر بالله واليوم الآخر.

قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب وفد بني حنيفة، ٥/ ١٧٠، رقم ٤١١٤.

﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

فبين الله تعالى أن الإيمان بالله واليوم الآخر لا يجتمع مع موادة من حاد الله ورسوله، ولو كان من الأصول أو الفروع أو ذوي الأرحام المقربين.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [التوبة: ٢٣].

والآيات في ذلك كثيرة.

عواقب ترك الدفع

أولًا: الخذلان:

إذا ترك المسلمون القيام بواجبهم في الدفاع عن عقيدتهم ومقدساتهم فإنهم بذلك يقضون بالغلبة لأعدائهم على أنفسهم.

لكن لا بد أن يقوموا نصرة لله تعالى ولدينه، لا حمية لجنس أو قومية أو أي شيء غير نصرة دين الله تعالى؛ فحينئذ يأتي نصر الله.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

فإذا نصر المسلمون دينهم وشريعتهم بالقيام بما افترضه الله عليهم والحمية له والذود عنه نصرهم الله، وإلا فالخذلان المبين بأن يكلهم لأنفسهم، وإن خذلهم فمن ذا الذي يملك لهم نصرًا من بعده سبحانه.

قال تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

ثانيًا: الذلة والهوان بعلو الكافرين على المؤمنين:

من المعلوم أن قيام المسلمين بواجبهم في الدفع إزاء الكافرين يحقق نوعًا من

توازن القوى؛ فلا يتمادى أهل الكفر في فسادهم وطغيانهم واستضعافهم واستذلالهم للمؤمنين، وإلا يأتي الله بأمره، وتمضي سنته في معاقبة الفاسقين وضرب مذلة الأسر والهوان عليهم.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾، أي: تستطيبونها، يعني: القصور والمنازل، ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا﴾، فانتظروا، ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ قال عطاءٌ: بقضائه، وقال مجاهدٌ ومقاتلٌ: بفتح مكة، وهذا أمر تهديد، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي﴾ لا يوفق ولا يرشد ﴿الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾، الخارجين عن الطاعة»[1].

وعن ابن عمر، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلًا، لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم)[2].

فقضت سنة الله تعالى على عباده إذا تركوا ما كلفهم به من الدفع، والجهاد لأعدائهم؛ أن يضرب عليهم ذلًا، لا ينزعه حتى يرجعوا إلى دينهم.

ثالثًا: الاستبدال:

ومن السنن المترتبة على ترك الدفع كذلك استبدال الله تعالى بمن ترك الدفع والجهاد في سبيله من يقيم دينه، ويعطي ولاءه ومحبته للإسلام وأهله.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

(١) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٣٢٨.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب البيوع، باب في النهي عن العينة ٣/ ٢٧٤، رقم ٣٤٦٢. وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٤٢٣.

نتائج الدفع

أولًا: حرية المعتقد و حرية العبادة:

إن من أهم ثمرات الدفع المأمور به شرعًا استقامة العقيدة وسلامتها، وخلوها من الآفات التي تشوبها من التوجه بالدعاء أو القصد أو الاستعانة إلى غير الله تعالى، أو التحاكم إلى غير شرعه، أو جحود شيء مما أنزل، أو وجود تصورات واعتقادات تخالف العقيدة الصحيحة التي تركنا عليها النبي صلى الله عليه وسلم.

وإن مجتمعًا مثل هذا تسوده عقيدة إيمانية راسخة، ويقوم على توحيد الله تعالى، وإخلاص القصد له، لا شك أنه مجتمع تتنزل عليه رحمات الله وبركاته، ويستخلف أهله، ويمكنون في الأرض، كما وعد الله تعالى حيث قال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

فتأمل قوله تعالى: ﴿يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗا﴾؛ تعلم أن تلك الجائزة إنما هي ثمرة التوحيد وعاقبته الحميدة.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ مِّنۡهُمۡ أُمَّةٞ مُّقۡتَصِدَةٞۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ سَآءَ مَا يَعۡمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦].

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا﴾ [الجن: ١٦].

وكذلك قوله تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

فهذه الآيات وأمثالها كثير يدل على العاقبة الحسنة، والثمرة اليانعة للتوحيد، وسلامة الاعتقاد الناتجين عن دفع المؤمنين الكفر والكافرين، وسائر صور الفساد في الأرض.

ثانيًا: حرية العبادة وتحصين أماكنها:

من أعظم الظلم الذي يمارسه أعداء الإسلام -إذا تسلطوا على ديار الإسلام- أن يمنعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه أو يهدموها بالكلية.

قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ

﴿أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[البقرة: ١١٤].

ولعل من أهم آثار الدفع وعواقبه الحميدة أن يأمن الناس على دينهم وعقيدتهم، ويتمكنوا من أداء عباداتهم وشعائرهم دون خوف أو وجل أن يمنعوا منها، أو تهدم دور عبادتهم؛ إذ إن هذا الدفع لأعدائهم هو الذي يمنع ذلك كله.

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

فبالجهاد والدفع تعود للمساجد هيبتها وعزتها، كما أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه.

قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٦-٣٧].

ثالثًا: إحقاق الحق ورفع الظلم، وخذلان الباطل وأهله:

من أهم آثار الدفع كذلك أن يحق الحق، ويبطل الباطل؛ فتعود الحقوق لأصحابها، ويرفع الظلم عن العباد والبلاد، وقد بين القرآن أن من أهم مقاصد الدفع إحقاق الحق وإبطال الباطل.

قال تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾

[الأنفال: ٥-٨].

فأخبر سبحانه أنه ما أخرج رسوله من بيته، ولا عرض المؤمنين لهذه الفتنة الشديدة -مع قلة عددهم وعتادهم-، ولا أغرى الفريقين بالقتال؛ إلا لهذه الغاية العظيمة، وهي إحقاق الحق، وإبطال الباطل.

ولعمر الله إنها لسنة ماضية، أن يقضي الحق على الباطل؛ فتكون الغلبة له في النهاية، وذلك أن الباطل لا يثبت أمام الحق.

قال سبحانه: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾[الأنبياء: ١٨].

فالحق هو الذي يبقى، وهو ما ينفع الناس، والباطل يذهب جفاء.

قال سبحانه: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ

أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

رابعًا: شفاء صدور المؤمنين:

ومن نتائج الدفع الحميدة كذلك شفاء صدور المؤمنين مما حل بهم من كيد أعدائهم وظلمهم لهم، والنيل من نفوسهم وأعراضهم وأموالهم.

قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٤-١٥].

موضوعات ذات صلة:

الأذى، الإصلاح، التغيير، الجهاد، السياسة، الضر



عناصر الموضوع

مفهوم الدَّين

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل مادة (دين) تدل على الانقياد، والذُل، والدِين: انقيادٌ لله تعالى وذُلٌّ له، والدَين فيه كل الذل للعبد[1].

ودان: أخذ الدين، ودنته: أقرضته، وأدنته: استقرضته منه، وقيل: رجل دائن ومدين ومديون، ومدان: عليه الدين، وقيل: هو الذي عليه دين كثير.

وأدان، واستدان، وادان أخذ بدين[2].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الدَين: «هو الحق الذي لا يسقط إلا بالأداء أو الإبراء»[3].

وقيل: «ما ثبت في الذمة من مال الآخر، سواء كان مؤجلًا أم لم يكن»[4].

وقيل: «كل معاوضة، يكون أحد العوضين فيها مؤجلًا»[5].

وقال القرطبي: «وحقيقة الدين عبارة عن كل معاملة كان أحد العوضين فيها نقدًا، والآخر في الذمة نسيئة؛ فإن العين عند العرب ما كان حاضرًا، والدين ما كان غائبًا»[6].

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٢/ ٣١٩، ٣٢٠.
(٢) انظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٩/ ٣٩٩.
(٣) التعريفات، الجرجاني ص١٤١.
(٤) الفروق اللغوية، العسكري ص٤٣٦.
(٥) المصدر السابق ص٤٢٦.
(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٣/ ٣٧٧.



الدين في الاستعمال القرآني

وردت مادة (دين) في القرآن الكريم (١٠١) ومرة[(١)]، والتي تتعلق بموضوع الدَّين (٨) مرات.

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾[البقرة:٢٨٢]
المصدر	٥	﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾ [النساء:١٢]
اسم المفعول	٢	﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾﴾[الصافات:٥٣]

وجاء الدين في القرآن على معناه اللغوي، وهو: القرض ذو الأجل، ولم يخرج في الاستعمال القرآني عن هذا المعنى[(٢)].

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص ٢٦٧-٢٦٩، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص٥١٤-٥١٦.

(٢) انظر: الصحاح، الجوهري، ٥/ ٢١١٧-٢١١٨، المحيط في اللغة، الصاحب بن عباد، ٢/ ٣٥٩-٣٦٠، تهذيب اللغة، الأزهري، ١٤/ ١٢٨-١٣٠، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ١/ ٣٠٧، معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار ١/ ٧٩٥.

الألفاظ ذات الصلة

١ القرض:

القرض لغةً:

إعطاء رجلٍ قرضًا ودفعٌ إليه مالًا، وأقرضه: أعطاه قرضًا من ماله[١].

القرض اصطلاحًا:

«الجزء من الشيء والقطع منه، كأنه يقطع له من ماله قطعة؛ ليقطع له من أثوابه إقطاعًا مضاعفة»[٢].

الصلة بين القرض والدين:

الدين: ما له أجلٌ، والقرض ما لا أجل له، والقرض أكثر ما يستعمل في العين والورق، هو أن تأخذ من مال الرجل درهمًا؛ لترد عليه بدله درهمًا، فيبقى دينًا عليك إلى أن ترده، فكل قرضٍ دينٌ، وليس كل دينٍ قرضًا[٣].

٢ السلف:

السلف لغةً:

من الفعل سلف، والسلف من القرض، والسلف: كل شيءٍ قدمته فهو سلفٌ[٤].

السلف اصطلاحًا:

وهو المال الذي يقدم لما يشترى نساءً، أي: مؤخرًا[٥].

الصلة بين السلف والدين:

السلف هو ما قدم من الثمن على المبيع، والدين ما ثبت في الذمة من مال الآخر[٦].

٣ الإعارة:

الإعارة لغة:

وهي اسم لعملية الاستلاف، أو لعقد الإعارة، مأخوذة من عار إذا ذهب وجاء، وقيل: من

(١) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٧٢٧.
(٢) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ص٢٦٩.
(٣) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ٢/ ٧٢٧.
(٤) انظر: العين، الفراهيدي، ٧/ ٢٥٨.
(٥) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٣/ ٧٣.
(٦) انظر: المفردات، الأصفهاني ص٢٣٩.



التعاور، أي: التداول أو التناوب.

الإعارة اصطلاحًا:

«تمليك المنفعة بغير عوض»[1].

الصلة بين الدين والإعارة:

يتضح من خلال التعاريف السابقة أن الدين يكون في المال والأعيان التجارية. أما الإعارة فهي في الماعون.

٤ الإيجار:

الإيجار لغةً:

«الهمزة والجيم والراء أصلان يمكن الجمع بينهما بالمعنى، فالأول: الكراء على العمل، والثاني: جبر العظم الكسير، فأما الكراء فالأجر والأجرة، وأما جبر العظم فيقال منه: أجرت اليد»[2].

الإيجار اصطلاحًا:

«عقد على منفعة معلومة مباحة من عين معينة، أو موصوفة في الذمة، أو على عمل معلوم بعوض معلوم مدة معلومة»[3].

الصلة بين الدين والإيجار:

من التعريفات السابقة يتبين أن الدين ما تعطيه غيرك من مال أو غيره على أن يرده إليك، والإيجار هو الأجرة على العمل دون أن يرد.

٥ الهبة:

الهبة لغةً:

وهب له الشيء، أي: أعطاه إياه بلا عوض، وتصريفه: وهبه -يهبه- وهبًا[4].

الهبة اصطلاحًا:

«تمليك العين بلا عوض»[5].

---

(١) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ص٥٥.
(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٥/ ٣٥١- ٣٥٢.
(٣) الروض المربع، منصور البهوتي، ١/ ٣٦٥.
(٤) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ٢/ ١٠٥٩.
(٥) أنيس الفقهاء، القونوي، ص٩٥.

الصلة بين الدين والهبة:

الدين تمليك لزمنٍ محدود يجب رده لصاحبه، وأما الهبة فهي تمليك لا يرد مطلقًا.

٦ الغرم:

الغرم لغةً:

غرم يغرم غرمًا، ورجل مغرمٌ، من الغرم والدين، وقد أغرم بالشيء أي: أولع به، والغريم الذي عليه الدين، وقد يكون الغريم أيضًا الذي له الدين[(١)].

الغرم اصطلاحًا:

«أداء شيءٍ لزم من قبل كفالةٍ، أو لزوم نائبةٍ في ماله من غير جناية»[(٢)].

الصلة بين الدين والغرم:

الغرم أثقل من الدين، فالمغرم: المثقل بالدين المولع به، لقوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ [الطور: ٤٠][(٣)].

٧ السداد:

السداد لغةً:

الإصلاح والاستقامة والتوثيق، وسد يسد: صار سديدًا[(٤)].

السداد اصطلاحًا:

إرجاع الدين إلى الدائن من قبل المدين بتوثيق ذلك، واستقامة من قبل كليهما.

الصلة بين السداد والدين:

الدين تمليك لزمن محدد يجب رده، والسداد هو ذلك الرد.

---

(١) انظر: مختار الصحاح، الرازي، ص٤٨٨.
(٢) العين، الفراهيدي، ٤/ ٤١٨.
(٣) انظر: القاموس الفقهي، سعدي أبو جيب، ص٣٧٤.
(٤) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص٢٨٧.

مشروعية الدين

تستمد أحكام الدين الإسلامي من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

وقوله أيضًا: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

وقد ورد في كتاب الله تعالى ما يبين الأمر بكتابة الدين؛ للإرشاد والتنبيه للمؤمنين، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وقد جعل الله تعالى في مشروعية التداين بعض القواعد التي يجب أن يحتاط بها الدائن والمدين، خلاصتها في آية الدين من سورة البقرة، ومن أهم هذه القواعد ما يأتي:

١ . تحديد الزمن.

قال تعالى: ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾.

يقول أبو السعود: «أي: مسمى بالأيام أو الأشهر ونظائرهما، مما يفيد العلم ويرفع الجهالة»[١].

٢ . الكتابة.

ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾، هذا توجيه من الله تعالى لعباده المؤمنين، إذا تعاملوا بديون مؤجلة بأن يكتبوها، وذلك أحفظ للدين سواء لمقداره أو ميقاته، وأضبط للشهادة فيه؛ لقوله: ﴿ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ [البقرة: ٢٨٢][٢].

٣ . حضور الشهود.

قال تعالى: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

لقد أمرنا الله تعالى بالكتابة والإشهاد على الكتابة؛ لأن الكتابة بغير شهود لا تكون حجة، فأمرنا بالكتابة؛ كي لا ننسى، وبالشهود حجة على الطرفين حتى لا يغدر أحدهما بالآخر[٣].

وقد شدد النبي صلى الله عليه وسلم على قضايا الدين في حياة الأمة؛ لما لها من أهمية اجتماعية وأخلاقية في المجتمع المسلم، وللحفاظ على المال العام والخاص من الضياع؛ فلذلك ذكر أحاديث كثيرة تحذر من مغبة أكل الدائن لمال المدين الذي استدان منه، أو المماطلة في سداده، ومن هذه الأحاديث:

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ١/ ٣٦٩.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٧٢٢.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٣/ ٣٥٨.

٤ . وفاء الدين.

يجب على الغني الوفاء بدينه، ويحرم عليه المماطلة في سداد الدين، فقد روي عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(مطل الغني ظلمٌ)**[(١)] .

معنى مطل الغني: أي: تسويف القادر المتمكن من أداء الدين الحال ظلم منه لرب الدين، فهو حرام بل كبيرة[(٢)] .

وفيه دلالة على أن الحوالة إنما تكون بعد حلول الأجل في الدين؛ لأن المطل لا يكون إلا بعد الحلول، وفيه ملازمة المماطل وإلزامه بدفع الدين والتوصل إليه بكل طريق، وأخذه منه قهرًا[(٣)] .

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(يغفر للشهيد كل ذنبٍ إلا الدين)**[(٤)] .

وعن عبد الله بن أبي قتادة عن أبيه، سمعه يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(أنه قام فيهم، فذكر لهم أن الجهاد في سبيل الله والإيمان بالله أفضل الأعمال، فقام رجلٌ فقال: يا رسول الله أرأيت إن قتلت في سبيل الله تكفر عني خطاياي؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم، إن قتلت في سبيل الله وأنت صابرٌ محتسبٌ مقبلٌ غير مدبر، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كيف قلت؟ قال: أرأيت إن قتلت في سبيل الله أتكفر عني خطاياي؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم، وأنت صابرٌ محتسبٌ مقبلٌ غير مدبر، إلا الدين؛ فإن جبريل عليه السلام قال لي ذلك)**[(٥)] .

ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يصلي على رجل مات وعليه دين، وليس أحدٌ يضمن سداده، فإذا تضمنه أحدٌ صلى عليه، وإلا أمر أن يصلى عليه.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: **(أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يؤتى بالرجل المتوفى عليه الدين، فيسأل: هل ترك لدينه فضلًا، فإن حدث أنه ترك لدينه وفاء صلى، وإلا قال للمسلمين: (صلوا على صاحبكم)، فلما فتح الله عليه الفتوح قال: (أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن توفي من المؤمنين فترك دينًا فعلي قضاؤه، ومن ترك مالًا فلورثته)**[(٦)] .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحوالات، باب مطل الغني، ٣/ ١١٨، رقم ٢٤٠٠.

(٢) انظر: التيسير بشرح الجامع الصغير، المناوي، ٢/ ٣٧٦.

(٣) انظر: عمدة القاري، العيني، ١٨/ ٣٢٧.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب من قتل في سبيل الله كفرت خطاياه إلا الدين، ٣/ ١٥٠٢، رقم ١٨٨٦.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب من قتل في سبيل الله كفرت خطاياه إلا الدين، ٣/ ١٥٠١، رقم ١٨٨٥.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النفقات،

كتابة الدين

إن التداين بدين إلى أجل مسمى يقتضي العمل على حفظ هذا الدين، حتى لا تضيع الحقوق، وتحدث المنازعات، ويخون الناس بعضهم بعضًا، وبيان هذه الأحكام فيما يأتي:

أولًا: حكم كتابة الدين:

وقد برز ذلك واضحًا في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

ابتدأت الآية الكريمة بخطاب المؤمنين فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، فمن اتصف بالإيمان طبق ما كلفه الله تعالى به بأكمل وجه؛ فالله تعالى قد أمر بالكتابة في الدين لحكمة أراد بها حماية حركة الحياة عند الناس، ورفع الحرج فيما بينهم، لذلك جاء الأمر منه سبحانه بالكتابة فقال: ﴿فَٱكْتُبُوهُ﴾[1].

والآية تحمل في طياتها الأمر بكتابة جميع عقود الديون؛ فقوله سبحانه: ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾، أي: إذا تعاملتم بدين ما، من أي صنف من أصناف المداينة، فاكتبوا هذا الصنف.

واختلف العلماء في هذه الكتابة أهي واجبة أم مستحبة؟

فقال بعضهم: هي واجبة؛ لأن الله تعالى يعلم طبيعة البشر، حيث إن فيهم من لا يؤتمن على حقوق الآخرين، فأمر بالكتابة لأجل أن يحفظها. والأكثرون قالوا: إنه أمر على الاستحباب، فإن ترك فلا بأس، كقوله تعالى في الانتشار بعد أداء صلاة الجمعة: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١].

وقال بعضهم: كانت كتابة الدين والإشهاد والرهن فرضًا، ثم نسخ الكل بقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣][2]، أي: بدون مكاتبة بينهما، تترك المكاتبة لأمانة المتداين ما دام صاحبه قد أمنه على ماله.

ثانيًا: شروط كاتب الدين:

ولأهمية الكتابة جعل الله تعالى لها شروطًا يحفظ من خلالها حقوق المتداينين، منها ما يتعلق بالدين نفسه، ومنها ما يتعلق بالمتداينين، ومنها ما يتعلق بكاتب الدين، ومنها ما يتعلق بشهود عقد الكتابة، وفيما يأتي نبين بعض الشروط المتعلقة بكاتب

باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (من ترك كلًا أو ضياعًا فإلي)، ٧/ ٦٧، رقم ٥٣٧١.

(١) انظر: تفسير الشعراوي ١/ ٧٧٩.

(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ١/ ٣٤٩.

عقد الدين:

١ . العدل بين المتداينين.

الذي له الدين قد يتهم في الكتابة من الذي عليه الدين، وكذلك بالعكس، فشرع الله سبحانه كاتبًا غيرهما، وأمر سبحانه أن يكتب بالعدل، فلا يكون في قلبه ولا قلمه مودة تؤدي إلى ظلم الآخر، فلا يكتب لصاحب الحق أكثر من حقه، محاباة له، وخاصة إذا كان الطرف الآخر لا يحسن القراءة، أو لا يفهم معاني اللغة، وذلك بالتدليس أو الالتفاف بالألفاظ التي يصعب عليه فهمها، أو بالتغير والتبديل فيما أملي عليه، وألا يزيد في المال أو الأجل، وكذلك لا يقلل في الكتابة من حق صاحب الحق بنفس الطريقة أو بغيرها[١].

يقول الزحيلي في تفسيره: «لقد بين الله كيفية الكتابة وعين من يتولاها، وذلك بأن يكتب كاتب مأمون عادل محايد، فقيه متدين يقظ، دون ميل لأحد الجانبين، مع وضوح المعاني، وتجنب الألفاظ المحتملة للمعاني الكثيرة، فهو كالقاضي بين الدائن والمدين، وهذا يدل على اشتراط العدالة في الكاتب، والعلم بكيفية كتابة وثيقة الدين»[٢].

٢ . العلم بكيفية كتابة العقود.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾[البقرة: ٢٨٢].

(كاتب) أي: عالم بالأحكام الشرعية والفقهية والقانونية المتعلقة بالدين، والشروط المرعية عرفًا ونظامًا، كما شرعه الله وأمر به، فليكتب بحيث لا يزيد ولا ينقص، ويكتب ما يصلح أن يكون حجة عند الحاجة، ولا يخص أحد الخصمين بالاحتياط له دون الآخر، وأن يكون كل واحد منهما آمنًا من إبطال حقه، وأن يكون ما يكتبه متفقًا عليه عند العلماء، وأن يحترز من الألفاظ التي يقع النزاع فيها[٣].

ثالثًا: شروط كتابة الدين:

إن الله تعالى جعل كتابة الدين حفظًا للحقوق، ووضع سبحانه للكتابة شروطًا؛ لتقوية هذه العقود من أهمها:

١ . أن يكون الكاتب من غير المتداينين.

لقد قرر الله تعالى لكاتب الدين أن يكون طرفًا ثالثًا غير المتداينين، حتى لا يكتب أحدهما لنفسه على الآخر، ولذلك اشترط سبحانه على الكاتب العدالة في نفسه، أي: أن يكون محقًا في كتابته، وبيان ذلك

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٣/ ٢٨٣.

(٢) التفسير المنير، وهبة الزحيلي، ٣/ ١٠٨.

(٣) انظر: المصدر السابق ٣/ ١٠٩.

في قوله تعالى: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾[البقرة: ٢٨٢].

أي: كاتب آخر غيركم، وأن يكتب بالحق والمعدلة، فالباء في قوله تعالى: ﴿بِالْعَدْلِ﴾ متعلقة بقوله: ﴿وَلْيَكْتُب﴾ وليست متعلقة بكلمة ﴿كَاتِبٌ﴾؛ لأنه كان يلزم ألا يكتب وثيقة إلا والعدل في نفسه، وقد يكتبها الصبي والعبد إذا أقاموا فقهها. أما المتصبون لكتبها في مناصب الدولة فلا يجوز للولاة أن ينصبوهم للكتابة إلا عدولًا مرضيين، قال مالك رحمه الله تعالى: لا يكتب الوثائق بين الناس إلا عارف بها، عدل في نفسه مأمون؛ لقوله تعالى: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾[البقرة: ٢٨٢].

على هذا تكون لفظة ﴿بِالْعَدْلِ﴾ في موضع صفة للكاتب الذي هو موكل بكتابة عقد الدين[1].

٢. إملاء المدين.

لقد جعل الله تعالى الكتابة لأجل توثيق الدين، وجعل توثيق الدين لأجل حفظ الحقوق، ولذلك ينظر للضعيف في هذا العقد؛ لأجل حفظ حقه من القوي، فالجانب الضعيف هو المدين، فلذلك جعل الله تعالى إملاء الكتابة بيده لا بيد الدائن، فلذلك حدد الله الذي يملل في قوله تعالى:

﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

أي: يملي الذي عليه الدين، فيملي الصيغة التي تكون حجة عليه.

وإن من حكمته سبحانه بألا يملي الدائن؛ لأن المدين عادة يكون في مركز الضعف، ولو جعل الإملاء بيد الدائن لأملى ما لا يتحمله المدين، مستغلًا ضعفه وحاجته للدين، فعندما يأتي ميعاد السداد لا يستطيع تنفيذ ما أملي عليه. فلذلك جعل الله تعالى الإملاء بيد المدين، فيملي ما يكون عليه حجة عليه[2].

فإن لم يكن المدين قادرًا على إملاء الدين، فإنه ينيب عنه غيره.

فقد يكون الذي عليه الدين سفيهًا، أو ضعيفًا، أو لا يستطيع أن يمل من ضعف في المعرفة، فالله تعالى وضع الحل في قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾[البقرة: ٢٨٢].

إن الحجر على مثل هؤلاء بالإملاء في كتابة عقود الدين يأتي من ضعف في الرأي عندهم، وخفة في عقولهم، وهو ما يسمى بالسفه، وليس السفه في هذه الآية بمعنى الفساد؛ لأنه لا يمكن وصف المؤمنين بالسفاهة التي بمعنى الفساد، فتسميتهم بهذا اللفظ هو لخفة في عقولهم، وليس ذلك

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٣/ ٣٨٤.

(٢) انظر: تفسير الشعراوي ١/ ٧٨١.

لتحقيرهم، وكذلك من ضعف في القراءة والكتابة، فمثل هذه الأعذار تستوجب ممن يتولى الإشراف على كتابة عقد الدين، أن يستبدل أمثال هؤلاء بمن ينوب عنهم ممن يملكون الأهلية في الكتابة، وسفه بمعنى: استخف؛ لأن السفاهة خفة العقل واضطرابه، يقال: تسفهه، أي: استخفه[1].

يقول الرازي: «إن إدخال حرف ﴿أَوْ﴾ بين هذه الألفاظ الثلاثة، أعني: السفيه، والضعيف، ومن لا يستطيع أن يمل، يقتضي أن تكون أمورًا متغايرة؛ لأن معناه: أن الذي عليه الحق إذا كان موصوفًا بإحدى هذه الصفات الثلاث، ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾، فيجب في الثلاثة أن تكون متغايرة، وإذا ثبت هذا وجب حمل السفيه على الضعيف الرأي، ناقص العقل من البالغين، والضعيف على الصغير والمجنون والشيخ الخرف، وهم الذين فقدوا العقل بالكلية، والذي لا يستطيع لأن يمل من يضعف لسانه عن الإملاء لخرس، أو جهله بماله وما عليه، فكل هؤلاء لا يصح منهم الإملاء والإقرار، فلا بد من أن يقوم غيرهم مقامهم، فقال تعالى: ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾، والمراد: ولي كل واحد من هؤلاء الثلاثة؛ لأن ولي المحجور السفيه، وولي الصبي، هو الذي يقر عليه بالدين، كما يقر بسائر أموره»[2].

٣. كتابة الأجل.

إن من شرط كتابة عقد الدين أن يكون الدين لأجل، والأجل يجب تسميته وتحديده بحيث لا يكون مبهمًا، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [البقرة: ٢٨٢].

يعني الحق سبحانه بذلك: أن يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله إذا تداينتم دينًا، أو إذا تبايعتم بدين، أو اشتريتم به، أو تعاطيتم أو أخذتم به إلى وقت معلوم، فاكتبوا ذلك الدين أو البيع بينكم، ولا تتركوه مهملًا، فتقعوا في أمور محذورة لا تتوقعونها، ولا يحمد عقباها؛ إذ إن كتابة الدين تقتضي أن يوثق تاريخ الدفع فيه، وقد يدخل في ذلك القرض والسلم، وكل ما جاز فيه، فالسلم المسمى الذي أجل بيعه يصير دينًا على بائع ما أسلم إليه فيه. ويحتمل كذلك بيع الحاضر الجائز بيعه من الأملاك بالأثمان المؤجلة، كل ذلك من الديون المؤجلة إلى أجل مسمى، إذا كانت آجالها معلومة بحد موقوف عليه[3].

وقد يكون البيع بالدين إلى أجل قريب، وقد يكون إلى أجل بعيد، فلما أمر بالكتابة عند المداينة، استثنى من الكتابة ما كان

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/ ٢٨٨.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي، ١/ ٥٣١.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ٦/ ٤٣.

الأجل فيه قريبًا، والتقدير: ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾ إلا أن يكون الأجل قريبًا، وهو المراد من التجارة الحاضرة، وإنما رخص الله تعالى في ترك الكتابة والإشهاد في هذا النوع من التجارة؛ لكثرة ما يجري بين الناس فيها، فلو تكلف فيها الكتبة والإشهاد؛ لشق الأمر على الخلق، ولذلك نجد أن من حكمة الله تعالى ورحمته بخلقه، استثناء هذا النوع من الدين من الكتابة[1].

٤ . قيمة الدين.

لقد اعتنى الشرع ببيان قيمة الدين المحرر في عقده، سواء كانت القيمة صغيرة أو كبيرة، أي: إن الله تعالى لم يحد نصابًا محدودًا لكتابة عقد الدين، إنما جعله في الكثير والقليل.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾[البقرة: ٢٨٢].

قال ابن كثير: «هذا من تمام الإرشاد، وهو الأمر بكتابة الحق صغيرًا كان أو كبيرًا، فقال: ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ﴾، أي: لا تملوا أن تكتبوا الحق على أي حال كان من القلة والكثرة إلى أجله».

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

أي: هذا الذي أمرناكم به من الكتابة للحق إذا كان مؤجلًا هو ﴿أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: أعدل ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ﴾، أي: أثبت للشاهد إذا وضع خطه ثم رآه تذكر به الشهادة؛ لاحتمال أنه لو لم يكتبه أن ينساه، كما هو الواقع غالبًا، ﴿وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾، وأقرب إلى عدم الريبة، بل ترجعون عند التنازع إلى الكتاب الذي كتبتموه، فيفصل بينكم بلا ريبة.

رابعًا: مقاصد الكتابة:

إن الملاحظ من سياق الآيات أن تكرار لفظ الكتابة في آية واحدة مع التأكيد بحرف اللام، لهو دليل على حرص الشرع على الحفاظ على حق العباد من الضياع، فقال تعالى في موضع من الآية: ﴿فَٱكْتُبُوهُ﴾، وفي ثانٍ: ﴿وَلْيَكْتُب﴾، وفي ثالثٍ: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ﴾، وفي رابعٍ: ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾، وفي خامسٍ: ﴿وَلْيُمْلِلِ﴾؛ لأن الكاتب بالعدل إنما يكتب ما يملى عليه، وفي آخر: ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾، وهذا الأمر بالتقوى بعد تكرار لفظ الكتابة لهو تأكيد لأهمية الكتابة وما تحمل في طياتها من فوائد، أهمها:

١ . حفظ المال، وعدم إضاعته.

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١/ ١٠٥٥.

وصونه من الهلاك والبوار بالمماطلة في سداد الدين، فالمكاتبة حصن منيع لحفظ المال.

٢ . أعدل في الشهادة.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

أي: أثبت للشهادة، وكذلك أقرب لنفي الريب في معاملاتكم، أي: الشك، فالكتاب يدفع ما قد يعرض لهم من الريب كائنًا ما كان.

٣ . اجتناب سخط الله والمواظبة على تقوى الله تعالى.

وذلك بمنع مسببات المماطلة في سداد الدين، حيث إن الكتابة هي من أهم عوامل سد باب المماطلة من الجانبين، وذلك أن صاحب الدين إذا علم أن حقه مقيد بالكتابة، والإشهاد تحذر من طلب زيادة، أو تقديم المطالبة قبل حلول الأجل، والمديون يحذر من الجحد، ويأخذ قبل حلول الدين في تحصيل المال؛ ليتمكن من أدائه وقت الحلول[(١)].

٤ . البعد عن الوقوع في المحرمات.

مثل: الربا وغيره من الطرق المحرمة؛ للحصول على المال، حيث إن المكاتبة تشجع على فتح باب الدين بدلًا من فتح باب الربا.

٥ . إقامة العدل بين المتعاملين.

فالبيان الذي أمر به القرآن من الكتابة والإشهاد أعدل في إصابة حكم الله تعالى، وهو أحرى بإقامة العدل بين المتعاملين، وأعون على أداء الشهادة على وجهها الصحيح، وأقرب إلى إزالة الشكوك في تعيين جنس الدين ونوعه وقدره وأجله، فهذه مزايا ثلاث تؤكد العمل بكتابة الدين[(٢)].

ويستدل من الآيات السابقة على أن الشرع اهتم بكتابة الدين، وجعل الله أحكامًا وشروطًا تتعلق بالدائن والمدين ومن ينوب عنه، وبينت الآيات صفات وأهلية لكاتب الدين، والهدف والأثر لكتابة الدين.

(١) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل، ٤/ ٤٨٠.

(٢) انظر: التفسير المنير، وهبة الزحيلي، ٣/ ١١٢.

الاشهاد في الدين

لقد أعطى الحق سبحانه وتعالى للدين عناية كبيرة؛ لأن فيه مواساة الفقير وإغاثة الملهوف، ولأجل أن يضمن سير حركة الحياة الاجتماعية والاقتصادية أن تمر بسلام دون فوضى، شرع ربنا عز وجل الكتابة في الدين، وجعل للكتابة شروطًا تقوم عليها، من أهمها الشهادة على عقد كتابة الدين، وجعل للشهادة أيضًا بعض الشروط التي تقوم عليها، ومن أهمها ما يأتي:

أولًا: عدد الشهداء:

الله تعالى أمر في المداينة بأمرين:

أحدهما: الكتابة بقوله: ﴿فَٱكۡتُبُوهُ﴾.

والثاني: الإشهاد بقوله: ﴿وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ﴾.

والله تعالى لأجل تحصين العقود وتوثيقها توثيقًا جيدًا بحيث لا يتخلله النسيان الذي قد يؤدي لجحد المال، جعل العقود وتوثيقها تعتمد اعتمادًا كبيرًا على الشهداء، وخوفًا من النسيان أو الحوادث الطارئة التي قد تؤدي فقدان الشاهد.

والله تعالى شرع العدد بأكثر من شاهد، وذلك حفظًا لما سبق من الحقوق.

قال تعالى: ﴿وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وقوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَشۡهِدُواْ﴾، بمعنى: أشهدوا، فالسين والتاء فيه لمجرد التأكيد، أو للطلب، أي: اطلبوا شهادة شاهدين، فيكون تكليفًا بالسعي للإشهاد، وهذا التكليف متعلق بصاحب الحق(١).

والشهادة حقيقتها الحضور والمشاهدة؛ لأجل الاطلاع على التداين، أي: لمشاهدة أو لسماع تعاقدٍ بين متعاقدين، وتطلق الشهادة أيضًا على الخبر الذي يخبر به صاحبه عن أمر حصل لقصد الاحتجاج به لمن يزعمه، والاحتجاج به على من ينكره، كما هو حال طلب الشهود على حالة الزنا(٢).

وقوله: ﴿مِن رِّجَالِكُمۡ﴾، أي: من رجال المسلمين، فحصل به شرطان: أنهم رجال، وأنهم ممن يشملهم الضمير، والمراد به: المسلمون؛ لقوله في طالعة هذه الأحكام ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ﴾.

والرجل في أصل اللغة يفيد وصف الذكورة، فخرجت الإناث ولهن حكم خاص، ويفيد البلوغ فخرج الصبيان؛ لضعف عقله عن الإحاطة بمواقع الإشهاد ومداخل التهم، وأما الكافر فلأن اختلاف الدين يوجب التباعد في الأحوال والمخالطات

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٣/ ١٠٥، ١٠٦.
(٢) انظر: المصدر السابق، ٣/ ١٠٥، ١٠٦.

والمعاشرات والآداب، فهذا التباعد بين المسلم والكافر، لا يمكن للكافر الإحاطة بأحوال العدول والمرتابين من الفريقين المسلمين، ولذلك اشترط الشرع في تزكية المسلمين شدة المخالطة، وكذلك قد عرف من غالب أهل الملل استخفافهم بحقوق من خالفهم في دينهم، فقال الله تعالى عنهم قولهم: ﴿قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾[آل عمران: ٧٥][1].

ثم بين الشارع الحكيم شهادة النساء وعددهن وما يتعلق بشهادتهن.

قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ﴾[البقرة: ٢٨٢].

وقد بين الله تعالى إن لم يكن الشاهدان رجلين ﴿فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾ أي: فليشهد رجل وامرأتان بشرط أن يكونوا ممن ترضون من الشهداء، وعلمكم بعدالتهم، وبين سبحانه الحكمة والعلة من اعتبار عدد النساء اثنتين مقابل الرجل الواحد، وذلك لأجل أن إحداهما إن ضلت الشهادة بأن نسيتها ذكرتها الأخرى، أي: إن العلة في الحقيقة التذكير عند النسيان، وهذا فيه إشعار بنقصان عقلهن وقلة ضبطهن؛ لأنه ما

(١) انظر: المصدر السابق، ٣/ ١٠٧.

قاله في الرجال[2].

ثانيًا: صفات الشهداء:

والله تعالى بين صفات من يشهد على حقوق العباد، فقال تعالى: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

فهذه الآية فيها من الدلالة على صفات الشهود، ومنها:

١ . العدالة.

قال تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق: ٢٠].

أي: رجلين مسلمين عدلين؛ لأن في الإشهاد المذكور، سدًّا لباب المخاصمة، وكتمان كل منهما ما يلزمه بيانه[3].

والعدل: كل مسلم بالغٍ عاقلٍ سليم من أسباب الفسق وخوارم المروءة، فأخرج هذا التعريف الكافر وغير البالغ، وفي المميز نزاعٌ، والمجنون، والفاسق وهو: من يفعل الكبيرة ويصر على الصغيرة، والفسق نوعان: بشبهةٍ كالخوارج والشيعة، وبشهوةٍ كشرب الخمر والسرقة، وأخرج من يخالف الآداب الشرعية وعرف المجتمع المسلم[4].

(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، ١/ ٥٧٨.
(٣) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ٨/ ١٥٠.
(٤) انظر: التعريفات الندية على المنظومة البيقونية، حمد النابت، ١/ ٤.

ومن شروط العدل:

❁ الإسلام.

قال تعالى: ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾، وقوله: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾، ففيه دلالة على أن الله إنما عني المسلمين دون غيرهم، حيث إنه سبحانه وصف الشهود أنهم منا، وممن نرضى عنهم، فدل هذا على أنه لا يجوز أن نقضي بشهادة شهود من غيرنا، حيث إننا لا نرضى بشهادة الكافر، فلو شهد ذمي على شيء لا تقبل شهادته عند كثير من أهل العلم على الإطلاق، وهو قول مالك، والشافعي.

ولقد رد الشافعي على بعض من أجاز شهادة الكافر الذمي، فقال: «كيف يجوز أن ترد شهادة مسلم اشترط الله فيه العدل، وثبتت عدم عدالته، حيث نعرفه يكذب على بعض الآدميين، ونجيز شهادة ذمي وهو يكذب على الله تبارك وتعالى، والمسلم غير العدل خير من كل المشركين، فكيف نجيز شهادة الذي هو شر، الذي يحيا بلا كتاب ولا سنة ولا أثر، ولا أمر اجتمعت عليه عوام الفقهاء، ونرد شهادة الذي هو خير منه، وهو المسلم الذي اتصف بغير العدل، ولكنه موحد لله تعالى؟ فإن أهل الذمة أعدلهم أعظمهم بالله شركًا، وأسجدهم للصليب وألزمهم للكنيسة!!»[1].

وذهب بعض أصحاب الرأي إلى أن شهادة أهل الذمة بعضهم على بعض جائزة، وإن اختلفت مللهم، وذهب بعضهم إلى أن شهادة بعضهم على بعض تجوز عند اتفاق الملة، أما إذا اختلفت الملة بأن شهد يهودي على نصراني أو مجوسي فلا تقبل.

فإذا كان هذا الاختلاف في أهل الملل الأخرى، بأن لا تقبل شهادة من خالفهم في ملتهم، فكيف تقبل شهادتهم على الموحدين.

وذهب أكثر أهل العلم إلى أن شهادة أهل الذمة في حق المسلمين باطلة، ولكن أجاز بعضهم شهادتهم على وصية المسلم في السفر فقط، واحتجوا بقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ [المائدة: ١٠٦] أي: «من غير أهل دينكم»[2].

❁ البلوغ.

فشهادة من لم يبلغ سن الرشد لا تقبل؛ لقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

قال بعضهم: تقبل في أمور معينة، فقيل: تقبل شهادة الصبيان على الجراح التي تقع في محل اجتماعهم ما لم يتفرقوا، ولا

---

(١) معرفة السنن والآثار، البيهقي، ١٤/ ٢٦٧.

(٢) شرح السنة، البغوي، ٥/ ١٤٠.

تقبل في غيرها، أي: شهادتهم على بعضهم البعض قبل المفارقة[1].

وروي عن ابن عباس في شهادة الصبيان قال: لا تجوز؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾، والصبيان لا يستراح ولا يرضى بشهادتهم[2].

- العقل.

فلا تقبل شهادة المجنون؛ لأنه لا حكم لقوله في شيء ما، وهذا إجماع العلماء، والعقل مناط التكليف، لأجل ذلك أحكام الشرع لا تجرى إلا على ذي عقل.

والعقل لغة: المنع، ولهذا يمنع النفس من فعل ما تهواه، مأخوذ من عقال الناقة: المانع لها من السير حيث شاءت، وهو أصل لكل علم، وكان بعض الأئمة يسميه أم العلم، وكثر الاختلاف فيه حتى قيل: إن فيه ألف قول، وقد تكلم فيه أصناف الخلق من الفلاسفة والأطباء والمتكلمين والفقهاء كل واحد ما يليق بصناعته، فأما الأطباء شأنهم الخوض فيما يصلح الأبدان، فالعقل سلطان البدن، وقال المتكلمون الذين هم أهل النظر: والنظر أبدًا يتقدمه العقل، والفقهاء تكلموا فيه من حيث إنه مناط التكليف، فقال الشافعي رضي الله عنه: «هو آلة خلقها الله لعباده يميز بها بين الأشياء وأضدادها،

(١) انظر: المصدر السابق.

(٢) انظر: المصدر السابق.

وقال في موضع آخر: والعقول التي ركبها الله فيهم؛ ليستدلوا بها على العلامات التي نصبها لهم على القبلة وغيرها منا منه ونعمة»[3].

- الخلو من الفسق وخوارم المروءة.

والمروءة شرط قبول الشهادة، وهي ما يتصل بآداب النفس مما يعلم أن تاركه قليل الحياء، وهي حسن الهيئة، والسيرة، والعشرة، والصناعة، فإذا كان الرجل يظهر من نفسه في شيء منها ما يستحي أمثاله من إظهاره في الأغلب، يعلم به قلة مروءته، وترد شهادته، وإن كان ذلك مباحًا[4].

وقال الشافعي: «إذا كان الأغلب الأظهر من أمره الطاعة والمروءة قبلت شهادته، وإذا كان الأغلب الأظهر من أمره المعصية، وخلاف المروءة، ردت شهادته»[5].

ومن خوارم المروءة الخيانة، ولقد ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم قد رد شهادة من ثبتت عدم عدالته بالخيانة والقذف، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**رد شهادة الخائن والخائنة، وذي الغمر على أخيه، ورد شهادة**

(٣) انظر: البحر المحيط في أصول الفقه، الزركشي، ١/ ٦٥.

(٤) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ١/ ٢٦٨، لباب التأويل، الخازن، ١/ ٣٠٦.

(٥) انظر: الأم، الشافعي، ٧/ ٥٣.

القانع لأهل البيت، وأجازها لغيرهم)[1].

وقوله: القانع، أي: هو السائل المستطعم، وقيل: هو المنقطع إلى القوم يخدمهم، وذلك مثل الأجير والوكيل، ترد شهادته؛ للتهمة، فيجر النفع إلى نفسه؛ لأن التابع لأهل البيت ينتفع بما يصير إليهم، وقوله: الغمر، أي: الحقد والظنين -بالظاء- أي: المتهم.

والقاذف فاسق مردود الشهادة، وإذا تاب وحسنت حالته، قبلت شهادته، سواء أتاب بعد ما أقيم عليه الحد أو قبله، لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۝ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٤].

وهذا قول أكثر أهل العلم[2].

٢. الحرية.

وهي شرط قبول الشهادة؛ لأنها من باب الولايات، والعبد ناقص الحال لا يملك زمام أمره، فيكون أمره في يد غيره.

اتفق الحنفية والمالكية والشافعية على أن الشاهد يشترط فيه أن يكون حرًا، فلا تقبل شهادة رقيق؛ لقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ [النحل: ٧٥].

ولأن الشهادة فيها معنى الولاية، وهو لا ولاية له.

وقال الحنابلة والظاهرية: تقبل شهادة العبد؛ لعموم آيات الشهادة؛ ولأن العبودية ليس لها تأثير في الرد، وقيدها الحنابلة فيما عدا الحدود والقصاص بقوله تعالى: ﴿مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ [البقرة: ٢٨٢][3].

وسأل رجل أحمد بن حنبل عن شهادة العبد هل تجوز؟ فقال: «تقبل شهادة العبد والأمة فيما تقبل فيه شهادة الحر والحرة، وقال: لا أعرف إلا ذلك، ولما سئل بأن النبي صلى الله عليه وسلم أجاز شهادة أمة في الرضاع على شهادة العبد، هل يكون ذا حجة له؟ قال: نعم، وقبلها بعض العلماء في الأمور التافهة فقط»[4].

٣. العلم بما يشهد.

وجب على الشاهد أن يكون على علم تام بما يشهد به، ولا يجوز أن يشهد بما لم يعلم، قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦].

وقال أيضًا: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦] أي: لا تتبعه.

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأقضية، باب من ترد شهادته، ٥/ ٤٥٢، رقم ٣٦٠٠. وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود ٢/ ٣٩٧.

(٢) انظر: شرح السنة، البغوي، ٧/ ١٤٠.

(٣) انظر: جامع الأصول، ابن الأثير، ١٠/ ١٩١، الفقه الإسلامي وأدلته، وهبة الزحيلي، ٨/ ١٧٤.

(٤) انظر: المحرر، ابن عبدالهادي ٢/ ٣٠٧.

والشهادة مشتقة من المشاهدة، وهي المعاينة؛ لأن الشاهد يخبر عما شاهده وعاينه وتم علمه به، ومعناها: الإخبار عما علمه بلفظ أشهد أو شهدت.

والشاهد: حامل الشهادة ومؤديها؛ لأنه شاهد وعالم لما غاب عن غيره، ولذلك قالوا: لا شهادة إلا بعلم، ولا يحل لأحد أن يشهد إلا بعلم.

ومن شروط العلم: العلم بالرؤية؛ كرؤية القتل والإتلاف، أو باستفاضة فيما يتعذر علمه غالبًا بدونها، ومنها ما يكتفى فيه بالسماع.

وتصح الشهادة بالاستفاضة عند الشافعية في النسب والولادة والموت والعتق والولاء والولاية والوقف والعزل والنكاح وتوابعه، وكذلك التعديل والتجريح والوصية والرشد والسفه والملك.

وقال أبو حنيفة: «تجوز في خمسة أشياء: (النكاح، والدخول، والنسب، والموت، وولاية القضاء)»، وقيل: تصح في سبعة: (النكاح، والنسب، والموت، والعتق، والولاء، والوقف، والملك المطلق)[1].

ثالثًا: مقاصد الإشهاد:

لقد ورد بيان إشهاد الصادق العدل من المسلمين عليها؛ لحكم ومقاصد أرادها الله تعالى بالكتابة والشهود، بيان بعضها فيما يأتي:

حكمة الكتابة والإشهاد في دين المال وما كان في الأجل:

قال تعالى: ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾

وقال في الوصية والرجعة ﴿وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾؛ لأن المستشهد هناك صاحب الحق، فهو يأتي بمن يرضاه لحفظ حقه، فإن لم يكن عدلًا كان هو المضيع لحقه[2].

الحكمة من قبول شهود ترد شهاداتهم:

وقد اتفق العلماء على أن هناك مواضع حاجات يقبل فيها من الشهادات ما لا يقبل في غيرها[3] من حيث الجملة، وإن اختلفوا في بعض التفاصيل، وذلك لحكم أرادها الشرع فيها، مثال ذلك: قد أمر الله سبحانه بالعمل بشهادة شاهدين من غير المسلمين عند الحاجة في الوصية في السفر، وذلك لحكمة حفظ الحقوق وعدم تركها للضياع، وكقبول شهادة النساء منفردات في الأعراس والحمامات، والمواضع التي تنفرد النساء بالحضور فيها، فقبول شهادتهن هنا أولى من قبول شهادة الكفار على الوصية في السفر، وذلك لحكمة الستر على العورات والأعراض، وكذلك عمل الصحابة وفقهاء المدينة بشهادة الصبيان على تجارح بعضهم

(١) انظر: فقه السنة، سيد سابق، ٣/ ٢٢٨.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١/ ١٠٥٠.

(٣) انظر: إعلام الموقعين، ابن القيم ١/ ٩٧، ٩٨.

بعضًا، وذلك لحكمة أن الرجال لا يحضرون معهم في لعبهم، ولو لم تقبل شهادتهم وشهادة النساء منفردات لضاعت الحقوق، وتعطلت وأهملت مع غلبة الظن، أو القطع بصدقهم، ولا سيما إذا جاءوا مجتمعين قبل تفرقهم ورجوعهم إلى بيوتهم، وتواطئوا على خبر واحد، واتفقت كلمتهم، فإن الظن الحاصل حينئذ من شهادتهم أقوى بكثير من الظن الحاصل من شهادة رجلين، وهذا مما لا يمكن دفعه وجحده، فلا نظن أن الشريعة الكاملة الحريصة على مصالح العباد في معاشهم ومعادهم وحياتهم، أنها تهمل مثل هذه الحكم والفوائد في الشهادة على الحقوق والمعاملات والحوادث وعدم تضيعها[1].

ويستفاد من الأيات السابق ذكرها -آيتا سورة البقرة- أن الله جعل شهودًا على وثيقة الدين لما لها من أهمية في حفظ الحقوق للدائن والمدين، وبين صفات الشهود، مثل: الإسلام، والبلوغ، والعقل، والخلو من صفة الفسق وخوارم المروءة، وكذلك الحرية.

(١) انظر: المصدر السابق.

تحريم الإضرار في الكتابة والإشهاد

شرع الله لكتابة العقود المتعلقة بالديون وغيرها، والشهادة عليها ضوابط تضبطها، مع المحافظة على حقوق أخرى متعلقة بالكتابة والشهادة بحيث ألا تؤثر عليها، وهي مبينة فيما يأتي:

أولًا: تحريم الإضرار بالكتاب والشهود:

إن كتابة عقد الدين شرع شرعه الله تعالى، وكذلك الشهادة عليه شرع، وحماية الكاتب والشاهد والمتداينين كذلك شرع شرعه الله تعالى أوجب على عباده أن يحافظوا عليه.

قال تعالى: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

فالكاتب والشاهد في العقود المبرمة بين المتعاقدين يؤديان عملًا إنسانيًا، حسبة لوجه الله تعالى، فمن الظلم أن يقوما بعمل يبتغيان به وجه الله تعالى، وبعد ذلك يمسهما سوء، أو ينالهما أذى من أجل هذا العمل الذي يقومان به، فإذا لم يتيسر سبل كتابة العقد، والشهادة عليه، ولم يمط عنهما كل أذى، فهذا يؤدي لزهد الناس في هذا العمل الخير والابتعاد عنه.

لهذا جاء قول الله تعالى: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ

﴿وَلَا شَهِيدٌ﴾ حماية للإحسان وللمحسنين من أن يكدر صفو الإحسان، وأن يساء إلى أهله بأي لون من ألوان الأذى المادي أو الأدبي[(١)].

إن الله تعالى يعلم أن كل إنسان له مصالحه في الحياة، ويجب ألا تتعطل أو تتعطل هذه المصالح أمام قضاء مصالح غيره، فالشاهد أو الكاتب حينما يستدعى الواحد منهم ليشهد أو ليكتب لمصلحة غيره، يجب ألا تتعطل مصالحه؛ لذلك قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾.

والله تعالى قد حذر الدائن والمدين من أن ينال كلاهما أو أحدهما الكاتب أو الشاهد أذى منهم، فإن فعلوا كان ذلك فسقًا منهم، وخروجًا على سنة العدل والإحسان، وتعديًا على حدود الله، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾[(٢)].

ثانيًا: إضرار الكتاب والشهود بالمتداينين:

وكما أن الله تعالى قد حذر من مغبة الضرر بالكاتب والشهيد وتضييع مصالحهما، بسبب استغلال عدالتهما، نجد أن الله تعالى قد حذر أيضًا من إضرار الكاتب أو الشهيد لأحد المتداينين، فنجده سبحانه وضع شروطًا على الكتاب والشهود، من أهمها عدم الإضرار بالدائن أو المدين، قال تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

ومن أصناف الضرر الواقع في كتابة الدين: إضرار الكاتب والشاهد بأحد المتداينين، وبيان ذلك فيما يلي:

في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ هذا نهي عن المضارة لأحد الطرفين سواء الشاهد والكاتب أو أحد المتداينين، وقد تبين فيما سبق كيفية إضرار الدائن أو المدين أو كليهما بالشاهد أو الكاتب، أما إضرار الشاهد والكاتب بالمتداينين، فإن أصل لفظة ﴿يُضَآرَّ﴾ هو يضارر، بكسر الراء الأولى، ومعناه: لا يضار الكاتب بأن يكتب أو يشهد، فيكون منه بذلك الضرر، والضرر منهما على عدة وجوه، منها:

الوجه الأول: بأن يدعى الكاتب للكتابة وهو أهل لها فيأبى أن يكتب، أو يدعى الشاهد للشهادة وهو أهل لها، فيأبى أن يشهد، فلا يجدان الرجل العدل الذي يكتب أو يشهد، فبذلك يضار المتداينان بكتابة أو شهادة غير عدل[(٣)].

الوجه الثاني: حيث يضر الكاتب فيزيد

(١) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب، ٣/ ٣٨٥.
(٢) انظر: تفسير الشعراوي ١/ ٧٨٣.
(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن، ١/ ٣٠٨.

فيما يملى عليه في نص العقد، أو ينقص منه كلام أملي عليه كتابته، أو يحرف الكلام الذي أملي عليه بكلام غير مفهوم، أو كلام فيه غش وخداع لأحد الطرفين، فيضر صاحب الحق أو من عليه الحق[1].

وكذلك الشاهد إذا غير وبدل بشهادته، أو أنكرها أو أنكر بعضها، أو كذب وحلف الأيمان الباطلة على شهادته، فهو بذلك قد أضر أحد الطرفين من المتداينين[2].

يقول الثعلبي: في قوله: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ هو نهي الغائب، وأصله: يضارر، فأدغمت الراء في الراء، ونصبت؛ لحق التضعيف؛ لاجتماع الساكنين، والفتح أخف الحركات فحركت إليه.

وأما تفسير الآية: فأجراها بعضهم على الفعل المعروف، وقال: أصله يضارر بكسر الراء وجعل الفاعل الكاتب والشهيد، معناه: ولا يضار كاتب فيكتب ما لم يملل عليه، (يزيد أو ينقص أو يحرف)، ولا شهيد فيشهد مالم يشهد عليه، أو يمتنع من إقامة الشهادة. وهذا قول طاووس، والحسن، وقتادة، وابن زيد. وأجراه آخرون على الفعل المجهول، وجعلوا الكاتب والشهيد مفعولين، وقالوا: أصله لا يضارر.

ومعنى الآية: أن الرجل يدعوا الكاتب أو الشهيد وهما على حاجة مهمة، فيقولان: إنا مشغولان فاطلب غيرنا، فيقول الذي يدعوه: إن الله أمركما أن تجيبا في الكتابة والشهادة، ويلح عليهما ويشغلهما عن حاجتهما، فنهى الله عز وجل عن مضارتهما، وأمر أن يطالب غيرهما.

وقال الربيع بن أنس: «لما نزلت هذه الآية: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ﴾ وقوله: ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟﴾. كأن أحدهما يجيء إلى الكاتب فيقول له: أكتب، فيقول: إني مشغول، أو لي حاجة، فانطلق إلى غيري، فيلزمه ويقول: إنك قد أمرت بالكتابة، فلا يدعه فيضاره بذلك، وهو يجد غيره، وكذلك يفعل مع الشاهد، فأنزل الله تعالى: الآية، ودليل هذا التأويل قراءة عمر وأبي وابن مسعود ومجاهد: ﴿وَلَا يضارر كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ بإظهار التضعيف على وجه من لم يمنع.

وقرأ أبو جعفر: ولا يضار، مجزومًا مخففًا براء واحدة أصلًا.

وقرأ الحسن: (ولا يضار) بكسر الراء مشددًا[3].

ونستدل مما سبق أن الله تعالى كما حفظ حقوق المتداينين من أي ضياع يلحق بهما؛ فقد حفظ أيضًا الكاتب والشاهد من أي ضرر يلحق بهما من شهادته أو كتابته،

(١) انظر: المصدر السابق.
(٢) انظر: المصدر السابق.
(٣) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي، ٢/ ٢٩٧.

أو يلحق الكاتب أو الشهيد أي ضرر بأحد المتداينين من خلال كتابته أو شهادته، ثم توعد من فعل مثل ذلك بالعقاب الشديد.

الرهن في الدين

لقد اقتضت حكمة الله تعالى ورحمته بعباده تيسير أمور حياتهم، فجعل لهم البدائل لبعض الأحكام التي أقرها عليهم حينما يتعسر عليهم تطبيقها، ومن هذه الأمور: الرهن، فحينما يتعسر كتابة الدين لأي ظرف طارئ كالسفر، وعدم وجود كاتب أو شهيد لكتابة عقد الدين، يتم البدل عنه بالرهن، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

والرهن: حبس الشيء بحق يمكن أخذه منه؛ كالدين[١].

وقيل: «احتباس العين وثيقة بالحق؛ ليستوفي الحق من ثمنها أو من ثمن منافعها عند تعذر أخذه من الغريم»[٢].

والله تعالى جعل للرهن أحكامًا أوجب على المسلمين الأخذ بها، بيانها فيما يأتي:

١ . القبض.

أي: قبض الشيء المرهون، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾.

يقول السعدي: «أي: إن كنتم مسافرين ولم تجدوا كاتبًا يكتب بينكم ويحصل به التوثق، فحينها رهان مقبوضة، أي: يقبضها

(١) انظر: التعريفات، الجرجاني، ص١٥٠.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٣/ ٤٠٩.



صاحب الحق، وتكون وثيقة عنده حتى يأتيه حقه، ودل هذا على أن الرهن غير المقبوضة لا يحصل منها التوثق، ودل أيضًا على أن الراهن والمرتهن لو اختلفا في قدر ما رهنت به، كان القول قول المرتهن، ووجه ذلك أن الله جعل الرهن عوضًا عن الكتابة في توثق صاحب الحق، فلولا أن قول المرتهن مقبول في قدر الذي رهنت به لم يحصل المعنى المقصود، ولما كان المقصود بالرهن التوثق جاز حضرًا وسفرًا، وإنما نص الله على السفر؛ لأنه في مظنة الحاجة إليه؛ لعدم الكاتب فيه، هذا كله إذا كان صاحب الحق يحب أن يتوثق لحقه»[1].

٢. الرهن بالسفر والحضر.

لما ذكر الله تعالى الندب إلى الإشهاد والكتابة لمصلحة حفظ الأموال، عقب ببيان حال الأعذار المانعة من الكتابة، وجعل لها بديلًا وهو الرهن، وجعل من أهم الأعذار، السفر الذي هو غالب على كل الأعذار، وليس معنى ذلك أن الرهن مرهون على السفر فقط، فرب وقت يتعذر فيه الكاتب في الحضر فيندب بذلك البدل، وهو الرهن، وأيضًا فالخوف على خراب ذمة الغريم عذر يوجب طلب الرهن، وقد رهن النبي صلى الله عليه وسلم درعه عند يهودي طلب منه سلف الشعير[2].

عن عائشة قالت: **(توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعًا من الشعير)**[3].

فهذا بيان أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أعطى رهنًا في حضر، حيث الطعام لأهل بيته وليس للسفر[4].

٣. الأمانة.

إن حكم الأمانة لا تتوقف على المدين فقط، بل تطلب من الدائن بحفظ الرهن الذي بحوزته، وذلك من الضياع أو الخراب أو التلف، إذًا طلب الأمانة لا تتوقف على المدين فقط، فهناك دائن قابض لرهن بدلًا من ماله يطلب منه الأمانة في حفظ ما عنده من رهن.

يقول الشعراوي: «قد نفهم أن الذي اؤتمن هو المدين، وهنا نقول: لا، إن الأمر مختلف، فهناك رهان، وذلك معناه وجود مسألتين:

المسألة الأولى: هي الدين.

والمسألة الثانية: هي الرهان المقبوضة،

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص١٩٠.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٣/ ٤٠٩.

(٣) أخرج البخاري في صحيحه، كتاب الرهن، باب ما قيل في درع النبي صلى الله عليه وسلم، ٤/ ٤١، رقم ٢٩١٦.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٣/ ٣٨٦.

وهي مقابل الدين.

فواحد مأمون على الرهن في يده، والآخر مأمون على الدين، ولهذا يكون القول الحكيم مقصودًا به من بيده الرهن، ومن بيده الدين، ومعنى ذلك: أن يؤدي من معه الرهن أمانته، وأن يؤدي الآخر دينه.

وحين نرتقي إلى هذا المستوى في التعامل، فإن وازع الإنسان ليس في التوثيق الخارج عن ذات النفس، ولكنه التوثيق الإيماني بالنفس، ولكن أنضمن أن يوجد التوثيق الإيماني عند كل الناس؟ أنضمن الظروف؟ نحن لا نضمن الظروف، فقد توجد الأمانة الإيمانية وقت التحمل والأخذ، ولا نضمن أن توجد الأمانة الإيمانية وقت الأداء»[1].

وقد وضع القرطبي في تفسيره عدة مسائل تتعلق بالرهن من أهمها[2]:

الأولى: قال جمهور من العلماء: الرهن في السفر بنص التنزيل، وفي الحضر ثابت بسنة الرسول صلى الله عليه وسلم، منها ما ورد في الصحيحين وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها: (توفي رسول الله صلى الله عليه و سلم ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعًا من شعير لأهله)[3].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا﴾ قرأ الجمهور (كاتبًا) بمعنى: رجل يكتب، وقرأ ابن عباس وأبي ومجاهد والضحاك وعكرمة وأبو العالية: ﴿وَلَمْ تَجِدُوا كتابًا﴾، فسره مجاهد فقال: «معناه: فإن لم تجدوا مدادًا، يعني: في الأسفار»، قال النحاس: «هذه القراءة شاذة، والعامة على خلافها، وقلما يخرج شيء عن قراءة العامة إلا وفيه مطعن، ونسق الكلام على (كاتب)»، قال الله تعالى: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾[البقرة: ٢٨٢].

قال ابن عطية: «(كتابًا) يحسن من حيث لكل نازلة (كاتب)، فقيل: كتابًا للجماعة، أي: ولم تجدوا كتابًا».

وأما قراءة أبي وابن عباس: (كتابًا)، فقال النحاس ومكي: هو جمع كاتب، والمعنى: وإن عدمت الدواة والقلم والصحيفة، ونفي وجود الكاتب، يكون بعدم وجود أي آلة، ونفي الكتاب أيضًا يقتضي نفي الكتاب، فالقراءتان حسنتان إلا من جهة خط المصحف.

الثالثة: ولما كان الرهن بمعنى الثبوت والدوام، فمن ثم بطل الرهن عند الفقهاء إذا خرج من يد المرتهن إلى الراهن بوجه من الوجوه؛ لأنه فارق ما جعل باختيار المرتهن له.

---

(١) تفسير الشعراوي ١/ ٧٨٩.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٣/ ٤٠٨-٤١٤.

(٣) سبق تخريجه قريبًا.

قال أبو حنيفة: «إن رجع بعارية أو وديعة لم يبطل»، وقال الشافعي: «إن رجوعه إلى يد الراهن مطلقًا لا يبطل حكم القبض المتقدم ودليلنا: ﴿فَرِهَٰنٌ مَّقۡبُوضَةٌ﴾، فإذا خرج عن يد القابض لم يصدق ذلك اللفظ عليه لغة، فلا يصدق عليه حكمًا، وهذا واضح».

الرابعة: إذا رهنه قولًا ولم يقبضه فعلًا لم يوجب ذلك حكمًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَرِهَٰنٌ مَّقۡبُوضَةٌ﴾.

قال الشافعي: «لم يجعل الله الحكم إلا برهن موصوف بالقبض، فإذا عدمت الصفة، وجب أن يعدم الحكم وهذا ظاهر جدًّا».

الخامسة: قوله تعالى: ﴿مَّقۡبُوضَةٌ﴾ يقتضي بينونة المرتهن بالرهن، وأجمع الناس على صحة قبض المرتهن، وكذلك على قبض وكيله، واختلفوا في قبض عدل يوضع الرهن على يديه، فقال مالك وجميع أصحابه وجمهور العلماء: قبض العدل قبض، وقال قتادة وعطاء: ليس بقبض، ولا يكون مقبوضًا إلا إذا كان عند المرتهن، وقول الجمهور أصح من جهة المعنى؛ لأنه إذا صار عند العدل صار مقبوضًا لغة وحقيقة؛ لأن العدل نائب عن صاحب الحق وبمنزلة الوكيل، وهذا ظاهر.

السادسة: ولو وضع الرهن على يدي عدل فضاع لم يضمن المرتهن ولا الموضوع على يده؛ لأن المرتهن لم يكن في يده شيء يضمنه، والموضوع في يد أمين، والأمين غير ضامن.

السابعة: انتفاع المرتهن من الرهن، روي من حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (الرهن يركب بنفقته، إذا كان مرهونًا، ولبن الدر يشرب بنفقته، إذا كان مرهونًا، وعلى الذي يركب ويشرب النفقة)[1].

قال الطحاوي: «كان ذلك وقت كون الربا مباحًا، ولم ينه عن قرض جر منفعة ولا عن أخذ الشيء بالشيء، وإن كانا غير متساويين، ثم حرم الربا بعد ذلك، وقد أجمعت الأمة على أن الأمة المرهونة لا يجوز للراهن أن يطأها، فكذلك لا يجوز له خدمتها».

وقال بعضهم: ولو شرط المرتهن الانتفاع بالرهن فلذلك حالتان: إن كان من قرض لم يجز، وإن كان من بيع أو إجارة جاز؛ لأنه يصير بائعًا للسلعة بالثمن المذكور، ومنافع الرهن مدة معلومة، فكأنه بيع وإجارة، وأما في القرض فلأنه يصير قرضًا جر منفعة؛ ولأن موضوع القرض أن يكون قربة، فإذا دخله نفع صار زيادة في الجنس وذلك ربًا.

الثامنة: لا يجوز غلق الرهن، وهو أن يشترط المرتهن أنه له بحقه إن لم يأته به عند أجله، وكان هذا من فعل الجاهلية، فأبطله

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرهن، باب الرهن مركوب ومحلوب، ٣/ ١٤٣، رقم ٢٥١٢.

النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: (لا يغلق الرهن من صاحبه الذي رهنه له غنمه وعليه غرمه)، قال الشافعي رضي الله عنه: «غنمه: زيادته، وغرمه: هلاكه ونقصه»[1].

التاسعة: ورهن من أحاط الدين بماله جائز ما لم يفلس، ويكون المرتهن أحق بالرهن من الغرماء، وروي عن مالك خلاف هذا فقال: «إن الغرماء يدخلون معه في ذلك».

موضوعات ذات صلة:

الأجل، الشهادة، المال، الوراثة، الوصية

(١) انظر: مسند الشافعي ص١٤٨.





عناصر الموضوع

مفهوم الذكر

أولًا: المعنى اللغوي:

(ذ ك ر) الذال والكاف والراء أصلان، عنهما يتفرع كلم الباب.

فالأصل الأول: الذكر (بالفتح): خلاف الأنثى، والأصل الآخر: الذكر (بالكسر): الحفظ للشيء، تذكره، والذكر: جري الشيء على اللسان، وذكرت الشيء: خلاف نسيته، ثم حمل عليه الذكر باللسان، ويقولون: اجعله منك على ذكرٍ، بضم الذال، أي: لا تنسه. والذكر: العلاء والشرف، وهو قياس الأصل.

فعلى الأصل الثاني (الذكر) بالكسر له معنيان: أحدهما: التلفظ بالشيء، والثاني: إحضاره في الذهن، بحيث لا يغيب عنه، وهو ضد النسيان، و(الذكر) بالضم للمعنى الثاني لا غير. أي: أن الذكر بالكسر ما يكون باللسان، وبالضم ما يكون بالجنان.

وإذا أريد بالذكر الحاصل بالمصدر جمع على (أذكار) وهو الإتيان بألفاظٍ ورد الترغيب فيها، ويطلق ويراد به المواظبة على العمل بما أوجب أو ندب إليه، كالتلاوة، وقراءة الأحاديث، ودرس العلم، والنفل بالصلاة[(١)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال ابن علان: «أصل وضع الذكر هو ما تعبدنا الشارع بلفظه، مما يتعلق بتعظيم الحق، والثناء عليه»[(٢)].

ونجد أن الذكر عند ابن تيمية واسع الدلالة؛ إذ هو عنده: «كل ما تكلم به اللسان، وتصوره القلب، مما يقرب إلى الله من تعلم علم، وتعليمه، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر فهو من ذكر الله؛ ولهذا من اشتغل بطلب العلم النافع بعد أداء الفرائض، أو جلس مجلسًا يتفقه، أو يفقه فيه الفقه الذي سماه الله ورسوله فقهًا، فهذا أيضًا من أفضل ذكر الله»[(٣)].

وعرفه ابن القيم في الوابل الصيب بقوله: «الذكر ثناء على الله عز وجل بجميل أوصافه

---

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٠/ ٩٤، مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٣٥٨، تاج العروس، الزبيدي ١١/ ٣٨٧.

(٢) الفتوحات الربانية شرح الأذكار النووية ١/ ٣٩٦.

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/ ٦٦١.



وآلائه وأسمائه»[1].

والمقصود: أن الذكر في الاصطلاح يستعمل بمعنى ذكر العبد لربه عز وجل، سواء بالإخبار المجرد عن ذاته أو صفاته أو أفعاله أو أحكامه، أو بتلاوة كتابه، أو بمسألته ودعائه، أو بإنشاء الثناء عليه بتقديسه، وتمجيده وتوحيده وحمده وشكره، وتعظيمه، ويستعمل الذكر اصطلاحًا بمعنى أخص من ذلك، فيكون بمعنى إنشاء الثناء بما تقدم دون سائر المعاني الأخرى المذكورة، ويشير إلى الاستعمال بهذا المعنى الأخص قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

فبعد أن ذكر الصلاة وهي ذكر بالمعنى العام، قال بعدها: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي: بالمعنى الأخص.

ويلحظ أن الذكر اصطلاحًا مخصوص بذكر العبد ربه عز وجل، بالثناء عليه.

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب ص ٨٩.

الذكر في الاستعمال القرآني

وردت مادة (ذكر) في القرآن الكريم (٢٤٢) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢٧	﴿وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ١٥﴾ [الأعلى:١٥]
الفعل المضارع	٧١	﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ [الأنبياء:٣٦]
فعل الأمر	٥٦	﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا﴾ [آل عمران:٤١]
اسم فاعل	١٠	﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب:٣٥]
اسم مفعول	١	﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ١﴾ [الإنسان:١]
مصدر	٧٧	﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗا﴾ [البقرة:٢٠٠]

وجاء الذكر في القرآن على ثمانية أوجه[٢]:

الأول: الطاعة والعمل الصالح، قال تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البقرة:١٥٢]، يعني: اذكروني بالطاعة وأطيعوني، أذكركم بخير.

الثاني: الحفظ، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٦٣﴾ [البقرة:٦٣]، يعني: احفظوا ما في التوراة.

الثالث: التوحيد، قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا﴾ [طه:١٢٤]، يعني: عن توحيده سبحانه.

الرابع: الشرف، قال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡ﴾ [الأنبياء:١٠]، يعني:

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٢٧٠- ٢٧٥.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر في القرآن، مقاتل بن سليمان، ص٥١- ٥٥، الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٢١٧- ٢٢٠، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص٣٠١- ٣٠٥.

شرفكم.

الخامس: الوعظ، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [الأنعام:٤٤]، يعني: ما وعظوا به.

السادس: الخبر، قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾ [الكهف:٨٣]، يعني: خبرًا.

السابع: الوحي، قال تعالى: ﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا﴾ [ص:٨]، يعني: الوحي.

الثامن: البيان، قال تعالى: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾﴾ [ص:١]، يعني: ذي البيان.

الألفاظ ذات الصلة

١ التسبيح:

التسبيح لغةً:

تدل مادة (سبح) على التنزيه والتبرئة من السوء.

ومعنى: (سبحان الله): تنزيه الله وبراءته من السوء[١].

التسبيح اصطلاحًا:

التنزيه والتعظيم لله تعالى[٢].

الصلة بين التسبيح والذكر:

إن الذكر أعم من التسبيح، والتسبيح أخص من الذكر، فكل تسبيح ذكر وليس العكس.

٢ الدعاء:

الدعاء لغة:

مأخوذ من مادة (د ع و) التي تدل في الأصل على إمالة الشيء إليك بصوت وكلام يكون منك، ومن هذا الأصل الدعاء في معنى الرغبة إلى الله عز وجل، وهو واحد الأدعية، والفعل من ذلك دعا يدعو، والمصدر الدعاء والدعوى[٣].

الدعاء اصطلاحًا:

هو سؤال العبد ربه حاجته.

الصلة بين الدعاء والذكر:

بينهما عموم وخصوص، فكل دعاء ذكر لله، وليس كل ذكر دعاء.

قال ابن القيم: «إن الدعاء هو ذكر للمدعو سبحانه، متضمن للطلب منه والثناء عليه بأسمائه وأوصافه، فهو ذكر وزيادة، كما أن الذكر سمي دعاء لتضمنه الطلب، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (أفضل الدعاء الحمد لله)، فسمى الحمد لله دعاء، وهو ثناء محض؛ لأن الحمد يتضمن الحب والثناء، والحب أعلى أنواع الطلب للمحبوب، فالحامد طالب لمحبوبه، فهو أحق أن يسمى داعيًا من السائل الطالب من ربه حاجة ما»[٤].

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ١٢٥، لسان العرب، ابن منظور ٣/ ١٩١٤.
(٢) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ٢٢٣، لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٤٧٢.
(٣) انظر: الصحاح، الجوهري ٦/ ٢٣٣٧، مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٢٨٠.
(٤) بدائع الفوائد ٣/ ٩.



كيفية الذكر

أولًا: السر والجهر:

ذكر الله مشروع سرًا وجهرًا، إلا أن الأفضل فيه أن يكون دون الجهر من القول، أي: معتدلًا، فقد ذكر الله تعالى من آداب الذكر خفض الصوت، وعدم الجهر به، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

ونظيره في الدعاء قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥].

فقوله: ﴿فِى نَفْسِكَ﴾ فيها استحباب إمرار الذكر بالقلب، أو يكون المعنى: أن يذكر الله بينه وبين نفسه بحيث لا يطلع عليه أحد من شدة المخافتة. أو ﴿فِى نَفْسِكَ﴾ بأن تستحضر معنى أسمائه وصفاته وآلائه وفضله عليك، وحاجتك إليه، متضرعًا له، خائفًا منه، راجيًا نعمه[1].

قال الجصاص: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ﴾ هو الفكر في دلائل الله وآياته[2].

وهذا الذكر لا بد أن يكون ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ والتضرع: التذلل؛ ولما كان التذلل يستلزم الخطاب بالصوت المرتفع في عادة العرب كنى بالتضرع عن رفع الصوت مرادًا به معناه الأصلي والكنائي؛ ولذلك قوبل بالخفية في قوله: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ وقوبل التضرع هنا بالخيفة، وهي اسم مصدر الخوف، فهو من المصادر التي جاءت على صيغة الهيئة، وليس المراد بها الهيئة مثل الشدة، ولما كانت الخيفة انفعالًا نفسيًا يجده الإنسان في خاصة نفسه كانت مستلزمة للتخافت بالكلام خشية أن يشعر بالمرء من يخافه؛ فلذلك كني بها هنا عن الإسرار بالقول مع الخوف من الله، فمقابلتها بالتضرع طباق في معنيي اللفظين الصريحين، ومعنييهما الكناءين، فكأنه قيل: تضرعًا وإعلانًا، وخيفة وإسرارًا.

وبين ابن القيم الفرق بين الخيفة والخفية بقوله: «وتأمل كيف قال في آية الذكر: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾، وفي آية الدعاء: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ فذكر التضرع فيهما معًا، وهو التذلل والتمسكن والانكسار، وهو روح الذكر والدعاء، وخص الدعاء بالخفية لما ذكرنا من الحكم وغيرها، وخص الذكر بالخيفة لحاجة الذاكر إلى الخوف، فإن الذكر يستلزم المحبة ويثمرها ولا بد، فمن أكثر من ذكر الله أثمر له ذلك محبته، والمحبة ما لم تقرن بالخوف فإنها لا تنفع صاحبها بل قد تضره؛ لأنها توجب الإدلال

---

(١) تفسير المراغي ٩/ ١٥٦.
(٢) أحكام القرآن، الجصاص ٤/ ٢٢٢.

والانبساط، وربما آلت بكثير من الجهال المغرورين إلى أنهم استغنوا بها عن الواجبات، وقالوا: المقصود من العبادات إنما هو عبادة القلب وإقباله على الله ومحبته له وتألهه له، فإذا حصل المقصود فالاشتغال بالوسيلة باطل»[1].

فذكر الله -الذي حث عليه هذه الآية وغيرها- ليس مجرد الذكر بالشفة واللسان؛ ولكنه الذكر بالقلب والجنان، فذكر الله إن لم يرتعش له الوجدان، وإن لم يخفق له القلب، وإن لم تعش به النفس، إن لم يكن مصحوبًا بالتضرع والتذلل والخشية والخوف لن يكون ذكرًا، بل قد يكون سوء أدب في حق الله سبحانه، إنما هو التوجه إلى الله بالتذلل والضراعة، وبالخشية والتقوى، إنما هو استحضار جلال الله وعظمته، واستحضار المخافة لغضبه وعقابه، واستحضار الرجاء فيه، والالتجاء إليه، حتى يصفو الجوهر الروحي في الإنسان، ويتصل بمصدره اللدني الشفيف المنير، فإذا تحرك اللسان مع القلب وإذا نبست الشفاه مع الروح؛ فليكن ذلك في صورة لا تخدش الخشوع، ولا تناقض الضراعة؛ ليكن ذلك في صوت خفيض، لا مكاء وتصدية، ولا صراخًا وضجة، ولا غناء وتطرية![2].

وقوله: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ هو مقابل لكل من التضرع والخيفة، وهو الذكر المتوسط بين الجهر والإسرار، والمقصود من ذلك استيعاب أحوال الذكر باللسان؛ لأن بعضها قد تكون النفس أنشط إليه منها إلى البعض الآخر[3].

فيستفاد من ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ﴾ أي: دون الرفع في القول، أي: أسمع نفسك، كما قال: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠].

أي: بين الجهر والمخافتة، ودل هذا على أن رفع الصوت بالذكر -رفعًا فاحشًا- ممنوع[4]، فيكون في هذا التعبير استحباب ألا يكون الذكر نداء وجهرًا بليغًا.

والظاهر أن قوله: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ حالة مغايرة لقوله: ﴿فِي نَفْسِكَ﴾ لعطفها عليها، والعطف يقتضي التغاير، فكأن الأولى معناها: أن يذكر الله بينه وبين نفسه بحيث لا يطلع عليه أحد، والثانية: إمرار الذكر بالقلب دون نطق.

لكن الجمهور على أنهما حالة واحدة، والمعنى: اذكر ربك بحيث تسمع نفسك لكن دون الجهر من القول، أي: مخافتة.

قال ابن عطية: «والجمهور على أن الذكر لا يكون في النفس، ولا يراعى إلا بحركة

(١) التفسير القيم ص ٢٥٩.
(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٤٢٦.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٢٤٢.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٣٥٥.

اللسان، قال: ويدل عليه من هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ فهذه مرتبة السر والمخافتة باللفظ»[١].

قال في البحر: «ولا دلالة في ذلك لما زعم، بل الظاهر المغايرة بين الحالتين، وأنهما ذكران نفساني ولساني»[٢].

ولذلك قال الزمخشري: «ومتكلمًا كلامًا دون الجهر؛ لأن الإخفاء أدخل في الإخلاص، وأقرب إلى التفكر»[٣].

والحاصل: أن في الآية خطابًا للنبي الكريم ينضوي تحته المؤمنون جميعًا، ومطلوب هذا الخطاب هو ذكر الله دون الجهر من القول، وشغل القلب به في صمت وخشوع، وفي ضراعة لكبرياء الله، وخوف ورهب لسطوته وجبروته.

وهذا الذكر يشمل: ذكر القلب، حيث تسكن كل جارحة، وحيث يكون الإنسان كله مشاعر خاشعة، تلين بها الجلود، وتفيض منها العيون، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣][٤].

ويشمل ذكر اللسان، وهو في درجة بعد هذه الدرجة، ومنزلة دون تلك المنزلة التي هي من شأن القلب وحده، ويلي هاتين المرتبتين مرتبة أعلى منهما، وهي أن يواطئ القلب اللسان في الذكر.

وهذه الآية قد اشتملت على الجمع بين الأمر بذكر الله والنهي عن ضده وهو الغفلة، وهذه الآية إضافة إلى دلالتها على ذلك، فقد اشتملت على جملة طيبة من الآداب الكريمة التي ينبغي أن يتحلى بها الذاكر، ومن هذه الآداب:

١ . أن يكون الذكر سرًا.

فالإخفاء أدخل في الإخلاص، وأقرب إلى الإجابة، وأبعد من الرياء.

فإن قيل: فما وجه الفرق بين الذكر وقراءة القرآن؟ فلماذا طلب في الذكر أن يكون خفية ودون الجهر من القول، ولم يطلب ذلك في القرآن مع أن القراءة أيضًا ذكر؟ والجواب: أن القرآن مشتمل على الوعظ والقصص الموجبة للعبرة والأحكام، ونظمه معجز جاذب للقلوب السقيمة إلى الإسلام.

ولذا قال الله تعالى: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦].

وقراءته باللسان عبادة زائدة على الذكر الذي هو عبادة عن طرد الغفلة عن الجنان، وإسماعه غيره عبادة أخرى مرغوبة عند

---

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤٩٤.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٢٦٣.
(٣) الكشاف، الزمخشري ٢/ ١٩٢.
(٤) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٥/ ٥٥٣.

الرحمن بخلاف الذكر والدعاء، فإن المقصود من الدعاء الإجابة، ومن الذكر النسيان عما يشغله من العزيز المنان حتى يسقط عن بصيرته نفس الذكر، بل الذاكر أيضًا، ولا يبقى في بصيرته إلا الواحد القهار[1].

٢. أن يكون مصحوبًا بالتضرع.

وهو التذلل والخضوع والاعتراف بالتقصير ليتحقق فيه ذلة العبودية، والانكسار لعظمة الربوبية.

٣. أن يكون مصحوبًا بخوف.

أي: الخوف من المؤاخذة على التقصير في العمل، والخشية من الرد، وعدم القبول، قال الله تعالى في صفة المؤمنين المسارعين في الخيرات، السابقين لأرفع الدرجات: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ۝٦٠ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠، ٦١].

٤. أن يكون دون الجهر؛ لأنه أقرب إلى حسن التفكر.

قال ابن كثير رحمه الله: «ولهذا قال: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ وهكذا يستحب أن يكون الذكر لا يكون نداءً ولا جهرًا بليغًا»[2].

وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: (كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكنا إذا أشرفنا على وادٍ هللنا وكبرنا، ارتفعت أصواتنا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (يا أيها الناس اربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا، إنه معكم، إنه سميع قريب)[3].

٥. أن يكون باللسان لا بالقلب وحده.

وهو مستفادٌ من قوله: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ﴾؛ لأن معناه: ومتكلمًا كلامًا دون الجهر، ويكون المراد بالآية الأمر بالجمع في الذكر بين اللسان والقلب، وقد يقال: هو ذكره في قلبه بلا لسانه بقوله بعد ذلك: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ إلا أن الأول هو الأصح، كما حقق ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره من أهل العلم.

وقد نظر له رحمه الله بقوله صلى الله عليه وسلم فيما روى عن ربه أنه قال: (من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم)[4].

(١) التفسير المظهري ٣/ ٤٥٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٥٣٩.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من رفع الصوت في التكبير ٤/ ٥٧، رقم ٢٩٩٢.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾، ٩/ ١٢١، رقم ٧٤٠٥.

قال: «وهذا يدخل فيه ذكره باللسان في نفسه، فإنه جعله قسيم الذكر في الملأ، وهو نظير قوله: ﴿وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ والدليل على ذلك أنه قال: ﴿بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ ومعلوم أن ذكر الله المشروع بالغدو والآصال في الصلاة وخارج الصلاة هو باللسان مع القلب، مثل صلاتي الفجر والعصر، والذكر المشروع عقب الصلاتين، وما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم وعلمه وفعله من الأذكار والأدعية المأثورة من عمل اليوم والليلة المشروعة طرفي النهار بالغدو والآصال»[(١)].

٦. أن يكون بالغدو والآصال.

أي: في البكرة والعشي، فتدل الآية على مزية هذين الوقتين؛ لأنهما وقت سكون ودعة وتعبد واجتهاد، وما بينهما الغالب فيه الانقطاع إلى أمر المعاش، وقد ورد أن عمل العبد يصعد أول النهار وآخره، فطلب الذكر فيهما ليكون ابتداء عمله واختتامه بالذكر[(٢)].

٧. النهي عن الغفلة عن ذكره.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ أي: من الذين يغفلون عن ذكر الله، ويلهون عنه، وفيه إشعارٌ بطلب دوام ذكره تعالى، والاستمرار عليه، وأحب العمل إلى الله أدومه وإن قل.

فهذه سبعة آداب عظيمة اشتملت عليها هذه الآية الكريمة، لخصناها من كلام القاسمي في كتاب محاسن التأويل[(٣)].

ومع ما تقدم يمكن القول: إن حكم الجهر والإسرار في الذكر يختلف باختلاف الأشخاص والأحوال، فالإسرار أفضل حيث خيف الرياء، أو تأذي المصلين أو النيام، والجهر أفضل حيث خلا مما ذكر[(٤)].

ويستثنى من هذا الأصل مواضع ينبغي فيها الجهر بالذكر، ورفع الصوت به؛ لما في ذلك من المصالح التي قدرها الشرع في ذلك، ومنها:

- ما قصد به الإسماع والتبليغ، كالأذان والإقامة وتكبيرات الإمام وقراءته في الجهرية، وتكبيرات المبلغ، وإلقاء السلام وجوابه، ونحو ذلك، فيجهر في ذلك بالقدر الذي يحصل به المقصود.
- بعض أنواع أذكار الصلاة، ووردت السنة فيها بالجهر كالبسملة والتأمين والقنوت والتكبير والتسبيح والتحميد بعد الصلاة، وتكبيرات العيد، والتلبية

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٥/ ٣٥.
(٢) أخرجه البخاري في كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر ١/ ١١٥، رقم ٥٥٥، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر، والمحافظة عليهما ١/ ٤٣٩، رقم ٦٣٢.
(٣) محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ٢٤٨.
(٤) الدر المختار، وحاشية ابن عابدين: رد المحتار ٦/ ٣٩٨.

في الحج، وفي بعض ذلك خلاف يرجع إليه في مواضعه.

❁ بعض الأذكار التي يراد بها التنبيه أو التعليم، أو فائدة أخرى كأن يرفع صوته بالتسمية على الطعام حتى ينبه غيره، أو بالقراءة في صلاة الليل ليسمع أهله[1].

فالطريقة المثلى في هذا الباب أن يجهر في الموضع الذي ورد فيه الجهر، ويسر في الموضع الذي ورد فيه الإسرار، والموضع الذي لم يرد فيه الدليل على الجهر أو السر فالذاكر فيه بالخيار، ولكن لا بد للذاكر فيه من ملاحظة الآية السابقة: ﴿فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

قال الشيخ بكر أبو زيد: «مما تقدم يتبين أن الأصل في الذكر والدعاء هو الإسرار، وحده: التلفظ بتحرك اللسان بالحروف من مخارجها بصوت أقله أن يسمع نفسه، والجهر: هو التلفظ بتحريك اللسان بالحروف من مخارجها بصوت يسمعه غيره ممن يليه، ولا حد لأعلاه، والجهر في الذكر والدعاء استثناء لا يكون إلا بما ورد به الشرع، وهو دائر بين الوجوب والاستحباب، وأكثره في الذكر، أو في الذكر المشوب بالدعاء، ثم ذكر ما يجب فيه الجهر، وما يستحب.

ثم قال: ثم أحدث الناس جماعة أو فرادى الجهر الجهير، والمبالغة في رفع الصوت والصياح والصيحة، والذكر والدعاء بالجوقة ويمكبر الصوت، وما يتبع ذلك من الترنيم والتلحين والتطريب والترجيع واللحن بالتحزين»[2].

ثانيًا: القلبي واللساني:

الذكر يكون باللسان، ويكون بالقلب، ويكون بهما معًا، والأفضل منه ما كان بالقلب واللسان جميعًا، فإن اقتصر على أحدهما فالقلب أفضل[3]. وقلنا: إن الأفضل منه الذكر بالقلب مع اللسان؛ لأن الذاكر هنا يعمل آلتين في الذكر وليست آلة واحدة.

١ . الذكر اللساني.

المراد بالذكر باللسان: أن يتحرك به اللسان، ويسمع نفسه على الأقل، إن كان ذا سمع، ولم يكن هناك لغط يمنع السماع، وذكر اللسان على الوجه المبين يتأدى به الذكر المكلف به في الصلاة ونحوها، ولا يجزئ في ذلك مجرد إمرار الذكر المطلوب على القلب[4].

والذكر اللساني هو المراد في إطلاق القرآن، فإذا أطلق الذكر حمل على القول اللساني؛ ولهذا قال الله في شأن التسبيح

(١) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية ٢١/ ٢٢٦.

(٢) تصحيح الدعاء ص٩٠-٩٢.

(٣) الأذكار، النووي ص ٩.

(٤) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية ٢١/ ٢٢٦.

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [الحاقة: ٥٢].

فهناك اسم يذكر، وهذا يدل على وجود قول، قال الرازي: «ولو قال: فسبح ربك، ما أفاد الذكر لهم، وكان ينبوع عن التسبيح بالقلب؛ ولما قال: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ والاسم هو الذي يذكر لفظًا دل على أنه مأمور بالذكر اللساني، وليس له أن يقتصر على الذكر القلبي»[(١)].

وذكر الذكر باللسان في قوله: ﴿وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾ [الزخرف: ١٣].

أي: تنزهوا الله بصريح القول، ومنه قوله في سورة النساء: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٠٣].

يعني: اذكروه باللسان؛ ولهذا قال بعده: ﴿قِيَامًا وَقُعُودًا﴾ وقال في آل عمران مثل ذلك، وقال في سورة البقرة: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: ٢٠٠] باللسان ﴿كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ بألسنتكم ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ يعني: باللسان.

وقال في سورة الأحزاب: ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١] يعني: باللسان.

وقال: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]. كذلك[(٢)].

ومنه قوله: ﴿وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤]. أي: الذكر باللسان.

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٤٢٤.

(٢) انظر: التصاريف لتفسير القرآن مما اشتبهت أسمائه وتصرفت معانيه ص ١٥٨.

والذكر اللساني هو المأمور به في القرآن والسنة، والمترتب عليه الأجور المحددة، قال الفقهاء: وذلك معلوم من أقواله صلى الله عليه وسلم أن من قال كذا فله من الأجر كذا، فلا يحصل ذلك إلا بما يصدق عليه القول، لكن إذا صحب الذكر باللسان حضور القلب والتدبر والعمل بما تقتضيه هذه الأذكار فهذا قدر زائد لا يعرف قدره إلا الله جل وعلا؛ ولذا جاء في الحديث أنه -أي: الذكر-: (أفضل من أن تلقوا عدوكم)[(٣)].

والذكر اللساني مشروع في جميع الأوقات، ويتأكد في بعضها، فمما يتأكد فيه الذكر عقيب الصلوات المفروضات، قال تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ [ق: ٤٠].

ويستحب أيضًا الذكر بعد الصلاتين اللتين لا تطوع بعدهما، وهما: الفجر والعصر، وهذان الوقتان -أعني: وقت الفجر ووقت العصر- هما أفضل أوقات النهار للذكر؛ ولهذا أمر الله تعالى بذكره فيهما في مواضع من القرآن[(٤)]. كما سيأتي.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات، ٥/ ٣٢٠، رقم ٣٣٧٧، وابن ماجه في سننه، كتاب الأدب، باب فضل الذكر، ٢/ ١٢٤٥، رقم ٣٧٩٠.
وصححه الألباني في صحيح الجامع ١/ ٥١٣، رقم ٢٦٢٩.

(٤) جامع العلوم والحكم، ابن رجب ٢/ ٥٢٥.

لكن الذكر باللسان فقط دون معرفة القلب ودون العمل فائدته قليلة وقد لا يفيد، فينبغي للإنسان أن يتعرف على معاني ما يقوله، ويعمل به، ألا ترى أن الفقهاء أجمعوا على أن الرجل إذا قال: بعت واشتريت، مع أنه لا يعرف معاني هذه الألفاظ، ولا يفهم منها شيئًا فإنه لا ينعقد البيع والشراء، فكذا ها هنا(١).

٢. الذكر القلبي.

ومن أنواع الذكر: الذكر القلبي، وهو بمعنى تذكر عظمة الله عند أوامره ونواهيه، وإرادة الفعل الذي فيه رضاه فيفعله، أو الذي فيه سخطه فيتركه، والتفكير في عظمة الله وجبروته وآياته في أرضه وسماواته ومصنوعاته(٢).

قال ابن عاشور: «الذكر القلبي وهو ذكر الله عند أمره ونهيه، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أفضل من ذكر الله باللسان ذكر الله عند أمره ونهيه، وهو الذي في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

فدخل فيه التوبة، ودخل فيها الارتداع عن المظالم كلها من القتل، وأخذ أموال الناس والحرابة، والإضرار بالناس في المعاملات، ومما يوضح شموله لهذه الشرائع كلها تقييده بـ(كثيرًا)؛ لأن المرء إذا ذكر الله كثيرًا فقد استغرق ذكره على المحملين جميع ما يذكر الله عنده»(٣).

وقال الشنقيطي: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ﴾ ذكرين، أما الذكر النفساني فهذا الذي يكون في نفسك لا يعلمه منك إلا ربك، من أن تتفكر في عظمته وسلطانه وجبروته وصفاته وعقابه وثوابه متضرعًا خائفًا منه جل وعلا، وهذا النوع من الذكر القلبي عظيم جدًا، الثاني: ذكر لساني، وقد علمهم جل وعلا آداب الذكر اللساني، وأنهم لا يرفعوا صوته جدًا ولا يخافتوا به جدًا(٤).

وقد استنبط المفسرون إشارات في القرآن يفهم منها الدلالة على هذا النوع من الذكر، وهو الذكر القلبي، قال في اللباب: «ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ والمراد منه: أن العبد يجب أن يكون ذاكرًا لله تعالى في كل الأوقات؛ لأنه حثه على الذكر الغدوات وبالعشيات، ثم عمم بقوله: ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ يعني: أن الذكر القلبي يجب أن يكون دائمًا، وأن لا يغفل الإنسان عنه لحظةً واحدةً بحسب الإمكان»(٥).

وقال ابن جزي: «﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي

---

(١) الجواهر الحسان، الثعالبي ٣/ ١١٠، مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/ ٤٤٢.
(٢) انظر: الفتوحات الربانية ١/ ١٠٦-١٠٨.
(٣) التحرير والتنوير ٢٢/ ٢٤.
(٤) العذب النمير ٤/ ٤٦٣.
(٥) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٩/ ٤٤١.

﴿نَفۡسِكَ﴾ يحتمل أن يريد الذكر بالقلب دون اللسان، أو الذكر باللسان سرًا، فعلى الأول يكون قوله: ﴿وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ عطف متغاير، أي: حالة أخرى، وعلى الثاني: يكون بيانًا وتفسيرًا للأول»(١).

وقال الثعالبي: «قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ يدل على أن الذكر القلبي يجب أن يكون دائمًا، وألا يغفل الإنسان لحظةً عن استحضار جلال الله وكبريائه بقدر الطاقة البشرية، وتحقيق القول في هذا أن بين الروح والبدن علاقةً عجيبةً لأن كل أثر يحصل في البدن يصعد منه نتائج إلى الروح، ألا ترى أن الإنسان إذا تخيل الشيء الحامض ضرس منه، وإذا تخيل حالةً مكروهةً أو غضب سخن بدنه»(٢).

ويدخل في الذكر القلبي: الوقوف عند الحدود: إن رأى واجبًا ذكر الله بقلبه ففعله، وإن رأى محظورًا ذكر الله بقلبه فاجتنبه؛ ولهذا كان من دعاء العظماء: «اللهم إني أسألك أن لا ترانا حيث نهيتنا، ولا تفقدنا من حيث أمرتنا»(٣).

ويدخل في الذكر القلبي التفكر في مخلوقات الله وآياته، فالتفكر في الكون أرضه وسمائه، حيوانه وجماده، أخضره ويابسه، ليله ونهاره، نجومه وكواكبه لمن أجل الأعمال، وأعظم الطاعات، وأفضل العبادات التي ترفع الإنسان في مدارج السمو الروحي، وتنقل الإيمان من التقليد إلى الأصالة، ومن الشك إلى اليقين.

قال الزمخشري: «الفكرة -أي: التفكر- تذهب الغفلة، وتحدث للقلب الخشية، كما يحدث الماء للزرع النبات، وما جليت القلوب بمثل الأحزان، ولا استنارت بمثل الفكرة»(٤).

والتفكر المقصود هو التفكر في خلق الله، وما حواه كونه من آيات باهرات، وشواهد ناطقات بوجوده ووحدانيته، لا التفكر في ذاته العلية، فإن ذلك مظنة الزيغ والهلاك؛ لهذا نهي عنه.

ويدخل في الذكر القلبي: أن تذكر نعم الله وأفضاله وآلاءه، في قلبك، فيحملك ذلك على شكره والثناء عليه باللسان، قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٣١].

وقال عز وجل: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وذكر القلب نوعان:

أحدهما: وهو أرفع الأذكار وأجلها: الفكر في عظمة الله تعالى، وجلاله وجبروته

(١) التسهيل، ابن جزي ١/ ٣١٩.
(٢) الجواهر الحسان، الثعالبي ٣/ ١١٠.
(٣) الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني ٢/ ٣٢٩.
(٤) الكشاف، الزمخشري ١/ ٤٥٤.

وملكوته وآياته في سماواته وأرضه.

والثاني: ذكره بالقلب عند الأمر والنهي، فيمتثل ما أمر به، ويترك ما نهي عنه، ويقف عما أشكل عليه، فإذا اجتمع هذا مع ذكر اللسان كان أعظم، وأما ذكر اللسان مجردًا فهو أضعف الأذكار، ولكن فيه فضل.

فإذا اجتمعت هذه الأنواع للذاكر فذكره أفضل الذكر، وأجله وأعظمه[1].

وقال شيخ الإسلام -وهو يتحدث عن مراتب الناس في الذكر-: «فإن الناس في الذكر أربع طبقات... وذكر منها: الذكر بالقلب فقط، فإن كان مع عجز اللسان فحسن، وإن كان مع قدرته فتركٌ للأفضل»[2].

«وقال القاضي[3]: واختلفوا هل تكتب الملائكة ذكر القلب؟ فقيل: تكتبه، ويجعل الله تعالى لهم علامة يعرفونه بها، وقيل: لا يكتبونه؛ لأنه لا يطلع عليه غير الله، قال النووي: قلت: الصحيح أنهم يكتبونه، وأن ذكر اللسان مع حضور القلب أفضل من القلب وحده»[4].

ونفهم من قول ابن تيمية السابق، وما نقله النووي عن القاضي عياض رحمهم الله، أنهما يذهبان إلى جواز الذكر بالقلب تهليلًا وتسبيحًا وقراءة للقرآن وغير ذلك، وهذا كله في الذكر القلبي بالمعنى المبين الخاص، أما الذكر القلبي بمعنى تذكر عظمة الله عند أوامره ونواهيه، وإرادة الفعل الذي فيه رضاه فيفعله، أو الذي فيه سخطه فيتركه، والتفكر في عظمة الله وجبروته وآياته في أرضه وسماواته ومصنوعاته، فقال عياض: «هذا النوع لا يقاربه ذكر اللسان فكيف يفضله؟!»[5].

وقال في البحر: «ولا شك أن الذكر الذي يصرف الشيطان عن القلب إنما هو الذكر القلبي لا اللساني، فكم من ذاكر بلسانه وقلبه مشغول بهواه»[6].

وعليه فإن الذكر بالقلب جائز بجميع اعتباراته التي ذكرت من العلماء، ولكن اشتراط أهل العلم في الأذكار التعبدية أن ينطق بها مثل الفاتحة، وتكبيرة الاحرام، وأذكار الصلاة، فلا يكفي فيها الذكر القلبي، بل لا بد من حركة اللسان بها، كما قال خليل في مختصره في الفقه المالكي: «وفاتحة بحركة لسان»[7]. بل يشترط أن يسمع القارئ نفسه.

والمقصود أن الذكر نوعان: قلبي

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب، ابن القيم ص ٨٨.
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/ ٥٦٦.
(٣) إكمال المعلم، القاضي عياض ٨/ ١٨٩.
(٤) المنهاج شرح صحيح مسلم، النووي ١٧/ ١٦.
(٥) المصدر السابق.
(٦) البحر المديد، ابن عجيبة ٥/ ٢٥١.
(٧) مختصر خليل ص ٣١.

ولساني، ولكل منهما شواهد من الكتاب والسنة، فالذكر اللساني باللفظ المركب من الأصوات والحروف، لا يتيسر للذاكر في جميع الأوقات؛ فإن البيع والشراء ونحوهما يلهي الذاكر عنه ألبتة، بخلاف الذكر القلبي فإنه بملاحظة مسمى ذلك اللفظ المجرد عن الحروف والأصوات لا شيء يلهي الذاكر عنه.

ثالثًا: المنفرد والجماعي:

الذكر عبادة من العبادات، بل هو من أعظم العبادات، والعبادات مبناها على النص والاتباع، لا على الإحداث والاختراع؛ إذ هي توقيفية، لا مجال للابتداع فيها، أو الاستحسان.

١ . الذكر المنفرد.

الأصل في الذكر أن يقوم به كل إنسان بمفرده، ولعل هذا يفهم من قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

فيحمل قوله: ﴿فِي نَفۡسِكَ﴾ معنى: الانفراد. قال السعدي: «فأمر الله عبده ورسوله محمدًا أصلًا، وغيره تبعًا بذكر ربه في نفسه، أي: مخلصًا خاليًا»[(١)]. فخاليًا أي: منفردًا.

ومدح زكريا عليه السلام بقوله: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا﴾ [مريم: ٣].

ولا يكون نداء خفيًا إلا إذا كان منفردًا، خاليًا لوحده. قال أبو جعفر: «أي: سرًا»[(٢)].

وقال الواحدي: «أي: خافيًا، يخفي ذلك في نفسه، لا يريد رياء، وهذا يدل على أن المستحب في الدعاء الإخفاء»[(٣)].

فهذا الأصل في الذكر أن يؤديه كل إنسان بمفرده إلا ما استثناه الشارع، كالدعاء من الإمام في الصلاة، والتأمين عليه، سواءً بعد الفاتحة، أو في القنوت ونحو ذلك.

٢ . الذكر الجماعي.

الذكر الجماعي: هو ما ينطق به المجتمعون للذكر بصوت واحد، يوافق فيه بعضهم بعضًا، كما يفعله بعض الناس من الاجتماع أدبار الصلوات المكتوبة، أو في غيرها من الأوقات والأحوال ليرددوا بصوت جماعي أذكارًا وأدعية وأورادًا وراء شخص معين، أو دون قائد، لكنهم يأتون بهذه الأذكار في صيغة جماعية، ومن صوت واحد.

ولم نجد في القرآن ما يدل على الذكر الجماعي، أو يشير إليه.

وقد اختلف العلماء قديمًا وحديثًا في هذه المسألة، بين مجوز لها ومانع منها، وألفت فيها المؤلفات الكثيرة، ولا نستطيع

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣١٤.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٤٥٣.

(٣) الوسيط، الواحدي ٣/ ١٧٥.

بسط المسألة ومناقشة أدلتها، وأقوال العلماء هنا؛ لأن البحث في الذكر في القرآن.

فبالرجوع إلى القرآن الكريم وآيات الذكر فيه -كما قلنا- لا نجد نصًا يدل عليها، وإنما الموجود الأمر بالذكر، والحث عليه، وطلب الإكثار منه، ومدح أهله، ولم توجد إشارة إلى الذكر الجماعي نفيًا أو إثباتًا، إلا ما كان من استدلال بعضهم -وهو استدلال ضعيف- بقوله تعالى: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ [طه: ٢٩-٣٤].

فموسى عليه السلام طلب من الله أن يرسل معه أخاه هارون؛ وعلل ذلك بقوله: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ فقيل: يستفاد من ذلك أن التسبيح والذكر الجماعي أكثر تأثيرًا ونفعًا من التسبيح والذكر الفردي، مثله كمثل الصلاة، فهي في الجماعة أفضل، ومثله مثل الصيام عندما يصوم الناس مجتمعين في شهر رمضان، يخفف على الصائم مشاق الصوم عندما يشعر أنه ليس صائمًا بمفرده، والتعاون -كما يقال- يهيج الرغبات، ويؤدي إلى تكاثر الخير وتزايده.

أما بالنظر إلى السنة النبوية فإنه قد وردت أحاديث كثيرة يفاد منها الذكر الجماعي والذكر الفردي، والاحتمالان قائمان من ذات الدليل، كحديث: **(إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا)، قالوا: وما رياض الجنة يا رسول الله؟! قال: (حلق الذكر)**(١).

وهذا يحتمل أن يكون التسبيح والذكر جماعيًا، كما يحتمل أن يكون فرديًا، ولا حجة لأي الفريقين على الآخر؛ كما يحتمل أن يكون المراد بحلق الذكر هنا سماع الوعظ والقرآن.

ومن الأدلة المحتملة قوله صلى الله عليه وسلم: **(ما جلس قوم مجلسًا يذكرون الله فيه إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، وذكرهم الله فيمن عنده)**(٢).

وفي تعليق الصنعاني على الحديث يقول: «وهذا من فضائل مجالس الذكر، تحضرها الملائكة بعد التماسهم لها، والمراد بالذكر هو التسبيح والتحميد وتلاوة القرآن، ونحو ذلك»(٣).

وقال النووي في كتابه الأذكار: «اعلم أنه كما يستحب الذكر يستحب الجلوس في حلق أهله، وقد تظاهرت الأدلة على

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات، ٥/ ٥٣٢، رقم ٣٥١٠.
قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه من حديث ثابت عن أنس».
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع ص ١٠٠، رقم ٦٩٩.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر ٤/ ٢٠٧٤، رقم ٢٦٩٩.

(٣) سبل السلام ٢/ ٧٠٠.

ذلك»[1]. إلا أن الصواب: أن المراد بحلق الذكر في هذه الأحاديث: تعلم العلم، وقراءة القرآن، لا الذكر الجماعي من تسبيح وتحميد وغيره.

لكن بالرجوع إلى سيرته وسنته الفعلية عليه الصلاة والسلام يجد الحق من طلبه وتحراه؛ إذ إننا نجد من هديه عليه الصلاة والسلام في الذكر أنه لم يثبت أنه دعا إلى الذكر الجماعي أو فعله مع أصحابه، وكذلك أصحابه من بعده، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، ولو كان خيرًا لفعله صلى الله عليه وسلم، واتبعه صحابته رضي الله عنهم، فكيف يمكن الزعم بعد هذا أن الدعاء الجماعي خير، والرسول لم يعمل به على الرغم من استطاعته على ذلك، وقد سبق القول: إن الذكر من العبادات التي يجب أخذها عن النبي صلى الله عليه وسلم، أضف إلى ذلك أن الذكر الجماعي فيه مفاسد، منها:

- الخروج عن السمت والوقار، فإن الذكر الجماعي قد يتسبب في التمايل والرقص.
- التشويش على المصلين والذاكرين الآخرين.
- تشبه بالنصارى الذين يجتمعون في كنائسهم لترتيل الأناشيد الدينية جماعة بصوت واحد.
- يؤدي ضعف الذكر المنفرد، حيث يكتفي بذكر الجماعة.
- تتبع طرق معينة، حيث نجد أن كل واحد يتبع شيخه بطريقة معينة[2].

وقد أنكر كثير من العلماء هذه البدعة، فممن أنكرها الإمام الشافعي[3]، وشيخ الإسلام ابن تيمية[4]، والشاطبي[5]، وابن الحاج[6]، وابن باز[7]، وابن العثيمين[8] والفوزان[9] وغيرهم من العلماء قديمًا وحديثًا.

قال الإمام الشاطبي في بيان البدع: «كالجهر والاجتماع في الذكر المشهور بين متصوفة الزمان، فإن بينه وبين الذكر المشروع بونًا بعيدًا؛ إذ هما كالمتضادين عادة»[10].

وقال الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله: «في الذكر الجماعي قاعدة هذه الهيئة التي يرد إليها حكمها هي: أن الذكر الجماعي بصوت واحدٍ سرًا أو جهرًا لترديد ذكر معين، وارد أو

(١) الأذكار، النووي ص ٨.

(٢) انظر: الذكر الجماعي بين الاتباع والابتداع، محمد الخميس ص٥٢-٥٣.
(٣) الأم، الشافعي ١/ ١٥٠.
(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٢/ ٥١٩.
(٥) الاعتصام، الشاطبي ١/ ٥٠٦.
(٦) المدخل، ابن الحاج ١/ ٩١.
(٧) مجموع فتاوى ابن باز ٣٠/ ٤٤.
(٨) مجموع فتاوى ورسائل العثيمين ١٦/ ٢٦٨.
(٩) مجموع فتاوى صالح الفوزان ١/ ٣٠٠.
(١٠) الاعتصام ٤/ ٣١٨.

غير وارد، سواءً كان من الكل أو يتلقونه من أحدهم، مع رفع الأيدي أو بلا رفع لها؛ كل هذا وصف يحتاج إلى أصل شرعي يدل عليه من الكتاب والسنة؛ لأنه داخل في عبادة، والعبادات مبناها على التوقيف والاتباع، لا على الإحداث والاختراع؛ ولهذا نظرنا في الأدلة في الكتاب والسنة فلم نجد دليلًا يدل على هذه الهيئة المضافة، فتحقق أنه لا أصل له في الشرع المطهر، وما لا أصل له في الشرع فهو بدعة؛ إذًا فيكون الذكر والدعاء الجماعي بدعة يجب على كل مسلم مقتدٍ برسول الله صلى الله عليه وسلم تركها، والحذر منها، وأن يلتزم بالمشروع»[(١)].

إلا أن ثمة فرقًا بين الجهر بالأذكار في أدبار الصلوات وبين الذكر الجماعي، فالأول يقول به عامة علمائنا المعاصرين، وله أصل في السنة، ولا ينبغي أن يكون رفعًا يشوش على المصلين المسبوقين في صلاتهم، والثاني -أي: الذكر الجماعي- مبتدع لا أصل له في السنة النبوية.

وقد جاء عن جمع من السلف من الصحابة فمن بعدهم الإنكار على الذين يجتمعون فيدعون بصوت واحد، أو يذكرون الله بتهليل أو تكبير أو تسبيح بصوت واحد، فعن أبي عثمان النهدي قال: «كتب عامل لعمر بن الخطاب إليه: إن ههنا قومًا يجتمعون فيدعون للمسلمين وللأمير، فكتب إليه عمر: أقبل بهم معك، فأقبل، وقال عمر للبواب: أعد سوطًا، فلما دخلوا على عمر علا أميرهم ضربًا»[(٢)].

وفي قصة أبي موسى أنه قال لعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما: «يا أبا عبد الرحمن: إني رأيت في المسجد آنفًا أمرًا أنكرته، ولم أر -والحمد لله- إلا خيرًا، قال: فما هو؟ فقال: إن عشت فستراه، قال: رأيت في المسجد قومًا حلقًا جلوسًا ينتظرون الصلاة في كل حلقة رجل، وفي أيديهم حصى، فيقول: كبروا مائة، فيكبرون مائة، فيقول: هللوا مائة، فيهللون مائة، ويقول: سبحوا مائة، فيسبحون مائة، قال: فماذا قلت لهم؟ قال: ما قلت لهم شيئًا انتظار رأيك أو انتظار أمرك، إلى أن قال ابن مسعود رضي الله عنه لما وقف عليهم: ويحكم يا أمة محمد! ما أسرع هلكتكم! هؤلاء صحابة نبيكم صلى الله عليه وسلم متوافرون، وهذه ثيابه لم تبل، وآنيته لم تكسر، والذي نفسي بيده، إنكم لعلى ملة هي أهدى من ملة محمد، أو مفتتحو باب ضلالة؟ قالوا: والله يا أبا عبد الرحمن ما أردنا إلا الخير، قال: وكم من مريد للخير لن يصيبه»[(٣)].

فهذا أبو موسى الأشعري وابن مسعود

(١) تصحيح الدعاء ص ١٣٤.

(٢) انظر: البدع، ابن وضاح ١/ ٤٧.

(٣) أخرجه الدارمي في سننه، ١/ ١٤٢، رقم ٢٢٢.

رضي الله عنهما أنكرا على أولئك النفر تلك الكيفية والهيئة الجماعية للذكر مع أن الذكر مستحب ومرغب فيه، ولكن ليس على الطرق المبتدعة المخترعة، وكيفيته وهيئته يجب أن تكون على الطريقة المتلقاة عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه البررة رضي الله عنهم.

من صور الذكر:

ذكر الله تعالى في القرآن أنواعًا من الذكر، كالتسبيح والتحميد والتكبير وغيرها، وفيما يلي ذكر بعض صور الذكر الواردة في القرآن.

أولًا: الاستغفار:

من صور الذكر وأعظمها الاستغفار، والاستغفار وإن كان يتنزل منزلة الدعاء إلا أن الدعاء يتضمن الذكر.

والغفر والمغفرة: التغطية على الذنوب، والعفو عنها[1].

والاستغفار: طلب ذلك من الله، فـ(استغفر) تزيد على (غفر) معنى الطلب.

وعرفه الراغب بقوله: «الاستغفار: طلب المغفرة بالمقال والفعال»[2].

قال ابن تيمية: «الاستغفار هو طلب المغفرة، وهو من جنس الدعاء والسؤال، وهو مقرون بالتوبة في الغالب»[3].

فقول العبد: «أستغفر الله» وإن كان لفظه خبرًا، إلا أن معناه دعاءٌ وطلب، كما في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

والمقصود أن القرآن الكريم قد ورد فيه آيات كثيرة، تحث على الاستغفار، وتأمر به، وتبين فضله، وفي ذلك دلالة واضحة على أهمية طلب العبد المغفرة من ربه ليستر عيوبه، ويعفو عن سيئاته، ويجنبه عقوبته؛ ولأهمية الاستغفار وفضله تجد أن دعوة جميع الأنبياء جاءت بالاستغفار، كما في قصة نوح وهود وصالح وشعيب ومحمد -عليهم الصلاة والسلام-، بل إن سيرة رسولنا محمد عابقة بكثرة استغفاره، وهو الذي قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

قال ابن رجب في تفسيره: «كثر في القرآن ذكر الاستغفار، فتارة يؤمر به، كقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩].

وقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٩٠].

وتارة يمدح أهله، كقوله: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

وقوله: ﴿فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ

(١) المحكم والمحيط الأعظم ٥/ ٤٩٩.
(٢) المصدر السابق ص٥٤٣.
(٣) منهاج السنة النبوية ٦/ ٢١٠.

﴿الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

وتارة يذكر أن الله يغفر لمن استغفره، كقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

وكثيرًا ما يقرن الاستغفار بذكر التوبة، فيكون الاستغفار حينئذٍ عبارة عن طلب المغفرة باللسان، والتوبة عبارة عن الإقلاع عن الذنوب بالقلوب والجوارح، وتارة يفرد الاستغفار، ويرتب عليه المغفرة»[(١)].

ونهى الله تعالى عن الاستغفار للمشركين، ولو كانوا أولي قربى، فقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾[التوبة: ١١٣-١١٤].

وقال في حق المنافقين: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾[المنافقون: ٦].

فالاستغفار لا ينفعهم شيئًا وذلك لفداحة ما هم عليه من الاعتقاد الفاسد المبطن، ولإيغالهم في الكفر وانهماكهم في الفسق والقبائح، فاستحقوا هذا الجزاء الخطير، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

والقرآن أطلق الأمر بالاستغفار ولم يذكر صيغته، ولمعرفة ذلك يرجع إلى السنة، فكان عليه الصلاة والسلام ينوع في طلب المغفرة، ويعدد الذنوب بأنواعها.

والاستغفار على هذا لا يكون باللسان فقط، بل باللسان وبالفعال، فقد قيل: الاستغفار باللسان من دون فعال فعل الكذابين، والله سبحانه وتعالى لما أثنى على عباده بالاستغفار قيده بعدم الإصرار؛ قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

المعنى: أخبر سبحانه وتعالى عن شأن عباده المؤمنين إذا صدرت منهم أعمالٌ سيئة من ظلم النفس، فذكروا حق الله سبحانه وتعالى وعظمته الموجبة لخشيته وخوفه، والحياء منه، وتذكروا كذلك وعده ووعيده، بادروا بطلب المغفرة منه عز وجل فإنه لا يغفر الذنوب أحدٌ سواه، ولم يصروا على قبيح فعلهم، وهم عالمون بقبحه، والنهي عنه، والوعيد عليه.

ويأتي الاستغفار في القرآن بمعنى التوبة ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

وهنا قد يلتبس الأمر على كثيرٍ من الناس،

(١) تفسير ابن رجب الحنبلي ١/ ١٥٠.

فيظنون أن الاستغفار هو التوبة، والتوبة هي الاستغفار، وبتتبع النصوص يظهر أن بين التوبة والاستغفار عمومًا وخصوصًا من وجه، فإذا تفرقا اجتمعا، وإذا اجتمعا تفرقا، فعند الإطلاق يدخل كلٌّ منهما في مسمى الآخر، وعند اقترانهما يكون الاستغفار طلب وقاية شر ما مضى، والتوبة: الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله.

فهما مختلفان عند الرازي، فالتوبة عنده غير الاستغفار؛ إذ يقول: والاستغفار طلب المغفرة، وهو غير التوبة[1]. وقال العسكري: «والفرق بين الاستغفار والتوبة: أن الاستغفار طلب المغفرة بالدعاء، والتوبة الندم على الخطيئة مع العزم على ترك المعاودة»[2].

واختار ابن عاشور وابن القيم وغيرهما أن الاستغفار في لسان الشارع بمعنى التوبة، حيث يقول ابن عاشور: «ولما كان طلب الصفح عن المؤاخذة بالذنب لا يصدر إلا عن ندامة ونية إقلاع عن الذنب، وعدم العودة إليه كان الاستغفار في لسان الشارع بمعنى التوبة؛ إذ كيف يطلب العفو عن الذنب من هو مستمر عليه، أو عازم على معاودته، ولو طلب ذلك في تلك الحالة لكان أكثر إساءة من الذنب؛ فلذلك عد الاستغفار هنا رتبة من مراتب التقوى، وليس الاستغفار مجرد قول (أستغفر الله) باللسان والقائل ملتبس بالذنوب، وعن رابعة العدوية أنها قالت: (استغفارنا يحتاج إلى الاستغفار) وفي كلامها مبالغة، فإن الاستغفار بالقول مأمور به في الدين؛ لأنه وسيلة لتذكر الذنب، والحيلة للإقلاع عنه»[3].

ويأتي الاستغفار في القرآن مفردًا، كما في قوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩].

وغيرها من المواضع، ومقرونًا بالتوبة كما في قوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٥٢].

وغيره، قال ابن القيم: «وأما الاستغفار فهو نوعان: مفرد، ومقرون بالتوبة.

فالمفرد كقول نوح عليه السلام لقومه: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠].

وكقول صالح لقومه: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل: ٤٦].

والمقرون كقوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾[هود: ٣].

وقول هود لقومه: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [هود: ٥٢].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٥٨١.
(٢) الفروق اللغوية، العسكري ص ٢٣٥.
(٣) التحرير والتنوير ٤/ ٩٢.

فالاستغفار المفرد كالتوبة، بل هو التوبة بعينها، مع تضمنه طلب المغفرة من الله، وهو محو الذنب، وإزالة أثره، ووقاية شره، لا كما ظنه بعض الناس أنها الستر، فإن الله يستر على من يغفر له ومن لا يغفر له، ولكن الستر لازم مسماها أو جزؤه، فدلالتها عليه إما بالتضمن وإما باللزوم، وحقيقتها: وقاية شر الذنب، ومنه المغفر لما يقي الرأس من الأذى، والستر لازم لهذا المعنى وإلا فالعمامة لا تسمى مغفرًا ولا القبع ونحوه مع ستره، فلا بد في لفظ المغفر من الوقاية، وهذا الاستغفار هو الذي يمنع العذاب في قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

فإن الله لا يعذب مستغفرًا، وأما من أصر على الذنب، وطلب من الله مغفرته، فهذا ليس باستغفار مطلق؛ ولهذا لا يمنع العذاب، فالاستغفار يتضمن التوبة، والتوبة تتضمن الاستغفار، وكل منهما يدخل في مسمى الآخر عند الإطلاق، وأما عند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى فالاستغفار طلب وقاية شر ما مضى، والتوبة الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله، فها هنا ذنبان ذنب قد مضى، فالاستغفار منه طلب وقاية شره، وذنب يخاف وقوعه، فالتوبة العزم على أن لا يفعله، والرجوع إلى الله يتناول النوعين، رجوع إليه ليقيه شر ما مضى، ورجوع إليه ليقيه شر ما يستقبل من شر نفسه، وسيئات أعماله، وأيضًا فإن المذنب بمنزلة من ركب طريقًا تؤديه إلى هلاكه، ولا توصله إلى المقصود، فهو مأمور أن يوليها ظهره، ويرجع إلى الطريق التي فيها نجاته، والتي توصله إلى مقصوده، وفيها فلاحه، فها هنا أمران، لا بد منهما، مفارقة شيء، والرجوع إلى غيره، فخصت التوبة بالرجوع، والاستغفار بالمفارقة، وعند إفراد أحدهما يتناول الأمرين؛ ولهذا جاء -والله أعلم- الأمر بهما مرتبًا بقوله: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٥٢].

فإنه الرجوع إلى طريق الحق بعد مفارقة الباطل، وأيضًا فالاستغفار من باب إزالة الضرر، والتوبة طلب جلب المنفعة، فالمغفرة أن يقيه شر الذنب، والتوبة أن يحصل له بعد هذه الوقاية ما يحبه، وكل منهما يستلزم الآخر عند إفراده»[1].

والعبد دائمًا دائرٌ بين نعمة من الله سبحانه وتعالى يحتاج معها إلى شكر، وبين ذنبٍ منه يحتاج فيه إلى الاستغفار، وكل من هذين الأمرين من الأمور اللازمة للعبد؛ ولهذا فهو محتاج إلى الاستغفار آناء الليل وأطراف النهار؛ بل هو مضطر إليه دائمًا في الأقوال والأفعال، وسائر الأحوال؛ لما فيه من المصالح، وجلب الخيرات، ودفع

(١) مدارج السالكين ١/ ٣١٤-٣١٥.

المضرات.

ولما كان الاستغفار بهذه الأهمية قرنه الله عز وجل في كتابه الكريم بتوحيده، قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩].

قال ابن تيمية رحمه الله: «وقد ثبتت دائرة الاستغفار بين أهل التوحيد، واقترانها بشهادة أن لا إله إلا الله، من أولهم إلى آخرهم، ومن آخرهم إلى أولهم، ومن الأعلى إلى الأدنى، وشمول دائرة التوحيد الاستغفار للخلق كلهم، وهم فيها درجات عند الله، ولكل عامل مقام معلوم»[(١)].

ثمرات الاستغفار:

ذكر الله في القرآن للاستغفار مننًا كبرى، وفضائل عظمى، من عظيم الجزاء، وواسع العطاء، ومن ذلك:

١ . أن الاستغفار سبب المغفرة، ولو عظمت الذنوب، وبلغت من الكثرة عنان السماء.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

قال السعدي رحمه الله في تفسيره لهذه الآية: «أي: من تجرأ على المعاصي، واقتحم على الإثم، ثم استغفر الله استغفارًا تامًا يستلزم الإقرار بالذنب، والندم عليه، والإقلاع، والعزم على ألا يعود، فهذا قد وعده من لا يخلف الميعاد بالمغفرة والرحمة، فيغفر له ما صدر منه من الذنب، ويزيل عنه ما ترتب عليه من النقص والعيب، ويعيد إليه ما تقدم من الأعمال الصالحة، ويوفقه فيما يستقبله من عمره، ولا يجعل ذنبه حائلًا عن توفيقه؛ لأنه قد غفره، وكذا سائر المعاصي الصغيرة والكبيرة»[(٢)].

٢ . الاستغفار أمان من العذاب.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

فعن أبي موسى رضي الله عنه قال: «إنه كان قبل أمانان، قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ قال: أما النبي صلى الله عليه وسلم فقد مضى، وأما الاستغفار فهو دائر فيكم إلى يوم القيامة»[(٣)].

فكان المطلوب من ذكر هذا الكلام استدعاء الاستغفار منهم، أي: لو اشتغلوا بالاستغفار لما عذبهم الله[(٤)].

٣ . الاستغفار سبب للخيرات والبركات.

قال تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١١/ ٦٩٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٠١.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٣/ ٥١٣.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/ ٤٨٠.

﴿كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠-١٢].

ففي الآية دليل على أن الاستغفار والتوبة سبب لنزول الأمطار والحصول على الأموال والبنين والجنات والأنهار وسائر الخيرات.

٤. الاستغفار سبب الحصول على القوة بمعناها الشامل.

قال تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢].

ففسروا هذه القوة بالمال والولد، والشدة في الأعضاء؛ لأن كل ذلكم ما يتقوى به الإنسان[(١)].

قال النسفي: «وقيل: أراد القوة بالمال أو على النكاح»[(٢)].

وفي قوله: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ ظاهره العموم في جميع ما يحسن الله تعالى فيه إلى العباد[(٣)].

٥. الاستغفار سبب في الحصول على المتاع الحسن والسعادة.

قال تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود: ٣].

وهذا يدل على أن المقبل على عبادة الله، والمشتغل بها يبقى في الدنيا منتظم الحال، مرفه البال.

والمتاع الحسن في الدنيا بطيب النفس، وسعة الرزق، أو بالرضا بالميسور، والصبر على المقدور، أو بترك الخلق والإقبال على الحق، قاله سهل رضي الله عنه: «﴿أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ الموت، أو القيامة، أو وقت لا يعلمه إلا الله تعالى، ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ يهديه إلى العمل الصالح، أو يجزيه به في الآخرة»[(٤)].

قال شيخ الإسلام مبينًا حاجة العبد إلى الاستغفار: «الاستغفار يخرج العبد من الفعل المكروه إلى الفعل المحبوب، ومن العمل الناقص إلى العمل التام، ويرفع العبد من المقام الأدنى إلى الأعلى منه والأكمل، فهو يحتاج إلى الاستغفار آناء الليل وأطراف النهار، بل هو مضطرٌ إليه دائمًا في الأقوال والأحوال، في الغوائب والمشاهد؛ لما فيه من المصالح، وجلب الخيرات، ودفع المضرات، وطلب الزيادة في القوة في الأعمال القلبية والبدنية اليقينية الإيمانية»[(٥)].

---

(١) المصدر السابق ١٨/ ٣٦٤.
(٢) مدارك التأويل، النسفي ٢/ ٦٧.
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ١٨٠.
(٤) تفسير القرآن، العز بن عبد السلام ٢/ ٨١.
(٥) مجموع فتاوى ابن تيمية ١١/ ٦٩٦.

وقال: «التوبة من أعظم الحسنات، والحسنات كلها مشروط فيها الإخلاص لله، وموافقة أمره باتباع رسوله، والاستغفار من أكبر الحسنات، وبابه واسع، فمن أحس بتقصير في قوله أو عمله أو حاله أو رزقه، أو تقلب قلب؛ فعليه بالتوحيد والاستغفار؛ ففيهما الشفاء إذا كانا بصدقٍ وإخلاص، وكذلك إذا وجد العبد تقصيرًا في حقوق القرابة والأهل والأولاد والجيران والإخوان؛ فعليه بالدعاء لهم والاستغفار»[1].

أوقات الاستغفار:

الاستغفار مشروع ومستحب في كل وقت، إلا أن القرآن قد ذكر بعض الأوقات يتأكد فيها، ويكون له فيها مزية عن غيرها، ومن هذه الأوقات:

١ . عند الوقوع في الذنب.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤].

فأخبر الله تعالى عن كرمه العظيم وجوده، ودعوته لمن اقترفوا السيئات أن يعترفوا ويتوبوا ويستغفروا الله، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ﴾ أي: معترفين بذنوبهم، باخعين بها ﴿فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ أي: لتاب عليهم بمغفرته ظلمهم، ورحمهم بقبول التوبة، والتوفيق لها، والثواب عليها، وهذا المجيء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم مختص بحياته؛ لأن السياق يدل على ذلك؛ لكون الاستغفار من الرسول لا يكون إلا في حياته، وأما بعد موته فإنه لا يطلب منه شيء بل ذلك شرك[2].

٢ . بعد الأعمال الصالحة.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩].

قال ابن رجب في تفسيره: «والاستغفار: هو خاتمة الأعمال الصالحة، فلهذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يجعله خاتمة عمره، كما يشرع لمصلي المكتوبة أن يستغفر عقبها ثلاثًا، وكما يشرع للمتهجد من الليل أن يستغفر بالأسحار، قال تعالى: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨].

وقال: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

وكما يشرع الاستغفار عقيب الحج، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩].

وسبب هذا أن العباد مقصرون عن القيام

---

(١) المصدر السابق ١١/ ٦٩٨.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٨٤.

بحقوق الله كما ينبغي، وأدائها على الوجه اللائق بجلاله وعظمته، وإنما يؤدونها على قدر ما يطيقونه، فالعارف يعرف أن قدر الحق أعلى وأجل من ذلك، فهو يستحي من عمله، ويستغفر من تقصير فيه، كما يستغفر غيره من ذنوبه وغفلاته، وكلما كان الشخص بالله أعرف، كان له أخوف، وبرؤية تقصيره أبصر»[1].

٣. وقت السحر.

قال تعالى: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

وقال: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨].

والمستغفرون هنا هم المصلون، وقيل: هم المستغفرون[2]. فوقت السحر له فضيلة، وهو الوقت الذي أخر يعقوب إليه الاستغفار، قال: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يوسف: ٩٨].

قال أكثر المفسرين: أخره من الليل إلى السحر؛ وذلك أن الدعاء بالأسحار لا يحجب عن الله[3].

وخص تعالى السحر لما فسر النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: (ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، يقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟)[4].

قال الرازي: «واعلم أن الاستغفار بالسحر له مزيد أثر في قوة الإيمان، وفي كمال العبودية، من وجوه، الأول: أن وقت السحر يطلع فيه نور الصبح بعد أن كانت الظلمة شاملة للكل، وبسبب طلوع نور الصبح كأن الأموات يصيرون أحياء، فهناك وقت الجود العام، والفيض التام، فلا يبعد أن يكون عند طلوع صبح العالم الكبير يطلع صبح العالم الصغير، وهو ظهور نور جلال الصغير، وهو ظهور نور جلال الله تعالى في القلب، والثاني: أن وقت السحر أطيب أوقات النوم، فإذا أعرض العبد عن تلك اللذة، وأقبل على العبودية، كانت الطاعة أكمل»[5].

والحاصل: أن الله يسر أمر الاستغفار للعباد، فبمقدور كل عبدٍ الإتيان به في جميع أحواله وأوقاته: في ليله ونهاره، وفي خلوته وجلوته، وفي صحته ومرضه، وفي ظعنه

---

(١) تفسير ابن رجب الحنبلي ٢/ ٦٤٩.
(٢) جامع البيان، الطبري ٦/ ٢٦٦.
(٣) الكشف والبيان، الثعلبي ٥/ ٢٥٧.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التهجد، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل، ٢/ ٥٣، رقم ١١٤٥، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه ١/ ٥٢١، رقم ٧٥٨.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ٧/ ١٦٧.

وإقامته، وفي قيامه وقعوده، وهو طاهر ومحدث، لا عذر للمرء في التكاسل عنه بوجهٍ من الوجوه.

ثانيًا: التسبيح:

ومن صور الذكر العظيمة الواردة في القرآن: (التسبيح)، وهو قول: سبحان الله، ومعناه: تنزيه الله تعالى عن كل نقص أو عيب، وتعظيمه وتمجيده، وإكبار قدرته المطلقة التي لا يحدها حد، ولا يحصيها عد، قال السمعاني: «سبحان: تنزيه الله من كل سوء، وحقيقته تعظيم الله بوصف المبالغة، ووصفه بالبراءة من كل نقص»[١].

ومنه قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١].

فسبحان: اسم مصدر، ولم يذكر هنا فاعل التسبيح من هو؟ ولا المكان الذي يسبح فيه؛ لأن من طبيعة المصدر في اللغة أنه حدث قائم بذاته مجرد من مسبباته، فلم يقدر هذا المصدر بفاعل ولا بزمن؛ وذلك بغرض الإطلاق والاستغراق في التنزه دون انقطاع، فهو تعالى وحده أهل التسبيح ومستحقه، سواء كان هنالك من يسبحه أو لم يكن، غير مقيد بفعل ولا فاعل ولا زمن.

وسبوحٌ: من صفات الله، قال ثعلب: «كل اسم على (فعول) فهو مفتوح الأول، إلا السبوح والقدوس فإن الضم فيهما أكثر، وكذلك الذروح»[٢].

والمفسرون كذلك ذكروا أن التسبيح هو التنزيه[٣]، ولكنه ليس مجرد تنزيه أو نفي محض، بل فيه إثبات الكمال، فهو تنزيه يتضمن التعظيم، ودليل تضمنه التعظيم قول النبي عليه الصلاة والسلام: (**فأما الركوع فعظموا فيه الرب عز وجل**)[٤]. والوارد في الركوع تسبيح. قال شيخ الإسلام: «والأمر بتسبيحه يقتضي أيضًا تنزيهه عن كل عيب وسوء، وإثبات صفات الكمال له؛ فإن التسبيح يقتضي التنزيه والتعظيم، والتعظيم يستلزم إثبات المحامد التي يحمد عليها، فيقتضي ذلك تنزيهه وتحميده وتكبيره وتوحيده»[٥].

وقال ابن القيم: «والتسبيح ثناء عليه سبحانه يتضمن التعظيم والتنزيه»[٦].

وكلمة (سبحان) خاصة بالله، قال السمعاني: «وكلمة سبحان كلمة ممتنعة، لا يجوز أن يوصف بها غير الله؛ لأن المبالغة

(١) تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٢١٢.

(٢) الصحاح، الجوهري ١/ ٣٧٢.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٤٧٤، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٤٧٢.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود ١/ ٣٤٨، رقم ٤٧٩.

(٥) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٦/ ١٢٥.

(٦) المنار المنيف ص٣٦.

في التعظيم لا تليق لغير الله»[1].

وقال ابن عاشور: «وهو من الأسماء التي لا تضاف لغير اسم الله تعالى»[2].

وقد جاء عن علي وابن عباس رضي الله عنهم أن (سبحان الله) كلمة رضيها الله تعالى لنفسه[3].

وقال الحسن البصري رحمه الله: «سبحان الله: اسم لا يستطيع الناس أن ينتحلوه»[4].

فلا يسبح غير الله تعالى؛ لأنه قد صار مستعملًا في أعلى مراتب التعظيم التي لا يستحقها سواه[5].

وقال الماوردي رحمه الله: «ولا يجوز أن يسبح غير الله وإن كان منزهًا؛ لأنه صار علمًا في الدين على أعلى مراتب التعظيم التي لا يستحقها إلا الله تعالى»[6].

وقد ورد لفظ (التسبيح) ومشتقاته في القرآن الكريم في مواضع كثيرة، وبصيغ مختلفة، فورد بصيغة الفعل الماضي (سبح، سبحوا)، وفي صيغة الفعل المضارع (يسبح، نسبح، تسبح) مفردة ومجموعة، وفي صيغة الفعل الأمر (سبح، سبحوا، سبحه، سبحوه)، وفي صيغة اسم الفاعل (مسبحون، مسبحين)، وفي صيغة مصدر (تسبيحه، تسبيحهم)، وفي صيغة مصدر علم على التسبيح (سبحان، سبحانك، سبحانه).

والفعل (سبح) قد يتعدى بنفسه بدون اللام؛ كقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٢].

وقد يتعدى باللام كقوله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ [الحشر: ١].

وعلى هذا فسبحه وسبح له لغتان، كنصحه ونصح له، وشكره وشكر له[7].

ومن تصاريف التسبيح: فعل الماضي (سبح)، وفعل المضارع (يسبح)، قال بعض أهل العلم: إنما عبر بالماضي تارة وبالمضارع أخرى؛ ليبين أن ذلك التسبيح لله هو شأن أهل السماوات وأهل الأرض، ودأبهم في الماضي والمستقبل[8].

وافتتحت بالتسبيح سبع سور، سميت (المسبحات)، وهي: (الإسراء والحديد والحشر والصف والجمعة والتغابن والأعلى)، وقد ذكر ابن عاشور الحكمة من افتتاح بعض السور بالتسبيح، فقال: «الافتتاح بكلمة التسبيح من دون سبق كلام متضمن ما يجب تنزيه الله عنه يؤذن بأن

(١) تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٢١٢.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٢٧٣.
(٣) ينظر: الدر المنثور ١/ ٢٦٩.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم ١/ ٨١.
(٥) تفسير القرآن، العز بن عبدالسلام ١/ ١١٥.
(٦) النكت والعيون، الماوردي ١/ ٩٧.
(٧) أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ٥٤٠.
(٨) المصدر السابق ٧/ ٥٤١.

خبرًا عجيبًا، يستقبله السامعون، دالًا على عظيم القدرة من المتكلم، ورفيع منزلة المتحدث عنه»[1].

وختمت به سور (الحجر والطور والواقعة والحاقة).

ومن أكثر السور التي ذكر فيها ألفاظ التسبيح بمختلف الصيغ: سورة الإسراء، وهي تسمى سورة سبحان[2]، حيث ذكر فيها التسبيح (٧) مرات، ولم يذكر بهذا الكم في سورة غيرها، فلا سورة في القرآن تماثلها في التسبيح؛ لما اشتملت على واقعة الإسراء التي كذب بها المشركون جاء لفظ (سبحان) تنزيهًا لله تعالى، وتعظيمًا لقدرته، وتصديقًا للرسول صلى الله عليه وسلم، وكذلك اختتمت بالحمد والتكبير، ولعل في هذا إشارة إلى نقله صلى الله عليه وسلم حين عرج به إلى عالم التسبيح في السماء، كما في قوله صلى الله عليه وسلم: (**أطت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدًا لله تعالى**)[3].

بل يخبر الله تعالى ذكره عن قول ملائكته الذين ملئوا السماء: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤]، أي: مكان معلوم في السماء خاص بكل ملك للعبادة والتسبيح ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ [الصافات: ١٦٥].

فأمرهم ليس فوضى؛ بل هو منتظم محكم ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: ١٦٦].

فهم لا يتركون التسبيح أبدًا، ما دامت السماوات والأرض، حتى ارتبطت بهم صفة التسبيح واسم التسبيح، فهم المسبحون ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ﴾ بل إنهم لا يفترون عن التسبيح، حتى مجرد فتورا! ولا يتعبون من دوام تسبيح الله تعالى، ولا ينخفض مستوى تسبيحهم ولو للحظة واحدة، كما في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠].

فقال: يسبحون الليل والنهار، فعرف بـ(ال) ولم يقل: يسبحون ليلًا ونهارًا؛ لأن المعنى يكون حينها جزءًا من الليل وجزءًا من النهار؛ بل قال: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي: يسبحون الليل كله والنهار كله، لا يتركون التسبيح ولا للحظة واحدة

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/ ٩.

(٢) انظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشي ١/ ٣٠، الإتقان في علوم القرآن، السيوطي ٣/ ٣٨٧.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد، باب في قول النبي صلى الله عليه وسلم: (لو تعلمون ما أعلم) ٤/ ١٣٤، رقم ٢٣١٢، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب الحزن والبكاء ٢/ ١٤٠٢، رقم ٤١٩٠. قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب». وحسنه الألباني في صحيح الجامع ١/ ٤٨١، رقم ١١٢٧.

من لحظات الليل والنهار، ولا يفترون، ولا حتى في جزء منهما.

إنه هديرٌ من التسبيح لا ينخفض، ولا ينقطع زجله إلا ما شاء الله، ولقد ورد التسبيح في سورة الإسراء سبع مرات، فكأنها سبع مرات لسبع سماوات، فكل سماء يملؤها التسبيح، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: (وسبحان الله، والحمد لله، تملآن -أو تملأ- ما بين السماوات والأرض)[1].

ونجد بعض السور ذكر فيها التسبيح في أولها وآخرها، وهي سورة (الحشر) بدأت بقوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ١].

وانتهت بقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٤].

والأمر بالتسبيح في القرآن يحمل على الندب إلا في التسبيح في الصلاة فهو أمر وجوب على الصحيح؛ كما دل عليه حديث عقبة بن عامرٍ رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤]. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اجعلوها في ركوعكم)، فلما نزلت: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]. قال: (اجعلوها في سجودكم)[2].

والتسبيح منه مطلق، ومنه مقيد بأدبار الصلوات، أو بالصباح والمساء، وسيأتي مزيد كلام عن هذا في أوقات الذكر.

والتسبيح يطلق في القرآن الكريم ويراد به ستة أشياء:

الأول: يطلق على التنزيه مع التعظيم، وهو أكثر ما ورد في القرآن، وهو المراد عند الإطلاق، ومنه قول الله تعالى: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٥٩].

الثاني: يطلق على الصلاة، قال الله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠].

الثالث: يطلق على الدعاء، ومنه قول الله تعالى: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ [يونس: ١٠].

الرابع: يطلق على عموم الذكر، ومنه قول الملائكة عليهم السلام: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ [البقرة: ٣٠].

قال الطبري: «يعني: إنا نعظمك بالحمد لك والشكر، وكل ذكر لله عند العرب فتسبيح وصلاة، يقول الرجل منهم: قضيت سبحتي من الذكر والصلاة، وقد قيل: إن

(١) أخرجه مسلم في كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء ١/ ٢٠٣، رقم ٢٢٣.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، تفريع أبواب الركوع والسجود، باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده ١/ ٢٣٠، رقم ٨٦٩، وابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة، والسنة فيها، باب التسبيح في الركوع والسجود ١/ ٢٨٧، رقم ٨٨٧.

التسبيح صلاة الملائكة»[1].

وقال شيخ الإسلام: «ويراد بالتسبيح جنس ذكر الله تعالى، يقال: فلان يسبح إذا كان يذكر الله، ويدخل في ذلك التهليل والتحميد، ومنه سميت السباحة للإصبع التي يشير بها، وإن كان يشير بها في التوحيد»[2].

الخامس: يطلق على عموم العبادة، ومنه قول الله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ [الصافات: ١٤٣].

عن وهب بن منبه: قال: «من العابدين»[3].

السادس: يطلق على الاستثناء، ومنه قول الله تعالى: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ۝١٧ وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ [القلم: ١٧-١٨]. والمراد به قول: إن شاء الله، لكن دلت الآيات على أنهم كانوا يسبحون مكانها ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ [القلم: ٢٨].

قال السدي: «كان استثناؤهم في ذلك الزمان التسبيح»[4]. فيقولون: سبحان الله، بدل: إن شاء الله، فقوله: ﴿لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ أي: تستثنون.

وجاء التسبيح في القرآن مفردًا ومقترنًا بالحمد، متقدمًا عليه، ومنه: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ [البقرة: ٣٠]. ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [الحجر: ٩٨].

فالتسبيح يتضمن نفي النقائص والعيوب، والتحميد يتضمن إثبات صفات الكمال التي يحمد عليها[5].

قال ابن كثير: «ولما كان التسبيح يتضمن التنزيه والتبرئة من النقص بدلالة المطابقة ويستلزم إثبات الكمال، كما أن الحمد يدل على إثبات صفات الكمال مطابقة، ويستلزم التنزيه من النقص قرن بينهما في هذا الموضع، وفي مواضع كثيرة من القرآن»[6].

ويأتي التسبيح مقترنًا بالتهليل، كقوله تعالى: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

وقوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

ومقترنًا بالاستغفار، كقوله: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٧].

وقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [غافر: ٥٥].

وذكر الله في القرآن تسبيح الجبال والطير ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

وتسبيح الرعد ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ

(١) جامع البيان، الطبري ١/ ٤٧٢.
(٢) جامع المسائل، ابن تيمية ٣/ ٢٩٢.
(٣) تفسير عبد الرزاق الصنعاني ٢/ ١٠٣.
(٤) تفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٢٣٦٦.
(٥) جامع المسائل، ابن تيمية ٣/ ٢٧٨.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٤٦.

﴿يَحْمَدِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣].

وتسبيح كل الموجودات ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الحشر: ١]. ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وهذه الآية تدل على أنه تسبيح حقيقي على كيفية لا يعرفها البشر، فلا يفقهون تسبيح هذه المخلوقات، وقد أخطأ من تأول تسبيحها لمعنى غير التسبيح المعهود في اللغة.

وتسبيح أهل الجنة، فقد أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ [يونس: ١٠].

إلا أنه مما يجب التنبيه عليه أن التسبيح اعتقاد وقول وعمل، ودليل ذلك أن الصلاة تسمى تسبيحًا، وهي تشمل اعتقاد القلب وعمله، وقول اللسان، وعمل الجوارح، كما جاء عن عائشة رضي الله عنها: (ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم سبح سبحة الضحى، وإني لأسبحها)[(١)].

وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: «تسبيح الله تعالى قد يكون بالقلب -بالعقيدة-، وقد يكون باللسان، وقد يكون بهما جميعًا، والمقصود أن يسبح بهما جميعًا بقلبه لا لفظًا بلسانه»[(٢)].

وقال ابن عاشور: «والتسبيح قول أو مجموع قول مع عمل يدل على تعظيم الله تعالى وتنزيهه؛ ولذلك سمي ذكر الله تسبيحًا، والصلاة سبحة، ويطلق التسبيح على قول سبحان الله؛ لأن ذلك القول من التنزيه»[(٣)].

فهنيئًا لمن أكثر من التسبيح في الدنيا، ووجد لذة فيه، وفرحًا به، فإنه حري أن يتلذذ بالتسبيح في الجنة، كما تلذذ به في الدنيا، وقد جاء في الأحاديث الصحيحة أن أهل الجنة يلهمون التسبيح، وأنهم يسبحون الله تعالى بكرة وعشيًا.

يقول ابن تيمية: «أهل الجنة يتنعمون بالنظر إلى الله، ويتنعمون بذكره وتسبيحه، وإن كانت هذه الأمور في الدنيا أعمالًا يترتب عليها الثواب، فهي في الآخرة أعمال يتنعم بها صاحبها أعظم من أكله وشربه ونكاحه»[(٤)].

فما هم فيه من النعيم هو غايات الراغبين، بحيث إن أرادوا أن ينعموا بمقام دعاء ربهم الذي هو مقام القرب لم يجدوا أنفسهم مشتاقين لشيء يسألونه، فاعتاضوا عن

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التهجد، باب من لم يصل الضحى ورآه واسعًا ٢/ ٥٨، رقم ١١٧٧، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة الضحى ١/ ٤٩٧، رقم ٧١٨.

(٢) تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، جزء عم ص ١٥٨.

(٣) التحرير والتنوير ١/ ٤٠٥.

(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية ٤/ ٣٣٠.

السؤال بالثناء على ربهم، فألهموا إلى التزام التسبيح؛ لأنه أدل لفظ على التمجيد والتنزيه، فهو جامع للعبارة عن الكمالات[1].

ثالثًا: التحميد:

ومن صور الذكر الواردة في القرآن: التحميد، وهو قول: الحمد لله.

والتحميد: حمدك الله عز وجل مرةً بعد مرة، فهو كثرة حمد الله سبحانه بالمحامد الحسنة، وهو أبلغ من الحمد، والحمد أعم من الشكر[2]؛ لأن الشكر: هو الثناء على المحسن بما أولاه من معروف، والحمد أعم من حيث ما يقع عليه، فإن الله تعالى ينبغي أن يحمد على كل حال، سواءً أعطي العبد النعمة أو لم يعط.

وأما المدح فهو أعم من الحمد؛ لأنه يكون للحي والميت وللجماد أيضًا، كما يمدح الطعام والمكان ونحو ذلك، ويكون من قبل الإحسان وبعده، وعلى الصفات المتعدية واللازمة أيضًا فهو أعم[3].

ومعناه في الاصطلاح: الثناء باللسان والقلب على الجميل الاختياري[4].

والجميل الاختياري: هو الثناء على المنعم بسبب كونه منعمًا على الحامد أو غيره، فحقيقة الحمد الثناء على المحمود بذكر نعوته الجليلة، وأفعاله الجميلة، وهو الثناء لله بصفات الكمال مع المحبة والتعظيم.

قال ابن عاشور: «فالحمد لله يشمل سائر صفات الكمال التي استحق الله لأجلها حصر الحمد له تعالى، بناء على ما تدل عليه جملة (الحمد لله) من اختصاص جنس الحمد به تعالى، واستحقاقه لذلك الاختصاص»[5].

وقد ورد الحمد في القرآن الكريم في أكثر من (٤٠) موضعًا، والتحميد: مفتتح القرآن، فقد افتتح الله كتابه الكريم بـ(الحمد لله) وافتتح بعض السور فيه بالحمد، مثل سور (الأنعام والكهف وسبأ وفاطر)، قال السيوطي: «اعلم أن الله افتتح سور القرآن بعشرة أنواع من الكلام، لا يخرج شيء من السور عنها:

الأول: الثناء عليه تعالى، والثناء قسمان: إثبات لصفات المدح، ونفي وتنزيه من صفات النقص، فالأول: (التحميد) في خمس سور»[6]. ثم ذكر بقية الأوجه.

وافتتح الله تعالى خلقه بالحمد، فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾[الأنعام: ١].

(١) التحرير والتنوير ١١/ ١٠٣.
(٢) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٤/ ٢٥٢، مختار الصحاح، الرازي ص ٨٠.
(٣) انظر: تفسير لقرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٤.
(٤) انظر: البدائع ١/ ١٩، وفتح القدير ١/ ١٩.
(٥) التحرير والتنوير ١/ ١٣٤.
(٦) الإتقان في علوم القرآن ٣/ ٣٦١.

واختتمه بالحمد، فقال بعد ما ذكر مآل أهل الجنة وأهل النار: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥].

والحمد له سبحانه في الأولى والآخرة، في جميع ما خلق وما هو خالق، كما قال سبحانه: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠].

وأمر الله بالحمد في كتابه، فقال: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ [النمل: ٩٣].

وأثنى على عباده الحامدين، فقال: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة: ١٥].

وقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٨].

وأول حمد جاء في القرآن وأعظمه أن حمد نفسه بنفسه بقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الفاتحة: ٢].

في أعظم سورة في القرآن، وهي سورة الفاتحة، حيث ابتدأت بهذه الجملة العظيمة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾. قال عليه الصلاة والسلام: (إذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال الله: حمدني عبدي)[(١)].

والألف واللام في (الحمد) تفيد الجنس، فجنس الحمد وكل الحمد إنما هو لله وحده؛ لأنه رب العالمين الذي له كل المحامد، محمود على صفاته، ومحمود على أفعاله.

وكأنه لما علم سبحانه وتعالى شدة إرادة أوليائه بحمده وثنائه، وعجزهم عن القيام بحق مدحه على مقتضى عزه وسنائه، أخبرهم أنه قد حمد نفسه بنفسه، بما افتتح به خطابه بقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، وتتفاوت طبقات الحامدين؛ لتباينهم في أحوالهم، فطائفة حمدوه على ما نالوا من إنعامه وإكرامه من نوعي صفة نفعه ودفعه، وإزاحته وإتاحته، وما عقلوا عنه من إحسانه بهم أكثره ما عرفوا من أفضاله معهم، قال جل ذكره: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨].

وطائفة حمدوه على ما لاح لقلوبهم من عجائب لطائفه، وأودع سرائرهم من مكنونات بره، وفرق بين من يمدحه بعز جلاله، وبين من يشكره على وجود أفضاله[(٢)].

وإذا اجتمع التسبيح والحمد في القرآن

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، ١/ ٢٩٦، رقم ٣٩٥.
(٢) لطائف الإشارات، القشيري ١/ ٤٥.

يتقدم التسبيح؛ قال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [النصر: ٣].

والسبب أن التسبيح يدل على كونه مبرأ في ذاته وصفاته عن النقائص، والتحميد يدل على كونه محسنًا إلى العباد، ولا يكون محسنًا إليهم إلا إذا كان عالمًا بجميع المعلومات ليعلم مواقع الحاجات، وإلا إذا كان قادرًا على المقدورات؛ ليقدر على تحصيل ما يحتاجون إليه، وإلا إذا كان غنيًا في نفسه وإلا شغله حاجة نفسه عن حاجة غيره، فثبت أن كونه محسنًا لا يتم إلا بعد كونه منزهًا عن النقائص والآفات[(١)].

قال الرازي: «إن التسبيح أينما جاء فإنما جاء مقدمًا على التحميد، ألا ترى أنه يقال: سبحان الله والحمد لله، إذا عرفت هذا فنقول: إنه جل جلاله ذكر التسبيح عند ما أخبر أنه أسرى بمحمد صلى الله عليه وسلم، فقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١].

وذكر التحميد عند ما ذكر أنه أنزل الكتاب على محمد صلى الله عليه وسلم فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١].

وفيه فوائد:

الفائدة الأولى: أن التسبيح أول الأمر؛ لأنه عبارة عن تنزيه الله عما لا ينبغي، وهو إشارة إلى كونه كاملًا في ذاته، والتحميد عبارة عن كونه مكملًا لغيره، ولا شك أن أول الأمر هو كونه كاملًا في ذاته، ونهاية الأمر كونه مكملًا لغيره، فلا جرم وقع الابتداء في الذكر بقولنا: (سبحان الله) ثم ذكر بعده الحمد لله تنبيهًا على أن مقام التسبيح مبدأ، ومقام التحميد نهاية.

إذا عرفت هذا فنقول: ذكر عند الإسراء لفظ التسبيح، وعند إنزال الكتاب لفظ التحميد، وهذا تنبيه على أن الإسراء به أول درجات كماله، وإنزال الكتاب غاية درجات كماله، والأمر في الحقيقة كذلك؛ لأن الإسراء به إلى المعراج يقتضي حصول الكمال له، وإنزال الكتاب عليه يقتضي كونه مكملًا للأرواح البشرية، وناقلًا لها من حضيض البهيمية إلى أعلى درجات الملكية، ولا شك أن هذا الثاني أكمل، وهذا تنبيه على أن أعلى مقامات العباد مقامًا أن يصير العبد عالمًا في ذاته، معلمًا لغيره»[(٢)].

والحاصل: أن جميع المحامد لله سبحانه إما وصفًا وإما خلقًا، فله الحمد لظهور سلطانه، وله الشكر؛ لوفور إحسانه، والحمد لله؛ لاستحقاقه لجلاله وجماله، والشكر لله؛ لجزيل نواله، وعزيز أفضاله، فحمده سبحانه له هو من صفات كماله وحوله، وحمد الخلق له على إنعامه وطوله

(١) انظر: غرائب القرآن، النيسابوري ١/ ٩٥.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٤٢١.

وجلاله وجماله، واستحقاقه لصفات العلو، ونعوت العز والسمو، فله الوجود، وله الجود، وله الثبوت الأحدي، والكون الصمدي، والبقاء الأزلي، والبهاء الأبدي، والثناء الديمومي، وله السمع والبصر، والقضاء والقدر، والكلام والقول، والعزة والطول، والرحمة والجود، والعين والوجه والجمال، والقدرة والجلال، وهو الواحد المتعال، كبرياؤه رداؤه، وعلاؤه سناؤه، ومجده عزه، وكونه ذاته، وأزله أبده، وقدمه سرمده، وحقه يقينه، وثبوته عينه، ودوامه بقاؤه، وقدره قضاؤه، وجلاله جماله، ونهيه أمره، وغضبه رحمته، وإرادته مشيئته، وهو الملك بجبروته، والأحد في ملكوته، تبارك الله سبحانه! فسبحانه ما أعظم شأنه![1].

فالحمد لله كلمة جليلة؛ لكنها يجب أن تذكر في موضعها ليحصل المقصود، قال السري: «منذ ثلاثين سنة أستغفر الله لقولي مرة واحدة الحمد لله؛ وذلك أنه وقع الحريق في بغداد، وأحرقت دكاكين الناس، فأخبرني واحد أن دكاني لم يحترق فقلت: الحمد لله، وكان من حق الدين والمروءة أن لا أفرح بذلك، فأنا في الاستغفار منذ ثلاثين سنة».

والحمد على نعم الدين أفضل من الحمد على نعم الدنيا، والحمد على أعمال القلوب أولى من الحمد على أعمال الجوارح، والحمد على النعم من حيث إنها عطية المنعم أولى من الحمد عليها من حيث هي نعم، فهذه مقامات يجب اعتبارها حتى يقع الحمد في موضعه اللائق به[2].

والمقصود: أن من صور الذكر العظيمة حمد الله تعالى، وقد جعل أجرها أنها تملأ الميزان، فهذه الكلمة العظيمة في ثوابها وثقلها تملأ الميزان، قال صلى الله عليه وسلم: **(والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن -أو تملأ- ما بين السماوات والأرض)**[3].

فالحمد لله عدد ما خلق، والحمد لله ملء ما خلق، والحمد لله عدد ما في الأرض والسماء، والحمد لله ملء ما في الأرض والسماء، والحمد لله عدد ما أحصى كتابه، والحمد لله ملء ما أحصى كتابه، والحمد لله عدد كل شيءٍ، والحمد لله ملء كل شيءٍ.

رابعًا: التهليل:

ومن صور الذكر الذي جاء في القرآن: التهليل، وهو: قول: لا إله إلا الله، يقال: قد أكثرت من الهيللة، أي: من قول: لا إله إلا

(١) انظر: لطائف الإشارات، القشيري ١/ ٤٥.

(٢) غرائب القرآن، النيسابوري ١/ ٩٥.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، ١/ ٢٠٣، رقم ٢٢٣.

الله[1].

قال الأزهري: «ولا أراه مأخوذًا إلا من رفع قائله به صوته»[2].

ومعنى هذا القول: نفي الألوهية عن كل شيء، وإثبات استحقاقها لله تعالى وحده، فلا رب غيره، ولا يعبد سواه، وتسمى هذه الكلمة كلمة التوحيد، فإنها تدل على نفي الشريك على الإطلاق.

وهي الكلمة التي دعا إليها الرسل كلهم، وإثبات التوحيد بهذه الكلمة باعتبار النفي والإثبات المقتضي للحصر، فإن الإثبات المجرد قد يتطرق إليه الاحتمال؛ ولهذا -والله أعلم- لما قال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾[البقرة: ١٦٣].

قال بعده: ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣].

فإنه قد يخطر ببال أحدٍ خاطر شيطاني: هب أن إلهنا واحد فلغيرنا إله غيره، فقال تعالى: ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

وتسمى أيضًا كلمة الإخلاص، وهي خلاصة دعوة الرسل، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

ولا يصح الإيمان للقادر إلا بالنطق بها مع التصديق بمعناها بالجنان.

وقد ذكر التهليل في القرآن الكريم (٣٧) مرة، قال العلامة الشيخ عبد الرحمن بن قاسم الحنبلي في حاشية الروض المربع شرح زاد المستقنع: «وجاءت كلمة (لا إله إلا الله) في سبعة وثلاثين موضعًا من القرآن»[3].

وبالرجوع لبرنامج القرآن الحاسوبي كانت نتيجة البحث أنها جاءت بلفظ: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ مرتين في الصافات ومحمد، ومرة واحدة بلفظ: ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ﴾ في الأنبياء، و﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾(٢٦) مرة، ومرة واحدة بلفظ: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ في المائدة، وبلفظ: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي﴾ مرة واحدة في يونس، وبلفظ: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا﴾ ثلاث مرات في النحل وطه والأنبياء، فيكون المجموع (٣٤) مرة فقط.

وأيهما أرفع وأعظم من هذه الجمل: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أو ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾؟ قيل: الأول أرفع درجة من لفظ: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾؛ لأن الضمائر وضعت للذات البحت، ففي كلمة ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ينتقل الذهن أولًا إلى الذات بلا ملاحظة اسم من الأسماء، وصفة من الصفات، وشأن من الشئونات، وكلمة ﴿اللَّهُ﴾ وإن كان اسمًا للذات، لكن الذهن هناك ينتقل أولًا إلى الاسم،

(١) انظر: العين، الفراهيدي ٣/ ٣٥٣، لسان العرب، ابن منظور ١١/ ٧٠٥.
(٢) تاج العروس، الزبيدي ٣١/ ١٤٩.

(٣) حاشية الروض المربع شرح زاد المستقنع ١/ ٢٣، حاشية رقم ٢.

وثانيًا إلى المسمى، وقد ينتقل الذهن من حيث الاشتقاق إلى معنى الألوهية، فيكون من أسماء الصفات غير أن صفة الألوهية يستدعي الاتصاف بجميع صفات الكمال، والتنزه عن جميع شوائب النقص والزوال، فيكون أتم وأشمل من سائر أسماء الصفات[1].

وكلمة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ هي كلمة (السواء) التي دعا إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الكتاب وأهل الملل الأخرى، فهي باب الهداية على صراط الله المستقيم، وأمر الله الجامع ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [آل عمران: ٦٤][2].

ووصفها بالطيبة، وضرب الله بها مثلًا: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤][3]. ووصفها كذلك بالوصف الخالد السرمدي كونها تخرق السبع الطباق، وتخرق الحجب ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠].

قال المفسرون: إن الطيب من القول والكلم هو لا إله إلا الله، والطيب المطلق هو معرفة لا إله إلا الله[4].

غير أنه ليس المقصود من دعوة الرسل مجرد التلفظ بالكلمة فحسب، بل لا بد من توفر شروطها حتى تكون نافعة عند الله، وإلا لم تنفع، فهذا عدو الله فرعون لما جاءته المحنة وهي الغرق فزع إلى هذا الذكر، إلى كلمة التوحيد، قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠]، فلم تنفعه.

أما يونس عليه السلام حينما ابتلعه بطن الحوت، ودخل في ظلمات ثلاث قال تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

استجاب الله له، فلماذا قبلت هذه الكلمة من يونس عليه السلام ولم تقبل من فرعون وكلاهما في المحنة؟ وقد قالا جميعًا: لا إله إلا الله، قال العلماء: فرعون ما عرف الله قبل المحنة لذلك ما نفعته عند المحنة، ويونس عرف الله قبل المحنة، فلما جاءت المحنة نفعته هذه الكلمة، وأيضًا أن يونس عليه السلام قال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ﴾ كلمة (أنت) يخاطبه وجهًا لوجهٍ، وكأنه يرى الله معه، أما فرعون فقال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ

---

(١) انظر: التفسير المظهري ١/ ٥.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ٤٧٨، تفسير السمرقندي ١/ ٢٢١.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٦/ ٥٦٧.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٤٤٤، الكشف والبيان، الثعلبي ٨/ ١٠١.

﴿إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ففرعون سمع أنه يوجد إله لموسى بيده كل شيء، فلما شرع في الغرق شعر أن إله موسى هو الذي أغرقه، فقال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فذكر ضمير الغائب دليل على أنه غير متحقق؛ فهو لم يعرفه في الرخاء حتى يعرفه في الشدة، والمقصود أنها قبلت (لا إله إلا الله) من سيدنا يونس؛ لأنه كان من المسبحين، ولم تقبل من فرعون لأنه لم يكن من المسبحين.

فلا بد من توفر شروط هذا الذكر (لا إله إلا الله) وقد ذكر العلماء من شروط (لا إله إلا الله) ما يلي:

١ . العلم بمعناها.

وذلك بأن يعلم الناطق بها معنى هذه الكلمة، وما تضمنته من نفي الألوهية عن غير الله، وإثباتها له سبحانه، قال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩].

٢ . اليقين.

بمعنى ألا يقع في قلب قائلها شك فيها أو فيما تضمنته؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ﴾ [الحجرات: ١٥].

٣. القبول لما اقتضته هذه الكلمة بقلبه ولسانه.

والمراد بالقبول هنا هو المعنى المضاد للرد والاستكبار، ذلك أن الله أخبرنا عن أقوام رفضوا قول لا إله إلا الله، فكان ذلك سبب عذابهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٤ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٤-٣٥].

٤ . الانقياد لما دلت عليه.

بمعنى: أن يكون العبد عاملًا بما أمره الله به، منتهيًا عما نهاه الله عنه.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ٢٢].

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «العروة الوثقى هي لا إله إلا الله»(١).

٥ . الصدق.

ومعناه أن يقولها صادقًا من قلبه، يوافق قلبه لسانه، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٨-٩].

٦ . الإخلاص.

وهو إرادة وجه الله تعالى بهذه الكلمة، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

٧ . المحبة لهذه الكلمة.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ٥/ ٤٢١.

ولأهلها العاملين بها الملتزمين بشروطها، وبغض ما ناقضها، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[البقرة: ١٦٥].

فهذا هو معنى هذه الكلمة، وهذه هي شروطها التي بها تكون سبب النجاة عند الله سبحانه، وقد قيل للحسن: «إن أناسًا يقولون: من قال: لا إله إلا الله دخل الجنة، فقال: من قال: لا إله إلا الله فأدى حقها وفرضها دخل الجنة»[(١)].

والمقصود: أن هذا الذكر (التهليل) فضله عظيم، وقد ورد الأمر به في القرآن، قال تعالى: ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [التوبة: ١٢٩].

وقد ورد في فضل هذا الذكر قول النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله قد حرم على النار من قال: لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله)[(٢)].

وقال: (أفضل الذكر لا إله إلا الله)[(٣)].

قال المباركفوري رحمه الله: «لأنها كلمة التوحيد، والتوحيد لا يماثله شيء، وهي الفارقة بين الكفر والإيمان؛ ولأنها أجمع للقلب مع الله، وأنفى للغير، وأشد تزكية للنفس، وتصفية للباطن، وتنقية للخاطر من خبث النفس، وأطرد للشيطان»[(٤)].

خامسًا: الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم:

ومن صور الذكر في القرآن: الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وقد أمر الله تعالى بها في القرآن، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

وهذا فيه تنبيه على كمال الرسول صلى الله عليه وسلم، ورفعة درجته، وعلو منزلته عند الله وعند خلقه، ورفع ذكره.

قال القرطبي: «وهذه الآية شرف الله بها رسوله عليه السلام حياته وموته، وذكر منزلته منه، وطهر بها سوء فعل من استصحب في جهته فكرة سوء، أو في أمر زوجاته ونحو ذلك، والصلاة من الله رحمته ورضوانه،

(١) ترتيب الأمالي الخميسية، الشجري ١/ ١٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب المساجد في البيوت، ١/ ٩٢، رقم ٤٢٥، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر، ١/ ٤٥٥، رقم ٣٣.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات، باب ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة، ٥/ ٤٦٢، رقم ٣٣٨٣، وابن ماجه في سننه، كتاب الأدب، باب فضل الحامدين، ٢/ ١٢٤٩، رقم ٣٨٠٠. قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث موسى بن إبراهيم». وحسنه الألباني في صحيح الجامع ١/ ٢٤٨، رقم ١١٠٤.

(٤) تحفة الأحوذي ٩/ ٣٢٥.

ومن الملائكة الدعاء والاستغفار، ومن الأمة الدعاء والتعظيم لأمره»[(١)].

وقال ابن كثير: «والمقصود من هذه الآية: أن الله سبحانه أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملأ الأعلى، بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تصلي عليه، ثم أمر تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه، ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي جميعًا»[(٢)].

فقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ﴾ أي: يثني الله عليه بين الملائكة، وفي الملأ الأعلى لمحبته تعالى له، وتثني عليه الملائكة المقربون، ويدعون له ويتضرعون[(٣)].

وصلاة الله عليه هنا لا يصلح حملها على معناها اللغوي، وهو الدعاء؛ لأن المعنى غير معقول في حق الله تعالى؛ فإنه لا يدعو له؛ لأن الدعاء للغير طلب نفعه من ثالث[(٤)].

قال الألوسي: «والجملة صيغة خبر، ومعناها الدعاء بالسلامة، وطلبها منه تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم، واستشكل ذلك فيما إذا قال الله تعالى: السلام عليك أيها النبي أو نحوه بأن الدعاء لا يتصور منه عز وجل لأنه طلب، وهو يتضمن طالبًا ومطلوبًا ومطلوبًا منه، وهي أمور متغايرة، فإن كان طلبه سبحانه السلامة لنبيه عليه الصلاة والسلام من غيره تعالى فمحاليته من أجلى البديهيات، وإن كان من ذاته عز وجل لزم أن يغاير ذاته، والشيء لا يغاير ذاته ضرورة، وهذا منشأ قول بعضهم: إن في السلام منه تعالى إشكالًا له شأن، فينبغي الاعتناء به، وعدم إهمال أمره، فقل من يدرك سره»[(٥)].

فإن قيل: إذا صلى الله وملائكته عليه فأي حاجة إلى صلاتنا؟

وقد أجاب الرازي بقوله: «نقول: الصلاة عليه ليس لحاجته إليها، وإلا فلا حاجة إلى صلاة الملائكة مع صلاة الله عليه، وإنما هو لإظهار تعظيمه، كما أن الله تعالى أوجب علينا ذكر نفسه ولا حاجة له إليه، وإنما هو لإظهار تعظيمه منا شفقة علينا ليثيبنا عليه؛ ولهذا قال عليه السلام: (من صلى علي مرة صلى الله عليه عشرًا)»[(٦)].

ونلحظ من هذه الآية أنه أضاف الصلاة إلى الله دون السلام، وأمر المؤمنين بهما معًا، والحكمة كما قال الحافظ ابن حجر في (الفتح): «وقد سئلت عن إضافة الصلاة إلى الله دون السلام، وأمر المؤمنين بها وبالسلام، فقلت: يحتمل أن يكون السلام له

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٤/ ٢٣٢.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٤٥٧.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٧١.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ١٨١.
(٥) روح المعاني، الألوسي ١١/ ٢٥٥.
(٦) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ١٨٢.

معنيان: التحية والانقياد، فأمر به المؤمنون لصحتهما منهم، والله وملائكته لا يجوز منهم الانقياد، فلم يضف إليهم دفعًا للإيهام، والعلم عند الله»[(١)].

قال الشهاب الخفاجي عليه الرحمة: «قد لاح لي في ترك تأكيد السلام وتخصيصه بالمؤمنين نكتة سرية، وهي أن السلام عليه -عليه الصلاة والسلام- تسليمه عما يؤذيه، فلما جاءت هذه الآية عقيب ذكر ما يؤذي النبي صلى الله عليه وسلم والأذية إنما هي من البشر، وقد صدرت منهم، فناسب التخصيص بهم والتأكيد»[(٢)].

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]. اقتداء بالله وملائكته، وجزاء له على بعض حقوقه عليكم، وتكميلًا لإيمانكم، وتعظيمًا له صلى الله عليه وسلم، ومحبة وإكرامًا، وزيادة في حسناتكم، وتكفيرًا من سيئاتكم، وأفضل هيئات الصلاة عليه -عليه الصلاة والسلام- ما علم به أصحابه: (اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد)[(٣)].

وهذا الأمر بالصلاة والسلام عليه مشروع في جميع الأوقات، وأوجبه كثير من العلماء في الصلاة[(٤)].

والآية جمعت بين الصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم فالأولى أن يقال: صلى الله عليه وسلم.

قال النووي: «إذا صلى على النبي صلى الله عليه وسلم فليجمع بين الصلاة والتسليم، ولا يقتصر على أحدهما، فلا يقل: صلى الله عليه فقط، ولا عليه السلام فقط»[(٥)].

قال ابن كثير: «وهذا الذي قاله منتزع من هذه الآية الكريمة، وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]. فالأولى أن يقال: صلى الله عليه وسلم تسليمًا»[(٦)].

والتعبير بالجملة الاسمية في صدر الآية؛ للإشعار بوجوب المداومة، والاستمرار على ذلك[(٧)].

و﴿يُصَلُّونَ﴾ فعل مضارع يدل على

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ٨/ ٥٣٣.
(٢) حاشية الشهاب على أنوار التنزيل، البيضاوي ٧/ ١٨٣.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، ٨/ ٧٧، رقم ٦٣٥٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بعد التشهد، ١/ ٣٠٥، رقم ٤٠٦.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٧١.
(٥) الأذكار، النووي ص ١١٧.
(٦) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٤٧٩.
(٧) التفسير الوسيط، طنطاوي ١١/ ٢٤٣.

الحال والاستقبال، أي: أن الله -جل جلاله- وملائكته منذ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولًا يصلون عليه حال نزول الآية، ومستقبلًا وإلى يوم القيامة.

و﴿تَسْلِيمًا﴾: مفعول مطلق، أي: نسلم عليه كثيرًا ودوامًا عند زيارته في المسجد النبوي، وفي البعد، وحيث كنا من أرض الله تعالى[1]. فهو تسليم عليه، وتسليم له، تسليم عليه بالدعاء له بالأمن والسلام من الله (السلام عليك أيها النبي) والتسليم له من المؤمنين بالطاعة والولاء، فهذه الصلاة وهذا التسليم من المؤمنين هو بعض ما يجزي به المؤمنون النبي من إحسان في مقابل الإحسان العظيم الذي أحسن به إليهم؛ إذ هداهم إلى الإيمان، وأخرجهم من الظلمات إلى النور، وسلك بهم الطريق إلى رضوان الله، وإلى جنات لهم فيها نعيم مقيم، فما أقل ما يجزي به المؤمن هذا الإحسان الذي لرسول الله في عنقه[2].

والضمير في ﴿يُصَلُّونَ﴾ لله تعالى ولملائكته، وهذا قول من الله شرف به ملائكته، أو في الكلام حذف، والتقدير: إن الله يصلي، وملائكته يصلون.

قال القرطبي: «واختلف العلماء في الضمير في قوله: ﴿يُصَلُّونَ﴾ فقالت فرقة: الضمير فيه لله والملائكة، وهذا قول من الله تعالى شرف به ملائكته، فلا يصحبه الاعتراض الذي جاء في قول الخطيب: «من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى» فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بئس الخطيب أنت، قل: ومن يعصي الله ورسوله)[3].

قالوا: لأنه ليس لأحد أن يجمع ذكر الله تعالى مع غيره في ضمير، ولله أن يفعل في ذلك ما يشاء، وقالت فرقة: في الكلام حذف، تقديره: إن الله يصلي وملائكته يصلون، وليس في الآية اجتماع في ضمير؛ وذلك جائز للبشر فعله»[4].

وظاهر صيغة الأمر مع قرينة السياق تقتضي وجوب أن يصلي المؤمن على النبي صلى الله عليه وسلم، إلا أنه مجملٌ في العدد، فمحمله محمل الأمر المجمل أن يفيد المرة؛ لأنها ضرورية لإيقاع الفعل ولمقتضى الأمر؛ ولهذا ذكر الفقهاء أن الصلاة على النبي (خارج الصلاة) واجبة على كل مؤمن مرة في العمر، فجعلوا وقتها العمر كالحج، وقد اختلفوا فيما زاد على ذلك في حكمه ومقداره، ولا خلاف في استحباب الإكثار من الصلاة عليه، وخاصة

(١) تفسير المنتصر الكتاني ٢١٠/ ٣.
(٢) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ١١/ ٧٤٨.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، ٢/ ٥٩٤، رقم ٨٧٠.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ٢٣٢.

عند وجود أسبابها، ومن أسباب الصلاة عليه: أن يصلي عليه من جرى ذكره عنده، وعند الدعاء، وعند سماع الأذان، وعند انتهاء المؤذن، وعند دخول المسجد.

وذكر الفعل المضارع في (يصلون) إشارة إلى الترغيب في الإكثار من الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم تأسيًا بصلاة الله وملائكته[١].

قال القاسمي: «تدل الآية على وجوب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم مطلقًا؛ لأن الأصل في الأمر للوجوب، فذهب قوم إلى وجوبها في المجلس مرة، ثم لا تجب في بقية ذلك المجلس، وآخرون إلى وجوبها في العمر مرة واحدة، ثم هي مستحبة في كل حال، وآخرون إلى وجوبها كلما ذكر، وبعضهم إلى أن محل الآية على الندب»[٢].

قال ابن كثير: «وهذا قول غريب، فإنه قد ورد الأمر بالصلاة عليه في أوقات كثيرة، فمنها واجب، ومنها مستحب»[٣].

والظاهر أيضًا أنه لا يحصل الامتثال بأي ثناء ودعاء للنبي صلى الله عليه وسلم بغير هذه الصيغة التي تحتوي على لفظ الصلاة، قال الألوسي: «والظاهر أنه لا يحصل الامتثال باللهم عظم محمدًا التعظيم اللائق ونحوه، مما ليس فيه مشتق من الصلاة، كصل وصلى، فإنا لم نسمع أحدًا عد قائل ذلك مصليًا عليه صلى الله عليه وسلم؛ وذلك في غاية الظهور، إذا كان (قولوا: اللهم صل على محمد) تفسيرًا لقوله تعالى: ﴿صَلُّوا۟ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسۡلِيمًا﴾ أي: وقولوا: والسلام عليك أيها النبي ونحوه، وهذا ما عليه أكثر العلماء الأجلة»[٤].

والمقصود: أن من الأذكار العظيمة الواردة في القرآن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وقد جاء الأمر بها في القرآن، إلا أنه لم يبين لنا عز وجل كيفية تلك الصلاة في كتابه، وبينها لنا رسوله صلى الله عليه وسلم، ورغب فيها، وحث عليها، وبين أن أجرها مضاعف، فقال صلى الله عليه وسلم: (**فإنه من صلى علي صلاة، صلى الله عليه بها عشرًا**)[٥]، وقد شرعت عند ذكر اسمه، وبعد التشهد في الصلاة، وفي خطبة الجمعة والنكاح ونحوها.

وهي مما يدل على دوام أجره دون انقطاع؛ لأن صلوات الله تعالى عليه، وصلوات الملائكة والمؤمنين لا تنقطع ليلًا ولا نهارًا، وهي من الله تعالى رحمة، ومن

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٩٨.
(٢) محاسن التأويل ٨/ ١٠٧.
(٣) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٤٦٩.
(٤) روح المعاني، الألوسي ١١/ ٢٥٥.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه، ١/ ٢٨٨، رقم ٣٨٤.

الملائكة والمؤمنين دعاء[١].

فيا لها من مرتبة سنية حيث تردد جنبات الوجود، ثناء الله على نبيه، ويشرق به الكون كله، وتتجاوب به أرجاؤه، ويثبت في كيان الوجود ذلك الثناء الأزلي القديم الأبدي الباقي، وما من نعمة ولا تكريم بعد هذه النعمة وهذا التكريم، وأين تذهب صلاة البشر وتسليمهم بعد صلاة الله العلي وتسليمه، وصلاة الملائكة في الملأ الأعلى وتسليمهم، إنما يشاء الله تشريف المؤمنين بأن يقرن صلاتهم إلى صلاته، وتسليمهم إلى تسليمه، وأن يصلهم عن هذا الطريق بالأفق العلوي الكريم الأزلي القديم[٢].

ففي الصلاة والسلام عليه اعتناء بإظهار شرفه ورفع شأنه، ومن هنا قال بعضهم: تشريف الله محمدًا صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ أبلغ من تشريف آدم بالسجود له.

سادسًا: قراءة القرآن:

ومن صور الذكر الوارد الأمر بها في القرآن: قراءة القرآن، والمتتبع لآي القرآن الكريم يجد الأمر واضحًا بتلاوته وتدبره، ويجد ما يترتب على ذلك من الأجر العظيم.

قال تعالى: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: ٢٠].

والمعنى: فاقرءوا من الليل ما تيسر لكم من القرآن في صلاتكم؛ وهذا تخفيف من الله عز وجل عن عباده فرضه الذي كان فرض عليهم بقوله: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٢-٤][٣].

فالأمر بقراءة القرآن هنا فيه قولان:

الأول: أن المراد من هذه القراءة الصلاة؛ لأن القراءة أحد أجزاء الصلاة، فأطلق اسم الجزء على الكل، أي: فصلوا ما تيسر عليكم.

والقول الثاني: أن المراد قراءة القرآن بعينها، والغرض منه دراسة القرآن؛ ليحصل الأمن من النسيان[٤]. وليقف المؤمن بقراءته على إعجازه، وما فيه من دلائل التوحيد، وبعث الرسل.

فعلى القول الثاني يكون الأمر بقراءة مستقلة، ويؤيد هذا أن الله قد أمر بترتيل القرآن، فقال: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ أي: اقرأه على تؤدة وتمهل وتبين حروف، بحيث يتمكن السامع من استيعابه، وتدبر معانيه.

والأمر في قوله: ﴿فَٱقْرَءُوا۟﴾ للندب، وقال قوم منهم الحسن وابن سيرين: «هو

(١) انظر: أضواء البيان ٨/ ٢٤٧.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٨٧٩.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٣٩٥.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/ ٦٩٤، واللباب في علوم الكتاب ١٩/ ٤٨٧.

فرض لا بد منه، ولو أقل ما يمكن»، حتى قال بعضهم: من صلى الوتر فقد امتثل هذا الأمر، وقيل: كان فرضًا ثم نسخ بالصلوات الخمس، وقيل: هو فرض على أهل القرآن دون غيرهم.

وذكر الله في هذه الآية الأعذار التي تكون لبني آدم تمنعهم من قيام الليل، فمنها: المرض، ومنها: السفر للتجارة، وهي الضرب في الأرض؛ لابتغاء فضل الله، ومنها: الجهاد، ثم كرر الأمر بقراءة ما تيسر؛ تأكيدًا للأمر به، أو تأكيدًا للتخفيف، وهذا أظهر؛ لأنه ذكره بأثر الأعذار[1].

والحاصل: أن تلاوة القرآن سنة من سنن الإسلام، والإكثار منها مستحب؛ لأنها وسيلة إلى فهم كتاب الله، والعمل به، وفضلها ثابت في القرآن الكريم والسنة الشريفة، وأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بتلاوة القرآن، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝ وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ﴾ [النمل: ٩١-٩٢].

ومدح المشتغلين بتلاوته، فقال: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ١٢١].

وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩].

وكان مطرف إذا مر بهذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ يقول: «هذه آية القراء»[2]، يعني: أثنى الله عليهم بقراءة القرآن.

فقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ﴾ يعني: يقرءون القرآن، وقيل: معناه: يتبعون كتاب الله تعالى، يقال: تلا يتلو إذا تبعه، كقوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ [الشمس: ٢][3].

ولعل الجمع بين القولين أولى، فهم يقرءونه ويتبعونه، لا مجرد قراءة باللسان فقط.

قال السعدي: «أي: يتبعونه في أوامره فيمتثلونها، وفي نواهيه فيتركونها، وفي أخباره، فيصدقونها ويعتقدونها، ولا يقدمون عليه ما خالفه من الأقوال، ويتلون أيضًا ألفاظه، بدراسته، ومعانيه، بتتبعها واستخراجها»[4].

فتلاوة كتاب الله تعني شيئًا آخر غير المرور بكلماته بصوت أو بغير صوت، تعني تلاوته عن تدبر، ينتهي إلى إدراك وتأثر، وإلى عمل بعد ذلك وسلوك، ومن ثم يتبعها بإقامة الصلاة، وبالإنفاق سرًا وعلانية من رزق الله، ثم رجاؤهم بكل هذا ﴿تِجَارَةً لَّن

(١) التسهيل، ابن جزي ٢/ ٤٢٦.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٣٦٦.
(٣) تفسير السمرقندي ٣/ ١٠٦.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٨٩.

﴿تَبُورَ﴾ فهم يعرفون أن ما عند الله خير مما ينفقون، ويتاجرون تجارة كاسبة مضمونة الربح، يعاملون فيها الله وحده، وهي أربح معاملة، ويتاجرون بها في الآخرة، وهي أربح تجارة، تجارة مؤدية إلى توفيتهم أجورهم، وزيادتهم من فضل الله[1].

ومجيء الجملة فعلية يدل على مداومة القراءة وتجددها.

قال الألوسي: «أي: إنهم يداومون على قراءته حتى صارت سمة لهم وعنوانًا، كما يشعر به صيغة المضارع، ووقوعه صلة، واختلاف الفعلين»[2].

فعطف الماضيين (أقاموا، وأنفقوا) على المضارع (يتلون)؛ لأن أوقات التلاوة أعم من أوقات الصلاة والزكاة، ويجوز أن يكون الماضيان سابقين على التلاوة، ويجوز أن تكون التلاوة في الصلاة.

فـ(يتلون) فعل مضارع و(أقاموا) فعل ماضي، والفعل المضارع يدل على الحال والتجدد والاستقبال والماضي مضى؛ وفي الآية ذكر تعالى أكثر ما يتجدد أولًا؛ لأن تلاوة القرآن أكثر من الصلاة، وإقامة الصلاة لا تكون إلا بقراءة القرآن، وقراءة القرآن تكون في كل وقت، وإقامة الصلاة هي أكثر من الإنفاق، إذن فالأفعال مرتبة في الآية بحسب الكثرة، وبحسب الاستمرار، فبدأ بالأكثر والأكثر استمرارًا، ثم بما دونها كثرة (الصلاة)، ثم الأقل (الإنفاق)[3].

والمراد بكتاب الله: القرآن[4]، ولا وجه لما قيل: إن المراد به جنس كتب الله.

قال أبو السعود: «والمراد بكتاب الله تعالى: القرآن، وقيل: جنس كتب الله، فيكون ثناء على المصدقين من الأمم بعد اقتصاص حال المكذبين منهم، وليس بذاك، فإن صيغة المضارع منادية باستمرار مشروعية تلاوته، والعمل بما فيه واستتباعهما لما سيأتي من توفية الأجور، وزيادة الفضل، وحملها على حكاية الحال الماضية مع كونه تعسفًا ظاهرًا مما لا سبيل إليه، كيف لا، والمقصود الترغيب في دين الإسلام، والعمل بالقرآن الناسخ لما بين يديه من الكتب! فالتعرض لبيان حقيقتها قبل انتساخها والإشباع في ذكر استتباعها لما ذكر من الفوائد العظيمة مما يورث الرغبة في تلاوتها، والإقبال على العمل بها، وتخصيص التلاوة بما لم ينسخ منها باطل قطعًا؛ لما أن الباقي مشروعًا ليس إلا حكمها؛ لكن لا من حيث أنه حكمها، بل من حيث إنه حكم القرآن، وأما تلاوتها فبمعزل من المشروعية، واستتباع الأجر

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٩٤٣.
(٢) روح المعاني، الألوسي ١١/ ٣٦٥.
(٣) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، فاضل السامرائي ص ٧٤١.
(٤) غرائب التفسير، النيسابوري ٢/ ٩٤٦، روح المعاني، الألوسي ١١/ ٣٦٥.

بالمرة، فتدبر!»[1].

والمقصود: أن من صور الذكر وأعظمها قراءة القرآن، فقد جاء الترغيب في تلاوة القرآن، ولو في غير صلاة، ومن غير وضوء، ويؤجر المسلم على مجرد ترديد لفظه، ولو من غير فهمه، إلا أنه إذا ضم إلى التلاوة فهمًا زاد بذلك أجرًا على أجر، بل إن قراءة القرآن أفضل من الذكر والدعاء، وقد سئل ابن تيمية عمن يحفظ القرآن أيما أفضل له تلاوة القرآن أم الذكر؟

فأجاب: «جواب هذه المسألة ونحوها مبني على أصلين: فالأصل الأول أن جنس تلاوة القرآن أفضل من جنس الأذكار، كما أن جنس الذكر أفضل من جنس الدعاء»[2].

سابعًا: الحسبلة:

ومن صور الذكر الواردة في القرآن قول: حسبنا الله ونعم الوكيل، وقد أثنى الله سبحانه على أهل التوحيد والتوكل من عباده، حيث أفردوه بالحسب، حيث قال: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٤].

فهؤلاء قالوا هذه الكلمة العظيمة (حسبنا الله ونعم الوكيل) أي: قالوا معبرين عن صادق إيمانهم بالله: الله يكفينا ما يهمنا من أمر الذين جمعوا الجموع لنا، فهو لا يعجزه أن ينصرنا على قلتنا وكثرتهم، أو يلقي في قلوبهم الرعب، فيكفينا شر بغيهم وكيدهم، وقد كان الأمر كما ظنوا، فألقى الله الرعب في قلب أبي سفيان وجيشه على كثرة عددهم، وتوافر عددهم، فولوا مدبرين، وكان في ذلك عزة لله ولرسوله وللمؤمنين[3].

فـ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ يعني: نعيم بن مسعود، وإنما أراد به جنس الناس، وكان رجلًا واحدًا ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾ يعني: أبا سفيان وأصحابه ﴿فَٱخْشَوْهُمْ﴾ ولا تخرجوا إليهم ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾ أي: تصديقًا ويقينًا، وجرأة على القتال ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ أي: ثقتنا بالله، وأيقنوا أن الله لا يخذل محمدًا صلى الله عليه وسلم ﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ أي: نعم الثقة لنا ﴿فَٱنقَلَبُوا۟﴾ انصرفوا ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: بأجر من الله ﴿وَفَضْلٍ﴾ يعني: ما تسوقوا به من السوق، واشتروا الأشياء بسعر رخيص ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ يعني: قتال ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ١٥٢.
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٣/ ٥٦-٦٠.
(٣) تفسير المراغي ٤/ ١٣٥.

أي: ذو من عظيم[1].

والحاصل: أنه يستحب قول هذا الذكر وهذه الكلمة عند الغم، والأمور العظيمة[2].

وهي الكلمة التي قالها المؤمنون هنا، كما في هذه الآية، وهي التي قالها إبراهيم عليه السلام حينما ألقي في النار، فقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: «حسبنا الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار»[3].

وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾ [آل عمران: ١٧٣][4].

فالحسبلة مقتضى التوكل، وإنما يكون التوكل على الله وحده، كما قال لنبيه: ﴿قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨].

أي: عليه وحده، بدلالة تقديم الظرف، ومثله في هذا الحصر آيات كثيرة.

وقال في المنافقين: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩].

(١) تفسير السمرقندي ١/ ٢٦٦.
(٢) انظر: الإكليل في استنباط التنزيل، السيوطي ص ٧٤.
(٣) تفسير القرآن الكريم، المقدم ٢٨/ ٨.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: (إن الناس قد جمعوا لكم)، ٦/ ٣٩، رقم ٤٥٦٣.

أي: لكان خيرًا لهم، علمهم الله تعالى أن يسندوا الإعطاء من الصدقات إلى الله؛ لأنه المعطي الذي فرض الصدقات وأوجبها، وإلى رسوله؛ لأنه هو الذي يقسمها، وأن يسندوا كفاية الإحساب إلى الله وحده، وتكون رغبتهم إلى الله وحده، ولم يأمرهم أن يقولوا: حسبنا الله ورسوله؛ إذ لا يكفي العباد إلا ربهم وخالقهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦].

ولا سيما الكفاية الكاملة التي يعبر عنها بحسبك، أي: التي يقول فيها المكفى: حسبي حسبي، وهي المرادة هنا -كما تقدم-، وإذا كان دأب آحاد المؤمنين وهجيراهم (حسبنا الله ونعم الوكيل) فأنبياء الله ورسله أولى بهذا؛ لأنهم أكمل توحيدًا وتوكلًا من غيرهم، وناهيك بخاتمهم وأفضلهم صلى الله عليه وسلم، ثم ناهيك بوعد الله تعالى إياه بهذه الكفاية[5].

فإذا وفق الله عبدًا توكل بحفظه وكلاءته، وهدايته وإرشاده، وتوفيقه وتسديده، وإذا خذله وكله إلى نفسه أو إلى غيره؛ ولهذا كانت هذه الكلمة: «حسبنا الله ونعم الوكيل» كلمةً عظيمةً، قال من سبق ذكرهم من الأنبياء والصالحين، وممن قالها أيضًا عائشة رضي الله عنها حين ركبت الناقة لما انقطعت عن الجيش، وهي كلمة المؤمنين،

(٥) تفسير المنار ١٠/ ٦٤.

فمن حقق التوكل على الله لم يكله إلى غيره، وتولاه بنفسه، وحقيقة التوكل: تكلة الأمور كلها إلى من هي بيده، فمن توكل على الله في هدايته وحراسته وتوفيقه وتأييده ورزقه، وغير ذلك من مصالح دينه ودنياه تولى اللّه مصالحه كلها، فإنه تعالى ولي الذين آمنوا، وهذا هو حقيقة الوثوق برحمة الله، فمن وثق برحمة ربه ولم يثق بغير رحمته، فقد حقق التوكل على ربه في توفيقه وتسديده، فهو جديرٌ بأن يتكفل الله بحفظه، ولا يكله إلى نفسه[1].

فمدحوه سبحانه بأنه نعم الوكيل، والوكيل لا يستحق المدح إذا لم يجلب لمن توكل عليه منفعة، ولم يدفع عنه مضرة، والله خير من توكل العباد عليه، فهو نعم الوكيل يجلب لهم كل خير، ويدفع عنهم كل شر.

وقال تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ [المزمل: ٩].

وقال: ﴿وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلٗا﴾ [الإسراء: ٢].

فأمر أن يتخذ وكيلًا، ونهى أن يتخذ من دونه وكيلًا؛ لأن المخلوق لا يستقل بجميع حاجات العبد، والوكالة الجائزة أن يتوكل الإنسان في فعل يقدر عليه، فيحصل للموكل بذلك بعض مطلوبه، فأما مطالبه كلها فلا يقدر عليها إلا الله، وذاك الذي يوكله لا يفعل شيئًا إلا بمشيئة الله وقدرته، فليس له أن يتوكل عليه وإن وكله، بل يعتمد على الله في تيسير ما وكله فيه، فلو كان الذي يحصل للمتوكل على الله يحصل وإن توكل على غيره، ويحصل بلا توكل لكان اتخاذ بعض المخلوقين وكيلًا أنفع من اتخاذ الخالق وكيلًا، وهذا من أقبح لوازم هذا القول الفاسد؛ لأن التوكل على الخلق يشهد نفعه[2].

فالحسيب: هو الكافي، والوكيل: فعيل من التوكل، أي: متوكلًا عليه، تفوضون إليه أموركم، فيوصل إليكم النفع، ويكف عنكم الضر، أي: ربًا تكلون إليه أموركم.

قال ابن الجوزي: «قيل للرب: وكيل؛ لكفايته وقيامه بشئون عباده، لا على معنى ارتفاع منزلة الموكل وانحطاط أمر الوكيل»[3].

وقال القرطبي: «وكيلًا، أي: شريكًا»[4].

والمعاني متقاربة، ومرجعها إلى شيء واحد، وهو أن الوكيل: من يتوكل عليه، فتفوض الأمور إليه، ليأتي بالخير، ويدفع الشر، وهذا لا يصح إلا لله وحده جل وعلا؛ ولهذا حذر من اتخاذ وكيل دونه؛ لأنه لا نافع ولا ضار، ولا كاف إلا هو وحده جل وعلا،

(١) انظر: تفسير ابن رجب الحنبلي ١/ ٢٧٢.

(٢) محاسن التأويل، القاسمي ٤/ ٨٢.

(٣) زاد المسير ٣/ ٩.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٢١٣.

عليه توكلنا، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

ونظير الآية السابقة قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩].

وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩].

وقوله: ﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢].

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤].

ثامنًا: التكبير:

ومن صور الذكر القرآني: التكبير، وقد أمر الله به في قوله: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١].

ونظيرها قوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ [المدثر: ٣].

والتكبير: التعظيم، وهو مصدر كبر بمعنى: عظم، وهو قول: الله أكبر.

والتكبير أبلغ لفظة للعرب في معنى التعظيم والإجلال، وفي الأمر بذلك بعد ما تقدم مؤكدًا بالمصدر المنكر من غير تعيين لما يعظم به تعالى إشارة إلى أنه مما لا تسعه العبارة، ولا تفي به القوة البشرية، وإن بالغ العبد في التنزيه والتمجيد واجتهد في العبادة والتحميد فلم يبق إلا الوقوف بإقدام المذلة في حضيض القصور، والاعتراف بالعجز عن القيام بحقه جل وعلا[١].

والأمر هنا ﴿وَكَبِّرْهُ﴾ وإن كان للرسول صلى الله عليه وسلم فهو أمر للناس جميعًا على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم؛ لأن أمر القدوة أمر لأتباعه. ومعنى: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ أي: قل: الله أكبر، الله أكبر، تكبيرًا مطلقًا، من غير مقايسة أو مفاضلة، الكبير في كل مقام، فهو سبحانه الكبير المتعال، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

وقد يحمل المعنى على ما هو أشمل، أي: عظمه تعظيمًا[٢].

قال الرازي في هذا التكبير: «يحتمل أنواعًا من المعاني:

أولها: تكبيره في ذاته، وهو أن يعتقد أنه واجب الوجود لذاته، وأنه غني عن كل ما سواه.

وثانيها: تكبيره في صفاته؛ وذلك من ثلاثة أوجه:

أولها: أن يعتقد أن كل ما كان صفة له فهو من صفات الجلال والعز والعظمة والكمال،

(١) انظر: روح المعاني، الألوسي ٨/ ١٨٤.
(٢) تفسير يحيى بن سلام ١/ ١٦٩.

وهو منزه عن كل صفات النقائص.

وثانيها: أن يعتقد أن كل واحد من تلك الصفات متعلق بما لا نهاية له من المعلومات، وقدرته متعلقة بما لا نهاية له من المقدورات والممكنات.

وثالثها: أن يعتقد أنه كما تقدست ذاته عن الحدوث، وتنزهت عن التغير والزوال والتحول والانتقال، فكذلك صفاته أزلية قديمة سرمدية منزهة عن التغير والزوال والتحول والانتقال.

النوع الثالث: من تكبير الله تكبيره في أفعاله.

النوع الرابع: تكبير الله في أحكامه، وهو أن يعتقد أنه ملك مطاع، وله الأمر والنهي، والرفع والخفض، وأنه لا اعتراض لأحد عليه في شيء من أحكامه يعز من يشاء، ويذل من يشاء.

النوع الخامس: تكبير الله في أسمائه، وهو أن لا يذكر إلا بأسمائه الحسنى، ولا يوصف إلا بصفاته المقدسة العالية المنزهة.

النوع السادس: من التكبير هو أن الإنسان بعد أن يبلغ في التكبير والتعظيم والتنزيه والتقديس مقدار عقله وفهمه وخاطره يعترف أن عقله وفهمه لا يفي بمعرفة جلال الله، ولسانه لا يفي بشكره، وجوارحه وأعضاؤه لا تفي بخدمته، فكبر الله عن أن يكون تكبيره وافيًا بكنه مجده وعزته، وهذا أقصى ما يقدر عليه العبد الضعيف من التكبير والتعظيم»[1].

والحاصل: أن هذه آية عظيمة ختمت بها سورة الإسراء، وقد احتوت على الأمر بحمد الله والتكبير.

وروى غير واحد أنه صلى الله عليه وسلم كان يعلم الغلام من بني عبد المطلب إذا أفصح ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إلى آخر الآية سبع مرات، وسماها عليه الصلاة والسلام آية العز[2].

وقال ابن كثير: «عن قتادة أنه قال: ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعلم أهله كبيرهم وصغيرهم هذه الآية ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾»[3].

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «قول العبد: الله أكبر خير من الدنيا وما فيها»[4].

والمقصود أن التكبير هنا ورد ذكرًا مطلقًا، ولم يحدد بوقت معين، ولفظه: الله أكبر، ومعناه: أي: عظمه وأجله عما يقول الظالمون المعتدون تعظيمًا كبيرًا، فذلك التعظيم الذي يتناسب مع جلاله وعظمته وقدسيته، فهو الكبير المتعال في ذاته باعتقاد أنه واجب الوجود لذاته، وأنه غني

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٤٢٠.
(٢) روح المعاني، الألوسي ٨/ ١٨٤.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٢٩.
(٤) الكشف والبيان، الثعلبي ٦/ ١٤٢.

عن كل الوجود وفي صفاته، فله صفات الكمال، المنزه عن كل صفات النقصان، وفي أفعاله: فلا يحدث شيء في ملكه إلا بمقتضى حكمته ومشيئته، وفي أحكامه: فله مطلق الأمر والنهي والعز والذل، لا معقب لحكمه، ولا اعتراض لأحد على شيء من أحكامه، وفي أسمائه: فلا يذكر إلا بأسمائه الحسنى، ولا يوصف إلا بصفاته المقدسة العالية.

وقد جاء التكبير في القرآن ذكرًا مقيدًا بعد انتهاء بعض العبادات، قال تعالى: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقال: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج: ٣٧].

ففي الآية الأولى التكبير عند إكمال شهر رمضان، يوم الفطر[1]، والآية الثانية في الأضاحي[2].

تاسعًا: الاسترجاع:

ومن صور الذكر الوارد في القرآن: الاسترجاع، وهو قول العبد: إنا لله وإنا إليه راجعون.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦-١٥٧].

ففي هذه الآية أخبر الله أن المؤمن إذا سلم الأمر إلى الله، ورجع واسترجع عند المصيبة كتب له ثلاث خصال من الخير: الصلاة من الله، والرحمة، وتحقيق سبيل الهدى.

ومعنى: ﴿قَالُوا﴾ أي: نطقوا بهذا الذكر العظيم، ولم يرد به القول اللساني فقط، بل لا بد أن يكون معه اعتقاد وعمل، فمن شرط اللفظ: العمل بمقتضاه، وهو أنه يصبر ويحتسب، فإن قاله قولًا فقط فلا فائدة فيه، وإن صبر ولم يقله فقد قاله بلسان الحال، ويحصل له (الأجر) وإن فعل الأمرين أخلفه الله الخير في الدنيا، وأعظم له الأجر في الآخرة.

قال أبو السعود: «وليس الصبر هو الاسترجاع باللسان بل بالقلب، بأن يتصور ما خلق له، وأنه راجع إلى ربه، ويتذكر نعم الله تعالى عليه، ويرى أن ما أبقى عليه أضعاف ما استرده منه، فيهون ذلك على نفسه، ويستسلم»[3].

﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ يعني يقولون: نحن عبيد الله وفي ملكه، إن عشنا فعليه أرزاقنا، وإن متنا فإليه مردنا، وإليه راجعون

(١) جامع البيان، الطبري ٣/ ٤٧٩.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٥/ ٣٢٩.
(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ١٨٠.

بعد الموت، ونحن راضون بحكمه.

إنا لله كلنا، كل ما فينا، كل كياننا وذاتيتنا لله، وإليه المرجع والمآب في كل أمر، وفي كل مصير، التسليم المطلق، تسليم الالتجاء الأخير المنبثق من الالتقاء وجهًا لوجه بالحقيقة الوحيدة، وبالتصور الصحيح[(١)].

فإذا علم العبد أنه وجميع أهله وماله ملك لله طابت نفسه، وهانت عليه مصيبته.

ثم قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ يعني: أهل هذه الصفة، إشارة إلى الصابرين باعتبار اتصافهم بما ذكر من النعوت، ومعنى البعد فيه للإيذان بعلو رتبتهم[(٢)].

﴿عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ الصلاة اسم مشترك المعنى، فهي من الله تعالى الرحمة، ومن الملائكة الاستغفار، ومن الناس الدعاء[(٣)]. والصلاة هنا المراد بها الرحمة، وجمعها؛ لإرادة التكرار عليهم[(٤)].

وقد تحمل الصلاة من الله تعالى هنا على ثلاثة أشياء: توفيق الطاعة، والعصمة عن المعصية، ومغفرة الذنوب جميعًا، فبالصلاة الواحدة تتكون لهم هذه الأشياء الثلاثة، فقد وعد لهم الصلوات الكثيرة، ومقدار ذلك لا يعلمه إلا الله[(٥)].

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ١٤٥.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ١٨٠.
(٣) النكت والعيون، الماوردي ١/ ٢١٠.
(٤) تفسير ابن عرفة ٢/ ٤٧٠.
(٥) تفسير السمرقندي ١/ ١٠٦.

﴿وَرَحۡمَةٞ﴾ أي: عليهم رحمات كثيرة متعددة، ورحمة أخرى أعظم من الجميع، فلذلك أفردها بالذكر، وعطفها عليها، وليس فيه تكرار بوجه[(٦)].

ثم قال: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ أي: الموفقون للاسترجاع، وروي عن سعيد بن جبير أنه قال: لم يكن الاسترجاع إلا لهذه الأمة، ألا ترى أن يعقوب عليه السلام قال: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤].

فلو كان له الاسترجاع لقال ذلك[(٧)].

فـ﴿ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ أي: الذين اهتدوا إلى طريق الحق؛ فإن هذا الكلام الذي يقولونه مع الصبر هو الهداية.

والمقصود: أن هذه كلمة عظيمة يستحق عليها الإنسان المؤمن الثواب العظيم، وهو من أعظم الذكر الوارد في القرآن.

وقد جعل سبحانه هذه الكلمات ملجأ لذوي المصائب؛ لما جمعت من المعاني المباركة، من توحيد الله سبحانه، والإقرار له بالعبودية، والبعث من القبور، واليقين بأن رجوع الأمر كله إليه، كما هو له، قال الفخر: «قال أبو بكر الوراق: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ إقرار منا له بالملك ﴿وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ إقرار على أنفسنا بالهلاك».

وفى هذا التركيب العجيب من لطائف

(٦) تفسير ابن عرفة ٢/ ٤٧٠.
(٧) تفسير السمرقندي ١/ ١٠٦.

اللطائف وعوارف المعارف ما يدق ويرق، وما هو بهذا النظام أليق وأخلق، وحسب الإنسان أن يذكر في محنته أن لله بدأه، ولله نهايته؛ ليكون لله فيما بينهما ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

أما البشرى فقد أشارت إلى مضمونها الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧].

سمعها عمر رضي الله عنه فقال: «نعم العدلان، ونعمت العلاوة»[(١)].

فما أروعها من جملة، وما أطيبها من كلمة، جامعة مانعة، تجمع بين السهولة والقوة؛ سهولة اللفظ، وقوة المعنى، وبين العبودية والعزة، عبودية المخلوق للخالق؛ وعزة المخلوق بخالقه.

وجرت العادة أن هذه الكلمة إذا سمعت فإنها توحي بمصيبة، وهذا ما جاءت في القرآن لأجله؛ ولذلك ينطقها اللسان بنبرات حزينة، وربما برأس مخفوض، ووجه عبوس، وقلب مكلوم، نعم هي ترافق المصيبة، وتأتي معها؛ لكن لا لتزيدها أو تعمق جراحها، بل لتخففها، وتقوي الصبر عليها؛ وهل التعزية إلا التقوية؟! يقولها أهل المصائب مؤمنون بها، مستسلمون لحكمها.

أوقات الذكر

أمر الله تعالى في القرآن بالإكثار من الذكر في جميع الأحوال والأوقات دون تقييد بوقت محدد أو عدد محدد، وجاء الأمر بالذكر في أوقات معينة، ويمكن تقسيم الذكر الوارد في القرآن إلى الذكر المطلق من التقييد بوقت أو حال أو عدد، والذكر المقيد بأوقات معينة:

أولًا: ذكر مقيد:

أمر الله تعالى في القرآن بالذكر عمومًا، والتسبيح خصوصًا، مقيدًا في الأوقات التالية:

١ . البكور والعشي.

أمر الله تعالى في القرآن بالذكر بكرة وعشيًا، مقيدًا بهذين الزمانين، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٥].

وخص من الذكر التسبيح، فقال: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٢].

وقال: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: ٩].

فـ﴿بُكْرَةً﴾ أول النهار ﴿وَأَصِيلًا﴾ آخر النهار، وخصا بالذكر؛ لأن ملائكة الليل

---

(١) معالم التنزيل، البغوي ١/ ١٨٧.

وملائكة النهار يجتمعون فيهما[١].

أو هو إشارة إلى المداومة؛ وذلك لأن مريد العموم قد يذكر الطرفين، ويفهم منهما الوسط، كقوله عليه السلام: (لو أن أولكم وآخركم)[٢] ولم يذكر وسطكم، ففهم منه المبالغة في العموم[٣].

فإذا أمر العبد بالذكر في هذين الوقتين، وهما وقتا شغل ابتداء أو انتهاء، فوجوب الذكر في غيرهما من باب الأولى.

وقيل: إن ذلك إشارة إلى صلاة الصبح والعصر، وقال ابن عطية: «أراد في كل الأوقات، فحد النهار بطرفيه»[٤].

وخص التسبيح بالذكر من جملة الذكر لفضله على سائر الأذكار، ففيه تنزيه عما لا يجوز عليه[٥].

والحاصل: أنه خص البكرة والأصيل في قوله: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ بالذكر؛ لإظهار فضلهما، والتنويه بهما؛ لأن العبادة فيهما آكد على الإنسان، كما خص التسبيح وهو من أنواع الذكر؛ ليبين فضله على سائر الأذكار.

وقد يكون السر أيضًا في اختيار هذين الوقتين لأنهما أصلح الأوقات وأنسبها لذكر الله، واستحضار جلاله وعظمته.

ففي أول النهار يتزود الإنسان بهذا الزاد الطيب الذي يغذي به مشاعره وأحاسيسه، ويشحن به عواطفه ونوازعه، ثم يخرج إلى الحياة ومعه هذا الرصيد العظيم من أمداد الله ورحماته، فيواجه الحياة بقلب سليم، وعزم موثق، ولسان عف، ويد نقية، فيكون من هذا كله في حراسة أمينة يقظة، فلا يزل ولا ينحرف!

فإذا كان آخر النهار كان له إلى نفسه عودة ومراجعة، فيعرضها على الله، ويصلح ما وقع لها من خلل أثناء رحلتها مع الحياة طوال اليوم، وبهذا يظل المؤمن -المتصل بالله هذا الاتصال- على الصحة والسلامة أبدًا[٦].

وأمر الله تعالى بالذكر بالعشي والإبكار، مقيدًا بهذين الزمانين، فقال: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [آل عمران: ٤١].

و(العشي): هو من الزوال إلى الغروب، قاله مجاهد، وقيل: من العصر إلى ذهاب صدر الليل (والإبكار) أي: وقته وهو من الفجر إلى الضحى، وإنما قدر المضاف؛ لأن الإبكار بكسر الهمزة مصدر لا وقت، فلا تحسن المقابلة كذا قيل، وهو مبني

(١) مدارك التأويل، النسفي ٣/ ٣٥.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم ٤/ ١٩٩٤، رقم ٢٥٧٧.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ١٧٢.
(٤) التسهيل، ابن جزي ٢/ ١٥٤.
(٥) غرائب القرآن، النيسابوري ٥/ ٤٦٨.
(٦) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٥/ ٥٥٣.

على أن بالعشي جمع عشية، الوقت المخصوص، وإليه ذهب أبو البقاء، والذي ذهب إليه المعظم أنه مصدر أيضًا على فعيل لا جمع[1].

وخص هذان الوقتان بالذكر؛ لأنهما وقت سكون ودعة وتعبد واجتهاد، وما بينهما من أوقات الغالب فيها الانقطاع لأمر المعاش.

٢. الغدو والآصال.

وأمر الله تعالى بالذكر بالغدو والآصال، مقيدًا بهذين الزمانين، فقال تعالى: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

وقال: ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴾ [النور: ٣٦].

والغدو: أول النهار، مصدر غدا يغدو، والمراد وقت الغدو، والآصال: جمع أصيل، وهو آخر النهار، وهو الوقت بعد العصر إلى المغرب، وقد يقال: اشتقاقه من الأصل، واليوم بليلته إنما يبتدئ في الشرع من أول الليل، فسمي آخر النهار أصيلًا؛ لكونه ملاصقًا لما هو الأصل لليوم الثاني[2].

وأفرد الغدو بالذكر: لأن فيه صلاة واحدة هي صلاة الصبح، وجمع الأصيل؛ لأنه زمن ممتد فيه صلاة الظهر والعصر والعشاءين (المغرب والعشاء)[3].

وخص سبحانه أوقات الغدو والآصال بالذكر؛ لشرفها، وكونها أشهر ما تقع فيه العبادات.

قال الرازي: «خص الغدو والآصال بهذا الذكر والحكمة فيه أن عند الغدوة انقلب الإنسان من النوم الذي هو كالموت إلى اليقظة التي هي كالحياة، والعالم انقلب من الظلمة التي هي طبيعة عدمية إلى النور الذي هو طبيعة وجودية، وأما عند الآصال فالأمر بالضد؛ لأن الإنسان ينقلب فيه من الحياة إلى الموت، والعالم ينقلب فيه من النور الخالص إلى الظلمة الخالصة، وفي هذين الوقتين يحصل هذان النوعان من التغيير العجيب القوي القاهر، ولا يقدر على مثل هذا التغيير إلا الإله الموصوف بالحكمة الباهرة، والقدرة الغير المتناهية، فلهذه الحكمة العجيبة خص الله تعالى هذين الوقتين بالأمر بالذكر.

ومن الناس من قال: ذكر هذين الوقتين والمراد: مداومة الذكر والمواظبة عليه بقدر الإمكان، كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ [الأعراف:

(١) روح المعاني، الألوسي ٢/ ١٤٦.
(٢) انظر: غرائب القرآن، النيسابوري ٣/ ٣٦٩.
(٣) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٩/ ١٢٩١.

191].

لو حصل لابن آدم حالة رابعة سوى هذه الأحوال لأمر الله بالذكر عندها، والمراد منه أنه تعالى أمر بالذكر على الدوام»[1].

وقال الشوكاني: «وخص هذين الوقتين لشرفهما»[2]. وفي البحر المديد: «وإنما خص الوقتين؛ لأنهما محل الاشتغال فأولى غيرهما»[3].

والحاصل: أن من أعظم الأوقات لهذا الذكر وقتان أول النهار وآخره؛ لأنهما طرفا النهار، ومن افتتح نهاره بذكر الله واختتمه به كان جديرًا بأن يراقب الله ولا ينساه فيما بينهما، وأهم الذكر فيهما صلاتا الفجر والعصر اللتان تحضرهما ملائكة الليل وملائكة النهار، ويشهدان عند الله تعالى بما وجدا عليه العبد، كما ورد في الصحيح.

قال سيد: «وذكر الله لا يقتصر على هذه الآونة -في مطالع النهار وفي أواخره- فذكر الله ينبغي أن يكون في القلب في كل آن، ومراقبة الله يجب أن تكون في القلب في كل لحظة؛ ولكن هذين الآنين إنما تطالع فيهما النفس التغير الواضح في صفحة الكون من ليل إلى نهار، ومن نهار إلى ليل، ويتصل فيهما القلب بالوجود من حوله، وهو يرى يد الله تقلب الليل والنهار، وتغير الظواهر والأحوال، وإن الله سبحانه ليعلم أن القلب البشري يكون في هذين الآنين أقرب ما يكون إلى التأثر والاستجابة؛ ولقد كثر في القرآن التوجيه إلى ذكر الله سبحانه، وتسبيحه في الآونة التي كأنما يشارك الكون كله فيها في التأثير على القلب البشري وترقيقه وإرهافه وتشويقه للاتصال بالله»[4].

٣. قبل طلوع الشمس وقبل غروبها.

قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠].

وقال: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩].

قال ابن كثير: «وكانت الصلاة المفروضة قبل الإسراء ثنتين: قبل طلوع الشمس في وقت الفجر، وقبل الغروب في وقت العصر، وقيام الليل كان واجبًا على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى أمته حولًا، ثم نسخ في حق الأمة وجوبه، ثم بعد ذلك نسخ الله ذلك كله ليلة الإسراء بخمس صلوات، ولكن منهن صلاة الصبح والعصر، فهما قبل طلوع الشمس، وقبل الغروب»[5].

فالتسبيح هنا إما أن يكون المراد به الصلاة، وإما عموم الذكر، ولعل حمله على

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/ ٤٤٤.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٣٢٠.
(٣) البحر المديد، ابن عجيبة ٢/ ٣٠٠.
(٤) في ظلال القرآن ٣/ ١٤٢٦.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٤٠٩.

المعنيين أولى.

٤ . من الليل وأطراف النهار.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلًا طَوِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٦].

وقال: ﴿وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠].

وقال: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾ [ق: ٤٠].

[الطور: ٤٩].

وخص طرفي النهار؛ لشرفهما، وقيل: داوم على صلاة الفجر والظهر والعصر، فإن الأصيل يتناولهما.

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ﴾ بعض الليل ﴿فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ﴾ فإنه وقت الاقتراب إليه؛ لدنو رحمته، وخلو الوقت للمناجاة، وقيل: صلاتي المغرب والعشاء، ويؤيده: ﴿وَسَبِّحۡهُ لَيۡلًا طَوِيلًا﴾ أي: نزهه، أو صل له تطوعًا.

والوجه في الاهتمام بـ﴿ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ﴾ وزلفه أن الليل وقت تميل فيه النفوس إلى الدعة، فيخشى أن يتساهل في أداء الصلاة فيه، وعلل له الفخر الرازي بقوله: «لأن الجمعية -أي جمع القلب والهمة- فيه أكثر؛ وذلك لسكون الناس وهدوء حركاتهم، وتعطيل الحواس عن الحركات وعن الأعمال؛ ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦].

وقال: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩].

ولأن الليل وقت السكون والراحة، فإذا صرف إلى العبادة كانت على الأنفس أشق، وللبدن أتعب، فكانت أدخل في استحقاق الأجر والفضل»(١).

ولعل النكتة البلاغية لجمع (طرف) في قوله جل شأنه: ﴿وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ [طه: ١٣٠].

على الرغم من أن للنهار طرفان، ورد ذكرهما في قوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ [هود: ١١٤].

وقوعه في حال الجمع معمولًا لـ(سبح)، ووقوعه في حال التثنية معمولًا لـ(أقم الصلاة)، وفي هذا ما يشير إلى أن الصلاة وإن كان الأمر فيها قاصرًا على طرفي النهار أوله وآخره، وهما على ما ترجح (الفجر والعصر)، فإنه لا يعني أن يخلو سائر يوم المسلم من تسبيح لله، وشغل للسان بذكره، وأنه إذا كان للنهار طرفان يتم شغلهما بتأدية الصلاة التي لا تشغل حيزًا كبيرًا من الوقت، فإن ثمة طرفين آخرين يستغرقان سائر ساعات النهار، ينبغي ملؤهما مع سابقيهما، بالتقديس والتنزيه لصاحب العظمة والكبرياء جل جلاله.

أولهما: عند انتهاء النصف الأول من

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٢/ ١١٤.

الطرف الأول من النهار، وهو طرف سير الشمس في قوس الأفق، وبلوغ سيرها وسطه، والمعبر عنه بالزوال.

والثاني: عند ابتداء النصف الثاني من القوس، والذي يوافق الشطر الأول من النصف الثاني من النهار.

فيكون للنهار أربعة أطراف أوله وآخره، وآخر نصفه الأول وأول نصفه الثاني، والكل مستغرق بالتسبيح؛ ولذا نزع الخافض، وإن كان لا يوجد بأسًا في الاستئناس في ذلك من إمكانية أن يكون السر في جمع طرف حاصلًا من كون الطرف يتكرر في كل نهار ويعود، فتكون (أل) في النهار للجنس الشامل لكل نهار، ويكون الجمع باعتبار تعدد النهار، وأن لكلٍ طرفين، أو يكون من باب إطلاق الجمع على المثنى، وهو متسع فيه في العربية عند أمن اللبس؛ والذي حسن جمعه هنا وقوعه مشاكلة لجمع آخر هو قوله: ﴿وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ﴾ [طه: ١٣٠][1].

٥. أدبار السجود.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [ق: ٤٠].

﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ قال ابن أبي نجيح عن مجاهدٍ عن ابن عباس رضي الله عنهما: «هو التسبيح بعد الصلاة».

والقول الثاني: أن المراد بقوله تعالى: ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ هما الركعتان بعد المغرب[2].

٦. أدبار النجوم.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٩].

أي: آخر الليل، ويدخل فيه صلاة الفجر. والله أعلم[3].

وقت القيام:

قال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الطور: ٤٨].

فقوله: ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ فسر بإرادة القيام إلى الصلاة، وهو قول زيد بن أسلم والضحاك، وفسر بالقيام من النوم، وهو قول أبي الجود، وفسر بالقيام من المجالس[4].

ومما جاء في الذكر المقيد بزمن أو مكان أو حال:

قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٩٨].

وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤].

وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾ [البقرة (٢٠٣)].

(١) انظر: من بلاغة القرآن في التعبير بالغدو والأصال، محمد دسوقي ص ٥٤.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣٨٣.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨١٨.

(٤) تفسير ابن رجب الحنبلي ١/ ٦٣٤.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠].

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: ٢٣٩].

ثانيًا: ذكر مطلق:

أمر الله في القرآن بالذكر مطلقًا في سائر الأوقات، والمراد بالمطلق: ما لم يقيد بزمان، ولا مكان، ولا عدد، فأطلق في العدد، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١].

وقال تعالى في سياق صفات المؤمنين والمؤمنات: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

فقوله: ﴿كَثِيرًا﴾ أي: في أكثر الأوقات، خصوصًا أوقات الأوراد المقيدة كالصباح والمساء، وأدبار الصلوات المكتوبات[1].

قال مجاهد: «لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيرًا حتى يذكر الله قائمًا وقاعدًا ومضطجعًا»، وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (سبق المفردون)، قالوا: وما المفردون؟ قال: (الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات)[2][3].

قال الفخر: «﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ يعني: هم في جميع هذه الأحوال يذكرون الله، ويكون إسلامهم وإيمانهم وقنوتهم وصدقهم وصبرهم وخشوعهم وصدقتهم وصومهم بنية صادقة لله، واعلم أن الله تعالى في أكثر المواضع حيث ذكر الذكر قرنه بالكثرة ها هنا، وفي قوله بعد هذا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١].

وقال من قبل: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]؛ لأن الإكثار من الأفعال البدنية غير ممكن أو عسر، فإن الإنسان أكله وشربه وتحصيل مأكوله ومشروبه يمنعه من أن يشتغل دائمًا بالصلاة، ولكن لا مانع له من أن يذكر الله تعالى وهو آكل، ويذكره وهو شارب أو ماشٍ أو بائع أو شارٍ.

وإلى هذا أشار بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١]. ولأن جميع الأعمال صحتها بذكر الله تعالى، وهي النية»[4].

وأطلق في كل الأحوال، فقال: ﴿الَّذِينَ

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٦٥.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر الله تعالى، ٤/ ٢٠٦٢، رقم ٢٦٧٦.

(٣) اللباب في علوم الكتاب ١٥/ ٥٥٠.

(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ١٦٩.

﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وقال تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

فكأنه قيل: تضرعًا وإعلانًا وخيفة وإسرارًا، وفي ذلك من الشمول والاستيعاب لجميع أحوال الإنسان، ومن التحذير من الغفلة ما لا يخفى.

فوائد الذكر

الذكر عبادة عظيمة، وله منزلة رفيعة، ودرجة سامية، وأهمية عظيمة، وفوائد جليلة، شاملة للدين والدنيا والآخرة، أوصلها ابن القيم في كتابه الوابل الصيب إلى أكثر من سبعين فائدة، والذي يهمنا هنا ذكر فوائده المذكورة في القرآن:

أولًا: ذكر الله عز وجل لعبده الذاكر:

من أعظم فوائد الذكر ذكر الله تعالى للذاكر. قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

فقوله: ﴿فَاذْكُرُونِي﴾ الفاء هنا هي فاء السببية، وهي ما يكون قبلها سببًا لما بعدها، وهي للتفريع، عاطفة جملة الأمر بذكر الله وشكره على جمل النعم المتقدمة، أي: إذ قد أنعمت عليكم بهاته النعم فأنا آمركم بذكري.

وهذا الأمر ﴿فَاذْكُرُونِي﴾ جوابه ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ وفيه: معنى المجازاة[(١)] والجزاء من جنس العمل في الخير والشر.

قال أبو عثمان النهدي: «إني لأعلم حين يذكرني ربي عز وجل، قيل: كيف ذلك؟ قال: إن الله عز وجل قال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ وإذا ذكرت الله تعالى ذكرني»[(٢)].

(١) فتح القدير، الشوكاني ١/ ١٨٢.
(٢) الكشف والبيان، الثعلبي ٢/ ٢١.

وقال الحكماء: إنما كان الذكر أفضل الأشياء؛ لأن ثواب الذكر الذكر، قال الله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[1].

والذكر هنا يحمل على العموم، فيشمل الذكر باللسان، وهو: الحمد والتسبيح والتمجيد وقراءة كتب الله، وبالقلب، وهو: الفكر في الدلائل الدالة على التكاليف والأحكام، والأمر والنهي والوعد والوعيد، والفكر في الصفات الإلهية، والفكر في أسرار مخلوقات الله تعالى حتى تصير كل ذرة كالمرآة المجلوة المحاذية لعالم التقديس، فإذا نظر العبد إليها انعكس شعاع بصره منها إلى عالم الجلال، وبالجوارح بأن تكون مستغرقة في الأعمال المأمور بها، خالية عن الأعمال المنهي عنها، وعلى هذا الوجه سمى الله الصلاة ذكرًا بقوله: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩][2].

وسمي الثواب المترتب على ذلك ذكرًا على سبيل المقابلة لما كان نتيجة الذكر وناشئًا عنه سماه ذكرًا[3]. هذا ذكر العبد ربه.

أما ذكر الله لعبده: فهو ثناؤه عليه في الملإ الأعلى بين الملائكة، ومباهاتهم به، وتنويهه بذكره[4].

(١) المصدر السابق ٧/ ٢٨٣.
(٢) البحر المحيط ٢/ ٤٩.
(٣) المصدر السابق ٢/ ٥٠.
(٤) تفسير ابن رجب الحنبلي ١/ ١٢٨.

قال أبو جعفر: «أذكركم برحمتي إياكم، ومغفرتي لكم»[5].

وعن السدي قال: «ليس من عبد يذكر الله إلا ذكره الله، لا يذكره مؤمن إلا ذكره برحمة»[6].

فليس العجب من ذكر العبد الفقير المحتاج الضعيف لربه، إنما العجب والشأن في ذكر الرب الملك العظيم لعبده.

يا للتفضل الجليل الودود! الله جل جلاله يجعل ذكره لهؤلاء العبيد مكافئًا لذكرهم له في عالمهم الصغير، إن العبيد حين يذكرون ربهم يذكرونه في هذه الأرض الصغيرة، وهم أصغر من أرضهم الصغيرة! والله حين يذكرهم يذكرهم في هذا الكون الكبير، وهو الله العلي الكبير، أي تفضل! وأي كرم! وأي فيض في السماحة والجود؟! ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ إنه الفضل الذي لا يفيضه إلا الله الذي لا خازن لخزائنه، ولا حاسب لعطاياه، الفضل الفائض من ذاته تعالى بلا سبب ولا موجب إلا أنه هكذا هو سبحانه فياض العطاء.

إنه ذلك الفضل الذي لا يصفه لفظ، ولا يعبر عن شكره الحق إلا سجود القلب، وذكر الله ليس لفظًا باللسان، إنما هو انفعال القلب معه أو بدونه، والشعور بالله ووجوده

(٥) جامع البيان ٣/ ٢١١.
(٦) أخرجه الطبري في تفسيره ٢/ ٦٩٦.

والتأثر بهذا الشعور تأثرًا ينتهي إلى الطاعة في حده الأدنى، وإلى رؤية الله وحده ولا شيء غيره لمن يهبه الله الوصول، ويذيقه حلاوة اللقاء[1].

فالله سبحانه وتعالى لا ينسى حتى يذكر فيذكر، بل هو -جل شأنه- يذكرنا دائمًا ذكرناه أو لم نذكره! ولعل المراد بذكره لنا هنا إذا ذكرناه هو أننا إذا ذكرناه وجدناه سبحانه حاضرًا في قلوبنا وعقولنا، وأننا إذا لم نذكره فهو سبحانه حاضر كذلك، ولكن هذا الحضور لا نحس به، ولا نتأثر له.

فإذا ذكر المؤمن ربه وجد ربه تجاهه، وكأنه بتفلته عن ذكر ربه قد بعد عن الله، فإذا ذكر ربه، وأشرق عليه بنوره السني البهي، وفي الحديث القدسي: (من تقرب **إلي شبرًا تقربت إليه ذراعًا، ومن تقرب إلي ذراعًا تقربت إليه باعًا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة**)[2].

فذكر الله وامتلاء القلب بهذا الذكر يفيض على الذاكر أنوارًا من جلال الله وبهائه، وإذا هو في حمى عزيز لا ينال، وفي ضمان وثيق من أن يهون، أو يذل لغير الله الواحد القهار، وأسمى الذكر وأكمله هو ذكر العارفين بالله معرفة يطلعون منها على ما يملأ قلوبهم جلالًا وخشية لله، حيث يشهدون من كمالات الله ما لا يشهده إلا المقربون، الذي رضي الله عنهم، ورضوا عنه[3].

فذكر الله لك أيها العبد أعظم من ذكرك له، وأكبر من ذكرك له، وأشرف من ذكرك له، وذكر الله تعالى امتلاء النفس بعظمته وقدرته وجلالته، والإحساس بنعمه الظاهرة والباطنة، وليس ذكره جلت قدرته بترديد اللسان فقط، بل إن الذكر طاعة لله، فمن أطاع الله فقد ذكر الله، ومن لم يطعه فليس بذاكر، وإن أكثر التسبيح وتلاوة الكتاب، قال أبو جعفر: «يعني: -تعالى ذكره- بذلك: فاذكروني أيها المؤمنون بطاعتكم إياي فيما آمركم به، وفيما أنهاكم عنه، أذكركم برحمتي إياكم ومغفرتي لكم»[4].

ثانيًا: الحصول على المغفرة والأجر العظيم:

ومن فوائد الذكر: المغفرة، ودخول الجنة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ١٣٩-١٤٠.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله تعالى، ٤/ ٢٠٦٧، رقم ٢٦٧٥.
(٣) انظر: التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٧/ ١١٥.
(٤) جامع البيان ٣/ ٢١١.

فالذاكرون الله بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم والذاكرات كذلك أعد الله لهم مغفرة لذنوبهم، و﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ يعني: ثوابًا في الآخرة على ذلك من أعمالهم عظيمًا؛ وذلك الجنة[1]. وعطف ﴿وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ أي: كذلك في الحكم، فليس هذا الحكم خاص بالرجل فقط، ففي الآية الكريمة تسوية بين الرجل والمرأة في مقام التكليف والجزاء.

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم﴾ أي: لهؤلاء الموصوفين بتلك الصفات الجميلة، والمناقب الجليلة، التي هي ما بين اعتقادات وأعمال قلوب، وأعمال جوارح، وأقوال لسان، ونفع متعدٍ وقاصر، وما بين أفعال الخير وترك الشر الذي من قام بهن فقد قام بالدين كله، ظاهره وباطنه، بالإسلام والإيمان والإحسان، فجازاهم على عملهم بالمغفرة لذنوبهم؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا يقدر قدره إلا الذي أعطاه، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، نسأل الله أن يجعلنا منهم[2].

وهذه الصفات الكثيرة التي جمعت في هذه الآية تتعاون في تكوين النفس المسلمة، فهي الإسلام والإيمان والقنوت والصدق والصبر والخشوع والتصدق والصوم وحفظ الفروج، وذكر الله كثيرًا، ولكل منها قيمته في بناء الشخصية المسلمة. وبقية ألفاظ الآية في غاية البيان والوضوح.

ثالثًا: الفلاح:

ومن فوائد الذكر: الحصول على الفلاح، وهو الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠].

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

وقد علم الله عباده هنا في هذه الآية الثانية إذا التقوا بالفئة -وهي الجماعة من المحاربين- نوعين من الأدب: الأول: الثبات، وهو أن يوطنوا أنفسهم على اللقاء ولا يحدثوها بالتولي، والثاني: أن يذكروا الله كثيرًا، وفي تفسير هذا الذكر قولان:

القول الأول: أن يكونوا بقلوبهم ذاكرين الله، وبألسنتهم ذاكرين الله، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أمر الله أولياءه بذكره في أشد أحوالهم تنبيهًا على أن الإنسان لا يجوز أن يخلي قلبه ولسانه عن ذكر الله، ولو أن رجلًا أقبل من المغرب إلى المشرق ينفق

(١) المصدر السابق ٢٠/ ٢٦٩.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٦٥.

الأموال سخاء، والآخر من المشرق إلى المغرب يضرب بسيفه في سبيل الله كان الذاكر لله أعظم أجرًا».

والقول الثاني: أن المراد من هذا الذكر الدعاء بالنصر والظفر؛ لأن ذلك لا يحصل إلا بمعونة الله تعالى[(1)].

والآية محتملة للمعنيين.

وهنا أيضًا قال: ﴿كَثِيرًا﴾ أي: ذكرًا كثيرًا. وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ قال: «لا يفرض الله على عباده فريضة إلا جعل لها حدًا معلومًا، ثم عذر أهلها في حال عذرٍ، غير الذكر، فإن الله لم يجعل له حدًا ينتهي إليه، ولم يعذر أحدًا في تركه إلا مغلوبًا على عقله، فقال: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣].

بالليل والنهار، في البر والبحر، وفي السفر والحضر، والغنى والفقر، والسقم والصحة، والسر والعلانية، وعلى كل حالٍ»[(2)].

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ يقول: كيما تنجحوا فتظفروا بعدوكم، ويرزقكم الله النصر والظفر عليهم[(3)]؛ لأن مقاتلة الكافر إن كانت لأجل طاعة الله تعالى كان ذلك جاريًا مجرى بذل الروح في طلب مرضاة الله تعالى، وهذا هو أعظم مقامات العبودية، فإن غلب الخصم فاز بالثواب والغنيمة، وإن صار مغلوبًا فاز بالشهادة والدرجات العالية، أما إن كانت المقاتلة لا لله، بل لأجل الثناء في الدنيا، وطلب المال لم يكن ذلك وسيلة إلى الفلاح والنجاح[(4)].

فالفلاح في هذه الآية له أوجه:

أحدها: على رجاء الفلاح.

والثاني: أي: لكي تفلحوا.

والثالث: على قطع وجوب الفلاح إذا فعل ذلك؛ بما قالوا: إن (لعل) و(عسى) من الله تعالى واجبة[(5)].

والحاصل: أن ﴿تُفْلِحُونَ﴾ مضارع (أفلح الرجل يفلح فهو مفلح): إذا نال الفلاح، والفلاح يطلق في لغة العرب إطلاقين معروفين مشهورين:

أحدهما: تطلق العرب الفلاح بمعنى الفوز بالمطلوب الأكبر، فكل من فاز بالمطلوب الذي كان يهتم به جدًا، وهو من أكبر مطالبه، تقول العرب: أفلح هذا، أي: فاز بما كان يطلب، وهذا معنًى معروف في كلام العرب.

الإطلاق الثاني: هو إطلاق العرب الفلاح على البقاء السرمدي في النعيم، فالعرب تقول: أفلح هذا: إذا كان باقيًا خالدًا في نعيم

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/ ٤٨٩.
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ٩/ ١٦٤.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٢١٣.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/ ٤٨٩.
(٥) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ١٠/ ١٤.

سرمدي، وهذا المعنى معروف مشهور في كلام العرب أيضًا.

والمقصود: أن من أطاع الله جل وعلا وذكره كثيرًا نال الفلاح بمعنييه، ففاز بمطلوبه الأكبر، وهو الجنة ورضا الله، ونال البقاء السرمدي الأبدي في نعيم الجنات.

وهذه الآية الكريمة تدل على أن الذين إذا لقوا فئة من فئات الكفار في ميدان القتال ولم يثبتوا أو لم يذكروا الله كثيرًا أنهم لا يفلحون، وهو كذلك؛ لأن النصر من الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ١٠].

قال في بدر: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

مع أنه أنزل ملائكة السماء ناصرين، يعني: لا تظنوا أن الملائكة ينصرونكم، الناصر هو الله وحده جل وعلا؛ ولذا قال: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥][1].

والخلاصة: إننا أمرنا بالذكر على كل حال نكون عليها في الحرب، كما يدل على ذلك السياق، فأجدر بأن نؤمر به في حال السلم، إلى أن المؤمنين في جهاد مستمر، وحروب دائمة، فهم تارة يجاهدون الأعداء، وأخرى يجاهدون الأهواء، ومن ثم أمرهم الله بالذكر في كثير من الآي[2].

(١) انظر: العذب النمير ٥/ ٧٩.
(٢) تفسير المراغي ٥/ ١٤٣.

وعن كعب الأحبار قال: «ما من شيء أحب إلى الله من قراءة القرآن والذكر؛ ولولا ذلك ما أمر الناس بالصلاة والقتال، ألا ترون أنه قد أمر الناس بالذكر عند القتال؟ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥]»[3].

رابعًا: النجاة من البلاء:

ومن فوائد الذكر: النجاة من البلاء، قال تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣-١٤٤].

يقول تعالى ذكره: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ﴾ يعني: يونس عليه السلام ﴿كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ﴾ من الذاكرين الله قبل ذلك، وكان عليه السلام كثير الذكر، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «من المصلين»، وقال وهب: «من العابدين»، وقال الحسن: «ما كانت له صلاة في بطن الحوت، ولكنه قدم عملًا صالحًا»، وقال الضحاك: «شكر الله تعالى له طاعته القديمة»، وقيل: فلولا أنه كان من المسبحين في بطن الحوت، قال سعيد ابن جبير: «يعني: قوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]»[4]. وكل الأقوال صحيحة.

(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٥/ ١٧١١.
(٤) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٤٧.

قال سلمان الفارسي رضي الله عنه: «إن العبد إذا كان له دعاء في السر، فإذا نزل به البلاء قالت الملائكة: عبدك نزل به البلاء، فيشفعون له فينجيه الله، فإذا لم يكن له دعاء قالوا: الآن فلا تشفعون له»، بيانه: لفظة فرعون: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ﴾ [يونس: ٩١][1].

والمقصود: أن من فوائد الذكر النجاة من الكروب، كما ذكر الله من حال يونس عليه السلام أنه كان من الذاكرين الله قبل البلاء، فذكره الله في حال البلاء، فأنقذه ونجاه.

خامسًا: اطمئنان القلوب:

ومن فوائد الذكر: حصول الطمأنينة، وقد مدح الله قومًا اطمأنت قلوبهم بذكره، وفي الذكر وجدوا سلوتهم، وبالذكر وصلوا إلى صفوتهم.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

قوله: ﴿تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ أي: تسكن قلوبهم، وتستأنس بذكر الله[2].

وفي هذا الذكر قولان:

أحدهما: أنه القرآن؛ لأنه يسمى ذكرًا، كما قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. لأنه آية بينة تسكن القلوب، وتثبت اليقين فيها.

والثاني: ذكر الله على الإطلاق.

وفي معنى هذه الطمأنينة قولان:

أحدهما: أنها الحب له والأنس به.

والثاني: السكون إليه من غير شك، بخلاف الذين إذا ذكر الله اشمأزت قلوبهم، والمعنى: تطمئن القلوب التي هي قلوب المؤمنين؛ لأن الكافر غير مطمئن القلب[3].

والمعنيان مرادان، ولا تعارض بينهما، فذكر الله تسبيحه وتهليله وتكبيره، ويحتمل أن يكون المراد به القرآن.

قال السعدي: «ثم ذكر تعالى علامة المؤمنين، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ أي: يزول قلقها واضطرابها، وتحضرها أفراحها ولذاتها ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ أي: حقيق بها وحريٌّ أن لا تطمئن لشيء سوى ذكره، فإنه لا شيء ألذ للقلوب، ولا أشهى ولا أحلى من محبة خالقها، والأنس به ومعرفته، وعلى قدر معرفتها بالله ومحبتها له يكون ذكرها له، هذا على القول بأن ذكر الله ذكر العبد لربه، من تسبيح وتهليل وتكبير وغير ذلك.

وقيل: إن المراد بذكر الله كتابه الذي

---

(١) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٢/ ٢٠.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٣/ ٥١٨.
(٣) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٤٩٤.

أنزله ذكرى للمؤمنين، فعلى هذا معنى طمأنينة القلوب بذكر الله: أنها حين تعرف معاني القرآن وأحكامه تطمئن لها، فإنها تدل على الحق المبين المؤيد بالأدلة والبراهين؛ وبذلك تطمئن القلوب، فإنها لا تطمئن القلوب إلا باليقين والعلم؛ وذلك في كتاب الله، مضمون على أتم الوجوه وأكملها، وأما ما سواه من الكتب التي لا ترجع إليه فلا تطمئن بها، بل لا تزال قلقة من تعارض الأدلة، وتضاد الأحكام»[(١)].

وعدل إلى صيغة المضارع؛ لإفادة دوام الاطمئنان واستمراره ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ أي: بذكره دون غيره تسكن القلوب أنسًا به، واعتمادًا عليه، ورجاء منه، وقدر بعضهم مضافًا، أي: بذكر رحمته ومغفرته، أو بذكر دلائله الدالة على وحدانيته[(٢)].

واختير المضارع في ﴿تَطْمَئِنُّ﴾ مرتين لدلالته على تجدد الاطمئنان واستمراره، وأنه لا يتخلله شك ولا تردد.

وافتتحت جملة ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ بحرف التنبيه اهتمامًا بمضمونها، وإغراء بوعيه، وهي بمنزلة التذييل لما في تعريف القلوب من التعميم، وفيه إثارة الباقين على الكفر على أن يتسموا بسمة المؤمنين من التدبير في القرآن؛ لتطمئن قلوبهم، كأنه يقول: إذا علمتم راحة بال المؤمنين، فماذا يمنعكم بأن تكونوا مثلهم؟! فإن تلك في متناولكم؛ لأن ذكر الله بمسامعكم[(٣)].

إذن تطمئن القلوب بإحساسها بالصلة بالله، والأنس بجواره، والأمن في جانبه وفي حماه، تطمئن من قلق الوحدة، وحيرة الطريق، بإدراك الحكمة في الخلق والمبدأ والمصير، وتطمئن بالشعور بالحماية من كل اعتداء، ومن كل ضر، ومن كل شر إلا بما يشاء، مع الرضا بالابتلاء والصبر على البلاء، وتطمئن برحمته في الهداية والرزق والستر في الدنيا والآخرة ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ ذلك الاطمئنان بذكر الله في قلوب المؤمنين حقيقة عميقة يعرفها الذين خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم، فاتصلت بالله، يعرفونها ولا يملكون بالكلمات أن ينقلوها إلى الآخرين الذين لم يعرفوها؛ لأنها لا تنقل بالكلمات، إنما تسري في القلب فيستروحها، ويهش لها، ويندى بها ويستريح إليها، ويستشعر الطمأنينة والسلام، ويحس أنه في هذا الوجود ليس مفردًا بلا أنيس، فكل ما حوله صديق؛ إذ كل ما حوله من صنع الله الذي هو في حماه.

وليس أشقى على وجه هذه الأرض ممن يحرمون طمأنينة الأنس إلى الله، ليس أشقى

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤١٧.
(٢) محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ٢٨٢.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/ ١٣٨.

ممن ينطلق في هذه الأرض مبتوت الصلة بما حوله في الكون؛ لأنه انفصم من العروة الوثقى التي تربطه بما حوله في الله خالق الكون، ليس أشقى ممن يعيش لا يدري لم جاء؟ ولم يذهب؟ ولم يعاني ما يعاني في الحياة؟ ليس أشقى ممن يسير في الأرض يوجس من كل شيء خيفة؛ لأنه لا يستشعر الصلة الخفية بينه وبين كل شيء في هذا الوجود، ليس أشقى في الحياة ممن يشق طريقه فريدًا وحيدًا شاردًا في فلاة، عليه أن يكافح وحده بلا ناصر ولا هاد ولا معين، وإن هناك للحظات في الحياة لا يصمد لها بشر إلا أن يكون مرتكنًا إلى الله، مطمئنًا إلى حماه، مهما أوتي من القوة والثبات والصلابة والاعتداد، ففي الحياة لحظات تعصف بهذا كله، فلا يصمد لها إلا المطمئنون بالله[(١)].

سادسًا: مغفرة الذنوب:

ومن فوائد الذكر: مغفرة الذنوب.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾

[آل عمران: ١٣٥-١٣٦].

فهؤلاء إذا فعلوا فاحشة بادروا إلى التوبة والاستغفار، وذكروا ربهم، وما توعد به العاصين، ووعد به المتقين، فسألوه المغفرة لذنوبهم، والستر لعيوبهم، مع إقلاعهم عنها وندمهم عليها.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفات ﴿جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ تزيل عنهم كل محذور ﴿وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ فيها من النعيم المقيم، والبهجة والسرور والبهاء، والخير والسرور، والقصور والمنازل الأنيقة العاليات، والأشجار المثمرة البهية، والأنهار الجاريات في تلك المساكن الطيبات ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ لا يحولون عنها، ولا يبغون بها بدلًا، ولا يغير ما هم فيه من النعيم ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ عملوا لله قليلًا، فأجروا كثيرًا، فـ «عند الصباح يحمد القوم السرى»، وعند الجزاء يجد العامل أجره كاملًا موفرًا[(٢)].

والمقصود: أنهم حصلوا على هذه المغفرة من الله، والجنات، والخلود فيها بسبب الاستغفار، وهو ذكر من الأذكار.

موضوعات ذات صلة:

الاستعانة، الاستغاثة، الاستغفار، التسبيح، الحمد، الغفلة

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٠٦٠.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٤٩.





عناصر الموضوع

مفهوم الذل

أولًا: المعنى اللغوي:

تدل مادة (ذلل) على الخضوع والاستكانة واللين[1].

والذُل: نقيض العز، يقال: ذَل يَذِل ذُلًا وذِلة وذِلَالة ومَذَلَة، وتذلل له، أي: خضع، والذِل بالكسر: اللين، وهو ضد الصعوبة[2].

وقال الراغب: «الذُل: ما كان عن قهر، والذِل بعد تصعب وشماس[3] من غير قهر، ذلت الدابة بعد شماس ذِلًا، وهي ذلولٌ، أي: ليست بصعبة»[4].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال ابن عاشور: «الذلة: خضوع في النفس واستكانة من جراء العجز عن الدفع»[5].

من خلال هذا التعريف، يلاحظ أن ابن عاشور اقتصر على تعريف الذل المذموم، وهو المتبادر إلى الذهن.

وقال العسكري: «الذلة: الضعف عن المقاومة، ونقيضها العزة، وهي القوة على الغلبة، ومنه الذلول وهو المقود من غير صعوبة؛ لأنه ينقاد انقياد الضعيف عن المقاومة، وأما الذليل فإنه ينقاد على مشقة»[6].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٣٤٥.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١١/ ٢٥٧.
(٣) شماس: شمست الدابة وهي شموس، أي: شردت وجمحت ومنعت ظهرها ولا تكاد تستقر. انظر: أساس البلاغة، الزمخشري، ص ٤٠١.
(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٣٣٠.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٩/ ١١٩.
(٦) الفروق اللغوية، العسكري ص٢٥١.



الذل في الاستعمال القرآني

وردت مادة (ذلل) في القرآن الكريم (٢٤) مرة، يخص موضوع البحث منها (١٨) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	٢	﴿لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾ [طه:١٣٤]
المصدر	١٠	﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء:٢٤]
اسم التفضيل	٢	﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون:٨]
الاسم	٤	﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران:١٢٣]

وجاءت كلمة الذل في القرآن على وجهين[٢]:

الأول: القلة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران:١٢٣]، أي: قليلًا.

الثاني: التواضع، ومنه قوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، أي: متواضعين على المؤمنين.

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي ص ٢٧٥-٢٧٦.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني ص ٢٢٠-٢٢١، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص ٣٠٠-٣٠١.

الألفاظ ذات الصلة

١ الصغار:

الصغار لغة:

الصَغار، بالفتح: الذل والضيم، وكذلك الصغر، بالضم، والمصدر الصغر، بالتحريك، يقال: قم على صغرك وصغرك، الليث: يقال صغر فلانٌ يصغر صغرًا وصغارًا، فهو صاغر، إذا رضي بالضيم وأقر به، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩] [1].

الصغار اصطلاحًا:

هو الاعتراف بالذل والإقرار به [2].

الصلة بين الذل والصغار:

الصغار زيادة في الإذلال والهوان [3].

٢ الخزي:

الخزي لغة:

خزي خزيًا ومخزاة: ذل، وأخزاه الله، وهو من أهل المخازي والمخزيات، ورجل خز، وامرأة خزية. وخزوته: قهرته [4]، وخزي الرجل لحقه انكسار، إما من نفسه وإما من غيره [5].

وفي لسان العرب: «المخزى في اللغة، المذل المحقور بأمرٍ قد لزمه بحجة، وكذلك أخزيته ألزمته حجةً إذا أذللته بها» [6].

الخزي اصطلاحًا:

جميع الآيات التي ورد فيها مادة (خزي) تدور حول معنى الذل والهوان والفضيحة.

الصلة بين الذل والخزي:

الخزي ذلٌ مع افتضاح، وقيل: هو الانقماع لقبح الفعل، والخزاية الاستحياء؛ لأنه انقماع

(١) لسان العرب، ابن منظور، ٤/ ٤٥٩.
(٢) انظر: الفروق اللغوية، العسكري، ص ٢٤٩.
(٣) انظر: المصدر السابق.
(٤) انظر: أساس البلاغة، الزمخشري، ١/ ٢٤٥، لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٢٢٦.
(٥) انظر: غريب القرآن، الأصفهاني، ١/ ١٤٧.
(٦) لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٢٢٦.



عن الشيء لما فيه من العيب، قال ابن درستويه: الخزي الإقامة على السوء، خزي يخزى خزيًا، وإذا استحيا من سوء فعله أو فعل به قيل: خزي يخزى خزاية؛ لأنهما في معنى واحد، وليس ذلك بشيء؛ لأن الإقامة على السوء والاستحياء من السوء ليسا بمعنى واحد[1].

٣ الخضوع:

الخضوع لغة:

الانقياد والمطاوعة[2].

جاء في كتاب جمهرة اللغة مادة (خ ض ع) «خضع الرجل، يخضع خضوعًا إذا ذل، وكل ذليل خاضع»[3].

الخضوع اصطلاحًا:

إظهار الانقياد والطاعة لذي سلطان.

الصلة بين الذل والخضوع:

الذل: الانقياد كرهًا، ونقيضه العز، وهو الإباء والامتناع، والانقياد على كره، وفاعله ذليل، والذل والانقياد طوعًا، وفاعله ذلول[4].

أما الخضوع: فهو التطامن، والتطأطؤ، والخاضع المطأطئ رأسه وعنقه[5].

---

(١) الفروق اللغوية، العسكري، ص٢٤٨.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ٨/ ٧٣.
(٣) جمهرة اللغة، ابن دريد ١/ ٦٠٦.
(٤) الفروق اللغوية، العسكري، ص٢٥٠.
(٥) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ٣/ ١٩.

أنواع الذل

ينقسم الذل إلى نوعين من جهة أنه محمود ومذموم، ولقد ذكر القرآن الكريم كلا القسمين، فمن أشرف أنواع الذل المحمود الذي يكون مع الخالق عز وجل ثم مع الوالدين ثم مع المؤمنين، وفي المقابل الذل المذموم الذي يكون مع ما يعبد من دونه عز وجل، أو مع الحكام المستبدين، أو مع الشيطان.

أولًا: ذل محمود:

١ . الذل مع الله.

من أشرف أنواع الذل المحمود هذا الذي يكون مع الخالق عز وجل، وهذا الذل عنوان العز والشرف والنصر في الدنيا والآخرة.

إن الحكمة من خلق الإنسان هي: عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

يقول ابن عطية في تفسير هذه الآية: «ما خلقت الإنس والجن إلا معدين ليعبدوني، وكأن الآية تعديد نعمه، أي: خلقت لهم حواسًا وعقولًا وأجسامًا منقادة نحو العبادة، وهذا كما تقول: البقر مخلوقة للحرث، والخيل للحرب، وقد يكون منها ما لا يحارب به أصلًا، فالمعنى أن الإعداد في خلق هؤلاء إنما هو للعبادة، لكن بعضهم تكسب وصرف نفسه عن ذلك»[(١)].

والعبادة هي: إظهار الخضوع والذل للمعبود عز وجل[(٢)].

قال ابن القيم في النونية[(٣)]:

وعبادة الرحمن غاية حبه
مع ذل عابده هما قطبان
وعليهما فلك العبادة دائر
ما دار حتى قامت القطبان

وقال ابن القيم أيضًا: «والعبادة تجمع أصلين: غاية الحب بغاية الذل والخضوع، والعرب تقول: طريق معبد، أي: مذلل، والتعبد: التذلل والخضوع، فمن أحببته ولم تكن خاضعًا له، لم تكن عابدًا له، ومن خضعت له بلا محبة لم تكن عابدًا له حتى تكون محبًا خاضعًا»[(٤)].

فتحقيق الذل إذًا يكون بتحقيق العبودية لله تعالى وحده.

قال الذهبي: «من خصائص الإلهية العبودية التي قامت على ساقين لا قوام لها بدونهما: غاية الحب مع غاية الذل، هذا تمام العبودية، وتفاوت منازل الخلق فيها بحسب تفاوتهم في هذين الأصلين، فمن

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٥/ ١٨٢.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٧/ ٢٦.
(٣) شرح نونية ابن القيم، محمد هراس ص٩٩.
(٤) مدارج السالكين، ابن القيم، ١/ ٩٥.

أعطى حبه وذله وخضوعه لغير الله فقد شبهه في خالص حقه»[1].

يحكى عن بعض العارفين، أنه قال: دخلت على الله من أبواب الطاعات كلها، فما دخلت من باب إلا رأيت عليه الزحام، فلم أتمكن من الدخول، حتى جئت باب الذل والافتقار، فإذا هو أقرب باب إليه وأوسعه، ولا مزاحم فيه ولا معوق، فما هو إلا أن وضعت قدمي في عتبته، فإذا هو سبحانه قد أخذ بيدي وأدخلني عليه[2].

٢. الذل مع الوالدين.

قال تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء:٢٤].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: وكن لهما ذليلًا رحمة منك بهما، تطيعهما فيما أمراك به مما لم يكن لله معصية، ولا تخالفهما فيما أحبا»[3].

وقال السعدي: «تواضع لهما ذلًا لهما ورحمة واحتسابًا للأجر؛ لا لأجل الخوف منهما أو الرجاء لما لهما، ونحو ذلك من المقاصد التي لا يؤجر عليها العبد»[4].

جاء في الحديث الذي يرويه عبدالله ابن مسعودٍ قال: (سألت النبي صلى الله عليه وسلم: أي العمل أحب إلى الله؟ قال: (الصلاة على وقتها. قال: ثم أيٌّ؟ قال: بر الوالدين. قال: ثم أيٌّ؟ قال: الجهاد في سبيل الله)[5].

فقرن الله بر الوالدين بعبادته وحده لا شريك له، وجعله في المنزلة الثانية من أحب الأعمال إليه بعد الصلاة لأكبر دليل على عظم هذا الأمر.

ولا نعمة تصل إلى الإنسان أعظم وأجل من نعمة الخالق عليه، ثم نعمة الوالدين، فمن أعظم الحقوق علينا بعد حق الله عز وجل حق الوالدين، وقد ذكر الله عز وجل بهذا الحق في جملة من آياته، وجعله مقرونًا بعبادته.

قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ [النساء:٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة:٨٣].

وذكر الله بر الوالدين مقرونًا بتوحيده، وإخلاص العبادة له، يدل على شدة تأكد وجوب بر الوالدين والإحسان إليهما إحسانًا تامًا في المعاملة[6].

[انظر التواضع: خفض الجناح للوالدين وللمؤمنين]

(١) العرش، الذهبي ص١٢١.
(٢) مدارج السالكين، ابن القيم، ١/ ٤٢٩.
(٣) جامع البيان ١٧/ ٤١٨.
(٤) تيسير الكريم الرحمن ص ٤٥٦.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب البر والصلة، رقم ٥٩٧٠.
(٦) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي، ٣/ ٨٥.

٢ . الذل مع المؤمنين.

وهو بمعنى التراحم والتواضع والعطف، وليس بمعنى التذلل والانكسار على وجه الضعف والخور.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤]

قال الطبري: «﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، أرقاء عليهم، رحماء بهم، ويعني بقوله: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، أشداء عليهم، غلظاء بهم»[١].

وقال ابن كثير: «قوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ هذه صفات المؤمنين الكمل أن يكون أحدهم متواضعًا لأخيه ووليه، متعززًا على خصمه وعدوه»[٢].

وقال سيد قطب: «قوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هي الصفة مأخوذة من الطواعية واليسر واللين، فالمؤمن ذلول للمؤمن، غير عصي عليه ولا صعب، هين لين، ميسر مستجيب، سمح ودود وهذه هي الذلة للمؤمنين»[٣].

[انظر: التواضع: تواضع مع الخلق]

(١) جامع البيان ١٠/ ٤٢١.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٣/ ١٣٦.
(٣) في ظلال القرآن ٢/ ٩١٩.

ثانيًا: ذل مذموم:

١ . مع ما يعبد من دون الله.

ما يعبد من دون الله أشياء كثيرة منها:

- الهوى.

قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

أفرأيت من اتخذ دينه بهواه، فلا يهوى شيئًا إلا ركبه، لأنه لا يؤمن بالله، ولا يحرم ما حرم، ولا يحلل ما حلل، إنما دينه ما هويته نفسه يعمل به، فأصبح هواه إله يعبد من دون عز وجل[٤].

قال ابن القيم: (لكل عبد بداية ونهاية فمن كانت بدايته اتباع الهوى كانت نهايته الذل والصغار والحرمان والبلاء المتبوع بحسب ما اتبع من هواه، بل يصير له ذلك في نهايته عذابًا يعذب به في قلبه)[٥].

- الآلهة من دون الله.

قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣].

في هذه الآية تقريع للمشركين بعبادتهم ما دون الله والتنبيه لهم على موضع خطأ

(٤) جامع البيان، الطبري، ٢٢/ ٧٥.
(٥) روضة المحبين ص ٤٨٣.

فعلهم ببيان أن آلهتهم التي يعبدونها لا تخلق شيئًا، بل هي مخلوقة ومع ذلك فهي لا تملك دفع ضر عن نفسها ولا جلب منفعة إليها، ولا تملك إماتة ولا إحياء ولا بعثًا، والعجيب أنك تراهم يتذللون لهذه الآلهة حتى تجلب لهم النفع[(١)].

وقد ذكر الله تعالى هذه الآيات بعد قوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١].

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: فأفردوا أيها الناس لربكم الذي نزل الفرقان على عبده محمد نبيه صلى الله عليه وسلم الألوهية، وأخلصوا له العبادة دون كل ما تعبدون من دونه من الآلهة والأصنام والملائكة والجن والإنس، فإن كل ذلك خلقه وفي ملكه، فلا تصلح العبادة إلا لله الذي هو ملك جميع ذلك»[(٢)].

٢. مع الحكام المستبدين.

لربما لم تعرف البشرية ذلًا أكثر من ذل الناس لفرعون وجنوده آنذاك، لدرجة أن فرعون قال للناس: أنا ربكم الأعلى.

ففرعون يعتبر نفسه الإله والحقيقة المؤكدة في الدين، ولذلك كان قلقًا من رسالة موسى عليه السلام، وتتضح مخاوفه في الآية القرآنية.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر:٢٦].

فمن مظاهر الذل الذي تعرض له بنو إسرائيل من فرعون يتضح من خلال قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص:٤].

بعد أن جعل فرعون أهل مملكته شيعًا وأحزابًا، اختص طائفة منهم بالإذلال والقهر والظلم، فصار يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم، أي: يذبح الذكور من بنى إسرائيل بمجرد ولادتهم، ويترك الإناث أحياء[(٣)].

يقول سيد قطب: «إنه حين كان بنو إسرائيل يؤدون ضريبة الذل لفرعون وهو يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم لم تتدخل يد القدرة لإدارة المعركة، فهم لم يكونوا يؤدون هذه الضريبة إلا ذلًا واستكانة وخوفًا، فأما حين استعلن الإيمان، في قلوب الذين آمنوا بموسى واستعدوا لاحتمال التعذيب وهم مرفوعوا الرؤوس يجهرون بكلمة الإيمان في وجه فرعون دون تلجلج و دون تحرج، و دون اتقاء للتعذيب، فأما عند ذلك فقد تدخلت يد القدرة لإدارة المعركة، وإعلان النصر الذي تم قبل ذلك

(١) جامع البيان، الطبري، ١٩/ ٢٣٧.
(٢) المصدر السابق ١٩/ ٢٣٦.
(٣) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١٠/ ٣٧٥.

في الأرواح والقلوب»[1].

٣. مع الشيطان.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

من أقبح أنواع الذل هذا الذي يكون مع الشيطان، ففي الآية السابقة تجسيد لمشهد من مشاهد غزوة أحد، حيث طاوع بعض المسلمين الشيطان بعد أن وسوس لهم معصية النبي صلى الله عليه وسلم، فكانت مخالفتهم لرسولهم وقائدهم طاعة للشيطان، فحرمهم الله تأييده وتقوية قلوبهم.

والمراد بالزلة هنا: ما حدث منهم من مخالفة الرسول صلى الله عليه وسلم وقد ترتب عليها هزيمتهم[2].

قال الراغب: «استزله إذا تحرى زلته، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟﴾ أي: استجرهم الشيطان حتى زلوا، فإن الخطيئة الصغيرة إذا ترخص الإنسان فيها تصير مسهلة لسبيل الشيطان على نفسه، والزلة في الأصل: استرسال الرجل من غير قصد»[3].

نخلص مما سبق أن أشرف أنواع الذل المحمود هذا الذي يكون مع الخالق عز وجل، فهذا النوع من الذل يترتب عليه أجر وثواب عظيم، بل إن عبادة الذل والافتقار إليه عز وجل من العبادات النادرة، ولذلك قال أحدهم: إنه دخل على الله من عبادة الصيام فوجد خلقًا كثيرًا ودخل على الله من عبادة الصلاة فوجد خلقًا كثيرًا، قال: ثم دخلت عليه من عبادة الذل والافتقار فلم أجد إلا القليل، في المقابل فإن من أخطر أنواع الذل المذموم هو الذل يكون مع الشيطان، فهذا النوع من الذل إن لم يحذر منه الإنسان قطعًا سيورده المهالك.

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٤٥.
(٢) انظر: التفسير الوسيط، لطنطاوي ٢/ ٣٠٩.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢١٤.

العقاب بالذل

العقاب بالذل في الدنيا والآخرة من أبشع أنواع العقاب التي تلحق بالمشركين والعصاة من المسلمين، فقد تعددت وتنوعت صور إذلال الله لهم في الدنيا والآخرة، هذا ما ستتعرف عليه من خلال النقاط الآتية:

أولًا: العقاب بالذل في الدنيا:

تنوعت صور إذلال الله تعالى للعصاة في الدنيا، ومن تلك الصور:

١ . ضنك الحياة والعيش.

قد يعاقب الله بعض عباده بضنك العيش في الدنيا؛ قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه:١٢٤].

أي: فإن لهذا المعرض معيشة ضيقة مليئة بالهم والغم والأحزان وسوء العاقبة، حتى ولو ملك المال الوفير، والحطام الكثير.. فإن المعيشة الطيبة لا تكون إلا مع طاعة الله، وامتثال أمره، واجتناب نهيه[(١)].

٢ . الأسر والخوف والرعب.

ومن العصاة من أذلهم الله عز وجل بالرعب والقتل والأسر، وهم العصاة من أهل الكتاب.

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ۝٢٦ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ۝٢٧﴾ [الأحزاب٢٦-٢٧].

قوله تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ﴾ أي: الخوف؛ وهو جندي من جنود الله تعالى، وهذا الرعب الذي ألقاه الله عز وجل في قلوب الكافرين هو الذي فرقهم، وأخرجهم من حصونهم المنيعة، ولم يجعل لكثرة عددهم قيمة، فألحق الله بهم الهزيمة والذل على أيدي المؤمنين، قوله: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ وهم المقاتلون الذين يحملون السلاح، وقوله ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ وهم النساء والذراري، وغيرهم مما لا يحملون السلاح، وأعطاهم أرضهم وديارهم وأموالهم، بعد زوالهم وانهزامهم، ووعدهم الله تعالى بأماكن جديدة، لم يذهبوا إليها إمعانًا في ذل اليهود، وهي خيبر[(٢)].

٣ . الخسف.

ومما يلحق العصاة من ذلٍ في الدنيا: الخسف.

قال تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ

(١) انظر: تفسير السمرقندي، ٢/ ٤١٦، التفسير الوسيط، طنطاوي ٩/ ١٦٤.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ٤٦١، تفسير الشعراوي، ١٩/ ١٢٠٠٣.

﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص:٨١].

أمر الله تعالى أن تبتلع قارون وداره وأمواله، انتقامًا منه لكفره ونفاقه، وبغيه وكبريائه، فلم تمنع ثروته ولا جاهه ولا أتباعه عذاب الله عنه، لما أراد الله خذلانه بخسف الأرض به وبداره، ومن فيها من أعوانه الظلمة المجرمين، ولا هو استطاع بجهده وقدرته أن يمنع العذاب عن نفسه[1].

ثانيًا: العقاب بالذل في الآخرة:

إن ميزان العدل الإلهي في غاية الوضوح والاعتدال، فأهل النار إنما يعاقبون في الآخرة ويلحق بهم الذل والصغار بسبب فسادهم وإشراكهم بالله وكفرهم بآياته ولقائه واتخاذهم آيات الله هزوًا وسخرية، وقد ذكر الحق عز وجل في غير موضع في كتابه العزيز حال أهل النار من أهل الكفر والعصيان، وما يسومهم من أصناف الذل والهوان، لذا كان من دعاء المؤمنين الصادقين.

قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [آل عمران:١٩٢].

ومن المواقف التي يتعرض فيها العصاة والكفار للذل في الآخرة:

١. عند قبض أرواحهم.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [الأنفال: ٥٠-٥١].

والمعنى: لو عاينت وشاهدت أيها العاقل حال الذين كفروا حين يتوفى الله أرواحهم، لعاينت وشاهدت منظرًا مخيفًا، وأمرًا فظيعًا تقشعر من هوله الأبدان، ثم فصل الله سبحانه هذا المنظر المخيف بجملة مستأنفة فقال: ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ والمراد بوجوههم: ما أقبل منهم، وبأدبارهم: ما أدبر وهو كل الظهر، وخص سبحانه الضرب للوجوه والأدبار بالذكر، لأن الوجوه أكرم الأعضاء، ولأن الأدبار هي الأماكن التي يكره الناس التحدث عنها فضلًا عن الضرب عليها، أو لأن الخزي والنكال في ضربهما أشد وأعظم[2].

وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ [محمد: ٢٧].

أي: فكيف حالهم، أو فكيف يعملون ويحتالون حينئذ؟ ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ

(١) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري، ٤/ ١٠٢.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٢٦٣، التفسير المنير الزحيلي ١٠/ ٣٥.

﴿وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ هذا تصوير لتوفيهم، أي: يتوفونهم وهم يضربون وجوههم وظهورهم بمقامع من حديد، وفي هذا تخويف وتهديد، إذ يتعرضون عند التوفي إلى أهوال وفظائع شديدة[1].

٢. عند الخروج من القبر.

قال تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَٰقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المعارج:٤٢-٤٤].

أي: فاتركهم يخوضوا في باطلهم، ويلعبوا في دنياهم حتى يلاقوا يوم القيامة الذي يوعدون فيه بالعذاب، يوم يخرجون من القبور مسرعين، كما كانوا في الدنيا يذهبون إلى آلهتهم التي اختلقوها للعبادة من دون الله، يهرولون ويسرعون، ذليلة أبصارهم منكسرة إلى الأرض، تغشاهم الحقارة والمهانة، ذلك هو اليوم الذي وعدوا به في الدنيا، وكانوا به يكذبون[2].

٣. عندما يساقون إلى المحشر.

قال تعالى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم:٨٦].

أي: ونسوق المجرمين الذين ارتكبوا الجرائم في دنياهم، نسوقهم سوقًا إلى جهنم كما تساق البهائم، حالة كونهم عطاشًا، يبحثون عن الماء فلا يجدونه[3].

ومن ألوان العذاب والذل لهؤلاء أنهم يحشرون عميًا.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه:١٢٤].

أي: فمن يتكبر عن عبادة الله عز وجل ويعرض عن ذكره فإن له معيشة ضنكًا في الحياة الدنيا، مليئة بالهم والغم والشقاء، حتى ولو ملك كنوز الدنيا؛ لأن المعيشة الطيبة لا تكون إلا مع طاعة، ويحشر يوم القيامة أعمى، قال ابن عباس رضي الله عنه: وذلك حين يخرج من القبر يخرج بصيرًا، فإذا سيق إلى المحشر عمي[4].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٣٤]

يبين الله عز وجل حال المكذبين يوم البعث، فهم يحشرون على وجوههم، تسحبهم ملائكة العذاب يجرونهم على وجوههم، وهذه صورة حسية في غاية الفظاعة والشناعة، تجمع بين العذاب

(١) انظر: التفسير المنير الزحيلي ٢٦/ ١٢١.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٩/ ١٨١، التفسير الوسيط، طنطاوي، ١٥/ ١٠٧.
(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٥/ ٢٨١.
(٤) تفسير السمرقندي، ٢/ ٤١٧.

الحسي، والتحقير المعنوي وتوحي بالذلة والمهانة[1].

وقد بَيَنَ النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بحديث أنس بن مالكٍ رضي الله عنه: (أن رجلًا قال: يا نبي الله، كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال: أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا، قادرًا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة)[2].

كما يحشرون أيضًا زرق العيون من شدة الغم والهم الذي أصابهم من هول هذا الموقف.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه:١٠٢].

قال الإمام الطبري: «عنى بالزرق في هذا الموضع: ما يظهر في أعينهم من شدة العطش الذي يكون بهم عند الحشر لرأي العين من الزرق»[3].

وقيل: وصفوا بذلك لأن الزرقة أسوأ ألوان العين وأبغضها عند العرب، لأن الروم كانوا أعدى أعدائهم، وهم زرق العيون[4].

وفي الحديث التالي سيتضح لنا مدى الذل والحقارة التي تلحق بالمتكبرين يوم الحشر، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال، يغشاهم الذل من كل مكانٍ، يساقون إلى سجن جهنم، يقال له: بولس، تعلوهم نار الأنيار، يسقون من عصارة أهل النار: طينة الخبال)[5].

وقبل أن يدخلوا النار تراهم ينظرون لها وهم خائفون.

قال الله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى:٤٥].

المراد بالخشوع في هذه الآية: ما يظهر عليهم من أثر الذلة والخزي، وهو شامل لسائر البدن بما فيه أصواتهم، وأبصارهم، لذا قال تعالى: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ من ذله وصغاره، وذلك من هول ما يرونه من العذاب فهم يسارقون النظر إلى النار مسارقة شزرًا من هيبتها وخوفًا منها وذلةً في أنفسهم[6].

٤ . عندما يدخلون جهنم.

الذل الأعظم والهوان الأكبر عندما يدخلون إلى النار -عافانا الله منها- فهم

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٥٨٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقائق، باب كيف الحشر، رقم ٦٥٢٣.

(٣) جامع البيان، الطبري، ١٨/ ٣٦٩.

(٤) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، ٤/ ٣٨.

(٥) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة، رقم ٢٤٩٢، ٤/ ٦٥٥.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٨٠٤٠.

(٦) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ١٧/ ٣٤٣، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٧٦١.

منبوذون في النار.

قال تعالى: ﴿كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾ [الهمزة:٤].

النبذ: هو طرح ما هو خفيف هين، ويستخدم للتحقير والمهانة والذل[(١)].

ومن الذل الذي يلحق بهم أيضًا أنهم يصفدون في الأغلال والسلاسل.

قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ [إبراهيم:٤٩].

لقد بينت الآية الكريمة ما أعد الله عز وجل لأهل النار جزاء كفرهم بالله وآياته، فهم ﴿مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ أي: مقرنة أيديهم وأرجلهم إلى أعناقهم بالوثاق، قد قرن بعضهم مع بعض، أو قرنوا مع شياطينهم[(٢)].

وزيادة في التنكيل والعذاب، فهم يسحبون في نار جهنم.

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [غافر ٧٠-٧٢].

وفي وصف السلسلة، قال تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾ [الحاقة ٣٠-٣٢].

فهي سلسلة من سلاسل الجحيم، كل حلقة منها قدر حديد الدنيا، طولها سبعون ذراعًا يسلكونها[(٣)].

ومن شدة الذل التي يلحق بهم ترى وجوههم مسودة تلفحها النار، قال تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٤].

«تحرقها، واللفح كالنفخ إلا أنه أشد تأثيرًا منه، وتخصيص الوجوه بذلك؛ لأنها أشرف الأعضاء، فبيان حالها أزجر عن المعاصي المؤدية إلى النار، وهو السر في تقديمها على الفاعل»[(٤)].

ثم إن وجوههم تغشاها النار، وتسعر أجسامهم المسربلة بالقطران.

قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾﴾ [إبراهيم:٤٩-٥٠].

نحن أمام مشهد من مشاهد العذاب المذل المخزي لأهل النار، فهم مقرونون في الأغلال والقيود، سرابيلهم وثيابهم من قطران، وتعلو وجوههم وتضربها النار، وخص «القطران» بالذكر؛ لأنه شديد القابلية للاشتعال، مع نتن رائحته، ففيه الذل

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري، ٣/ ٤١٥.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٧/ ٥٢، الكشاف، الزمخشري، ٢/ ٥٦٧.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٤١٦.
(٤) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٦/ ١٥١.

والتحقير، وفيه الإيحاء بشدة الاشتعال[1].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا﴾ [الأحزاب:٦٦].

قال الزمخشري: «وقوله: تقلب بمعنى تتقلب، ومعنى تقليبها: تصريفها في الجهات، كما ترى البيضة تدور في القدر إذا غلت، فترامى بها الغليان من جهة إلى جهة، أو تغييرها عن أحوالها وتحويلها عن هيئاتها، أو طرحها في النار مقلوبة منكوسة»[2].

أسباب الوقوع في الذل

إن الوقوع في الذل من أعظم المصائب التي يقع بها كثير من الناس، وهذا الوقوع لا يكون عبثًا أو صدفةً، إنما ينتج عن أسباب كثيرة، نتعرف عليها من خلال النقاط الآتية:

أولًا: الشرك بالله تعالى والابتداع في الدين:

يقول الحق تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

يبين الحق عز وجل مصير المشرك به بقوله ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ أي: ومن يشرك بالله تعالى بأن يعبد سواه، أو يجعل معه شريكًا في العبادة فقد سار في طريق الشرور والآثام سيرًا بعيدًا ينتهي به إلى الهلاك، ويفضي به إلى الذل والهوان[3].

ولقد حاربت الشريعة الإسلامية جميع أنواع الشرك بالله تعالى، وحاربت البدع والمحدثات التي تخرج الناس عن العقيدة السليمة وأحكام الشرع، عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ)[4].

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٣/ ١٦٨.
(٢) الكشاف، ٣/ ٥٦٢.
(٣) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٣/ ٣١٢.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلح،



فالمبتدع يلقى عليه الذل في الدنيا، والغضب من الله تعالى، والطرد من رحمة الله عز وجل في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ﴾[الأعراف: ١٥٢].

أي: إن الذين كفروا بالله عز وجل واتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم، وسيصيبهم هوان وذلة عقوبة من الله في الدنيا قبل الآخرة[١].

وقد ذكر بعض المفسرين أن هذا خاصٌ بافتراء البدع، قال الحسن البصري: «إن ذل البدعة على أكتافهم، وإن هملجت[٢] بهم البغلات[٣]، وطقطقت[٤] بهم البراذين[٥]»، وقال سفيان بن عيينة: «كل صاحب بدعةٍ ذليلٌ»[٦].

فالإيمان بالله تعالى القائم على التوحيد يجعل المؤمن يستمد عزته ومنعته وقوته من ربه عز وجل، ومن فقد الإيمان بالله عز وجل والاعتزاز بعزته، واعتمد على عزةٍ من الناس فهو ذليل؛ لأنه فقد الإذعان لأحكام الله تعالى، فحقت عليه كلمة الذلة»[٧].

وقال تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾[البقرة: ٦١].

وقال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾[آل عمران: ١١٢].

أي: أحاطت بهم الذلة كما يحيط السرادق بمن فيه، وكما تحيط القبة بما في داخلها، أو ألصقت بهم، من ضرب الطين على الحائط، فهي محيطة بهم ولازمة لهم وملصقة بهم، فهم في نشاطهم وحركتهم في ذلة، لا ينتقلون من ذل إلا إلى ذل[٨].

واستحقوا غضبًا من الله، بسبب كفرهم

باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، رقم ٢٦٩٧، ٣/ ١٨٤.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٣/ ١٣٤.

(٢) الهملجة: حسن سير الدابة في سرعة وبخترة. انظر: العين، الفراهيدي، ص١٠٣١.

(٣) جمع بغل، وهو الحيوان الشحاج صوت البغل الذي يركب. انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٢/ ١٢٠.

(٤) الطقطقة: صوت قوائم الخيل على الأرض الصلبة. انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٩/ ١٢٩.

(٥) البراذين: جمع البرذون: الدابة من الخيل. انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٢/ ٥٨.

(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ٤٧٨.

(٧) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة، ٦/ ٢٩٥٩.

(٨) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١/ ٤٣٢، زهرة التفاسير، أبو زهرة، ٣/ ١٣٦٣.

بآيات الله تعالى، وأدلته التي يقيمها عليهم، في كتبه وخلقه على ألسنة رسله، ولا يكتفون بجحود الحق وإنكاره، بل يعتدون على الداعي إليه، فيقتلون رسل الله عز وجل [(١)].

وكما أن الشرك بالله يودي بصحبه في الذل والمهانة، كذلك الابتداع في الدين، يقول الامام الشاطبي: «كل من ابتدع في دين الله، فهو ذليل حقير بسبب بدعته، وإن ظهر لبادي الرأي عزه وجبروته، فهم في أنفسهم أذلاء. وأيضًا فإن الذلة الحاضرة بين أيدينا موجودة في غالب الأحوال، ألا ترى أحوال المبتدعة في زمان التابعين، وفيما بعد ذلك؟ حتى تلبسوا بالسلاطين، ولاذوا بأهل الدنيا، ومن لم يقدر على ذلك، استخفى ببدعته، وهرب بها عن مخالطة الجمهور، وعمل بأعمالها على التقية» [(٢)].

ثانيًا: التكبر عن طاعة الله تعالى:

ورد الكبر في القرآن في أكثر من موضع، وصرحت آيات عديدة بالمنع من التكبر مطلقًا، وبذمه وذم المتخلقين به، وبينت أنه سبب في هلاك الأمم ودمار القرى.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣].

فهذا وعيد من الله عز وجل لكل متكبر، إنه لا يحب المستكبرين، وقد يراد به المستكبرون عن التوحيد، ويجوز أن يعم كل مستكبر ويدخل هؤلاء تحت عمومه [(٣)].

قال ابن القيم: «من تعاظم وتكبر ودعا الناس إلى إطرائه في المدح والتعظيم والخضوع والرجاء وتعليق القلب به خوفًا ورجاءً والتجاءً واستعانة، فقد تشبه بالله ونازعه في ربوبيته وألوهيته، وهو حقيق بأن يهينه غاية الهوان، ويذله غاية الهوان، ويذله غاية الذل، ويجعله تحت أقدام خلقه» [(٤)].

والكبر يعتبر من أول الذنوب التي عصي الله تعالى بها، قال تعالى مبينًا سبب امتناع إبليس عن السجود لآدم، ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣].

قال الإمام الطبري: «وهذا، وإن كان من الله جل ثناؤه خبرًا عن إبليس، فإنه تقريع لضربائه من خلق الله الذين يتكبرون عن الخضوع لأمر الله، والانقياد لطاعته فيما أمرهم به، وفيما نهاهم عنه، والتسليم له فيما أوجب لبعضهم على بعض من الحق» [(٥)].

فكان مصيره الطرد من الجنة، وأصبح من أهل الصغار من الهوان على الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة، ٣/ ١٣٦٥، تفسير المراغي، ١/ ١٣٢.

(٢) الاعتصام، الشاطبي ١/ ٢٢١.

(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري، ٢/ ٦٠١.

(٤) الداء والدواء، ابن القيم، ص ١٣٧.

(٥) جامع البيان، الطبري، ١/ ٥١٠.



﴿تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣].

يبين الله عز وجل أن الإذلال والخزي هو مصير كل من يتكبر على أوامر الله تعالى، فعندما استكبر إبليس بإبائه السجود، كان مصيره الطرد من الجنة التي هي مكان المطيعين المتواضعين من الملائكة، لأنها لا تقبل عاصيًا متكبرًا، فدلت هذه الآية على أن التكبر على الله يوجب العقاب الشديد، وهذه المعاملة بعكس ما يريد المتكبر، يريد لنفسه الرفعة والشرف والعظمة والتجبر، فعاقبه الله تعالى بالإذلال والهوان؛ لأنه لما أظهر الاستكبار ألبسه الله عز وجل ثوب الصغار[1].

ثالثًا: استمراء المعاصي والإصرار عليها:

إن استمراء المعاصي والتمادي في الباطل يورث في القلوب الجحود بالحق، لأن المعاصي تنكت في القلب نكتًا سوداء، فإذا استمر الشخص عليها وضعت عليه أغلفة من الظلمة تمنع أن يصل الحق إليه، ولذلك قال تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا﴾ [الأعراف: ١٣][2].

وقال ابن المبارك[3]:

رأيت الذنوب تميت القلوب
وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب
وخيرٌ لنفسك عصيانها

وما حل في بني إسرائيل من ضرب الذلة والمسكنة، واستحقاق الغضب الإلهي؛ كان بسبب ما استمرأته نفوسهم من اقتراف المعاصي والإصرار عليها.

قال تعالى: ﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١].

وقال تعالى: ﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾[آل عمران: ١١٢].

رابعًا: محادة الله ورسوله:

إن من أسباب الوقوع في الذل محادة الله ورسوله، ومخالفة أوامره ونواهيه، فالكفار المعاندون الذين يحاربون الحق ويعادون الإسلام هم من أذل خلق الله تعالى، ولا

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ٧/ ٣٦٦، زهرة التفاسير، أبو زهرة، ٥/ ٢٧٩٦.
(٢) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة، ٣/ ١٣٦٣.
(٣) انظر: الداء والدواء، ابن القيم، ص ٥٩.

يوجد أحدٌ أذل منهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ [المجادلة: ٢٠].

أي: أن الكفار المخالفون لأوامر الله عز وجل ونواهيه، المعادون يشاقون الله ورسوله ويجعلون أنفسهم في حد، وشرع الله ورسوله في حد آخر، فأصل المحادة: مخالفة حدود الله تعالى التي حدها لخلقه[(١)].

﴿أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ أي: من جملة من أذله الله من الأمم السابقة، فهم أذل خلق الله تعالى، وذلهم في الدنيا بالقتل أو الأسر أو الطرد من الديار، وفي الآخرة بالخزي والعذاب، كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [آل عمران: ١٩٢][(٢)].

فهؤلاء الذين يحادون الله ورسوله ما كانوا ليتجرءوا على فعل ذلك إلا لكثرة أعوانهم وأتباعهم، فيظن من يراهم أنهم الأعزاء، الذين لا يوجد على الأرض من هو أعز منهم.

لذا نعتهم الحق عز وجل بقوله: ﴿فِي الْأَذَلِّينَ﴾ أي: الذين يعرفون أنهم أذل الخلق، بحيث يوصف كل منهم بأنه الأذل مطلقًا من غير مفضل عليه، وذلك في الدنيا والآخرة، فالجزاء من جنس العمل[(٣)].

وهذا المعنى الذي تضمنته الآية الكريمة، من كون الذين يحادون الله ورسوله هم أذل خلق الله عز وجل في الأولين والآخرين، بينه الله عز وجل في غير موضع في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [المجادلة: ٥].

يخبر سبحانه عن المعادين لله ورسوله، الخارجين عن حدوده وفرائضه بأنهم ﴿كُبِتُوا﴾ أي: أخزوا وذلوا وأهينوا ولعنوا، وقيل: صرعوا وكبوا على وجوههم[(٤)]، وللتأكيد على تحقق وقوع الذل والخزي لهم عبر سبحانه عن المستقبل بلفظ الماضي[(٥)].

فالذل والصغار واقع بهم، كما ذل الذين من قبلهم من كفار الأمم الماضية بسبب ما وقع منهم من معاندة ومعاداة لشرع الله عز وجل.

خامسًا: ترك الجهاد:

من أهم أسباب الوقوع في الذلة والمهانة: ترك الجهاد في سبيل الله، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول

---

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي، ٨/ ١٦٤.
(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٢٨/ ٥٨، فتح القدير، الشوكاني، ٥/ ٢٣٠.
(٣) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ٨/ ٤٢٣.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٣٢٢، نظم الدرر، البقاعي، ١٩/ ٣٥٥.
(٥) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٥/ ٢٢٢.

الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلًا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم)[1].

وسبب هذا الذل: أنهم تركوا الجهاد في سبيل الله الذي فيه عز الإسلام وإظهاره على كل دين، وأقبلوا على الزرع ونحوه، تسلط عليهم العدو لعدم تأهبهم له واستعدادهم لنزوله، فأولاهم ذلًا وهوانًا، لا يتخلصون منه حتى يرجعوا إلى ما هو واجب عليهم من جهاد الكفار، والإغلاظ عليهم، وإقامة دين الله، ونصرة الإسلام وأهله، وإعلاء كلمة الله، وإذلال الكفر وأهله[2].

إن للذل ضريبة كما أن للكرامة ضريبة، وضريبة الذل أفدح في كثير من الأحيان، ولكن أصحاب النفوس الضعيفة يخيل إليهم أن للكرامة ضريبة باهظة لا يطيقونها، فيختارون الذل والمهانة هربًا من تكاليف الكرامة، فيعيشون عيشة تافهة رخيصة.

قال تعالى ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ [البقرة: ٩٦].

يعيشون أذلاء يؤدون ضريبة أفدح من تكاليف الكرامة، ضريبة الذل والمهانة[3].

ففي الجهاد الفوز والسعادة، وفي تركه والتخلف عنه الهلاك والشقاوة في الدنيا والآخرة[4].

والناظر إلى أحوال المسلمين اليوم يرى أنهم قد فرطوا في دينهم تفريطًا عظيمًا، وركنوا إلى الدنيا، وتركوا الجهاد في سبيل الله، فألزمهم الله الذل في أعناقهم، فهم يلجئون إلى الشرق أو الغرب خاضعين ذليلين، يطلبون منهم العزة والنصر، وما عرف أولئك أن الذل لا يرفع عنهم حتى يرجعوا إلى دينهم.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩].

سادسًا: اتباع الهوى:

قال ابن القيم رحمه الله: «أن لكل عبد بداية ونهاية، فمن كانت بدايته اتباع الهوى، كانت نهايته الذل والصغار والحرمان والبلاء المتبوع بحسب ما اتبع من هواه، بل يصير له ذلك في نهايته عذابًا يعذب به في قلبه، لو تأملت حال كل ذي حال سيئة زرية، لرأيت بدايته الذهاب مع هواه، وإيثاره على عقله، ومن كانت بدايته مخالفة هواه وطاعة داعي

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الإجارة، باب النهي عن العينة، رقم ٣٤٦٢، ٣/ ٢٧٤.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٤٢٣.

(٢) انظر: عون المعبود، العظيم آبادي، ٩/ ٢٤٢

(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ١٠/ ٢٣٧.

(٤) انظر: الأساس، سعيد حوى ٤/ ٢٣٣.

رشده، كانت نهايته العز والشرف والغنى والجاه عند الله عز وجل، وعند الناس»[(١)].

والعاقل ينهى نفسه عن لذة، يعقبها ألم، وشهوة تورث ذلًا وندمًا، فمخالفة الهوى توجب شرف الدين وشرف الآخرة، وعز الظاهر وعز الباطن[(٢)].

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات:٤٠].

أي: أما من تذكر مقامه للحساب بين يدي الله عز وجل، وأدرك مقدار عظمته وقهره، وجبروته وسطوته، وجنب نفسه الوقوع في محارمه، فالجنة مثواه وجزاؤه[(٣)].

وقد ورد ذم الهوى في آيات عديدة من القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان:٤٣].

وقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية:٢٣].

«فالتعبير القرآني يرسم نموذجًا عجيبًا للنفس البشرية، حين تترك الأصل الثابت، وتتبع الهوى المتقلب، وحين تعبد هواها وتخضع له، وتقيمه إلهًا آمرًا مستوليًا عليها؛ تتلقى أوامره المتقلبة بالطاعة والتسليم والقبول»[(٤)].

وليس هناك أضل وأبعد عن طريق الرشاد ممن اتبع هواه.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص:٥٠].

«أي: (ومن أضل) عن طريق الرشاد، وسبيل السداد ممن اتبع هوى نفسه بغير بيان من عند الله، وعهد من الله، ويترك عهد الله الذي عهده إلى خلقه في وحيه وتنزيله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ومعنى الآية: إن الله لا يوفق لإصابة الحق وسبيل الرشد القوم الذين خالفوا أمر الله وتركوا طاعته، وكذبوا رسوله، وبدلوا عهده، واتبعوا أهواء أنفسهم إيثار منهم لطاعة الشيطان على طاعة الرحمن عز وجل»[(٥)].

وقد نهى الله تعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم عن طاعة من اتبع هواه.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨].

أي: ولا تطع يا محمد صلى الله عليه وسلم من شغلنا قلبه -من الكفار الذين

---

(١) روضة المحبين، ابن القيم، ص ٤٨٣.
(٢) انظر: غذاء الألباب، السفاريني، ٢/ ٤٥٩، ذم الهوى، ابن الجوزي، ص١٣.
(٣) انظر: تفسير المراغي، ٣٠/ ٣٤، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٩١٠.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٥/ ٣٢٣٠.
(٥) جامع البيان، الطبري، ١٩/ ٥٩٢.

سألوك طرد المؤمنين الضعفاء الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي عنك- عن ذكرنا؛ بالكفر وغلبة الشقاء عليه، واتبع هوى نفسه، وترك اتباع أمر الله ونهيه، وآثر هواه على طاعة ربه، وكان أمره ضياعًا، فما كان لمثل هذا الهالك أن يطاع[1].

(١) المصدر السابق ٢٨/ ٨.

أسباب رفع الذل

بعدما تعرفنا في المبحث السابق أن الوقوع في الذل لا يكون صدفة، إنما من خلال أسباب يفعلها الانسان توقعه في الذل، كان لا بد أن نتعرف على الأسباب التي ترفع الذل عنه.

ومن تلك الأسباب:

١. الإيمان بالله والمداومة على العمل الصالح.

قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس:٢٦].

والمقصود بقوله: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ الإخبار عن خلوص نعيمهم من كل ما يكدر الصفو، إثر بيان ما أعطاهم من رضوان، أي: ولا يغطي وجوههم يوم القيامة شيء مما يغطي وجوه الكفار، من السواد والهوان والصغار[2].

قال ابن كثير: «﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾ أي: قتام وسواد في عرصات المحشر، كما يعتري وجوه الكفرة الفجرة من القترة والغبرة، ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ أي: هوان وصغار، أي: لا يحصل لهم إهانة في الباطن ولا في الظاهر، بل هم كما قال تعالى في حقهم:

(٢) انظر: الوجيز، الواحدي، ص ٤٩٥، الدر المصون، السمين الحلبي، ٦/ ١٨١.

﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا﴾ [الإنسان:١١][(١)].

٢. الاعتزاز بالله، والتمسك بدينه، وتطبيق شريعته.

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إنا كنا أذل قوم، فأعزنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العزة بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله»[(٢)].

وقال الحسن بن علي رضي الله عنه: علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمات أقولهن في قنوت الوتر -وفيه-: (**إنه لا يذل من واليت، تباركت ربنا وتعاليت**)[(٣)].

وقال تعالى: ﴿وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [آل عمران:١٠٣].

قال الطبري: «قال قتادة: في هذه الآية، كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلًا، وأشقاه عيشًا، وأبينه ضلالة، وأعراه جلودًا، وأجوعه بطونًا، مكعومين[(٤)] على رأس حجر بين الأسدين: فارس، والروم، ولا والله ما في بلادهم يومئذ من شيء يحسدون عليه، من عاش منهم عاش شقيًا، ومن مات ردي في النار، يؤكلون ولا يأكلون، والله ما نعلم قبيلًا يومئذ من حاضر الأرض، كانوا فيها أصغر حظًا وأدق فيها شأنًا منهم، حتى جاء الله عز وجل بالإسلام، فورثكم به الكتاب، وأحل لكم به دار الجهاد، ووضع لكم به من الرزق، وجعلكم به ملوكًا على رقاب الناس، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم، فاشكروا نعمه، فإن ربكم منعم يحب الشاكرين، وإن أهل الشكر في مزيد من الله تبارك وتعالى»[(٥)].

٣. الدعاء بارتفاع الذل وحصول العز.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول: (**اللهم إني أعوذ بك من الفقر والقلة والذلة، وأعوذ بك أن أظلم أو أظلم**)[(٦)].

قال الطيبي: «قوله: (والذلة) أي: من أن أكون ذليلًا في أعين الناس؛ بحيث يستخفونه ويحقرون شأنه، والأظهر أن المراد بها الذلة الحاصلة من المعصية، أو التذلل للأغنياء

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٢٦٢.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك، ١/ ١٣٠، رقم ٢٠٧.
قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، باب ما جاء في القنوت في الوتر، رقم ٤٦٤، ٢/ ٣٢٨.
وصححه الألباني في إرواء الغليل، ٢/ ١٧٢، رقم ٤٢٩.

(٤) مكعوم: من كعم البعير إذا شد فاه في هياجه؛ لئلا يعض أو يأكل. لسان العرب، ابن منظور، ١٢/ ٥٢٢.

(٥) جامع البيان، جامع البيان، الطبري، ١٣/ ٤٧٨.

(٦) أخرجه أحمد في مسنده، مسند أبي هريرة رضي الله عنه، ١٣/ ٤١٨، رقم ٨٠٥٣.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٢٧٦، رقم ١٢٨٧.

على وجه المسكنة، والمراد بهذه الأدعية تعليم الأمة»[1].

٤. موالاة الله ورسوله وصالح المؤمنين.

قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون:٨].

أي: يقول هؤلاء المنافقون -على سبيل التبجح وسوء الأدب- لئن رجعنا إلى المدينة بعد انتهاء هذه الغزوة، ليخرجن الفريق الأعز منا الفريق الأذل من المدينة، حتى لا يبقى فيها أحد من هذا الفريق الأذل، بل تصبح خالية الوجه لنا.

وقد رد الله تعالى على مقالتهم الباطلة هذه بما يخرس ألسنتهم فقال: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لقد كذب المنافقون فيما قالوه، فإن لله تعالى وحده العزة المطلقة والقوة التي لا تقهر، فالعزة لله سبحانه ولرسوله وللمؤمنين، ومن والاهم وسار على هداهم ينتفي عنه ذل الدنيا والآخرة، ويحصل له عز الدنيا والآخرة[2].

٥. طاعة الله ورسوله.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩].

جاء في الأدب النبوي: «لو أطاعوه -الرسول- لما أصابهم ما لحقهم من الذل والهوان بالفشل والهزيمة في الحرب تارة؛ والقتل والأسر تارة أخرى، وبالعجز المبين عن أن يقفوا في سبيل دعوته، ويمنعوا انتشارها في أقطار المعمورة، ويحولوا دون دخول الناس في دين الله أفواجًا، وما كان عنادهم ولا مجادلتهم عن يقين يعتقدونه، ولا شبه لم يجل الشك عنها، ولكن تكبرًا وعتوًا؛ مخافة أن تزول عنهم مناصب توارثوها، ومظاهر تخيلوا أن العز والمجد في المحافظة عليها»[3].

موضوعات ذات صلة:

التواضع، الخشوع، العبادة، العزة، الوهن

(١) عون المعبود، العظيم آبادي، ٤/ ٢٨٢.

(٢) انظر: التفسير الوسيط، الزحيلي، ٣/ ٢٦٦٧، لباب التأويل، الخازن، ٤/ ٣٠٠.

(٣) الأدب النبوي، محمد الخولي، ١/ ٢٩١.





عناصر الموضوع

المجلد الخامس عشر

مفهوم الذم

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل مادة (ذم م) تدل على خلاف الحمد[1].

يقال: ذممته أذمه ذمًا خلاف مدحته، فهو ذميم ومذموم، أي: غير محمود[2].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

خلاف المدح، وهو الانتقاد واللوم، والوصف بالمعايب التي في الموصوف[3].

فالمعنى الاصطلاحي لا يخرج عن المعنى اللغوي.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٣٤٥.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٢٢٠، المصباح المنير، الفيومي ١/ ٢١٠.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ٦٠، معجم لغة الفقهاء، محمد رواس ص ٢١٤.

الذم في الاستعمال القرآني

وردت مادة (ذ م م) في القرآن الكريم (٥)، والذي يخص موضوع البحث (٣) مرات[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
اسم المفعول	٣	﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ۝٢٢﴾ [الإسراء:٢٢]

وجاء الدفع في الاستعمال القرآني بمعناه اللغوي الذي هو خلاف المدح.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي ص ٢٦٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ الشتم:

الشتم لغة:

السب، والاسم الشتيمة، والشتم: الكلام القبيح وليس فيه قذف(١).

الشتم اصطلاحًا:

وصف الغير بما فيه نقص وإزراء(٢).

الصلة بين الذم والشتم:

والصلة بين الذم والشتم: أن كلًا منهما يقال لأجل الانتقاص والاستخفاف.

٢ السب:

السَّبُّ لغة:

هو الشتم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأنعام:١٠٨](٣).

السَّبُّ اصطلاحًا:

الشتم الوجيع، والسُّبَّة: ما يسب به، وكني بها عن الدبر، وتسميته بذلك كتسميته بالسوءة(٤).

الصلة بين الذم والسب:

والصلة بين الذم والسب: أن كلًا منهما يقصد به الانتقاص والاستخفاف.

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٣١٨، المصباح المنير، الفيومي ١/ ٣٠٤.
(٢) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٢٠٢.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ٤٥٥.
(٤) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ١٩٠.

٣ المدح:

المدح لغة:

نقيض الهجاء وهو حسن الثناء على الغير لما فيه من الصفات، سواء أكانت تلك الصفات خلقية أم اختيارية، وهو أعم من الحمد[١].

المدح الاصطلاح:

الثناء باللسان على الجميل الاختياري قصدًا[٢].

الصلة بين الذم والمدح:

العلاقة بين الذم والمدح علاقة ضدية، فكل واحد منها ضد الآخر.

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٥٨٩، المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٥٦٦، الكليات، الكفوي ص ٨٥٧.

(٢) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ٢٠٧.

أسباب الذم

من أسباب الذم في القرآن الكريم: الأعمال السيئة، والصفات الخلقية القبيحة، والصفات الخلقية، وسوء العاقبة، وبيان ذلك من خلال النقاط الآتية:

أولًا: الأعمال السيئة:

ذم القرآن الكريم الأعمال السيئة من عبادة غير الله وتطفيف الميزان والتخلف عن الجهاد وموالاة الكافرين وبيان ذلك كما يأتي:

١ . عبادة غير الله.

من أسباب الذم التي ذكرها القرآن الكريم: عبادة غير الله تعالى من الأصنام وغيرها.

قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ۚ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنفال: ٣٤-٣٥].

ذم الله تعالى الكفار بأفعالهم القبيحة وسوء العاقبة واستحقاقهم العذاب، ونفي الولاية عنهم، وأنهم ليسوا بأولياء البيت الحرام، وقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾، «أي: وأي شيء يمنع من عذاب مشركي قريش بعد خروجك -يا محمد- وخروج المؤمنين المستضعفين من بين أظهرهم؟ إنه لا مانع أبدًا من وقع العذاب عليهم، وقد وجد مقتضية منهم، حيث اجترحوا من المنكرات والسيئات ما يجعلهم مستحقين للعقاب الشديد»[١].

ثم بين صفاتهم الذميمة، فقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، جملة حالية مبينة لجريمة من جرائمهم الشنيعة، أي: لا مانع يمنع من تعذيبهم: وكيف لا يعذبون وحالهم أنهم يمنعون المؤمنين عن الطواف بالمسجد الحرام، ومن زيارته، ومن مباشرة عباداتهم عنده..؟ إنهم لا بد أن يعذبوا على هذه الجرائم[٢].

ثم ذمهم بنفي الولاية عنهم، والمقصود إظهار اعتدائهم في صدهم عن المسجد الحرام، ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾، أي: وما كانوا مستحقين للولاية عليه لشركهم وعمل المفاسد فيه كطوافهم فيه عراة رجالًا ونساء، وهذا رد لقولهم: نحن ولاة البيت الحرام، نصد من نشاء وندخل من نشاء، ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾، أي: إنه لا يلي أمره إلا من كان برًا تقيًا، لا من كان كافرًا عابدًا للصنم[٣]، إنهم ليسوا أولياء هذا البيت ولا أصحابه،

(١) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٦/ ٩٢.
(٢) انظر: المصدر السابق.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٣٣٦.

إنهم أعداء هذا البيت وغاصبوه! إن بيت الله الحرام ليس تركة يرثها الخلف عن السلف، إنه بيت الله يرثه أولياء الله المتقون لله.. ومثله دعواهم أنهم ورثة إبراهيم -عليه السلام-، فوراثة إبراهيم ليست وراثة دم ونسب إنما هي وراثة دين وعقيدة[1].

وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾، تعيين لأوليائه الحق، وتقرير لمضمون ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ مع زيادة ما أفاده القصر من تعيين أوليائه، فهي بمنزلة الدليل على نفي ولاية المشركين، ولذلك فصلت، وإنما لم يكتف بجملة القصر مع اقتضائه أن غير المتقين ليسوا أولياء المسجد الحرام، لقصد التصريح بظلم المشركين في صدهم المسلمين عن المسجد الحرام بأنهم لا ولاية لهم عليه، فكانت جملة: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾، أشد تعلقًا بجملة: ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، من جملة: ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾، وكانت جملة: ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾، كالدليل، فانتظم الاستدلال أبدع انتظام، ولما في إناطة ولاية المسجد الحرام بالمتقين من الإشارة إلى أن المشركين الذين سلبت عنهم ولايته ليسوا من المتقين، فهو مذمة لهم وتحقيق للنفي بحجة[2].

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أنهم ليسوا أولياء الله، ولا أن أولياءه ليسوا إلا المتقين، فهم الآمنون من عذابه بمقتضى عدله في خلقه والجديرون بولاية بيته[3].

ثم ذم أفعالهم القبيحة عند البيت الحرام، فقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾، المكاء: الصفير، والتصدية: التصفيق، وكان أحدهم يضع يده على الأخرى ويصفر.

قال ابن عباس: «كانت قريش تطوف بالبيت عراة تصفر وتصفق، وروي عنه أن الرجال والنساء منهم كانوا يطوفون عراة مشبكين بين أصابعهم يصفرون فيها ويصفقون»[4].

فعلى قول ابن عباس كان المكاء والتصدية نوع عبادة لهم، وهو صحيح، لأن الله سبحانه وتعالى سمى ذلك صلاة، فإن قيل: كيف سماها صلاة وليس ذلك من جنس الصلاة؟ الجواب: إنهم كانوا يعتقدون ذلك المكاء والتصدية صلاة، فخرج ذلك على حسب معتقدهم[5].

ثم ذمهم بقوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، ودل فعل الأمر في

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٥٠٦.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٣٣٧.
(٣) انظر: تفسير المراغي ٩/ ٢٠٣.
(٤) أخرجه الطبري في تفسيره ١٣/ ٥٢٣.
(٥) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ٣١٠، غرائب القرآن، النيسابوري ٣/ ٣٩٦.

قوله: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾، على عذاب واقع بهم، إذ الأمر هنا للتوبيخ والتغليظ، وذلك هو العذاب الذي حل بهم يوم بدر، من قتل وأسر وحرب، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، أي: بكفركم فـ(ما) مصدرية، وكان إذا جعل خبرها جملة مضارعية أفادت الاستمرار والعادة، وعبر هنا بـ﴿تَكْفُرُونَ﴾ لأن العذاب المتحدث عنه لأجل الكفر والإضلال وما يجره الإضلال من الكبرياء والرئاسة[(١)].

٢. التطفيف في الميزان.

من أسباب الذم في القرآن الكريم: التطفيف والخيانة في الكيل والوزن، قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ [المطففين:١-٣].

في الآيات ذم التطفيف والخيانة في الكيل والوزن، وهو أخس ما يقع من المعصية، وهو التطفيف الذي لا يكاد يجدي شيئًا في تثمير المال وتنميته[(٢)].

وقوله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾، قيل: الويل شدة الشر، وقيل: الحزن والهلاك، وقيل: العذاب الأليم، وقيل: جبل في جهنم[(٣)].

والتطفيف: البخس والنقص في الكيل والوزن ولما أن ما يبخس في كيل أو وزن واحد شيء طفيف، أي: نزر حقير[(٤)].

وحسبهم أن التطفيف يجمع ظلمًا واختلاسًا ولؤمًا، والعرب كانوا يتعيرون بكل واحد من هذه الخلال متفرقة ويتبرؤون منها، ثم يأتونها مجتمعة، وناهيك بذلك أفنًا[(٥)].

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾، أي: إذا أخذوا من الناس ما أخذوا بحكم الشراء ونحوه كيلًا يأخذونه وافيًا وافرًا، وتبديل كلمة ﴿عَلَى﴾، هنا بمن قيل: لتضمين (الاكتيال) معنى الاستيلاء، أو للإشارة إلى أنه اكتيال مضر للناس[(٦)]، وللإشارة إلى ما فيه عملهم المنكر من الاستعلاء والقهر، شأن المتغلب المتحامل المتسلط، الذي لا يستبرئ لدينه وذمته[(٧)].

وجملة ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾، إدماج، مسوقة لكشف عادة ذميمة فيهم هي الحرص على توفير مقدار ما يتباعونه بدون حق لهم فيه، والمقصود الجملة المعطوفة عليها، وهي جملة: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾، فهم مذمومون

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٣٣٩.
(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي ١٥/ ٢٧٣.
(٣) انظر: تفسير السمرقندي ٣/ ٥٥٦، روح المعاني، الألوسي ١٥/ ٢٧٣.
(٤) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ٤٦٠، روح المعاني، الألوسي ١٥/ ٢٧٣.
(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ١٩٢.
(٦) انظر: روح المعاني، الألوسي ١٥/ ٢٧٤.
(٧) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٩/ ٤٢٨.

بمجموع ضمن الجملتين[1].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾، للناس وما تقدم في الأخذ من الناس وهذا في الإعطاء، فالمعنى وإذا كالوا لهم أو وزنوا لهم للبيع ينقصون[2].

ومدار الذم ما تضمنه مجموع المتعاطفين، والكلام كقولك: فلان يأخذ حقه من الناس تامًا ويعطيهم حقهم ناقصًا، وهي عبارة شائعة في الذم بل الذم بها أشد من الذم بنحو: يأخذ ناقصًا ويعطي ناقصًا، وكونه دون الذم بنحو قولك: يأخذ زائدًا ويعطي ناقصًا، لا يضر كما لا يخفى[3].

قال الألوسي: «ولعل الاقتصار على الاكتيال في صورة الاستيفاء وذكر الكيل والوزن في صورة الإخسار أن المطففين كانوا لا يأخذون ما يكال ويوزن إلا بالمكاييل دون الموازين لتمكنهم بالاكتيال من الاستيفاء والسرقة، وإذا أعطوا كالوا ووزنوا لتمكنهم من البخس في النوعين جميعًا، والحاصل أنه إنما جاء النظم الجليل هكذا ليطابق من نزل فيهم، فالصفة تنعى عليهم ما كانوا عليه من زيادة البخس والظلم، وهذا صحيح، جعلت الصفة مخصصة لهؤلاء المطففين كما هو الأظهر أو كاشفة لحالهم فقد أريد بالأول معهود ذهني»[4].

وقوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾ استئنافٌ واردٌ لتهويل ما ارتكبوه من التطفيف، والهمزة للإنكار والتعجيب، وأدخل همزة الاستفهام على النافية توبيخًا وليست (ألا) هذه للتنبيه[5].

وقال سبحانه: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ﴾، ولم يقل: ألا يظنون، لقصد تمييزهم والتشهير بهم، زيادة في ذمهم، وفي تقبيح أفعالهم[6].

وللإشعار بأنهم ممتازون بذلك الوصف القبيح عن سائر الناس أكمل امتياز، نازلون منزلة الأمور المشار إليها إشارة حسية، وما فيه من معنى البعد للإشعار ببعد درجتهم في الشرارة والفساد.

والمعنى: أبلغت الجرأة بهؤلاء المطففين، أنهم صاروا من بلادة الحس، ومن فقدان الشعور، لا يخشون الحساب يوم القيامة، ولا يخافون العذاب الشديد الذي سينزل بهم، يوم يقوم الناس من قبورهم استجابة لأمر رب العالمين، حيث يتلقون جزاءه العادل، وحكمه النافذ[7].

﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، يعني: يوم القيامة، أي: لا يظن أولئك الموصوفون بذلك الوصف الشنيع الهائل أنهم مبعوثون ليومٍ عظيمٍ لا

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ١٩٠.
(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي ١٥/ ٢٧٥.
(٣) انظر: المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق ١٥/ ٢٧٦.
(٥) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٦١٤.
(٦) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١٥/ ٣١٩.
(٧) انظر: روح المعاني، الألوسي ١٥/ ٢٧٧.

يقادر قدر عظمه، فإن من يظن ذلك وإن كان ظنًا ضعيفًا لا يكاد يتجاسر على أمثال هذه القبائح، فكيف بمن يتيقنه، ووصف اليوم بالعظيم لعظم ما فيه كما أن جعله علة للبعث باعتبار ما فيه وقدر بعضهم مضافًا، أي: لحساب يوم، وقيل: الظن هنا بمعنى اليقين، والأول أولى وأبلغ[١].

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي: لحكمه تعالى وقضائه عز وجل، ووصفه تعالى بربوبية العالمين من البيان البليغ لعظم الذنب وتفاقم الإثم في التطفيف ما لا يخفى، وليس ذلك نظرًا إلى التطفيف من حيث هو تطفيف، بل من حيث إن الميزان قانون العدل الذي قامت به السماوات والأرض، فيعم الحكم التطفيف على الوجه الواقع من أولئك المطففين وغيره[٢].

قال القرطبي: «وفي هذا الإنكار، والتعجيب، وكلمة الظن، ووصف اليوم بالعظيم، وقيام الناس فيه لله خاضعين، ووصف ذاته بـ(رب العالمين)، بيان بليغ لعظيم الذنب وتفاقم الإثم في التطفيف وفيما كان مثل حاله من الحيف وترك القيام بالقسط والعمل على السوية»[٣].

وفي الآيات بيان تحريم التطفيف في المكيال والميزان، وإنذار من يفعل ذلك، بأنه مبعوث لحساب لا تساهل فيه بتطفيف أو نحوه، ومثل التطفيف في الكيل والوزن النقص في الذرع وجر السلعة حالة الذرع، ويوشك أن لا يكاد في هذا الزمن كيال أو وزان أو ذراع يسلم من نقص إلا من عصمه الله تعالى، أجارنا الله من النقص المادي والمعنوي بمنه وكرمه[٤].

وقد جاء الأمر بإيفاء الكيل والميزان، والنهي عن تطفيفهما، في آيات كثيرة، منها: قوله تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾﴾ [هود:٨٤].

وقوله سبحانه: ﴿وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾ [الإسراء:٣٥].

وقوله جل وعلا: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الأنعام:١٥٢].

٣. التخلف عن الجهاد.

من أسباب الذم التي ذكرها القرآن

(١) انظر: المصدر السابق.

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٢٥٥.

(٤) انظر: بيان المعاني، عبد القادر ملا ٢/ ٤٩٣.

الكريم: التخلف عن الجهاد.

قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [التوبة:٨٦-٨٧].

يذم تعالى المتخلفين عن رسوله، في الجهاد في سبيله، والناكلين عنه مع القدرة عليه، ووجود السعة والطول، واستأذنوا الرسول في القعود، ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ﴾، يؤمرون فيها بالإيمان بالله والجهاد في سبيل الله، ﴿ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ يعني: أولي الغنى والأموال، الذين لا عذر لهم، وقد أمدهم الله بأموال وبنين[1].

والاقتصار على الطول يدل على أن أولي الطول مراد بهم من له قدرة على الجهاد بصحة البدن، فبوجود الطول انتفى عذرهم إذ من لم يكن قادرًا ببدنه لا ينظر إلى كونه ذا طول[2].

﴿وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾، ورضوا لأنفسهم بالعار والقعود في البلد مع النساء، وهن الخوالف، بعد خروج الجيش، فإذا وقع الحرب كانوا أجبن الناس، وإذا كان أمن كانوا أكثر الناس كلامًا.

كما قال الله تعالى، عنهم في الآية الأخرى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [الأحزاب:١٩] أي: علت ألسنتهم بالكلام الحاد القوي في الأمن، وفي الحرب أجبن شيء[3].

وقوله تعالى: ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ استئنافٌ قصد منه التعجيب من دناءة نفوسهم وقلة رجولتهم بأنهم رضوا لأنفسهم بأن يكونوا تبعًا للنساء، وفي اختيار فعل (رضوا) إشعار بأن ما تلبسوا به من الحال من شأنه أن يتردد العاقل في قبوله، والخوالف: جمع خالفة وهي المرأة التي تتخلف في البيت بعد سفر زوجها، فإن سافرت معه فهي الظعينة، أي: رضوا بالبقاء مع النساء[4].

وذلك أبلغ في الذم، فكونهم رضوا بأن يكونوا قاعدين مع النساء في المدينة أبلغ ذم لهم وتهجين، لأنهم نزلوا أنفسهم منزلة النساء العجزة اللواتي لا مدافعة عند هن ولا

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٩٦، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٤٧.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٢٨٨.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٩٦، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٤٧.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٢٨٩.

غنى[1].

وقوله تعالى: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، والطبع تمثيل لحال قلوبهم في عدم قبول الهدى بالإناء أو الكتاب المختوم، والطبع مرادف الختم، وأسند الطبع إلى المجهول إما للعلم بفاعله وهو الله، وإما للإشارة إلى أنهم خلقوا كذلك وجبلوا عليه، ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾، أي: فلأجل الطبع لا يفقهون ولا يتدبرون ولا يتفهمون ما في الجهاد من الفوز والسعادة، وما في التخلف من الشقاء والضلال، فآثروا نعمة الدعة على سمعة الشجاعة، وعلى ثواب الجهاد إذ لم يدركوا إلا المحسوسات، فلذلك لم يكونوا فاقهين، وذلك أصل جميع المضار في الدارين[2].

٤ . موالاة الكافرين.

من أسباب الذم التي ذكرها القرآن الكريم: موالاة الكافرين.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ①﴾ [الممتحنة:١].

نهى الله تبارك وتعالى، عباده المؤمنين أن يوالوا الكافرين الذين هم محاربون لله ولرسوله وللمؤمنين، الذين شرع الله عداوتهم ومصارمتهم، وأن يتخذوهم أولياء وأصدقاء وأخلاء يسرون إليهم بالمودة من دون المؤمنين[3].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، نداء من ربهم للذين آمنوا به، يدعوهم باسم الإيمان الذي ينسبهم إليه، يدعوهم ليبصرهم بحقائق موقفهم، ويحذرهم حبائل أعدائهم، ويذكرهم بالمهمة الملقاة على عاتقهم، وفي مودة يجعل عدوهم عدوه، وعدوه عدوهم: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾، فيشعر المؤمنين بأنهم منه وإليه، يعاديهم من يعاديه، فهم رجاله المنتسبون إليه الذين يحملون شارته في هذه الأرض، وهم أوداؤه وأحباؤه، فلا يجوز أن يلقوا بالمودة إلى أعدائهم وأعدائه[4].

ثم فسر هذه الموالاة فقال: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾، بدأه هنا بـ ﴿تُلْقُونَ﴾، وبعده بـ ﴿تُسِرُّونَ﴾، تنبيهًا بالأول على ذم مودة الأعداء، جهرًا وسرًا، وبالثاني على تأكيد ذمها سرًا، وخص الأول بالعموم لتقدمه، وباء ﴿بِٱلْمَوَدَّةِ﴾، زائدةٌ، وقيل: سببيةٌ، والمفعول محذوفٌ والتقدير: يلقون إليهم

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٤٨٠.
(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٤٨٠، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٢٨٩.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٨٥.
(٤) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٥٤٠.

أخبار النبي صلى الله عليه وسلم، بسبب المودة التي بينكم وبينهم[١].

ثم ذكر أن مما يمنع هذا الاتخاذ أمرين: الأول: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ﴾، أي: وقد كفروا بالله ورسوله وكتابه الذي أنزله عليكم! فكيف بكم بعد هذا تجعلونهم أنصارًا وتسرون إليهم بما ينفعهم ويضر رسولكم، ويعوق نشر دينكم، والثاني: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾، أي: يخرجون الرسول وأصحابه من بين أظهرهم كراهة لما هم عليه من التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده ولم يكن لهم جريرة ولا جرم سوى ذلك[٢].

وفي التعبير عن إخراج المشركين للنبي والمؤمنين، بالفعل المضارع الذي يفيد تجدد الزمن حالًا بعد حال، للإشارة إلى أن المشركين ما زالوا على موقفهم من النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، وأنه لو عاد النبي والمؤمنون إلى ديارهم بمكة لأخرجهم المشركون منها، بما يلاحقونهم به من أذى وضر، كما أن المشركين لم يزل هذا موقفهم من المؤمنين الذين كانوا في مكة، ولم تتح لهم فرصة الهجرة لسبب أو لآخر[٣].

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾، أي: إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيلي، باغين مرضاتي عنكم، فلا توالوا أعدائي وأعداءكم وقد أخرجوكم من دياركم حنقًا عليكم وسخطًا لدينكم.

وقوله تعالى: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ﴾، هو استفهام إنكاري، أي: أبعد هذا الذي علمتم أو تعلمون من أمر القوم، أبعد هذا تسرون إليهم بالمودة؟ أي: تبادلونهم المودة في ستر وخفاء، ﴿وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ﴾، فإنه لا يخفى على الله خافية في الأرض ولا في السماء[٤].

ثم توعد الله من يفعل ذلك وشدد النكير عليه وذكر ما فيه أعظم الزجر له، فقال تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾، أي: ومن يفعل هذه الموالاة ويبلغ أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم لأعدائه فقد جار عن قصد الطريق التي توصل إلى الجنة ورضوان الله تعالى[٥].

قالوا: «والموالاة الممنوعة هي التي يكون فيها خذلان للدين أو إيذاء لأهله أو إضافة لمصالحهم، وأما ما عدا ذلك كالتجارة وغيرها من ضروب المعاملات الدنيوية فلا

(١) انظر: فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، زكريا الأنصاري ١/ ٥٦٠.
(٢) انظر: تفسير المراغي ٢٨/ ٦٢.
(٣) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس ١٤/ ٨٩٢.
(٤) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم يونس ١٤/ ٨٩٢.
(٥) انظر: تفسير المراغي ٢٨/ ٦٣.

تدخل في ذلك النهي، لأنها ليست معاملة فيها أذى للإسلام والمسلمين»[(١)].

ثانيًا: الصفات الخلقية المذمومة في القرآن:

ذم القرآن الكريم الصفات الخلقية الذميمة، كالظلم والاعتداء والإثم والخيانة والكذب والعناد والغرور والاستكبار وبيان ذلك كما يأتي:

١ . الظلم.

من الأخلاق الموجبة لذم الله تعالى لها: الظلم.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۗ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنعام:٢١].

الظلم وضع الشيء في غير موضعه المختص به إما بنقصان أو بزيادة، وإما بعدول عن وقته أو مكانه، والظلم يقال في مجاوزة الحد الذي يجري مجرى النقطة في الدائرة، ويقال فيما يكثر ويقل من التجاوز، ولذا يستعمل في الذنب الصغير والكبير[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾، أي: لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبًا بأن جعل لله شريكًا أو ولدًا، أو كذب بآياته المنزلة كالقرآن المجيد، أو آياته الكونية الدالة على وحدانيته أو التي يؤيد بها رسله، وإذا كان كل من هذا التكذيب وذلك الكذب والافتراء يعد وحده غاية في الظلم ويطلق على صاحبه اسم التفضيل فيه، فكيف يكون حال من جمع بينهما، فكذب على الله وكذب بآياته المثبتة للتوحيد والمثبتة للرسالة؟[(٣)].

وعبر عن الشرك هنا بالظلم، وهو كثير ليعلم السامع أن جنس الظلم قبيح مذموم، ناهيك أن الشرك من أنواعه[(٤)].

ثم ذم الظلم بسوء العاقبة فقال: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾، أي: الحال والشأن أن الظالمين عامة لا يفوزون في عاقبة أمرهم يوم الحساب والجزاء بالنجاة من عذاب الله تعالى، ولا بنعيم الجنة مهما يكن نوع ظلمهم، فكيف تكون عاقبة من وصف بأنه لا أحد أظلم منه لافترائه على الله تعالى أو لتكذيبه بآياته أو عاقبة من جمع بين الأمرين فكان أظلم الظالمين؟[(٥)].

وقد ذم الله الظلم والظالمين في آيات كثيرة.

قال تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصافات:٢٢].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾

(١) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٢/ ٧٥.
(٢) انظر: روح البيان، إسماعيل حقي ٧/ ٢٥٤.
(٣) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد ٧/ ٢٨٧.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ٢٨٦.
(٥) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد ٧/ ٢٨٧.

[إبراهيم:٤٢].

وقال في عاقبة الظلم: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓا﴾، [النمل:٥٢].

ذم الظلم بسوء العاقبة، وفي ذلك إشارة إلى أن للظلم أثرًا في خراب البلدان[1].

٢. الاعتداء.

من الأخلاق الموجبة لذم الله تعالى لها: الاعتداء.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾

[البقرة:٦١].

يذم الله تعالى بني إسرائيل بأنهم أهل عدوان، والاعتداء والتعدي والعدوان خروج عما حد ورسم[2].

وكان العدوان سببًا لأن تضرب عليهم الذلة والمسكنة، وأن يبوءوا بغضب من الله، وكان سببًا على جحود النعم، وسوء الأدب وحمق التفكير، وهوان النفس، وبلادة الطبع، وبطر الحق، والبغي على أنفسهم وعلى غيرهم، ودناءة نفوسهم.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾، واذكروا -أيها اليهود المعاصرون- إذ قال آباؤكم: يا موسى لا يمكننا أن نستمر على طعام واحد مثل المن والسلوى، وذلك أنهم سئموا من المن والسلوى وملوه، فاشتهوا عليه غيره؛ لأن المواظبة على الطعام الواحد تكون سببًا لنقصان الشهوة، وإنما قالوا على طعام واحد وهما طعامان؛ لأنهم أرادوا بالواحد ما لا يتبدل، ولو كان على مائدة الرجل ألوان عدة يداوم عليها كل يوم لا يبدلها، يقال: لا يأكل فلان إلا طعامًا واحدًا، ويراد بالوحدة نفي التبدل والاختلاف أو أرادوا أنهما ضرب واحد؛ لأنهما معًا من طعام أهل التلذذ والترف، وكانوا من أهل الزراعات، فأرادوا ما ألفوا من البقول والحبوب وغير ذلك.

﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا﴾، الفوم: الخبز، وقيل: هو الحنطة، وقيل: هو الثوم، ﴿وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾، إنما طلبوا هذه الأنواع لأنها تعين على تقوية الشهوة أو لأنهم ملوا من البقاء في التيه، فسألوا هذه الأطعمة التي لا توجد إلا في البلاد، وكان غرضهم الوصول إلى البلاد لا تلك الأطعمة[3].

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ٢٨٦.
(٢) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني ٥/ ٤١٦.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي

وقوله تعالى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي﴾، أي: الذي هو أخس وأردأ وهو الذي طلبوه، ﴿بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾، يعني: بالذي هو أشرف وأفضل وهو ما هم فيه، ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾، يعني: إن أبيتم إلا ذلك، فأتوا مصرًا من الأمصار، وقيل: بل هو مصر البلد الذي كانوا فيه، ﴿فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾، يعني: من نبات الأرض[1].

وقوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾، أي: جعلت الذلة محيطة بهم مشتملة عليهم وألزموا الذل والهوان، ﴿وَالْمَسْكَنَةُ﴾، أي: الفقر والفاقة، وسمي الفقير مسكينًا؛ لأن الفقر أسكنه وأقعده عن الحركة، فترى اليهود وإن كانوا أغنياء مياسير كأنهم فقراء، فلا ترى أحدًا من أهل الملل أذل ولا أحرص على المال من اليهود، ﴿وَبَاءُو﴾، أي: رجعوا ولا يقال: باء، إلا بشر، ﴿بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾، وغضب الله إرادة الانتقام ممن عصاه ﴿ذَٰلِكَ﴾، أي: الغضب، ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾، أي: بصفة محمد صلى الله عليه وسلم وآية الرجم التي في التوراة ويكفرون بالإنجيل والقرآن، ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾، النبي: معناه المخبر من أنبأ ينبئ، وقيل: هو بمعنى الرفيع مأخوذ من النبوة، وهو المكان المرتفع، ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، أي: بغير جرم[2].

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾، أي: إن كفرهم بآيات الله وجرأتهم على النبيين بالقتل، إنما كانا بسبب عصيانهم وتعديهم حدود دينهم، فإن للدين هيبة في النفس تجعل المتدين به يحذر مخالفة أمره، حتى إذا تعدى حدوده مرة ضعف ذلك السلطان الديني في نفسه، وكلما عاد إلى المخالفة كان ضعفه أشد، إلى أن تصير المخالفة طبعًا وعادة، وكأنه ينسى حدود الدين ورسومه، ولا يصبح للدين ذلك الأثر العميق الذي كان متغلغلًا في قرارة نفسه[3].

وعبر سبحانه عن عصيانهم بالماضي فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا﴾، للإشارة إلى استقرار العصيان في طبائعهم، وثباته في نفوسهم وجوارحهم.

وعبر عن عدوانهم بالمضارع، للإيذان بأنه مستمر قائم، فهم لم يتركوا نبيًا إلا وآذوه، ولم يتركوا مصلحًا إلا واعتدوا عليه، فاعتداؤهم على المصلحين مستمر في كل زمان ومكان[4].

قال محمد رشيد رضا: «قال الأستاذ: ذلك الذل وتلك الخلاقة بالغضب إنما لزماهم؛ لأنهم عصوا الله فيما أمرهم أن

١/ ٤٢٢، مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٩٣، لباب التأويل، الخازن ١/ ٤٩.

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ١/ ٤٩.

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) انظر: تفسير المراغي ١/ ١٣٣.

(٤) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٤/ ٢٤٩.

يأخذوا به من الأحكام؛ ولأنهم اعتدوا تلك الحدود التي حدها الله لهم في شرائع أنبيائهم، وقد كانت تلك الأحكام والحدود هي الوسيلة لإخراجهم من الذل وتمكين العز والسلطان لهم في الأرض الموعودة؛ لأنها كانت الكافلة بنظامهم، الحافظة لبناء جماعتهم، فإذا أهملوها فسدت ألفتهم، وانهدم بناؤهم، وأسرعت إليهم الذلة التي لم تكن فارقتهم إلا منهزمة من يدي سلطان الشريعة، ولم يكن يصدها عنهم إلا معاقل النظام تحت رعايته، ولزمتهم الذلة والمسكنة بعد هذا لزوم الطابع للمطبوع»[1].

٣. الإثم.

من الأخلاق الموجبة لذم الله تعالى لها: الإثم.

قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [المائدة:٦٢-٦٣].

ذم الله تعالى في الآيات اليهود بأنهم يسارعون في الإثم والعدوان، وقوله: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾، أي: وترى -أيها الرسول الكريم أو أيها السامع- كثيرًا من هؤلاء اليهود، يسارعون في ارتكاب الآثام وفي التعدي والظلم وأكل المال الحرام بدون تردد أو تريث، والتعبير بقوله: ﴿وَتَرَىٰ﴾، يفيد أن ارتكابهم لهذه المنكرات لم يكن خافيًا أو مستورًا، وإنما هم يرتكبونها مجاهرة وعلانية، لأن فضيلة الحياء قد نضبت من وجوههم، والمسارعة في الشيء: المبادرة إليه بسرعة وخفة ونشاط، وأكثر استعمالها في الخير، قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون:٦١].

وقد استعملت هنا في مسارعتهم في الإثم والعدوان وأكلهم السحت، للإشارة إلى أنهم كانوا يقدمون على هذه المنكرات وكأنهم محقون فيها، والتعدية بحرف في تؤذن بأنهم مغمورون في الآثام، وأنهم يتنقلون فيها من حال إلى حال أخرى شر منها، حتى لكأن السير في طريق الحق والصدق والفضيلة صار غير مألوف عندهم[2].

وإسناد هذه الجريمة المزرية إلى الكثيرين منهم دون جميعهم من دقائق تحري الحق في عبارات الكتاب العزيز، فهو لا يحكم على الأمة الكبيرة بفساد جميع أفرادها أو فسقهم أو ظلمهم، بل يسند ذلك إلى الكثير أو الأكثر[3].

(١) تفسير المنار ١/ ٢٧٦.

(٢) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٤/ ٢١١.
(٣) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد ١٠/ ٣٤٤.

ولم يكتف بمجرد الإخبار أنهم يفعلون ذلك، حتى أخبر أنهم يسارعون فيه، وهذا يدل على خبثهم وشرهم، وأن أنفسهم مجبولة على حب المعاصي والظلم[1].

والإثم: هو كل قول أو عمل لا يرضاه الله تعالى، والعدوان: مجاوزة الحد في الظلم والتعدي. والسحت: هو المال الحرام كالرشوة وغيرها.

ثم بالغ في ذم هذه الأعمال فقال تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، أي: والله ما أقبح هذا العمل الذي يعمله هؤلاء من مسارعتهم في كل ما يفسد الأخلاق، ويدنس النفوس، ويقوض نظم المجتمع، وويل للأمة التي يعيش فيها أمثال هؤلاء[2].

وهذه الجملة هي حكم من الله تعالى عليهم بذم أعمالهم، وقد جمع سبحانه في حكمه بين صيغة الماضي ﴿كَانُوا﴾، وصيغة المضارع ﴿يَعْمَلُونَ﴾، للإشارة إلى أن هذا العمل القبيح كان منهم في الماضي، وأنهم قد استمروا عليه في حاضرهم ومستقبلهم بدون توبة أو ندم، وقد أكد سبحانه هذا الحكم بالقسم، وباللام الموطئة للقسم، وبكلمة (بئس) الدالة على شدة الذم، أي: أقسم لبئس العمل الذي كان هؤلاء يعملونه من مسارعتهم في الإثم والعدوان وأكلهم السحت[3].

قال سيد قطب عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [المائدة:٦٢]: «والمسارعة مفاعلة تصور القوم كأنما يتسابقون تسابقًا في الإثم والعدوان، وأكل الحرام. وهي صورة ترسم للتبشيع والتشنيع، ولكنها تصور حالة من حالات النفوس والجماعات حين يستشري فيها الفساد وتسقط القيم ويسيطر الشر.. وإن الإنسان لينظر إلى المجتمعات التي انتهت إلى مثل هذه الحال، فيرى كأنما كل من فيها يتسابقون إلى الشر، إلى الإثم والعدوان، قويهم وضعيفهم سواء، فالإثم والعدوان -في المجتمعات الهابطة الفاسدة- لا يقتصران على الأقوياء، بل يرتكبهما كذلك الضعفاء، فحتى هؤلاء ينساقون في تيار الإثم. وحتى هؤلاء يملكون الاعتداء، إنهم لا يملكون الاعتداء على الأقوياء طبعًا. ولكن يعتدي بعضهم على بعض، ويعتدون على حرمات الله؛ لأنها هي التي تكون في المجتمعات الفاسدة الحمى المستباح الذي لا حارس له من حاكم ولا محكوم، فالإثم والعدوان طابع المجتمع حين يفسد، والمسارعة فيهما عمل هذه المجتمعات! وكذلك كان مجتمع يهود في تلك الأيام،

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٣٧.

(٢) انظر: تفسير المراغي ٦/ ١٥٠.

(٣) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٤/ ٢١١.

وكذلك أكلهم للحرام، فأكل الحرام كذلك سمة يهود في كل آن!»[1].

وقوله تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾، تحضيض لعلمائهم على النهي عن ذلك، فإن (لولا) إذا دخل على الماضي أفاد التوبيخ وإذا دخل على المستقبل أفاد التحضيض، ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾، أبلغ من قوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، من حيث إن الصنع عمل الإنسان بعد تدرب فيه وترو وتحري إجادة، ولذلك ذم به خواصهم، ولأن ترك الحسبة أقبح من مواقعة المعصية؛ لأن النفس تلتذ بها وتميل إليها، وليس ترك الإنكار عليها كذلك، فكان جديرًا بأبلغ الذم[2].

٤ . الخيانة.

من الأخلاق الموجبة لذم الله تعالى لها: الخيانة.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾﴾ [النساء:١٠٧-١٠٨].

الخيانة: لغة تدل على الإخلاف والخيبة بنقص ما كان يرجى ويؤمل من الخائن، فقد قالوا: خانه سيفه، إذا نبا عن الضريبة، وخانته رجلاه، إذا لم يقدر على المشي[3].

وقوله: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾، لفظ عام يندرج تحته أصحاب النازلة، ويتقرر به توبيخهم[4]، أي: ولا تخاصم وتدافع عن هؤلاء الذين ﴿يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾، أي: يخونونها بشدة وإصرار، إن الله تعالى لا يحب ولا يرضى عمن كانت الخيانة وصفًا من أوصافه، وخلقًا من أخلاقه، وكذلك لا يحب ولا يرضى عمن كان الانهماك في الإثم والمعصية عادة من عاداته[5].

وجاء سبحانه بلفظ ﴿يَخْتَانُونَ﴾، بمعنى يخونون، لقصد وصفهم بالمبالغة في الخيانة؛ لأن مادة الافتعال تدل على التكلف والمحاولة، وجعلت خيانة هؤلاء لغيرهم خيانة لأنفسهم، لأن سوء عاقبة هذه الخيانة سيعود عليهم، ولأن المسلمين جميعًا كالجسد الواحد، فمن تظاهر بأنه منهم ثم خان أحدهم فكأنما خان نفسه، وأوردها موارد البوار والتهلكة باعتدائه على حقوق الجماعة الإسلامية، وزعزعة أمنها واستقرارها[6].

---

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٩٢٨.
(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ١٣٤.
(٣) انظر: تفسير المراغي ٩/ ١٩٢.
(٤) انظر: الجواهر الحسان، الثعالبي ٢/ ٢٩٨.
(٥) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٣/ ٢٩٩.
(٦) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٣/ ٢٩٩.

وهم خانوا غيرهم في الظاهر، ولكنهم في الحقيقة خانوا أنفسهم، فقد خانوا الجماعة ومنهجها، ومبادئها التي تميزها وتفردها، وخانوا الأمانة الملقاة على الجماعة كلها، وهم منها.. ثم هم يختانون أنفسهم في صورة أخرى، صورة تعريض أنفسهم للإثم الذي يجازون عليه شر الجزاء، حيث يكرههم الله، ويعاقبهم بما أثموا. وهي خيانة للنفس من غير شك.. وصورة ثالثة لخيانتهم لأنفسهم، هي تلويث هذه الأنفس وتدنيسها بالمؤامرة والكذب والخيانة[1].

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾، بصيغة المبالغة لإفادة أن الخيانة والإثم صارا وصفًا ملازمًا لهؤلاء الخائنين الآثمين، أي: أن صيغة المبالغة هنا ليست للتخصيص حتى لا يتوهم متوهم أن الله تعالى يحب من عنده أصل الخيانة والإثم[2].

قال سيد قطب عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ۝١٠٧﴾ [النساء:١٠٧].

«وهذه عقوبة أكبر من كل عقوبة.. وهي تلقي إلى جانبها إيحاء آخر. فالذين لا يحبهم الله لا يجوز أن يجادل عنهم أحد، ولا أن يحامي عنهم أحد. وقد كرههم الله للإثم والخيانة! ويعقب الوصف بالإثم والخيانة تصوير منفر لسلوك هؤلاء الخونة الآثمين: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ وهي صورة زرية داعية إلى الاحتقار والسخرية، زرية بما فيها من ضعف والتواء، وهم يبيتون ما يبيتون من الكيد والمؤامرة والخيانة ويستخفون بها عن الناس. والناس لا يملكون لهم نفعًا ولا ضرًا. بينما الذي يملك النفع والضر معهم وهم يبيتون ما يبيتون مطلع عليهم وهم يخفون نياتهم ويستخفون. وهم يزورون من القول ما لا يرضاه! فأي موقف يدعو إلى الزراية والاستهزاء أكثر من هذا الموقف؟»[3].

٥. الكذب.

من الأخلاق الموجبة لذم الله تعالى لها: الكذب.

قال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝١٤ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٥﴾ [المجادلة:١٤-١٥].

يذم الله تعالى هؤلاء المنافقين بجملة من

---

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٧٥٤.
(٢) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٣/ ٢٩٩.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٧٥٤.

الصفات القبيحة، التي على رأسها تعمدهم الكذب، وإصرارهم عليه، والكذب: هو الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه سواء فيه العمد والخطأ، والكذب: الخبر المخالف لما هو حاصل في نفس الأمر من غير نظر إلى كون الخبر موافقًا لاعتقاد المخبر أو هو على خلاف ما يعتقده، ولكنه إذا اجتمع في الخبر المخالفة للواقع والمخالفة لاعتقاد المخبر كان ذلك مذمومًا ومسبة، وإن كان معتقدًا وقوعه لشبهة أو سوء تأمل فهو مذموم، ولكنه لا يحقر المخبر به.

والأكثر في كلام العرب أن يعني بالكذب ما هو مذموم، والكذب خلاف الصدق، وهو جامع لكل الصفات الرديئة[1].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾، استفهام للتعجيب من حال هؤلاء المنافقين، حيث اتخذوا اليهود حلفاء لهم، ينقلون إليهم أسرار المؤمنين، والمراد إنكار الله على المنافقين توليهم القوم الذين غضب الله عليهم، وهم اليهود والكفار، وهذا الإنكار يدل على شدة منع ذلك التولي، والمراد بالقوم الذين غضب الله عليهم: اليهود، ووصفهم بذلك للتنفير منهم، ولبيان أن المنافقين قد بلغوا النهاية في القبح والسوء، حيث والوا وناصروا من غضب الله عليهم، لا من رضي الله عنهم[2].

وقوله تعالى: ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾، أي: فلا هم بالمؤمنين حقًا بل هم مؤمنون من طرف اللسان مداراة للمؤمنين وخوفًا من بطشهم، ولا هم مع اليهود، لأنهم لا يعتقدون أنهم على الدين الحق، ولكنهم يريدون أن ينتفعوا بما عندهم من عرض الدنيا، وأن يحتفظوا بمودتهم إذا احتاجوا إليها[3].

وقوله: ﴿وَلَا مِنْهُمْ﴾، احتراسًا وتتميمًا لحكاية حالهم، وعلى هذا الاحتمال يكون ذم المنافقين أشد؛ لأنه يدل على حماقتهم، إذ جعلوا لهم أولياء من ليسوا على دينهم، فهم لا يوثق بولايتهم وأضمروا بغض المسلمين فلم يصادفوا الدين الحق[4].

وقوله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، أي: أنهم ينقلون إلى اليهود أسرار المؤمنين، مع أنهم لا تربطهم باليهود أية رابطة، لا من دين ولا من نسب، وفضلًا عن كل ذلك، فإن هؤلاء المنافقين يواظبون ويستمرون على الحلف الكاذب المخالف للواقع، والحال أنهم يعلمون أنهم كاذبون

(١) انظر: المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٥٢٨، التعريفات، الجرجاني ص ١٨٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ١٠.

(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ٥٥٣، التفسير الوسيط، طنطاوي ١٤/ ٢٦٧.

(٣) انظر: تفسير المراغي ٢٨/ ٢٢.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٤٨.

علمًا لا يخالطه شك أو ريب[1].

وجملة: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ﴾، عطف على ﴿تَوَلَّوْا﴾، وجيء به مضارعًا للدلالة على تجدده ولاستحضار الحالة العجيبة في حين حلفهم على الكذب للتنصل مما فعلوه، والكذب الخبر المخالف للواقع، وهي الأخبار التي يخبرون بها عن أنفسهم في نفي ما يصدر منهم في جانب المسلمين[2].

وقوله تعالى: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، أي: أرصد الله لهم نكالًا وعذابًا أليمًا جزاء صنيعهم بغش المسلمين واطلاع أعدائهم على أسرارهم ونصحهم لهم[3].

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾ [يونس:١٧]، أي: لا أحد أشد ظلمًا عند الله، وأجدر بعقابه وغضبه، ممن افترى عليه الكذب، بأن نسب إليه سبحانه ما هو بريء منه، أو كذب بآياته وحججه التي أنزلها لتأييد رسله[4]، فأظلم الظالمين من يجرؤ على ركوب هذا المركب المهلك فيتقول على الله، ويفتري الأحاديث عليه.

وأظلم الظالمين من يرى آيات الله، ويستمع إليها، ثم يكذب بها، ويصم أذنيه عنها، ويغلق عقله وقلبه دونها[5].

والاستفهام إنكاري، والظلم: هنا بمعنى الاعتداء، وإنما كان أحد الأمرين أشد الظلم؛ لأنه اعتداء على الخالق بالكذب عليه وبتكذيب آياته[6].

وإنما كانوا أشد الظالمين ظلمًا؛ لأن الظلم الاعتداء على أحد بمنعه من حقه وأشد من المنع أن يمنعه مستحقه ويعطيه من لا يستحقه، وأن يلصق بأحد ما هو بريء منه، وتقييد الافتراء بالحال الموكدة في قوله كذبًا لزيادة تفظيع الافتراء؛ لأن اسم الكذب مشتهر القبح في عرف الناس، وإنما اختير الافتراء للدلالة على أنهم يتعمدون الاختلاق تعمدًا لا تخالطه شبهة. وتقييد تكذيبهم بالحق بقوله لما جاءه لإدماج ذم المكذبين بنكران نعمة إرسال الحق إليهم التي لم يقدروها قدرها، وكان شأن العقلاء أن يتطلبوا الحق ويرحلوا في طلبه، وهؤلاء جاءهم الحق بين أيديهم فكذبوا به، وأيضًا فإن (لما) التوقيتية تؤذن بأن تكذيبهم حصل بدارًا عند مجيء الحق، أي: دون أن يتركوا لأنفسهم مهلة النظر[7].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ

(١) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١٤/ ٢٦٨.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٤٨.
(٣) انظر: المصدر السابق.
(٤) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٧/ ٤٢.
(٥) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس ٦/ ٩٧٤.
(٦) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ١٢٤.
(٧) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٣٥.

﴿الْمُجْرِمُونَ﴾، تذييل قصد به التهديد والوعيد، أي: إن حال وشأن هؤلاء المجرمين، أنهم لا يفلحون، ولا يصلون إلى ما يبغون ويريدون[1].

٦. العناد.

من الأخلاق الموجبة لذم الله تعالى لها: العناد.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأعراف:١٣٢-١٣٣].

ذم الله تعالى قوم فرعون بسبب عنادهم وعتوهم، للحق وإصرارهم على الباطل، ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾، أي: إنك إن جئتنا بكل نوع من أنواع الآيات التي يستدل بها على أنك محق في دعوتك، لأجل أن تسحرنا بها وتصرفنا بها بدقة ولطف عما نحن فيه من ديننا ومن تسخيرنا لقومك في خدمتنا، فما نحن بمصدقين لك ولا بمتبعين رسالتك[2].

وجملة: ﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾، مفيدة المبالغة في القطع بانتفاء إيمانهم بموسى؛ لأنهم جاءوا في كلامهم بما حوته الجملة الاسمية التي حكته من الدلالة على ثبوت هذا الانتفاء ودوامه، وبما تفيده الباء من توكيد النفي، وما يفيده تقديم متعلق (مؤمنين) من اهتمامهم بموسى في تعليق الإيمان به المنفي باسمه، ومنطقهم هذا يدل على منتهى العناد والجحود، فهم قد صاروا في حالة نفسية لا يجدي معها دليل ولا ينفع فيها إقناع، لأنهم قد أعلنوا الإصرار على التكذيب حتى ولو أتاهم نبيهم بألف دليل ودليل، وهكذا شأن الجبارين الذين قست قلوبهم، ومسخت نفوسهم[3].

ثم أخبر تعالى ما حل بهؤلاء الفجرة من عقوبات جزاء عتوهم وعنادهم فقال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾، والفاء في قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾، لتفريع إصابتهم بهذه المصائب على عتوهم وعنادهم[4]، أي: فأرسلنا عليهم عقوبة على جرائمهم تلك المصايب والنكبات، وهي آيات بينات على صدق رسالة موسى، إذ قد توعدهم بوقوع كل واحدة منها على وجه التفصيل، لتكون دلالتها على صدقه واضحة لا تحتمل تأويلًا بأنها وقعت لأسباب لا ارتباط لها برسالته، فاستكبروا عن الإيمان بها لرسوخهم في

(١) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٧/ ٤٢.
(٢) انظر: تفسير المراغي ٩/ ٤٢.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٦٩، التفسير الوسيط، طنطاوي ٥/ ٣٥٨.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٦٩.

الإجرام والإصرار على الذنوب وإن كانوا يعتقدون صدق دعوته وصحة رسالته[1].

ثم بين صنوف العذاب، ومنها الطوفان: وهو ما طاف بهم وغشى أماكنهم وحروثهم من مطر أو سيل، فهو اسم جنس من الطواف.

وقيل: إنه في الأصل مصدر، وهو اسم لكل شيء حادث يحيط بالجهات ويعم؛ كالماء الكثير، والقتل الذريع، والموت الجارف، وقد اشتهر في طوفان الماء.

وقيل: الموت، وقيل: هو الطاعون.

ثم أرسل عليهم الجراد، وهو جند من جنود الله تعالى يسلطه على من يشاء من عباده، فأكل زرعهم وثمارهم وثيابهم وسقوف دورهم، ولم يدخل دور بني إسرائيل.

فضجوا إلى موسى وفزعوا لشدة ما حل بهم، وأعطوه العهود والمواثيق بأنه إذا كشف عنهم هذا الضر يؤمنون به ويرسلون معه بني إسرائيل، فدعا ربه فكشفه بعد أن دام سبعة أيام، وقبل أن يقضي على البقية الباقية من مواشيهم.

فلما كشف عنهم، قالوا: بقي لدينا ما يكفينا، ما نحن بتاركي ديننا من أجلك، ونكثوا عهودهم، فدعا عليهم فأرسل الله عذابًا سابعًا ذكره بقوله: ﴿وَالْقُمَّلَ﴾.

فملأ طعامهم وشرابهم وآلمهم بقرحة وأكل منهم شعور رؤسهم وأهدابهم وحواجبهم، ولم يصب بني إسرائيل شيء منه، فاشتد عليهم البلاء أكثر من ذي قبل، فعجوا إلى موسى واستغاثوا به ووثقوا إليه العهود وعظموا له الايمان بأنه إذا كشف عنهم هذه المرة يؤمنون ولا يعودون إلى الكفر ويرسلون معه بني إسرائيل، وذلك بعد أن دام عليهم سبعة أيام أيضًا، فرق لهم موسى ورحمهم ودعا ربه، فكشف عنهم، فلم يبق منه واحدة، فقالوا: ما كنا نوقن أنه ساحر مثل اليوم!

كيف ذهب ما كنا نراه بكلمة واحدة، ونكثوا عهدهم، ونقضوا أيمانهم، فدعا عليهم، فأرسل عذابًا ثامنًا بينه بقوله: ﴿وَالضَّفَادِعَ﴾.

وهكذا توالت الآيات حتى بلغت تسعًا، وكلما كشف عنهم عادوا إلى سابق عهدهم من الكفر والضلال، وسمى الله تعالى هذا العذاب الذي أرسله على بني إسرائيل آيات؛ لأنها دلائل على صدق موسى؛ لاقترانها بالتحدي، ولأنها دلائل على غضب الله عليهم لتظافرها عليهم حين صمموا على الكفر والعناد، و﴿مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ وصف لآيات.

فيكون مرادًا منه معنى الفصل المجازي وهو إزالة اللبس؛ لأن ذلك هو الأنسب بالآيات والدلائل، أي: هي آيات لا شبهة في كونها كذلك لمن نظر نظر اعتبار.

(١) انظر: تفسير المراغي ٩/ ٤٣.

وقيل: المراد أنها مفصول بعضها عن بعض في الزمان، أي: لم تحدث كلها في وقت واحد، بل حدث بعضها بعد بعض.

وعلى هذا فصيغة التفعيل للدلالة على تراخي المدة بين الواحدة والأخرى.

ويجيء على هذا أن العذاب كان أشد وأطول زمنًا، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الزخرف:٤٨].

وعلى هذا الوجه فالأنسب أن يجعل ﴿مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ حالًا ثانية من الطوفان والجراد، وأن لا يجعل صفة لآيات، ثم أخبر الله تعالى أن هذه الآيات لم تنفع فيهم وأنها لم تزدهم إلا كبرًا وعتوًا وبعدًا عن الحق.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾، للتفريع والترتيب، أي: فتفرع على إرسال الطوفان وما بعده استكبارهم، كما تفرع على أخذهم بالسنين غرورهم بأن ذلك من شؤم موسى ومن معه، فعلم أن من طبع تفكيرهم فساد الوضع، وهو انتزاع المدلولات من أضداد أدلتها، وذلك دليل على انغماسهم في الضلالة والخذلان، وبعدهم عن السعادة والتوفيق، فلا يزالون مورطين في وحل الشقاوة، فالاستكبار: شدة التكبر كما دلت عليه السين والتاء، أي: عد أنفسهم كبراء، أي: تعاظمهم عن التصديق بموسى وإبطال دينهم إذ أعرضوا عن التصديق بتلك الآيات المفصلات.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف:١٣٣]، معطوفة على جملة ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾، فالمعنى: فاستكبروا عن الاعتراف بدلالة تلك الآيات وأجرموا، وإنما صيغ الخبر عن إجرامهم بصيغة الجملة الاسمية للدلالة على ثبات وصف الإجرام فيهم، وتمكنه منهم، ورسوخه فيهم من قبل حدوث الاستكبار، وفي ذلك تنبيه على أن وصف الإجرام الراسخ فيهم هو علة للاستكبار الصادر منهم، فـ (كان) دالة على استمرار الخبر وهو وصف الإجرام.

وهذه الآيات التي أرسلها الله تعالى على فرعون وقومه كانت متعلقة بالزرع وآفاته، وهم أهل زرع وضرع من أقدم العصور[(١)].

ومن صفات الذم عنادهم وتكبرهم عن اتباع الحق والرضى بالكفر، كقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾ [النساء:٤٦].

قال القرطبي: «وذمهم الله تعالى بذلك لأنهم يفعلونه متعمدين»[(٢)].

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٢٥٢، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٦٩.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ٥/ ٢٤٣.

٧. الغرور.

من الأخلاق الموجبة لذم الله تعالى لها: الغرور.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [آل عمران: ٢٣-٢٤].

يخبر تعالى عن حال أهل الكتاب الذين أنعم الله عليهم بكتابه، فكان يجب أن يكونوا أقوم الناس به وأسرعهم انقيادًا لأحكامه، فأخبر الله عنهم أنهم إذا دعوا إلى حكم الكتاب تولى فريق منهم وهم يعرضون، تولوا بأبدانهم، وأعرضوا بقلوبهم، وهذا غاية الذم، وفي ضمنها التحذير لنا أن نفعل كفعلهم، فيصيبنا من الذم والعقاب ما أصابهم، بل الواجب على كل أحد إذا دعي إلى كتاب الله أن يسمع ويطيع وينقاد[(١)].

ثم ذكر السبب الذي غر أهل الكتاب بتجرئهم على معاصي الله، وهو قولهم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾، افتروا هذا القول فظنوه حقيقة، فعملوا على ذلك ولم ينزجروا عن المحارم، لأن أنفسهم منتهم وغرتهم أن مآلهم إلى الجنة، وكذبوا في ذلك، فإن هذا مجرد كذب وافتراء، وإنما مآلهم شر مآل، وعاقبتهم عاقبة وخيمة[(٢)].

والغرور: هو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى، ويميل إليه الطبع، والغرور: هو كل ما يغر الإنسان ويخدعه من مال أو جاه أو شهوة أو غير ذلك من الأشياء التي تغر الإنسان وتخدعه وتجعله غافلًا عن اتباع الحق[(٣)].

وذم الله تعالى الغرور في الدين والجنس.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾﴾ [النساء: ٤٩-٥٠].

ويذم الله تعالى الغرور، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾، أي: انظر واعجب من الذين يدعون أنهم أزكياء بررة عند الله، مع ما هم عليه من الكفر وعظيم الذنب، زعمًا منهم أن الله يكفر لهم ذنوبهم التي عملوها، والله لا يغفر لكافر شيئًا من كفره ومعاصيه[(٤)].

وقد رد الله عليهم دعواهم الزكاة والطهارة فقال: ﴿بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾، أي: لا عبرة بتزكيتكم أنفسكم بأن تقولوا:

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٢٦.

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ١٦١.

(٤) انظر: تفسير المراغي ٥/ ٥٩.

نحن أبناء الله وأحباؤه، وبأنكم لا تعذبون في النار، لأنكم شعب الله المختار، وتتفاخروا بنسبكم وبدينكم، بل الله يزكى من يشاء من عباده، من أي شعب كان، ومن أي قبيلة كانت، فيهديهم إلى صحيح العقائد، وفاضل الآداب، وصالح الأعمال.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾، أي: ولا ينقص الله هؤلاء الذين يزكون أنفسهم شيئًا من الجزاء على أعمالهم[1].

وقوله تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾، أي: انظر كيف يكذبون على الله بتزكية أنفسهم وزعمهم أن الله يعاملهم معاملة خاصة بهم، لا كما يعامل سائر عباده.

وقوله تعالى: ﴿وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾، أي: إن تزكية النفس، والغرور بالدين والجنس، مما يبطئ عن نافع العمل الذي يثاب عليه الناس، وكفى بهذا إثمًا ظاهرًا، لأنه لا أثر له من حق، ولا سمة عليه من صواب، فالله لا يعامل شعبًا معاملة خاصة تغاير سننه التي وضعها في الخليقة، وما مصدر هذه الدعوى إلا الغرور والجهل، وكفى بذلك شرًا مستطيرًا[2].

٨. الاستكبار.

من الأخلاق الموجبة لذم الله تعالى لها: الاستكبار.

قال تعالى: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ۝٧٢﴾ [الزمر:٧٢].

ذم الله تعالى المتكبرين بسوء العاقبة، والاستكبار: طلب العبد كبر الشأن بتصغير غيره، وهي صفة ذم[3].

وقوله: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾، أي: كل من رآهم وعلم حالهم يشهد عليهم بأنهم مستحقون للعذاب؛ ولهذا لم يسند هذا القول إلى قائل معين، بل أطلقه ليدل على أن الكون شاهد عليهم بأنهم مستحقون ما هم فيه بما حكم العدل الخبير عليهم به، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾، أي: ماكثين فيها لا خروج لكم منها، ولا زوال لكم عنها، ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾، أي: فبئس المصير وبئس المقيل لكم، بسبب تكبركم في الدنيا، وإبائكم عن اتباع الحق، فهو الذي صيركم إلى ما أنتم فيه، فبئس الحال وبئس المآل[4].

وقال سبحانه: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾، ولم يقل: فبئس مدخل المتكبرين، للإشارة إلى خلودهم في جهنم، إذ الثواء معناه: الإقامة الدائمة، مأخوذ من ثوى فلان بالمكان إذا أقام به إقامة دائمة[5].

وجاء ذم التكبر في آيات أخر، قال تعالى:

---

(١) انظر: تفسير المراغي ٥/ ٦٠.
(٢) انظر: المصدر السابق ٥/ ٦١.
(٣) انظر: تفسير ابن فورك ٢/ ٢١٨.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١١٩.
(٥) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١٢/ ٣١٢.

﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [النحل:٢٩].

وقال جل وعلا: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الزمر:٦٠].

وأخبر سبحانه: أن أهل الكبر والتجبر هم الذين طبع الله على قلوبهم، فقال جل في علاه: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ [غافر:٣٥][(١)].

ثالثًا: الصفات الخلقية المذمومة في القرآن:

من أسباب الذم عند الناس في القرآن الكريم الصفات الخلقية.

قال تعالى: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الزخرف:٥٢-٥٣].

يقول تعالى مخبرًا عن فرعون وتمرده وعتوه وكفره وعناده: أنه جمع قومه، فنادى فيهم متبجحًا مفتخرًا بملك مصر وتصرفه فيها: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾، وأم هنا للإضراب على تلك المشاعر التي يراها فرعون تتحرك في صدور قومه، من استخفاف به، وإكبار لموسى.

فهو يقول لهم: لا تظنوا هذه الظنون بموسى، ولا تجعلوه معي على كفة ميزان، إنه ليس مثلي، ولا خيرا مني، بل أنا خير من هذا الذي هو مهين، لا ملك معه، ولا سلطان له، ولا منطق مستقيم على لسانه[(٢)].

والمعنى: بل أنا ولا شك خير -بما لي من السعة في المال والجاه والملك العريض- من هذا المهين الحقير الذي لا يكاد يفصح عما يريد، إذ كان في لسانه حبسة في صغره فعابه بها، وهو لا يعلم أن الله استجاب سؤله حين قال: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾﴾ [طه:٢٧-٢٨].

فحل عقدة لسانه كما جاء في قوله: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [طه:٣٦][(٣)].

ومقصوده: تصغير شأن موسى في نفوسهم بأشياء هي عوارض ليست مؤثرة، انتقل من تعظيم شأن نفسه إلى إظهار البون بينه وبين موسى الذي جاء يحقر دينه وعبادة قومه إياه، والمهين: الذليل الضعيف، أراد أنه غريب ليس من أهل بيوت الشرف في مصر وليس له أهل يعتز بهم، ولعل فرعون قال ذلك لما يعلم من حال موسى قبل أن

(١) انظر: مدارج السالكين، ابن القيم ٢/ ٣١٦.

(٢) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس ١٣/ ١٤٤.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٣١، تفسير المراغي ٢٥/ ٩٩.

يرسله الله حين كان في بيت فرعون، فذكر ذلك من حاله ليذكر الناس بأمر قديم[1].

قال ابن كثير: «وهذا الذي قاله فرعون لعنه الله كذب واختلاق، وإنما حمله على هذا الكفر والعناد، وهو ينظر إلى موسى، عليه السلام، بعين كافرة شقية، وقد كان موسى عليه السلام، من الجلالة والعظمة والبهاء في صورة تبهر أبصار ذوي الأبصار والألباب، وقوله: ﴿مَهِينٌ﴾، كذب، بل هو المهين الحقير خلقة وخلقًا ودينًا، وموسى عليه السلام هو الشريف الرئيس الصادق البار»[2].

رابعًا: سوء العاقبة:

من أسباب الذم في القرآن الكريم: سوء العاقبة.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٧٣﴾ [التوبة:٧٣].

وقال سبحانه: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ٢٨ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ٢٩﴾ [إبراهيم:٢٨-٢٩].

ذم الله تعالى الكفار والمنافقين بسوء العاقبة، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: ابذل أيها النبي جهدك في مقاومة هاتين الطائفتين اللتين تعيشان بين ظهرانيك بمثل ما يبذلان من جهد في عداوتك، وعاملهما بالغلظة والشدة التي توافق سوء حالهما[3].

وقرن المنافقون هنا بالكفار: تنبيهًا على أن سبب الأمر بجهاد الكفار قد تحقق في المنافقين، فجهادهم كجهاد الكفار، وإلقاء الرعب في قلوبهم، فإن كل واحد منهم يخشى أن يظهر أمره فيعامل معاملة الكفار المحاربين فيكون ذلك خاضدًا شوكتهم[4].

وقوله تعالى: ﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡ﴾، من الغلظة التي هي نقيض الرقة والرأفة، يقال: أغلظ فلان في الأمر إذا اشتد فيه ولم يترفق[5].

وإنما وجه هذا الأمر إلى الرسول عليه الصلاة والسلام لأنه جبل على الرحمة، فأمر بأن يتخلى عن جبلته في حق الكفار والمنافقين وأن لا يغضي عنهم كما كان شأنه من قبل[6].

وقوله تعالى: ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾، تذييل قصد به بيان سوء مصيرهم في الآخرة بعد بيان ما يجب على المؤمنين نحوهم في الدنيا، أي: عليك -أيها النبي- أن تجاهدهم وأن تغلظ عليهم في الدنيا، أما

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ٢٣٠.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٣١.
(٣) انظر: تفسير المراغي ١٠/ ١٦٣.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٢٦٥.
(٥) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٦/ ٣٥١.
(٦) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٢٦٧.

في الآخرة فإن جهنم هي دارهم وقرارهم، والمخصوص بالذم محذوف، والتقدير: وبئس المصير مصيرهم، فانه لا مصير أسوأ من الخلود في جهنم.

ومن هذه الآية الكريمة نرى أن على المؤمنين -في كل زمان ومكان- أن يجاهدوا أعداءهم من الكفار والمنافقين بالسلاح الذي يرونه كفيلًا بأن يجعل كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى[(١)].

وقوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾، الخطاب فيه للنبي صلى الله عليه وسلم أو لكل من يصلح للخطاب، والاستفهام للتعجيب من أحوالهم الذميمة، و(بدلوا) من التبديل بمعنى التغيير والتحويل، والمراد به: وضع الشيء في غير وضعه ومقابلة نعم الله بالجحود وعدم الشكر، ونعمة الله التي بدلوها، تشمل كفرهم بالرسول صلى الله عليه وسلم الذي أرسله الله تعالى لإخراجهم من الظلمات إلى النور، كما تشمل إكرام الله لهم -أي: أهل مكة- بأن جعلهم في حرم آمن، وجعلهم سدنة بيته، ولكنهم لم يشكروا الله على هذه النعم، بل أشركوا معه في العبادة آلهة أخرى.

ثم بين رذيلة أخرى من رذائلهم، فقال: ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾، والمراد بقومهم: أتباعهم وشركاؤهم في الكفر والعناد حتى ماتوا على ذلك، والبوار: الهلاك والخسران، ويطلق أيضًا على الكساد، يقال: بار المتاع بوارًا، إذا كسد، إذ الكاسد في حكم الهالك[(٢)].

﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾، أي: جهنم يصلون حرها وسعيرها، ﴿وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ قرارهم فيها، والمخصوص بالذم محذوف، أي: بئس القرار هي، أي: جهنم. وفيه إشارة إلى أن حلولهم فيها كائن على وجه الدوام والاستمرار[(٣)].

(١) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٦/ ٣٥٢.

(٢) انظر: المصدر السابق ٧/ ٥٥٥.

(٣) انظر: المصدر السابق ٧/ ٥٥٦.

نماذج مذمومة في القرآن الكريم

لقد ذم القرآن الكريم الذين خالفوا ما شرعه الله من أمور دينهم ودنياهم سواءً كانوا أفردًا أو أممًا أو ملَأً، وبيان ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: أفراد ذمها الله تعالى:

ذم القرآن الكريم أفرادًا؛ كالشيطان والنمرود وفرعون وهامان وقارون ويأجوج ومأجوج وامرأة لوط وامرأة نوح، وبيان ذلك كما يأتي:

١ . الشيطان.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢١﴾ [النور: ٢١].

ذم القرآن الكريم الشيطان في مواضع كثيرة، وورد لفظ (الشيطان) في (ثمانٍ وستين) آيةً[١].

وحذرت الآية المؤمنين من الشيطان وخطر اتباعه، وأن يستجيبوا له فيما يدعوهم إليه، فإن دعوته لا تكون إلا إلى شر.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، بدء الخطاب بالنداء المؤكد للمؤمنين بـ (أيها) لتنبيه المخاطبين على أنما بعده أمر خطير، يستدعي مزيد العناية والاهتمام بشأنه، ووصفهم بالإيمان لتنشيطهم والإيذان بأنه داع للمحافظة عليه، ووازع عن الإخلال به[٢].

وإنها لصورة مستنكرة أن يخطو الشيطان فيتبع المؤمنون خطاه، وهم أجدر الناس أن ينفروا من الشيطان وأن يسلكوا طريقًا غير طريقة المشئوم! صورة مستنكرة ينفر منها طبع المؤمن، ويرتجف لها وجدانه، ويقشعر لها خياله! ورسم هذه الصورة ومواجهة المؤمنين بها يثير في نفوسهم اليقظة والحذر والحساسية[٣].

وقوله تعالى: ﴿لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾، أي: لا تسلكوا مسالكه في كل ما تأتون وتذرون من الأفاعيل، والتي من جملتها: منع الإحسان إلى من أساء إليكم غضبًا وحميةً، وخطوات جمع خطوة، وهي ما بين القدمين في المشي، فكأن المعنى: لا تمشوا في سبله وطرقه من الأفعال الخبيثة، فشبه حال فاعلها في كونه متلبسًا بوسوسة الشيطان، بهيئة الشيطان يمشي، والعامل بأمره يتبع خطى ذلك الشيطان.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾، تمثيلٌ مبني على تشبيه حالة محسوسة بحالة معقولة، إذ لا

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد ١/ ٤٦٩.

(٢) انظر: روائع البيان تفسير آيات الأحكام، الصابوني ٢/ ٤٧٨.

(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٥٠٤.

يعرف السامعون للشيطان خطوات حتى ينهوا على اتباعها[1].

والشيطان النون فيه أصلية، وهو من: شطن أي: تباعد، وقيل: بل النون فيه زائدة، من: شاط يشيط: احترق غضبًا، فالشيطان مخلوق من النار، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ۝١٥﴾ [الرحمن:١٥].

ولكونه من ذلك اختص بفرط القوة الغضبية والحمية الذميمة، وامتنع من السجود لآدم، وقيل: الشيطان اسم لكل عارم من الجن والإنس والحيوانات[2].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾، وضع الظاهر موضع المضمر، حيث لم يقل: ومن يتبعها، أو: ومن يتبع خطواته؛ لزيادة التقرير والمبالغة في الذم والتنفير من خطوات الشيطان وأساليبه، وهذا من أبلغ الذم[3].

﴿فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾، والفحشاء: ما أفرط قبحه، والمنكر: ما تنكره النفوس فتنفر عنه ولا ترتضيه[4].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾، أي: لولا فضله بأن هداكم إلى الخير ورحمته بالمغفرة عند التوبة ما كان أحد من الناس زاكيًا؛ لأن فتنة الشيطان فتنة عظيمة لا يكاد يسلم منها الناس لولا إرشاد الدين، قال تعالى حكاية عن الشيطان، ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢﴾ [ص:٨٢][5].

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾، ممن سبقت له السعادة وكان عمله الصالح أمارة على سبق السعادة له، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾، لجميع أقوالهم وكلامهم من قذف وغيره، ﴿عَلِيمٌ﴾، بحق ذلك من باطله، لا يجوز عليه في ذلك وهم ولا غلط[6].

٢. النمرود.

ذم القرآن الكريم النمرود بن كنعان الذي غره ملكه وسلطانه.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝٢٥٨﴾ [البقرة:٢٥٨].

بينت الآية الصفات الذميمة التي حملت هذا الذي جادل إبراهيم عليه السلام في ربه، وجرأته على الإقدام على هذا الغلط العظيم

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ١٧٢، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ١٨٦.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٥٤.
(٣) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ٤/ ٢٢.
(٤) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ٢٢١.
(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ١٨٧.
(٦) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ١٧٢.

في الجدال والذي سهله له كبره وإعجابه بنفسه، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾، ألف ﴿أَلَمْ﴾، استفهام، وفيها معنى التعجب والتنبيه على ما يتعجب منه[(١)].

و﴿إِلَى﴾، جاءت هنا لتدل على أنه أمر بلغ من العجب غاية بعيدة، وهو بالفعل قد بلغ من العجب غاية بعيدة، والحق سبحانه وتعالى لم يقل لنا من هو ذلك الإنسان الذي حاج إبراهيم في ربه، لأنه لا يعنينا التشخيص سواءً كان النمروذ أو غيره[(٢)].

وذمه بأن سبب هذا الجدال: ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾، أي: أبطره إيتاء الملك وحمله على المحاجة وأورثه الكبر، فحاج لذلك، أو حاجه لأجله، وضعًا للمحاجة التي هي أقبح وجوه الكفر موضع ما يجب عليه الشكر، وهي من الصفات الذميمة[(٣)].

فقال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾، وهذه هي براعة القرآن في أن يترك الشيء ثقة بأن السامع يرد كل شيء إلى أصله، فقوله الحق: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾، فكأن الذي حاج إبراهيم سأله: من ربك؟ فقال إبراهيم: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾[(٤)].

وعبر بالمضارع في قوله: ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾، لإفادة معنى التجدد والحدوث الذي يرى ويحس بين وقت وآخر، أي: ربي هو الذي يحيي الناس ويميتهم، كما ترى ذلك مشاهدًا في كثير من الأوقات، فمن الواجب عليك أن تخصه بالعبادة والخضوع وأن تقلع عما أنت فيه من كفر وطغيان وضلال[(٥)].

ثم ذكر جواب النمرود، ﴿قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾، أي: أنا أحيي من حكم عليه بالإعدام بالعفو عنه، وأميت من شئت إماتته بالأمر بقتله، وهذا الإنكار من ذلك الملك الجبار يدل على أنه لم يفهم قول إبراهيم عليه السلام، فإن الحياة في جوابه بمعنى إنشاء الحياة في جميع العوالم الحية من نبات وحيوان وغيرها، وإزالة الحياة بالموت، وفي جواب نمروذ بمعنى أنه يكون سببًا في الإحياء والإماتة، من أجل هذا أوضح إبراهيم جوابه كما حكى سبحانه عنه[(٦)].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾، أعرض إبراهيم عليه السلام عن الاعتراض على معارضته الفاسدة إلى الاحتجاج

(١) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ١/ ٨٥٦.
(٢) انظر: تفسير الشعراوي ٢/ ١١٢٣.
(٣) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ١٥٥، محاسن التأويل، القاسمي ٢/ ١٩٦.
(٤) انظر: تفسير الشعراوي ٢/ ١١٢٦.
(٥) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١/ ٥٩٣.
(٦) انظر: تفسير المراغي ٣/ ٢١.

بما لا يقدر فيه على نحو هذا التمويه دفعًا للمشاغبة، وهو في الحقيقة عدول عن مثال خفي إلى مثال جلي من مقدوراته التي يعجز عن الإتيان بها غيره، لا عن حجة إلى أخرى، ولعل نمروذ زعم أنه يقدر أن يفعل كل جنس يفعله الله فنقضه إبراهيم بذلك، وإنما حمله عليه بطر الملك وحماقته، أو اعتقاد الحلول.

وقيل: لما كسر إبراهيم عليه السلام الأصنام سجنه أيامًا ثم أخرجه ليحرقه، فقال له: من ربك الذي تدعو إليه؟ وحاجه فيه، ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾، فصار مبهوتًا، وقرئ ﴿فَبَهَتَ﴾، أي: فغلب إبراهيم عليه السلام الكافر، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، الذين ظلموا أنفسهم بالامتناع عن قبول الهداية.

وقيل: لا يهديهم محجة الاحتجاج أو سبيل النجاة، أو طريق الجنة يوم القيامة[1].

٣. فرعون.

ذم القرآن الكريم فرعون عن إضلاله قومه عن دين الهدى.

قال تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾ [طه:٧٩].

بينت الآية الصفات الذميمة لفرعون، وأنه كان سببًا في ضلال قومه، ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ﴾، والإضلال: الإيقاع في الضلال، وهو خطأ الطريق الموصل، ويستعمل بكثرة في معنى الجهالة وعمل ما فيه ضر، وهو المراد هنا، والمعنى: أن فرعون أوقع قومه في الجهالة وسوء العاقبة بما بث فيهم من قلب الحقائق والجهل المركب، فلم يصادفوا السداد في أعمالهم حتى كانت خاتمتها وقوعهم غرقى في البحر بعناده في تكذيب دعوة موسى عليه السلام[2].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾، أي: ما أرشدهم قط إلى طريق موصلٍ إلى مطلب من المطالب الدينية والدنيوية تقريرٌ لإضلاله وتأكيدٌ له إذ رب مضلٍ قد يرشد من يضله إلى بعض مطالبه، وفيه نوع تهكم به، وتكذيب له في قوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر:٢٩].

فإن نفي الهداية عن شخص مشعرٌ بكونه ممن يتصور منه الهداية في الجملة، وذلك إنما يتصور في حقه بطريق التهكم، وحمل الإضلال والهداية على ما يختص بالديني منهما يأباه مقام بيان سوقه بجنوده إلى مساق الهلاك الدنيوي، وجعلهما عبارةً عن الإضلال في البحر والإنجاء منه مما لا يقبله العقل السليم[3].

وذم الله تعالى فرعون بسوء العاقبة.

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ١٥٥.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٦/ ٢٧٢.

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٣٢.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾ [هود:٩٦-٩٩].

٤ . هامان.

قال تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾﴾ [القصص:٨].

ذمت الآية هامان في الاقتران الجماعي، حيث اقترن ذكره مع شخصيات مذمومة، وخص تعالى هامان بالذكر تنبيهًا على مكانه من الكفر، ولكونه أشهر رجال فرعون، وكان وزيره المدبر لمكائده، المعين له على ظلمه وبطشه[1].

وقوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾، تعليل لالتقاطهم موسى عليه السلام بما هو عاقبته ومؤداه تشبيهًا له بالغرض الحامل عليه، ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾، في كل شيء، فليس ببدع منهم أن قتلوا ألوفًا لأجله، ثم أخذوه يربونه ليكبر ويفعل بهم ما كانوا يحذرون، أو مذنبين فعاقبهم الله تعالى بأن ربى عدوهم على أيديهم، فالجملة اعتراض لتأكيد خطئهم أو لبيان الموجب لما ابتلوا به[2].

وجاء ذم هامان مقترنًا بشخصيات مذمومة في قوله تعالى: ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [العنكبوت:٣٩]، وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾ [غافر:٢٣-٢٤].

في الآيات ذم لهامان باقترانه بشخصيات مذمومة، وبسوء عاقبته، وتكبره.

وقوله: ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ﴾، أي: وأهلكنا أيضًا قارون صاحب الأموال الطائلة والكنوز الكثيرة، وفرعون ملك الملوك في عصره ومصره ووزيره هامان، ولقد جاءهم موسى بآيات بينات تدل على صدق رسالته، فاستكبروا في الأرض وأبوا أن يصدقوه وأن يؤمنوا به، وما كانوا فائتين الله ولا هاربين من عقابه، بل هو قادر عليهم وآخذهم أخذ عزيز مقتدر[3].

وقوله تعالى: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا فِي

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٥٥٤.
(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ١٧٢.
(٣) انظر: تفسير المراغي ٢٠/ ١٤٠.

﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾، ذم لهم لأنهم كفروا عن عناد وكبرياء لا عن جهل وغلواء، والاستكبار: شدة الكبر، واستكبر: يعني افتعل الكبر، فلم يقل: تكبر، إنما استكبر كأنه في ذاته ما كان ينبغي له أن يستكبر؛ لأن الذي يتكبر بشيء ذاتي فيه، إنما بشيء موهوب؟ لأنه قد يسلب منه فكيف يتكبر به؟[1].

وتعليق قوله: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، بـ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾، للإشعار بأن استكبار كل منهم كان في جميع البلاد التي هو منها، فيومئ ذلك أن كل واحد من هؤلاء كان سيدًا مطاعًا في الأرض فالتعريف في الأرض للعهد، فيصح أن يكون المعهود هو أرض كل منهم، أو أن يكون المعهود الكرة الأرضية، مبالغة في انتشار استكبار كل منهم في البلاد حتى كأنه يعم الدنيا كلها، ومعنى السبق في قوله: ﴿وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ﴾، الانفلات من تصريف الحكم فيهم[2].

٥. قارون.

ذم القرآن الكريم قارون، بطغيان المال والتكبر، والتمرد على أمر الله.

قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦﴾ [القصص: ٧٦].

بينت الآية الصفات الذميمة لقارون وسوء عاقبته، وقوله: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ﴾، أي: من بني إسرائيل، وكان ابن عم موسى عليه السلام، وكان ممن آمن به، ﴿فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾، أي: تجاوز الحد في احتقارهم، والقرابة كثيرًا ما تدعو إلى البغي[3].

والبغي: الاعتداء، والاعتداء على الأمة الاستخفاف بحقوقها، وأول ذلك خرق شريعتها[4].

ولم يذكر فيم كان البغي، ليدعه مجهلًا يشمل شتى الصور، فربما بغى عليهم بظلمهم وغصبهم أرضهم وأشياءهم -كما يصنع طغاة المال في كثير من الأحيان- وربما بغى عليهم بحرمانهم حقهم في ذلك المال، حق الفقراء في أموال الأغنياء، فتفسد القلوب، وتفسد الحياة، وربما بغى عليهم بهذه وبغيرها من الأسباب[5].

وذكر سبب هذا البغي وهو الثراء، ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ﴾، من الأموال المدخرة، ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ﴾، مفاتيح صناديقه، جمع مفتح بالكسر، وهو ما يفتح به.

وقيل: خزائنه، وقياس واحدها المفتاح. ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾، خبر إن

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ٢٥٠، تفسير الشعراوي ١٨/ ١١١٦٤.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ٢٥٠.
(٣) انظر: تفسير المراغي ٢٠/ ٩٣.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ١٧٦.
(٥) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٧١١.

والجملة صلة ما وهو ثاني مفعولي آتى، وناء به الحمل إذا أثقله حتى أماله، والعصبة والعصابة الجماعة الكثيرة، ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ﴾، لا تبطر، والفرح بالدنيا مذموم مطلقًا؛ لأنه نتيجة حبها والرضا بها والذهول عن ذهابها، فإن العلم بأن ما فيها من اللذة مفارقه لا محالة يوجب الترح[1].

﴿لَا تَفْرَحْ﴾، فرح الزهو المنبعث من الاعتزاز بالمال، والاحتفال بالثراء، والتعلق بالكنوز، والابتهاج بالملك والاستحواذ، لا تفرح فرح البطر الذي ينسي المنعم بالمال وينسي نعمته، وما يجب لها من الحمد والشكران، لا تفرح فرح الذي يستخفه المال، فيشغل به قلبه، ويطير له لبه، ويتطاول به على العباد.

وعلل النهي ها هنا بكونه مانعًا من محبة الله تعالى فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾، أي: بزخارف الدنيا، ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾، بصرفه فيما يوجبها لك فإن المقصود منه أن يكون وصلة إليها، ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾، وهو أن تحصل بها آخرتك وتأخذ منها ما يكفيك، وفي هذا يتمثل اعتدال المنهج الإلهي القويم، المنهج الذي يعلق قلب واجد المال بالآخرة، ولا يحرمه أن يأخذ بقسط من المتاع في هذه الحياة، بل يحضه على هذا ويكلفه إياه تكليفًا، كي لا يتزهد الزهد الذي يهمل الحياة ويضعفها[2].

﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾، فيما أنعم الله عليك، وقيل: أحسن بالشكر والطاعة كما أحسن إليك بالإنعام، ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، بأمر يكون علة للظلم والبغي، نهي له عما كان عليه من الظلم والبغي، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ لسوء أفعالهم.

٦ . امرأة لوط.

ذم القرآن الكريم امرأة لوط عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الصافات: ١٣٣-١٣٥].

بينت الآية الصفات الذميمة لامرأة لوط عليه السلام بسوء عاقبتها القبيحة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، أي: وإن لوطًا عليه السلام ﴿لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، الذين أرسلناهم لهداية الناس، وقد أرسل الله تعالى لوطًا إلى قرية سدوم -من قرى الشام- وكان أهلها يعبدون الأصنام ويرتكبون الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين[3].

وقوله تعالى: ﴿إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾، الظرف «إذ» هو قيد لنجاة لوط

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ١٨٥.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٧١١.

(٣) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١٢/ ١١٠.

وأهله بسبب أنه كان من المرسلين، الذين اختارهم الله لحمل رسالته إلى عباده[1].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾، إشارة إلى امرأة لوط، التي كانت من الضالين، الذين لم يستجيبوا لدعوته، وكانت تفشي أسرار زوجها، فأهلكها الله فيمن أهلك من قوم لوط، وقد ضربها الله سبحانه وتعالى مثلًا لنبتة السوء تنبت في الأرض الطيبة.

فقال تعالى فيها وفي امرأة نوح: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [التحريم: ١٠].

فبين أنها خائنة، وأنها من أهل النار، وأنها واقعة فيما أصاب قومها من الهلاك[2].

٧. امرأة نوح.

ذم القرآن الكريم امرأة نوح عليه السلام. قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [التحريم: ١٠].

بينت الآية الصفات الذميمة لامرأة نوح عليه السلام، فبين أنها خائنة، وأنها من أهل النار، وأنها واقعة فيما أصاب قومها من الهلاك، واقترانها بشخصية مذمومة مثلها، وسوء عاقبتها.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ﴾، وضربها مثلًا لبيان قبحها، وضرب المثل في مثل هذا الموقع عبارة عن إيراد حالة غريبة لتعرف بها حالة أخرى مشاكلة لها في الغرابة، أي: جعل الله تعالى مثلًا لحال الكفرة حالًا ومآلًا[3].

ومن لطائف التقييد بقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أن المقصد الأصلي هو ضرب المثل للذين كفروا، وذلك من الاحتراس من أن يحمل التمثيل على المشابهة من جميع الوجوه والاحتراس بكثرة التشبيهات، ومنه تجريد الاستعارة، ومناسبة ضرب المثل بامرأة نوح وامرأة لوط تعريض لطيف بالتحذير من خطر الاعتزاز بغناء الصلة الشريفة عنهما في الوفاء بحق ما يجب من الإخلاص للنبي صلى الله عليه وسلم ليكون الشبه في التمثيل أقوى[4].

وقوله تعالى: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ﴾، وهما نوح ولوط عليهما السلام، ووصفهما بالصلاح، مع أنهما نبيان

(١) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس ١٢/ ١٠٢٦.
(٢) انظر: المصدر السابق، أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٣٥.
(٣) انظر: روح المعاني، الألوسي ١٤/ ٣٥٦.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٣٧٤.

والنبوة أعظم هبة من الله لعبد من عباده تنويهًا بوصف الصلاح، وإيماء إلى أن النبوة صلاح ليعظم بذلك شأن الصالحين، ولتكون الموعظة سارية إلى نساء المسلمين في معاملتهن أزواجهن، فإن وصف النبوءة قد انتهى بالنسبة للأمة الإسلامية، مع ما في ذلك من تهويل الأذى لعباد الله الصالحين وعناية ربهم بهم ومدافعته عنهم[1].

وقوله تعالى: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾، أي: في الإيمان، لم يوافقاهما على الإيمان، ولا صدقاهما في الرسالة، وليس المراد بقوله: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾، في فاحشة، بل في الدين، فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع في الفاحشة، والخيانة والخون ضد الأمانة وضد الوفاء، وذلك تفريط المرء ما اؤتمن عليه وما عهد به، ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾، وتنكير ﴿شَيْئًا﴾ للتحقير، أي: أقل غنى وأجحفه بله الغنى المهم، وزيادة مع الداخلين لإفادة مساواتهما في العذاب لغيرهما من الكفرة الخونة[2].

﴿وَقِيلَ﴾، لهما عند موتهما أو يوم القيامة، وعبر بالماضي لتحقق الوقوع، ﴿ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾، أي: مع سائر الداخلين من الكفرة الذين لا وصلة بينهم وبين الأنبياء عليهم السلام[3].

(١) انظر: المصدر السابق ٢٨/ ٣٧٥.
(٢) انظر: المصدر السابق ٢٨/ ٣٧٦.
(٣) انظر: روح المعاني، الألوسي ١٤/ ٣٥٧.

ثانيًا: الأمم المذمومة في القرآن الكريم:

ذم القرآن الكريم أممًا كعاد وثمود وقوم فرعون وقوم نوح وقوم لوط، وبيان ذلك كما يأتي:

١ . عاد.

ذم القرآن الكريم قوم عاد.

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝٥٩ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ۝٦٠﴾ [هود:٥٩-٦٠].

بينت الآية الصفات الذميمة لقوم عاد عليه السلام، فبينت أنهم جحدوا آيات ربهم، وعصوا رسله، واتبعوا أمر رؤسائهم الطغاة، ﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾، أي: وتلك هي قصة قبيلة عاد مع نبيها هود عليه السلام وتلك هي عاقبتها، وكانت الإشارة للبعيد تحقيرًا لهم، وتهوينًا من شأنهم بعد أن انتهوا، وبعدوا عن الأنظار والأفكار، وقد كانوا يقولون: من أشد منا قوة[4].

والجحد: الإنكار الشديد، مثل إنكار الواقعات والمشاهدات، وهذا يدل على أن هودًا أتاهم بآيات فأنكروا دلالتها[5].

وجمع الرسل في قوله: ﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾، وإنما عصوا رسولًا واحدًا، وهو هود

(٤) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ١١٠.
(٥) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٧/ ٢٢٨.

عليه السلام؛ لأن المراد ذكر إجرامهم، فناسب أن يناط الجرم بعصيان جنس الرسل؛ لأن تكذيبهم هودًا لم يكن خاصًا بشخصه لأنهم قالوا له: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝٥٣﴾ [هود:٥٣].

فكل رسول جاء بأمر ترك عبادة الأصنام فهم مكذبون به[1].

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾، أي: أطاعوا في الشرك أمر كل جبار عنيد لا يستدل بدليل، ولا يقبله من غيره، يريد رؤساءهم وكبراءهم، ودعاتهم إلى تكذيب الرسل، والجبار: المتكبر، والعنيد: مبالغة في المعاندة، يقال: عند، إذا طغى، ومن كان خلقه التجبر، والعنود لا يأمر بخير ولا يدعو إلا إلى باطل، فدل اتباعهم أمر الجبابرة المعاندين على أنهم أطاعوا دعاة الكفر والضلال والظلم[2].

وقوله تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، أي: جعلت تابعة لهم في الدارين، أي: لازمة، والتعبير عن ذلك بالتبعية للمبالغة، فكأنها لا تفارقهم، وإن ذهبوا كل مذهب، بل تدور معهم، حيث ما داروا[3].

وقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾، دعا عليهم بالهلاك أو باللعنة، وفيه من الإشعار بالسخط عليهم، والمقت، ما لا يخفى فظاعته، وتشهير بالقوم، وإذاعة لجريمتهم في الناس، واستدعاء لكل ذي سمع ونظر، أن يشهد هؤلاء القوم، وينظر إليهم وهم متلبسون بهذا الجرم الغليظ، فلا يقول فيهم إلا ما يسوءهم ويخزيهم، وتكرير حرف التنبيه، وإعادة (عاد) للمبالغة في تهويل حالهم، والحث على الاعتبار بنبئهم[4].

٢. ثمود.

ذم القرآن الكريم قوم ثمود.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝١٧﴾ [فصلت:١٧].

في الآية الكريمة ذم قوم ثمود عليه السلام بسوء العاقبة وصفاتهم الذميمة، ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾، أي: وأما ثمود فبينا لهم الحق على لسان نبيهم صالح، ودللناهم على سبل النجاة بنصب الأدلة التكوينية، وإنزال الآيات التشريعية، فكذبوه واستحبوا العمى على الهدى، والكفر على الإيمان[5].

واستحبوا العمى معناه: أحبوا، فالسين

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ١٠٥.
(٢) انظر: المصدر السابق ١٢/ ١٠٦.
(٣) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ١١١.

(٤) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ١١١، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس ٦/ ١١٦٠.
(٥) انظر: تفسير المراغي ٢٤/ ١١٧.

والتاء للمبالغة، أي: كان العمى محبوبًا لهم، والعمى: هنا مستعار للضلال في الرأي، أي: اختاروا الضلال بكسبهم. وضمن (استحبوا) معنى: فضلوا، وهيأ لهذا التضمين اقترانه بالسين والتاء للمبالغة؛ لأن المبالغة في المحبة تستلزم التفضيل على بقية المحبوبات، فلذلك عدي (استحبوا) بحرف على، أي: رجحوا باختيارهم، وتعليق على الهدى بفعل (استحبوا) لتضمينه معنى: فضلوا وآثروا[1].

ثم ذكر جزاءهم على ما اختاروه لأنفسهم فقال: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾، أي: فأرسلنا عليهم صيحة ورجفة وذلًا وهوانًا، بما كانوا يكسبون من الآثام بكفرهم بالله وتكذيبهم رسله[2].

وكان العقاب مناسبًا للجرم؛ لأنهم استحبوا الضلال الذي هو مثل العمى، فمن يستحبه فشأنه أن يحب العمى، فكان جزاؤهم بالصاعقة؛ لأنها تعمي أبصارهم في حين تهلكهم[3].

٣. قوم فرعون.

ذم القرآن الكريم قوم فرعون.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المؤمنون:٤٥-٤٨].

يخبر تعالى أنه بعث رسوله موسى، عليه السلام، وأخاه هارون إلى فرعون وملئه، بالآيات والحجج الدامغات، والبراهين القاطعات، وأن فرعون وقومه استكبروا عن اتباعهما، والانقياد لأمرهما، لكونهما بشرين، كما أنكرت الأمم الماضية بعثة الرسل من البشر، تشابهت قلوبهم، فأهلك الله فرعون وملأه، وأغرقهم في يوم واحد أجمعين[4].

ثم ذمهم بأوصافهم القبيحة فقال: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ جميعًا عن الاستماع إلى دعوة موسى وهارون عليهما السلام، ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ﴾ أي: مغرورين متكبرين، مسرفين في البغي والعدوان[5].

ثم ذكر ما استتبعه هذا العتو والجبروت: ﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾، أي: فقال فرعون وملؤه كيف ندين لموسى وأخيه، وبنو إسرائيل وقومهما خدمنا وعبيدنا يخضعون لنا ويتلقون أوامرنا؟ وما قصدوا بهذا إلا الزراية بهما

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/ ٢٦٢.
(٢) انظر: تفسير المراغي ٢٤/ ١١٨.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/ ٢٦٢.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٧٥.
(٥) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١٠/ ٣٧.

والحط من قدرهما، وبيان أن مثلهما غير جدير بمنصب الرسالة، وقد قاسوا الشرف الديني والإمامة في تبليغ الوحي عن الله بالرياسة الدنيوية المبنية على نيل الجاه والمال[1].

وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾، أي: فكذب فرعون وأتباعه موسى وهارون عليهما السلام فيما جاءا به من عند ربهما عز وجل، فكانت نتيجة هذا التكذيب أن أغرقنا فرعون ومن معه جميعًا[2].

وقد جاء ذم قوم فرعون في آيات أخر، منها قوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾ [النمل:١٢].

وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾ [هود:٩٦-٩٩].

٤ . قوم نوح.

ذم القرآن الكريم قوم نوح عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾﴾ [الفرقان:٣٧].

ذم الله تعالى قوم نوح عليه السلام بسوء عاقبتهم في الدنيا والآخرة، ووصفهم بالتكذيب، وقوله: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ﴾، والمراد بالرسل: نوح ومن قبله، أو نوح وحده، وعبر عنه بالرسل، لأن تكذيبهم له يعتبر تكذيبًا لجميع الرسل؛ لأن رسالتهم واحدة في أصولها.

وقوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾، أي: بعد أن أغرقناهم بسبب كفرهم، جعلنا إغراقهم أو قصتهم عبرة وعظة للناس الذين يعتبرون ويتعظون، والتعبير بـ﴿آيَةً﴾ بصيغة التنكير، يشير إلى عظم هذه الآية وشهرتها، ولا شك أن الطوفان الذي أغرق الله تعالى به قوم نوح من الآيات التي لا تنسى.

وقوله سبحانه: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، بيان لسوء مصير كل ظالم يضع الأمور في غير مواضعها، أي: وهيأنا وأعددنا للظالمين عذابًا أليمًا موجعًا، بسبب ظلمهم وكفرهم، وعلى رأس هؤلاء الظالمين قوم نوح، الذين كفروا به وسخروا منه[3].

وقد جاء ذم قوم نوح عليه السلام

(١) انظر: تفسير المراغي ١٨/ ٢٦.
(٢) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١٠/ ٣٨.
(٣) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١٠/ ١٩٦.

في آيات أخر منها: قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الذاريات:٤٦]، خارجين عن الاستقامة بالكفر والعصيان[١].

وقوله سبحانه: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾﴾ [النجم:٥٢].

ذمهم الله تعالى بالظلم والطغيان لطول دعوة نوح إياهم وعتوهم على الله بالمعصية والتكذيب، وهم الباقون بالظلم والمتقدمون فيه، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها، والبادىء أظلم، وأما أطغى فلأنهم سمعوا المواعظ وطال عليهم الأمد ولم يرتدعوا حتى دعا عليهم نبيهم، ولا يدعو نبي على قومه إلا بعد الإصرار العظيم والظالم[٢].

٥. قوم لوط.

ذم القرآن الكريم قوم لوط عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأعراف:٨٠-٨٥].

ذم الله تعالى قوم لوط عليه السلام بأفعالهم القبيحة التي تخالف الفطرة، وسوء العاقبة، فيخبر تعالى عن عبده لوط عليه السلام، أنه أنذر قومه نقمة الله بهم، في فعلهم الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم، وهي إتيان الذكور دون الإناث، وذلك فاحشة عظيمة، استغنى الرجال بالرجال، والنساء بالنساء[٣].

وقوله: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾، أي: واذكر لوطًا حين قال لقومه موبخًا لهم: أتفعلون تلك الفعلة التي بلغت الغاية في القبح والفحش[٤].

وابتداء قصة لوط وقومه بذكر (لوطًا) لأنه لم يكن لقوم لوط اسم يعرفون به، وقوم لوط كانوا خليطًا من الكنعانيين وممن نزل حولهم، ولذلك لم يوصف بأنه أخوهم؛

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ١٥٠.
(٢) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٨/ ٢٢١.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٠٠.
(٤) انظر: تفسير المراغي ٨/ ٢٠٤.

إذ لم يكن من قبائلهم، وإنما نزل فيهم واستوطن ديارهم، ولوط عليه السلام هو ابن أخي إبراهيم عليه السلام، وكان لوط عليه السلام قد نزل ببلاد (سدوم) ولم يكن بينهم وبينه قرابة[1].

﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾، أي: أتفعلون تلك الفعلة التي بلغت نهاية القبح والفحش، والتي ما فعلها أحد قبلكم في زمن من الأزمان، والاستفهام في ﴿أَتَأْتُونَ﴾ للإنكار والتوبيخ، والإتيان المستفهم عنه مجاز في التلبس والعمل، أي: أتعملون الفاحشة، وكني بالإتيان على العمل المخصوص وهي كناية مشهورة، والفاحشة: الفعل الدنيء الذميم[2].

ثم ذمهم بأنهم أول من عملها: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾، أي: ما عملها أحد قبلكم في أي زمان، بل هي من مبتدعاتكم في الفساد، فأنتم فيها أسوة وقدوة، فتبوءون بإثمها وإثم من اتبعكم فيها إلى يوم القيامة[3].

والجملة مستأنفة مسوقة لتأكيد النكير وتشديد التوبيخ والتقريع، فإن مباشرة القبح قبيح واختراعه أقبح، فأنكر عليهم أولًا إتيان الفاحشة[4].

ثم بين الأفعال الذميمة التي يعملونها فقال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾، أي: إنكم أيها القوم لممسوخون في طبائعكم حيث تأتون الرجال الذين خلقهم الله ليأتوا النساء، ولا حامل لكم على ذلك إلا مجرد الشهوة الخبيثة القذرة، ولا ذم أعظم منه، لأنه وصف لهم بالبهيمية، وأنه لا داعي لهم من جهة العقل ألبتة كطلب النسل ونحوه[5].

والإتيان: كناية عن الاستمتاع والجماع، من أتى المرأة إذا غشيها، والتأكيد -بإن واللام- كناية عن التوبيخ؛ لأنه مبني على تنزيلهم منزلة من ينكر ذلك، لكونهم مسترسلين عليه غير سامعين لنهي الناهي. والإتيان كناية عن عمل الفاحشة[6].

وفي إيراد لفظ الرجال دون الغلمان والمردان ونحوهما، مبالغة في التوبيخ والتقريع[7].

ثم انتقل من غرض الإنكار إلى غرض الذم والتحقير والتنبيه إلى حقيقة حالهم بقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾، أي: إنكم لا تأتون هذه الفاحشة ثم تندمون

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٢٢٩.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٢٣٠، التفسير الوسيط، طنطاوي ٥/ ٣١٥.
(٣) انظر: تفسير المراغي ٨/ ٢٠٤.
(٤) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٥/ ٣١٥.
(٥) انظر: تفسير المراغي ٨/ ٢٠٤، التفسير الوسيط، طنطاوي ٥/ ٣١٥.
(٦) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٢٣١.
(٧) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٥/ ٣١٥.

على ما فعلتم، بل أنتم قوم مسرفون فيها وفي سائر أعمالكم ولا تقفون فيها عند حد الاعتدال[1].

والإسراف مجاوزة العمل مقدار أمثاله في نوعه، أي: المسرفون في الباطل والجرم، ووصفهم بالإسراف بطريق الجملة الاسمية الدالة على الثبات، أي: أنتم قوم تمكن منهم الإسراف في الشهوات، فلذلك اشتهوا شهوة غريبة لما سئموا الشهوات المعتادة[2].

ثم أخبر القرآن عن جوابهم القبيح على نصائح نبيهم لهم، فقال: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾، أي: وما كان جواب قومه عن هذا الإنكار وتلك النصيحة شيئًا من الحجج المقنعة أو الأعذار المسكنة لثورة الغضب، بل كان جوابهم الأمر بإخراجه هو ومن آمن معه من قريتهم، وما حجتهم على تبرير ما عزموا عليه إلا أن قالوا: إن هؤلاء أناس يتطهرون ويتنزهون عن مشاركتهم في فسوقهم ورجسهم، فلا سبيل إلى معاشرتهم ولا مساكنتهم، لما بينهم من الفوارق في الصفات والأخلاق، وهذا الجواب منهم يدل على منتهى السخرية والتهكم، والافتخار بما كانوا فيه من القذارة، وقد بلغ من وقاحتهم وفجورهم أن يفعلوا الفاحشة ويفخروا بها ويحتقروا من يتنزه عنها، وهذا أسفل الدركات، ولا يهبط إليه إلا من لا يؤمن بالله واليوم الآخر[3].

والتطهر: تكلف الطهارة، وحقيقتها النظافة، وتطلق الطهارة -مجازًا- على تزكية النفس والحذر من الرذائل وهي المراد هنا، وتلك صفة كمال، وقولهم: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾، قصدوا به ذمهم، وهم قد علموا هذا التطهر من خلق لوط عليه السلام وأهله لأنهم عاشروهم، ورأوا سيرتهم، ولذلك جيء بالخبر جملة فعلية مضارعية لدلالتها على أن التطهر متكرر منهم، ومتجدد، وذلك أدعى لمنافرتهم طباعهم والغضب عليهم وتوجه إنكار لوط عليه السلام عليهم[4].

وقوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾، أي: فأنجيناه وأهل بيته الذين آمنوا معه إلا امرأته، فإنها لم تؤمن به، بل خانته بولاية قومه الكافرين، فكانت من جماعة الهالكين أو الباقين الذين نزل بهم العذاب في الدنيا، وبعده عذاب الآخرة[5].

وقوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾، أي: وأرسلنا عليهم مطرًا عجيبًا

(١) انظر: تفسير المراغي ٨/ ٢٠٥.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٢٣٢.
(٣) انظر: تفسير المراغي ٨/ ٢٠٥.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٢٣٥.
(٥) انظر: تفسير المراغي ٨/ ٢٠٦.

أمره، وهو الحجارة التي رجموا بها، ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾، أي: فانظر أيها المعتبر هذا القصص وتأمله حق التأمل، لتعلم عقاب الأمم على ذنوبها في الدنيا قبل الآخرة، وهذا العقاب أثر طبيعي لذلك، فإنك ترى الترف والفسق يفسدان أخلاق الأمم ويذهبان بيأسها ويفرقان كلمتها ويجعلانها شيعًا وأحزابًا متعادية، فيسلط الله عليها من يستذلها ويسلبها استقلالها، ويسخرها لمنافعه، ولا يزال بها هكذا حتى تنقرض وتكون من الهالكين[(١)].

وقد ذم القرآن قوم لوط عليه السلام في آيات أخر.

قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [العنكبوت: ٢٨-٢٩].

وقال سبحانه: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الشعراء: ١٦٥-١٦٦].

أي: متجاوزون لحدود الفطرة وحدود الشريعة، وقال جل وعلا: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النمل: ٥٥].

وهو يشمل الجهل الذي هو ضد العلم، والجهل الذي هو بمعنى السفه والطيش، ومجموع الآيات يدل على أنهم كانوا مصابين بفساد العقل، وانحطاط الخلق، وإيثار الغي والعدوان على الرشاد والتدبر[(٢)].

٦ . يأجوج ومأجوج.

ذم الله تعالى يأجوج ومأجوج بأفعالهم القبيحة.

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ [الكهف: ٩٣-٩٧].

يقول تعالى مخبرًا عن ذي القرنين: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾، وهما جبلان متناوحان بينهما ثغرة يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك، فيعيثون فيهم فسادًا، ويهلكون الحرث والنسل، ويأجوج

(١) انظر: المصدر السابق.

(٢) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٥/ ٣١٦.

ومأجوج من سلالة آدم، عليه السلام[1].

﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، أي: قال مترجموهم: إن يأجوج ومأجوج يفسدون أرضنا بالقتل والتخريب وأخذ الأقوات وسائر ضروب الإفساد.

﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾، أي: فهل تحب أن نجعل لك جعلًا من أموالنا، فتجعل بيننا وبينهم حاجزًا يمنعهم من الوصول إلينا؟

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ﴾، أي: قال ذو القرنين: إن ما مكنني فيه ربي من بسطة الملك والسلطان ووفرة المال، خير مما تبذلونه لي من الخراج، فلا حاجة بي إليه، والدول القوية يجب أن تحافظ على الدول الضعيفة، ولا تأخذ منها مالًا مادامت قادرة على إغاثتها[2].

وقوله تعالى: ﴿فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾، أي: ولكن ساعدوني بفعلة وصناع يحسنون العمل والبناء، أجعل بينكم وبين يأجوج ومأجوج سدًا منيعًا، وحاجزًا حصينًا أمنع مما تريدون.

ثم بين تلك القوة التي طلبها فقال: ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾، أي: جيئوني بقطع الحديد، فلما جاءوه بها أخذ يبني شيئًا فشيئًا حتى إذا جعل ما بين جانبي الجبلين من البنيان مساويًا لهما في العلو، قال للعملة: انفخوا بالكيران في زبر الحديد التي وضعت بين الصدفين ففعلوا، ومازالوا كذلك حتى صارت كالنار اشتعالًا وتوهجًا، فصب النحاس المذاب على الحديد المحمي فالتصق بعضه ببعض، وسد الفجوات التي بين الحديد وصار جبلًا صلدًا، ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾، أي: إن يأجوج ومأجوج ما قدروا أن يصعدوا من فوق السد لارتفاعه وملاسته، ولا استطاعوا نقبه لصلابته وثخانته[3].

ثالثًا: الملل المذمومة في القرآن الكريم:

ذم القرآن الكريم مللًا كالكفر والشرك والنفاق وأهل الكتاب، وبيان ذلك كما يأتي:

١ . الكافر.

ذم القرآن الكريم الكفر.

قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة:١٧١].

الكفر في اللغة: ستر الشيء، ووصف الليل بالكافر لستره الأشخاص، والزراع لستره البذر في الأرض، وكفر النعمة

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٩٥.
(٢) انظر: تفسير المراغي ١٦/ ١٨.
(٣) انظر: تفسير المراغي ١٦/ ١٩.

وكفرانها: سترها بترك أداء شكرها.

قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنبياء:٩٤].

وأعظم الكفر: جحود الوحدانية أو الشريعة أو النبوة، والكفران في جحود النعمة أكثر استعمالًا، والكفر في الدين أكثر، والكفور فيهما جميعًا.

قال سبحانه: ﴿۞ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [الإسراء:٩٩].

ولما كان الكفران يقتضي جحود النعمة صار يستعمل في الجحود، قال: ﴿وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾ [البقرة:٤١].

أي: جاحد له وساتر، والكافر على الإطلاق متعارف فيمن يجحد الوحدانية، أو النبوة، أو الشريعة، أو ثلاثتها، وقد يقال: كفر لمن أخل بالشريعة، وترك ما لزمه من شكر لله عليه[١].

ذم الله تعالى الكافرين بأنهم لا يسمعون الحق ولا يعقلونه وأنهم كالأنعام، ولما جعل كل فعل محمود من الإيمان جعل كل فعل مذموم من الكفر.

وقوله: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾، أي: إن مثل الكافرين في تقليدهم لآبائهم ورؤسائهم، وإخلادهم إلى ما هم عليه من الضلال، وعدم تأملهم فيما يلقى إليهم من الأدلة، مثل البهائم التي ينعق عليها الراعي، ويسوقها إلى المرعى، ويدعوها إلى الماء، ويزجرها عن الحمى، فتستجيب دعوته وتنزجر بزجره، وهي لا تعقل مما يقول شيئًا، ولا تفهم له معنى، وإنما تسمع أصواتًا تقبل لسماع بعضها وتدبر لسماع بعض آخر بالتعود، ولا تعقل سببًا للإقبال والإدبار، ثم بالغ في ذمهم وتقريعهم فقال: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، أي: إنهم يتصامون عن سماع الحق، فكأنهم صم، ولا يستجيبون لما يدعون إليه، فكأنهم خرس، ولا ينظرون في آياته تعالى في الآفاق وفي أنفسهم، فكأنهم عمي، لا يعقلون لعملهم مبدأ ولا غاية، بل ينقادون لغيرهم كما هو شأن الحيوان، ومن ثم اتبعوا من لا يعقلون ولا يهتدون[٢].

وذم القرآن الكريم الكافرين بأنهم شر ما دب على الأرض.

قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنفال:٥٥].

---

(١) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٧١٤.

(٢) انظر: تفسير المراغي ٢/ ٤٦.

أي: إن شر ما يدب على وجه الأرض في حكم الله وعدله هم الكافرون الذين أصروا على الكفر ولجوا فيه بحيث لا يرجى إيمان جملتهم أو إيمان جمهورهم[1].

وقد لقبهم الله بالدواب وهو اللفظ الذي غلب استعماله في ذوات الأربع، لإفادة أنهم ليسوا من شرار البشر فقط، بل هم أضل من العجماوات؛ لأن لها منافع، وهؤلاء لا خير فيهم ولا نفع لغيرهم منهم، كما قال تعالى في أمثالهم: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان:٤٤].

كما ذمهم بأنهم شر الدواب لا شر الناس، للإشعار بأنهم بمعزل عما يتحلى به الناس من تعقل وتدبر للأمور؛ لأن لفظ الدواب وإن كان يطلق على الناس، إلا أنه عند إطلاقه عليهم يلقى ظلًا خاصًا يجعل العقول تتجه إلى أن هؤلاء الذين أطلق عليهم اللفظ هم إلى الدواب التي لا تعقل أقرب منهم إلى الآدميين العقلاء، وفي وصفه سبحانه لهم بأنهم شر الدواب زيادة توبيخ لهم، لأنهم ليسوا دواب فحسب، بل هم شرها وأخسها[2].

وقوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، أي: إنهم -بسبب إصرارهم على الكفر- صار الإيمان بعيدًا عنهم، وأنهم سواء أنذروا أو لم ينذروا مستمرون في الضلال والعناد[3].

وذم سلوكهم وتصرفاتهم، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [محمد:١٢].

وهو تصوير زري، يذهب بكل سمات الإنسان ومعالمه، ويلقي ظلال الأكل الحيواني الشره، والمتاع الحيواني الغليظ، بلا تذوق، وبلا تعفف عن جميل أو قبيح، إنه المتاع الذي لا ضابط له من إرادة، ولا من اختيار، ولا حارس عليه من تقوى، ولا رادع عنه من ضمير، وهذا غاية الذم لهم في بلاغة التشبيه[4].

٢. المشركون.

ذم القرآن الكريم الشرك.

قال تعالى: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحج:٣١].

في الآية ذم وتقبيح الشرك والمشركين بسوء العاقبة، وأن الوقوع في الشرك يؤدي إلى الهلاك الذي لا نجاة معه بحال، وقوله: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾، أي: تمسكوا بهذه الأمور على وجه العبادة لله وحده دون

(١) انظر: المصدر السابق ١٠/ ٢٠.
(٢) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٦/ ١٣٣.
(٣) انظر: المصدر السابق.
(٤) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٢٩٠.

إشراك أحد سواه معه[١].

وقوله: ﴿حُنَفَآءَ﴾ جمع حنيف، وهو المائل عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق[٢].

ثم صور سبحانه حال من يشرك بالله تصويرًا تنخلع له القلوب، ويحمل كل عاقل على اجتناب هذا الرجس، فقال: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾، أي: ومن يشرك بالله تعالى في عبادته، ومات على ذلك، فكأنما سقط من السماء إلى الأرض، فاختطفته جوارح الطير بسرعة فمزقت أوصاله، أو تسقطه الريح في مكان بعيد أشد البعد بحيث لا يعثر له على أثر، والمقصود من هذه الجملة تقبيح حال الشرك والمشركين، وبيان أن الوقوع في الشرك يؤدي إلى الهلاك الذي لا نجاة معه بحال، لأن من يسقط من السماء فتتمزق أوصاله، وتتخطفه الطير أو تلقي به الريح في مكان بعيد لا يطمع له في نجاة، بل هو هالك لا محالة، فالجملة الكريمة مقررة لوجوب اجتناب الشرك بأبلغ صورة[٣].

وذم الله تعالى الشرك بأنه ظلم عظيم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣].

أي: واذكر أيها الرسول الكريم موعظة لقمان لابنه، وهو أشفق الناس عليه، وأحبهم لديه حين أمره أن يعبد الله وحده، ونهاه عن الشرك، وبين له أنه ظلم عظيم أما كونه ظلمًا، فلما فيه من وضع الشيء في غير موضعه، وأما أنه عظيم، فلما فيه من التسوية بين من لا نعمة إلا منه، وهو سبحانه وتعالى، ومن لا نعمة لها، وهي الأصنام والأوثان[٤].

وذم الله تعالى المشركين في القرآن على اتباع ما شرع لهم شركاؤهم من الدين ما لم يأذن به الله من عبادة غيره وفعل ما لم يشرعه من الدين.

قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [الشورى: ٢١].

كما ذمهم على أنهم حرموا ما لم يحرمه الله، والدين الحق أنه لا حرام إلا ما حرمه الله ولا دين إلا ما شرعه[٥].

٣. المنافقون.

ذم القرآن الكريم المنافقين، قال تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ

(١) انظر: تفسير المراغي ١٧/ ١١٠.
(٢) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٩/ ٣٠٦.
(٣) انظر: المصدر السابق ٩/ ٣٠٧.
(٤) انظر: تفسير المراغي ٢١/ ٨١.
(٥) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٣/ ١٢٤.

﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [التوبة:٦٧-٦٨].

يذم الله تعالى المنافقين بصفاتهم القبيحة، وسوء عاقبتهم في الدنيا والآخرة، واقترانهم مع الكافرين، ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾، أي: إن أهل النفاق رجالًا ونساء يتشابهون في صفاتهم وأخلاقهم وأعمالهم[١].

المنافقون والمنافقات من طينة واحدة، وطبيعة واحدة، المنافقون في كل زمان وفي كل مكان، تختلف أفعالهم وأقوالهم، ولكنها ترجع إلى طبع واحد، وتنبع من معين واحد، سوء الطوية ولؤم السريرة، والغمز والدس، والضعف عن المواجهة، والجبن عن المصارحة، تلك سماتهم الأصيلة[٢].

ثم ذم سلوكهم وأخلاقهم القبيحة: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾، أي: يأمرون غيرهم بكل ما تستنكره الشرائع، وتستقبحه العقول، وينهونهم عن كل أمر دعت إليه الأديان، وأحبته القلوب السليمة، وقوله: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾، أي: إن من صفات هؤلاء المنافقين أنهم بخلاء أشحاء عن بذل المال في وجوهه المشروعة[٣].

واقتصر من منكراتهم الفعلية على الامتناع عن البذل، لأنه شرها وأضرها وأقواها دلالة على النفاق كما أن الإنفاق في سبيل الله أقوى دلائل الإيمان[٤].

وقوله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾، كناية عن رسوخهم في الكفر، وانغماسهم في كل ما يبعدهم عن الله تعالى[٥]، أي: نسوا أن يتقربوا إليه بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه، ولم يعد يخطر ببالهم أن له عليهم حق الطاعة والشكر، واتبعوا أهواءهم ووساوس الشيطان، فجازاهم على ما فعلوا بحرمانهم من لطفه وتوفيقه في الدنيا، ومن الثواب في الآخرة[٦].

إنهم ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾، فلا يحسبون إلا حساب الناس وحساب المصلحة، ولا يخشون إلا الأقوياء من الناس يذلون لهم ويداورونهم، ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾، الله فلا وزن لهم ولا اعتبار، وإنهم لكذلك في الدنيا بين الناس، وإنهم لكذلك في الآخرة عند الله. وما يحسب الناس حسابًا إلا للرجال الأقوياء الصرحاء، الذين يجهرون بآرائهم، ويقفون خلف عقائدهم، ويواجهون الدنيا

(١) انظر: تفسير المراغي ١٠/ ١٥٥.
(٢) انظر: في ظلال القرآن ٣/ ١٦٧٣.
(٣) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٦/ ٣٤٣.
(٤) انظر: تفسير المراغي ١٠/ ١٥٦.
(٥) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٦/ ٣٤٣.
(٦) انظر: تفسير المراغي ١٠/ ١٥٦.

بأفكارهم، ويحاربون أو يسالمون في وضح النهار[1].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ﴾، تذييل قصد به المبالغة في ذمهم. أي: إن المنافقين هم الكاملون في الخروج عن طاعة الله، وفي الانسلاخ عن فضائل الإيمان، ومكارم الأخلاق[2].

وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾، بيان لسوء مصيرهم، بعد بيان جانب من صفاتهم الذميمة، أي: وعد الله تعالى المنافقين والمنافقات والكفار المجاهرين بكفرهم ﴿نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ خلودًا أبديًا[3].

وزيادة ذكر الكفار هنا للدلالة على أن المنافقين ليسوا بأهون حالًا من المشركين إذ قد جمع الكفر الفريقين[4].

وقوله جل جلاله: ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ أي: إن تلك العقوبة الشديدة كافية لإهانتهم وإذلالهم بسبب فسوقهم عن أمر ربهم، ﴿وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾، أي: طردهم وأبعدهم من رحمته ولطفه، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾، أي: ولهم عذاب دائم لا ينقطع، فهم في الدنيا يعيشون في عذاب القلق والحذر من أن يطلع المسلمون على نفاقهم، وفي الآخرة يذوقون العذاب الذي هو أشد وأبقى، بسبب إصرارهم على الكفر والفسوق والعصيان، وبذلك نرى الآيتين الكريمتين قد بينتا جانبًا من قبائح المنافقين، ومن سوء مصيرهم في عاجلتهم وآجلتهم[5].

ومن صفات المنافقين الذميمة الجامعة للخصال الرذيلة (الكذب والخداع).

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون:١].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء:١٤٢].

وأما قوله جل وعلا: ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ [النساء:١٤١].

فإن التربص صفة للمنافقين وحدهم بدليل قوله ﴿وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾ [النساء:١٤١]، والتربص حقيقة في المكث بالمكان، ومن بديع النظم القرآني آية جمعت ذم المنافقين لما في دواخلهم وذم أفعالهم وذم نيتهم.

كما في قوله تعالى: ﴿إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ۝٢﴾ [الممتحنة:٢].

وغيرها من الصفات التي وردت في الآيات القرآنية[6].

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٦٧٣.
(٢) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٦/ ٣٤٤.
(٣) انظر: المصدر السابق.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٢٥٦.
(٥) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٦/ ٣٤٤.
(٦) انظر: الذم والمدح في القرآن الكريم، معن الحيالي ١/ ٢٦٦.

٤. أهل الكتاب.

ذم القرآن الكريم أهل الكتاب الكفرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٦﴾ [البينة:٦].

يذم الله تعالى الكفرة من أهل الكتاب المخالفين لكتب الله، بسوء العاقبة، واقترانهم بالمشركين، وأنهم شرار الخلق، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾، أي: إن هؤلاء الذين دسوا أنفسهم بقبيح الشرك واجتراح المعاصي، وإنكار الحق الواضح بعد أن عرفوه كما يعرفون أبناءهم، يجازيهم ربهم بالعقاب الذي لا يخلصون منه أبدًا، فيدخلهم نارًا تلظى جزاء ما كسبت أيديهم، وجزاء إعراضهم عما دعا إليه الداعي، وهدت إليه الفطرة[1].

ثم ذمهم الله تعالى فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾، أي: هم شر الخليقة على الإطلاق، لإصرارهم على الكفر والإشراك مع علمهم بالحق[2]، وتوسيط ضمير الفصل لإفادة اختصاصهم بكونهم شر البريئة، لا يشاركهم في ذلك غيرهم من فرق أهل الكفر[3].

وذمهم الله تعالى على كفرهم وتضليل المؤمنين وصدهم عن دينهم.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ۝٩٨ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝٩٩﴾ [آل عمران:٩٨-٩٩].

وغير ذلك من الآيات.

---

(١) انظر: تفسير المراغي ٣٠/ ٢١٦.

(٢) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١٥/ ٤٧٢.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٤٨٤.

ذم في غير موضعه

نقل القرآن الكريم ذم الكفار للملائكة والأنبياء والمرسلين والكتب السماوية والمؤمنين، وبيان ذلك من خلال النقاط الآتية:

أولًا: ذم المشركين للملائكة:

يخبر تعالى عن ذم المشركين للملائكة، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الزخرف:١٩].

يخبر الله تعالى أن الكفار افتروا على الملائكة أنهم إناث، زاعمين أنهم بنات الله، ثم توعدهم سبحانه بسوء المصير بسبب افترائهم الكذب، فقال: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾، والجعل هنا بمعنى القول والحكم على الشيء، كما تقول: جعلت زيدًا أفضل الناس، أي: حكمت عليه بذلك، أي: أن هؤلاء المشركين زعموا وحكموا بأن الملائكة الذين هم عباد الرحمن، وصفوة خلقه، وأهل طاعته، زعموا أنهم إناث، فهل كانوا حاضرين وقت أن خلقناهم حتى حكموا عليهم بهذا الحكم الباطل؟[1].

ثم وبخهم على ذلك توبيخًا شديدًا، وأنكر عليهم ذلك في قوله: ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾، أي: أحضروا خلق الله لهم، فشاهدوهم بنات حتى يحكموا بأنوثتهم؟

وفي هذا تجهيل شديد لهم، ورمي لهم بالسفه والحمق، ثم توعدهم على مقالهم فقال: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾، أي: ستكتب هذه الشهادة التي شهدوا بها في الدنيا في ديوان أعمالهم، ويسألون عنها يوم القيامة ليأتوا ببرهان على صحتها، ولن يجدوا لذلك سبيلًا[2].

وقد حكى القرآن ذلك في آيات أخر، قال تعالى: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الإسراء:٤٠].

وهي كونهم اعتقدوا الملائكة إناثًا، فقد ذكرها، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾﴾ [النجم:٢٧].

وقوله جل وعلا: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الصافات:١٤٩].

ثانيًا: ذم المشركين للأنبياء والمرسلين:

يخبر تعالى أن الكفار ذموا الأنبياء والمرسلين.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَا أُنزِلَ

---

(١) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١٣/ ٧٠.

(٢) انظر: تفسير المراغي ٢٥/ ٧٨.

﴿إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ۝٨﴾ [الفرقان:٧-٨].

يقول تعالى مسليًا لرسوله الله صلى الله عليه وسلم، عما كان يتعنت به المشركون، فيما كانوا يقولونه عن الرسول، ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾، أي: إن مشركي قريش لم يكتفوا بقولهم: إن محمدًا صلى الله عليه وسلم قد افترى القرآن، وإن القرآن أساطير الأولين.

بل أضافوا إلى ذلك أنهم قالوا على سبيل السخرية والتهكم والإنكار لرسالته: كيف يكون محمد صلى الله عليه وسلم رسولًا، وشأنه الذي نشاهده بأعيننا، أنه ﴿يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾، كما يأكل سائر الناس، ﴿وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾، أي: ويتردد فيها كما نتردد طلبًا للرزق. ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾، أي: هلا أنزل إليه ملك يعضده ويساعده ويشهد له بالرسالة ويكون هذا الملك، ﴿مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾، أي: منذرًا من يخالفه بسوء المصير، ﴿أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ﴾، أي: مال عظيم يغنيه عن التماس الرزق بالأسواق كسائر الناس، ﴿أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَا﴾، أي: حديقة مليئة بالأشجار المثمرة، لكي يأكل منها ونأكل معه من خيرها.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا﴾، أي: ما تتبعون إلا رجلًا مسحورًا مغلوبًا على عقله، ومصابًا بمرض قد أثر في تصرفاته[1].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ۝٤١ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا لَوۡلَآ أَن صَبَرۡنَا عَلَيۡهَاۚ وَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ حِينَ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ مَنۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ۝٤٢﴾ [الفرقان:٤١-٤٢].

يخبر تعالى عن استهزاء المشركين بالرسول، صلوات الله وسلامه عليه، إذا رأوه، وقولهم ساخرين: ﴿وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾، أي: على سبيل الذم والتنقص والازدراء، قبحهم الله[2].

وهذا صنف من الأذى تبعثهم إليه مشاهدة الرسول في غير زي الكبراء والمترفين، لا يجر المطارف ولا يركب النجائب، ولا يمشي مرحًا ولا ينظر خيلاء، ويجالس الصالحين ويعرض عن المشركين، ويرفق بالضعفاء ويواصل الفقراء، وأولئك يستخفون بالخلق الحسن، لما غلب على آرائهم من أفن، لذلك لم يخل حاله عندهم من الاستهزاء به إذا رأوه بأن حاله ليست حال من يختاره الله لرسالته دونهم، ولا هو

---

(١) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١٠/ ١٧٥.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١١٣.

أهل لقيادتهم وسياستهم، وهذا الكلام صدر من أبي جهل وأهل ناديه، وإسناد يتخذونك إلى ضمير الجمع للدلالة على أن جماعاتهم يستهزئون به إذا رأوه، وهم في مجالسهم ومنتدياتهم، وصيغة الحصر للتشنيع عليهم بأنهم انحصر اتخاذهم إياه في الاستهزاء به يلازمونه ويدأبون عليه، ولا يخلطون معه شيئًا من تذكر أقواله ودعوته، فالاستثناء من عموم الأحوال المنفية، أي: لا يتخذونك في حالة إلا في حالة الاستهزاء[1].

وقوله تعالى: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾، مقول لقول محذوف وعائد الموصول محذوف أيضًا، أي: كلما وقعت أبصار أعدائك عليك -أيها الرسول الكريم- سخروا منك، واستنكروا نبوتك، وقالوا على سبيل الاستبعاد والتهكم: أهذا هو الإنسان الذي بعثه الله تعالى ليكون رسولًا إلينا، وقولهم هذا الذي حكاه القرآن عنهم، يدل على أنهم بلغوا أقصى درجات الجهالة وسوء الأدب[2].

ثم يشير القرآن إلى كذبهم فيما قالوه، لأنهم مع إظهارهم للسخرية منه صلى الله عليه وسلم كانوا في واقع أمرهم، وحقيقة حالهم يعترفون له بقوة الحجة، وهذا ما حكاه القرآن عنهم في قوله تعالى: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾، يعنون: أنه كاد يثنيهم عن عبادة أصنامهم، لولا أن صبروا وتجلدوا واستمروا على عبادتها[3].

فهم يسمون الهداية إضلالًا لسوء تقديرهم للحقائق وتقويمهم للقيم[4].

وقوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾، تهديد لهم على سوء أدبهم، وعلى جحودهم للحق بعد أن تبين لهم، أي: وسوف يعلم هؤلاء الكافرون حين يرون العذاب ماثلًا أمام أعينهم، من أبعد طريقًا عن الحق، أهم أم المؤمنون[5].

ثالثًا: ذم المشركين للكتب السماوية:

يخبر تعالى أن الكفار ذموا الكتب السماوية.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾ [الفرقان:٤-٦].

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ٣٢.
(٢) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١٠/ ٢٠٠.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١١٣، التفسير الوسيط، طنطاوي ١٠/ ٢٠٠.
(٤) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٥٦٥.
(٥) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١٠/ ٢٠٠.

يخبر تعالى عن سخافة عقول الجهلة من الكفار، في قولهم عن القرآن: إنه إفك، وإنه أساطير، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَ﴾، أي: وقال الكافرون: إن هذا القرآن ليس من عند الله، بل اختلقه محمد، وأعانه على ذلك جماعة من أهل الكتاب ممن أسلموا، وكان يتعهدهم ويختلف إليهم فيلقون إليه أخبار الأمم الغابرة، وهو يصوغها بلغته وأسلوبه الخاص[1]، وإسناد هذا القول إلى جميع الكفار لأنه واقع بين ظهرانيهم وكلهم يتناقلونه[2].

فرد الله عليهم مقالهم فقال: ﴿فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمًا وَزُورًا﴾، أي: فقد وضعوا الأشياء في غير مواضعها، وكذبوا على ربهم، إذ جعلوا القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إفكًا مفترى من قبل البشر، وكيف يتقولون ذلك على الرسول، وقد تحداهم أن يأتوا بمثله، وهم ذوو اللسن والفصاحة والغاية في البلاغة، فعجزوا أن يأتوا بمثله، ولو كان ذلك في مكنتهم ما ادخروا وسعًا في معارضته، وقد ركبوا الصعب والذلول ليدحضوا حجته، ويبطلوا دعوته، فما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا، ولو كان محمد صلى الله عليه وسلم قد استعان في ذلك بغيره لأمكنهم أيضًا أن يستعينوا هم بغيرهم[3].

ثم حكى الله تعالى عنهم مقولة أخرى من مقولاتهم الفاسدة: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا﴾، أي: ما هذا إلا أحاديث الأولين الذين كانوا يسطرونها في كتبهم من نحو أحاديث رستم وإسفنديار، اكتتبها من اليهود فهي تستنسخ منهم وتقرأ عليه، ليحفظها غدوة وعشيًا، أي: قبل انتشار الناس وحين يأتون إلى مساكنهم، وقد عنوا بذلك أنها تملى عليه خفية لئلا يقف الناس على حقيقة الحال، وهذه جرأة عظيمة منهم، قاتلهم الله أنى يؤفكون، وقد يكون مرادهم أنها تملى عليه دائمًا[4].

ثم أمره الله تعالى بإجابتهم عما قالوا بقوله: ﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، أي: قل لهم ردًا وتحقيقًا للحق: ليس ذلك كما تزعمون، بل هو أمر سماوي أنزله الذي لا يعزب عن علمه شيء، وأودع فيه فنون الحكم والأسرار على وجه بديع لا تحوم حوله الأفكار، ومن ثم أعجزكم بفصاحته وبلاغته، كما أخبركم فيه بمغيبات مستقبلة، وأمور مكنونة، لا يوقف عليها إلا بتوفيق العليم الخبير، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ

(١) انظر: تفسير المراغي ١٨/ ١٥٠.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ٣٢٢.
(٣) انظر: تفسير المراغي ١٨/ ١٥٠.
(٤) انظر: المصدر السابق ١٨/ ١٥١.

﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، أي: إنكم استوجبتم العذاب بمكايدتكم لرسوله، لكنه لم يعجله لكم رحمة بكم، رجاء توبتكم وغفران ذنوبكم، ولولا ذلك لصب عليكم العذاب صبًا[1].

قال ابن كثير: «وهذا الكلام لسخافته وكذبه وبهته منهم كل أحد يعلم بطلانه، فإنه قد علم بالتواتر وبالضرورة: أن محمدًا رسول الله لم يكن يعاني شيئًا من الكتابة، لا في أول عمره ولا في آخره، وقد نشأ بين أظهرهم من أول مولده إلى أن بعثه الله نحوًا من أربعين سنة، وهم يعرفون مدخله ومخرجه، وصدقه، وبره وأمانته ونزاهته من الكذب والفجور وسائر الأخلاق الرذيلة، حتى إنهم لم يكونوا يسمونه في صغره إلى أن بعث إلا الأمين، لما يعلمون من صدقه وبره.

فلما أكرمه الله بما أكرمه به، نصبوا له العداوة، ورموه بهذه الأقوال التي يعلم كل عاقل براءته منها، وحاروا ماذا يقذفونه به، فتارة من إفكهم يقولون: ساحر، وتارة يقولون: شاعر، وتارة يقولون: مجنون، وتارة يقولون: كذاب.

قال الله تعالى: ﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٤٨﴾ [الإسراء:٤٨]»[2].

رابعًا: ذم المشركين للمؤمنين:

يخبر تعالى أن الكفار ذموا المؤمنين.

قال تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ۝٢٧﴾ [هود:٢٧].

يخبر تعالى أن قوم نوح عليه السلام كان ردهم له على دعوته ذم أتباعه واستنقاصهم، ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾، أي: سفلتنا، والرذل الدون من كل شيء، قيل: هم الحاكة والأساكفة وأصحاب الصنائع الخسيسة.

وإنما قالوا ذلك جهلًا منهم أيضًا؛ لأن الرفعة في الدين ومتابعة الرسول لا تكون بالشرف ولا بالمال والمناصب العالية، بل للفقراء الخاملين وهم أتباع الرسل، ولا يضرهم خسة صنائعهم إذا حسنت سيرتهم في الدين.

﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾، أي: أنهم اتبعوك في أول الرأي من غير تثبت وتفكر في أمرك، ولو تفكروا ما اتبعوك، وقيل: معناه: ظاهر الرأي، يعني: أنهم اتبعوك ظاهرًا من غير أن تفكروا باطنًا.

﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾، يعني: بالمال والشرف والجاه.

وهذا القول أيضًا جهل منهم؛ لأن

---

(١) انظر: تفسير المراغي ١٨/ ١٥٠.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٩٤.

الفضيلة المعتبرة عند الله بالإيمان والطاعة لا بالشرف والرياسة، ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾.

قيل: الخطاب لنوح ومن آمن معه من قومه، وقيل: هو لنوح وحده، فعلى هذا يكون الخطاب بلفظ الجمع للواحد على سبيل التعظيم[1].

قال ابن كثير: «هذا اعتراض الكافرين على نوح، عليه السلام، وأتباعه، وذلك دليل على جهلهم وقلة علمهم وعقلهم، فإنه ليس بعار على الحق رذالة من اتبعه، فإن الحق في نفسه صحيح، وسواء اتبعه الأشراف أو الأراذل، بل الحق الذي لا شك فيه أن أتباع الحق هم الأشراف، ولو كانوا فقراء، والذين يأبونه هم الأراذل، ولو كانوا أغنياء.

ثم الواقع غالبًا أن ما يتبع الحق ضعفاء الناس، والغالب على الأشراف والكبراء مخالفته، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف:٢٣].

ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان صخر بن حرب عن صفات النبي صلى الله عليه وسلم، قال له فيما قال: أشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم؟ قال: بل ضعفاؤهم.

فقال هرقل: هم أتباع الرسل[2].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الأحقاف:١١].

أي: وقال الذين كفروا للذين آمنوا -على سبيل الذم والسخرية والاستخفاف بهم-، لو كان هذا الذي أنتم عليه من الإيمان بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم حقًا وخيرًا، لما سبقتمونا إليه، ولما سبقنا إليه غيركم من المؤمنين لأننا نحن العظماء الأغنياء، وأنتم الضعفاء الفقراء[3].

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ٤٨١.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣١٦.

(٣) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١٣/ ١٨٧.

مقاصد الذم في القرآن

إن مقاصد الذم في القرآن الكريم هو الحرص على الحفاظ على الكليات الخمس الضرورية: (الدين والعقل والنفس والمال والنسل)، وصيانتها من كل ما يفسدها ويدمرها، وبيان ذلك كما يأتي:

أولًا: الذم لحفظ الدين:

ومن مقاصد الذم في القرآن الكريم هو تطهير المجتمع الإسلامي من العقائد الفاسدة الموروثة، والحفاظ على العقيدة الصحيحة، والتي هي سبب الفوز والنجاح والفلاح في الدنيا والآخرة.

وهي السبب في الحفاظ على الفرد والأسرة والمجتمع، وهي التي تحفظ الفرد من البدع والضلالات والشبهات، ولذلك ذم الله تعالى كل العقائد الفاسدة والسبل المؤدية إلى الضلال من الشرك والكفر، واليهودية، والنصرانية، والمجوسية، وعباد القبور، وسائر أهل الملل والأوثان، والشذوذ والأهواء والطوائف، كما بين العاقبة السيئة التي انتهى إليها كل هؤلاء بسبب كفرهم وإعراضهم عن الحق، وأشير إلى ذلك في آيات كثيرة، كما سبق في البحث[1].

وكما ذم القرآن الكريم كل العقائد الفاسدة وتوضيحها وتطهير المجتمع منها، فقد ذم أيضًا كل ما يفسد الدين من الأخلاق القبيحة والفاسدة، وعالج عناصر الضعف البشري مع علاج رواسب الجاهلية والعصبية، في كل صورها وإقامة هذا المجتمع الجديد، الفريد في تاريخ البشرية، على القاعدة الطيبة النظيفة الصلبة المتينة التي لا تدنسها شوائب الهوى والمصلحة والعصبية، والتي لا تترجرج مع الأهواء والميول والشهوات![2].

وعامة ما ذم الله به المشركين في القرآن من الدين المنهي عنه إنما هو الشرك والتحريم، كما حكي عنهم في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ١٤٨﴾ [الأنعام:١٤٨]، وأما من ترك المأمور به فقد ذمهم الله كما ذمهم على ترك الإيمان به وبأسمائه وآياته وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والجنة والنار وترك الصلاة والزكاة والجهاد وغير ذلك من الأعمال[3].

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ١٣٨، تفسير القرآن الكريم، ابن القيم ص ١٨، تفسير المراغي ٢٥/ ٢٥، في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٢١٧.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٧٥٢.

(٣) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٠/ ١١٣.

ولأهمية الدين في حياة البشر فقد ذم القرآن الكريم الكفار والمنافقين، وبين حقيقة حالهم وقبح أعمالهم، وما يعقبها من الفساد والضرر بهم وسخط الله تعالى عليهم، واستحقاقهم لعقابه، وبعدهم من رحمته وثوابه؛ بقصد الإنذار والوعظ، لأجل التنفير والزجر، ولذلك تراها موجهة إليهم بوصفهم أو إلى وصفهم العام: المشركين، الكافرين، المنافقين، الفاسقين، الظالمين، المجرمين، المفسدين، أو الخاص بطائفة منهم، كبعض الأحبار والرهبان لا كلهم دون الأشخاص المعينين بأسمائهم وألقابهم، مهما يكن من شدة كفرهم وإيذائهم للنبي صلى الله عليه وسلم، والمؤمنين، كعبد الله بن أبي ابن سلول رئيس المنافقين الذي كان شرهم وأجرأهم على الضرر، فقد كان ضرره في المدينة أشد من ضرر أئمة الكفر والشرك في مكة؛ كأبي جهل[1].

ثانيًا: الذم للحفاظ على العقل:

ومن مقاصد الذم في القرآن الكريم: الحفاظ على العقل، فقد ذم القرآن الكريم كل ما كان ضارًا بالأفراد في عقولهم، وإنما أتى على ذم من قدم ذكره من الشخصيات والأمم المكذبة لعدولهم عن النظر السديد، اعتمادًا على الأهواء والتقليد، ونبذًا للعقل والإنصاف، ولو عقل أولئك الأمم لأدركوا بعقولهم صدق الرسل في دعوتهم، ولنبذوا معبوداتهم من دونه جل وعلا، وأجابوا الرسل، فلم يهلكوا، ولكنهم انحرفوا عن ميدان الإنصاف والعقل، فكذبوا فهلكوا.

ثالثًا: الذم للحفاظ على النفس:

ومن مقاصد الذم: الحفاظ على النفس وصيانتها من الاعتداء عليها، وشمل الذم في القرآن الكريم كل ما كان يعمله أهل الجاهلية، فكانت الجاهلية تقتل أولادها خشية كثرة العيلة، ودخول الفقر عليهم إذا كثروا، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ [الأنعام:١٥١].

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام:١٥١].

أي: حرم قتلها بأن عصمها بالإسلام أو بالعهد، فيخرج الحربي ويدخل الذمي، فما روي عن ابن جبير من كون المراد بالنفس المذكورة النفس المؤمنة ليس في محله، ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾، استثناء مفرغ من أعم الأحوال، أي: لا تقتلوها في حال من الأحوال إلا حال ملابستكم بالحق الذي هو أمر الشرع بقتلها.

وذلك كما جاء من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول

(١) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد ١١/ ١٠٦.

الله صلى الله عليه وسلم: (لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق الجماعة)[1].

أو من أعم الأسباب، أي: لا تقتلوها بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق وهو ما في الخبر، أو من أعم المصادر، أي: لا تقتلوها قتلًا إلا قتلًا كائنًا وهو القتل بأحد المذكورات[2].

والحفاظ على النفس يشيع في المجتمع الأمن والسلام ويقضي على كل مظاهر العنف، ويحفظ التعايش مع جميع المجتمعات والأمم والشعوب، فالإسلام دين السلام والتعايش والقبول بالآخر، ويرفض كل أشكال العنف والتطرف بجميع أشكاله وأنواعه وصوره.

رابعًا: الذم للحفاظ على المال:

ومن مقاصد الذم: الحفاظ على الأموال، فقد ذم القرآن الكريم كل ما كان ضارًا بالأفراد في أموالهم، وقد نهى الإسلام عن المعاملات، التي قامت على أكل المال بالباطل، كالربا والميسر والغش وبيع الغرر، وستر العيب، وغيرها مما ينطوي على الظلم، وتحريم تطفيف المكيال والميزان، ووجوب الصدق والبيان، وتحريم الكذب والخيانة.

وهذا المنهج الإسلامي في بناء الأخلاق يقتضي أيضًا الفضائل والقضاء على الرذائل، بأن تقوم المعاملات على تزكية الإنسان بالآداب الكريمة والأخلاق الفاضلة، وعلى المحافظة على الشعائر والقيم الإسلامية النبيلة، وإلا اهتز نظام المجتمع، وتدمرت حياة الفرد، لفقدان الثقة، وغروب الأمن والطمأنينة، فتستعر المعاملات بالرشوة، والاختلاس والغش.

ولذلك وصف الله عباده المؤمنين في تجارتهم وبيعهم ومعاملاتهم بقوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ۝٣٧ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٨﴾ [النور: ٣٧-٣٨].

فحفظ القرآن الكريم أموال الناس من الضياع، وحذر أصحاب النفوس الضعيفة من المساس بها، وحفظ الموازين في التجارة لتستقيم المعاملات، وعمل على حفظ مال الفرد والجماعة والأمة، وأشير

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحدود، باب قول الله تعالى: (أن النفس بالنفس..)، رقم ٦٨٧٨، ٩/ ٥، ومسلم في صحيحه، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب ما يباح به دم المسلم، رقم ١٦٧٦، ٣/ ١٣٠٢.

(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي ٤/ ٢٩٨.

لذلك في قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦)﴾ [المطففين: ١-٦].

خامسًا: الذم للحفاظ على النسل:

ومن مقاصد الذم في القرآن الكريم: الحفاظ على النسل والعرض، فقد ذم القرآن الكريم كل ما كان ضارًا بالأفراد في أنفسهم وأعراضهم.

وأشير إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (٨١)﴾ [الأعراف: ٨٠-٨١].

والإسراف الذي يدمغهم به لوط هو الإسراف في تجاوز منهج الله الممثل في الفطرة السوية، والإسراف في الطاقة التي وهبهم الله إياها، لأداء دورهم في امتداد البشرية ونمو الحياة، فإذا هم يريقونها ويبعثرونها في غير موضع الإخصاب، فهي مجرد «شهوة» شاذة؛ لأن الله جعل لذة الفطرة الصادقة في تحقيق سنة الله الطبيعية، فإذا وجدت نفس لذتها في نقيض هذه السنة، فهو الشذوذ إذن والانحراف والفساد الفطري، قبل أن يكون فساد الأخلاق، ولا فرق في الحقيقة. فالأخلاق الإسلامية هي الأخلاق الفطرية، بلا انحراف ولا فساد[(١)].

وإنما ذمهم وعيرهم ووبخهم بهذا الفعل الخبيث، لأن الله تعالى خلق الإنسان وركب فيه شهوة النكاح لبقاء النسل وعمران الدنيا، وجعل النساء محلًا للشهوة وموضعًا للنسل، فإذا تركهن الإنسان وعدل عنهن إلى غيرهن من الرجال فقد أسرف وجاوز واعتدى، لأنه وضع الشيء في غير محله وموضعه الذي خلق له، لأن أدبار الرجال ليست محلًا للولادة التي هي مقصودة بتلك الشهوة للإنسان[(٢)].

والقاعدة الأساسية التي يقوم عليها المجتمع، وهي قاعدة النظافة والطهارة والعفة والأخلاق، فنهاهم عن الفواحش ظاهرها وخافيها؛ لأنه لا يمكن قيام أمة، ولا استقامة مجتمع، ولا أسرة في وحل الفواحش ما ظهر منها وما بطن، إنه لا بد من طهارة ونظافة وعفة لتقوم الأسرة وليقوم المجتمع، والذين يحبون أن تشيع الفاحشة هم الذين يحبون أن تتزعزع قوائم الأسرة وأن ينهار المجتمع، والجماعة التي تشيع فيها الفاحشة جماعة ميتة، منتهية حتمًا إلى الدمار، والحضارة الإغريقية والحضارة الرومانية والحضارة الفارسية، شواهد من

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٣١٥.
(٢) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٥/ ٣١٦.

التاريخ، ومقدمات الدمار والانهيار في الحضارة الغربية تنبئ بالمصير المرتقب لأمم ينخر فيها كل هذا الفساد، والمجتمع الذي تشيع فيه المقاتل والثارات، مجتمع مهدد بالدمار.

ومن ثم يجعل الإسلام عقوبة هذه الجرائم هي أقسى العقوبات، لأنه يريد حماية مجتمعه من عوامل الدمار، وأشير إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ۝٣٢﴾ [الإسراء:٣٢].

وقوله سبحانه: ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝١٥١﴾ [الأنعام:١٥١][(١)].

والخلاصة: أن الذم في القرآن الكريم من أجل الحفاظ على الكليات الضرورية للفرد والمجتمع، وهي: الدين والنفس والعرض والمال والعقل، وكل ما فيه صلاح المجتمع وسلامته، والحفاظ على أمنه ووحدته واستقراره بما يكفل له سبل الحياة الكريمة، فإذا هم اجتنبوا ذلك كثر في الأمة الخير، وندر فيها وقوع الشر، وائتلفت قلوب أهليها، وسعدوا في دنياهم وآخرتهم، وإصلاح الله تعالى لحال البشر كان بهداية الدين وإرسال الرسل، وتمم ذلك ببعثة خاتم الأنبياء والمرسلين الذي كان رحمة للعالمين، فبه أصلحت عقائد البشر، وهذبت أخلاقهم وآدابهم بما جمع لهم فيها من مصالح الروح والجسد، وما شرع لهم من التعاون والتراحم، وبما حفظ لهم من العدل والمساواة، وبما شرع لهم من الشورى المقيدة بقاعدة درء المفاسد وحفظ المصالح، وبذا امتاز به دينهم عن بقية الأديان[(٢)].

موضوعات ذات صلة:

الحمد، المدح

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٢٣٠.

(٢) انظر: تفسير المراغي ٨/ ١٧٨.





عناصر الموضوع

مفهوم الذنب

أولًا: المعنى اللغوي:

الذنب من أذنب يذنب إذنابًا، والذنب هو الاثم والجرم والمعصية، والذنب مفرد، والجمع ذنوب، وجمع الجمع ذنوبات، ويقال: قد أذنب الرجل، أي: صار ذا ذنب، ويطلق الذنب على كل أمر غير مشروع يرتكب[١].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الجرجاني: «الذنب ما يحجبك عن الله تعالى»[٢].

وقال المراغي في تفسيره: «الذنب هو التقصير في المعاملة بين العبد وربه»[٣].

وقال الشنقيطي: «الذنب هو الجريمة التي يستحق صاحبها النكال»[٤].

وبالنظر في التعريفات السابقة نجد أنه لا يخرج المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي، ويمكن تعريف الذنب بأنه: كل فعل يستقبح شرعًا، ويستحق صاحبه العقوبة من الله تعالى.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٣٦١، لسان العرب، ابن منظور ١/ ٣٨٩، تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي ٢/ ٤٣٦.

(٢) التعريفات، الجرجاني ص١٠٧.

(٣) تفسير المراغي ٤/ ١٦١.

(٤) العذب النمير ٥/ ١٢٠.



الذنب في الاستعمال القرآني

وردت مادة (ذنب) الدالة على (الذنب) في القرآن الكريم(٣٧) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
اسم (مفرد)	١١	﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۝١٤﴾ [الشعراء:١٤]
اسم (جمع)	٢٦	﴿فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران:١٣٥]

وجاء الذنب في القرآن الكريم بمعناه اللغوي، وهو الإثم والجرم والمعصية[٢].

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝١١﴾ [الملك:١١]، أي: فأقروا بمعصيتهم وجرمهم.

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص٢٧٦.

(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ٣٨٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ الإثم:

الإثم لغة:

من أثم. الهمزة والثاء والميم أصل واحد، يدل على التأخر[(١)]

الإثم اصطلاحًا:

عرفه الجرجاني بأنه: «ما يجب التحرز منه شرعًا وطبعًا»[(٢)]، وهو أيضًا التأخر عن فعل الطاعات[(٣)].

الصلة بين الذنب والاثم:

الذنب عبارة عن ارتكاب المحظور، أما الإثم فهو التقصير في عمل مطلوب[(٤)].

٢ الجرم:

الجرم لغةً:

هو الكسب، وجمعها أجرام وجروم[(٥)].

الجرم اصطلاحًا:

«هو الجناية والذنب العظيم»[(٦)].

الصلة بين الذنب والجرم:

الذنب يقال في معرض بيان العقوبة المترتبة على ارتكاب المخالفة، أما الجرم فيقال في معرض الاستقباح والذم للفعل الذي يخالف أمر الله أو يهينه[(٧)].

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٦٠.
(٢) التعريفات ص٩.
(٣) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة٥/ ٢٦٤٨.
(٤) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ١/ ١٥.
(٥) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٣١/ ٣٨٦، تفسير لغوي لكلمات القرآن، حسن الجمل ١/ ٣١٧.
(٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ٢٤٨.
(٧) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص٢٤٤.



٣ الخطيئة:

الخطيئة لغةً:

هي الذنب، وجمعها خطايا[١].

الخطيئة اصطلاحًا:

«هي الذنب المقصود المتعمد»[٢].

الصلة بين الذنب والخطيئة:

الذنب إما أن يكون خطأ، وإما أن يكون عمدًا[٣]، أما الخطيئة فلا تكون إلا عمدًا[٤].

٤ السيئة:

السيئة لغةً:

من سوء بمعنى القبح[٥].

السيئة اصطلاحًا:

«هي التقصير في حقوق العباد ومعاملة الناس بعضهم بعضًا»[٦].

الصلة بين الذنب والسيئة:

الذنب يكون بالتقصير في حق الله تعالى[٧]، أما السيئة تكون بالتقصير في حق العباد[٨].

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ١/ ٤٨، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٥/ ٢٣١.
(٢) معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن، حسن الجمل ٢/ ٤٦.
(٣) انظر: الكليات، الكفوي ص٤٠.
(٤) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ١٤٤.
(٥) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ١١٣.
(٦) تفسير المراغي ٤/ ١٦١.
(٧) المصدر السابق ٤/ ١٦١.
(٨) الفروق اللغوية، العسكري ص٢٢١-٢٢٢.

الله غافر الذنب

من رحمة الله تعالى بعباده أنه لم يغلق باب العفو والصفح عمن ضل طريق الحق باتباع أهوائه وشيطانه، فقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

ولأهمية العفو والمغفرة في حياة المؤمن لزم التعرف على معنى كلًا من العفو والمغفرة، وعلى الفرق بينهما، وعلى مدى عفو ومغفرة الله تعالى لعباده المذنبين.

أولًا: المغفرة في حق الله تعالى:

مغفرة الذنوب قضية خاصة بالله تعالى، فلا أحد يملك غفران الذنوب سواه جل وعلا، وهذا ما أكد عليه المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم في قوله: (سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت)[١].

كما وردت آيات كثيرة تنسب صفة الغفران لله تعالى، منها قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [غافر: ٢-٣].

ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٨٩].

وقوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ [ص: ٦٦].

ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

وغيرها من الآيات.

ومن أسماء الله تعالى الحسنى:

الغافر: وهو على وزن (فاعل)، وقد ورد في القرآن مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [غافر: ٣].

ومعناه أنه سبحانه يغفر ما سلف من الذنوب[٢].

الغفّار: صيغة مبالغة على وزن (فعال)، والمعنى أنه جل وعلا هو الذي يستر ذنوب عباده ويغطيها[٣].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب أفضل الاستغفار ٨/ ٦٧، رقم ٦٣٠٦.

(٢) انظر: معتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنى، محمد التميمي، ص ١٨٠.

(٣) انظر: تفسير أسماء الله الحسنى، الزجاج،



الغفور: صيغة مبالغة على وزن (فعول)، وهي من غفر بمعنى ستر، والفرق بين الغفور والغفار، أن الغفار مبالغة في المغفرة مع تكرارها، أما الغفور أي: مغفرة عالية الجودة شاملة لكافة الذنوب[1].

العفو: وهو المتجاوز عن سيئات العباد[2].

والفرق بين العفو والمغفرة: أن العفو هو «ترك العقاب على الذنب، والمغفرة تغطية الذنب بإيجاب المثوبة»[3].

لذا كان من أهم الدعاء في ليلة القدر، ما روته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنها قالت: **(يا رسول الله أرأيت إن علمت أي ليلة ليلة القدر، ما أقول فيها ؟ قال: قولي، (اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني)**[4].

يقول الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله: «العفو هو المتجاوز عن سيئات عباده»[5].

وكان من أهم ما أوصى به ربنا عباده فعل الخيرات لأنها تزيل السيئات.

قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

ومعنى ﴿يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: يغفر الله بهن تلك المعاصي[6].

إن في العفو مبالغة ليست في الغفور، فإن الغفران ينبئ عن الستر، والعفو ينبئ عن المحو، وهو أبلغ من الستر، لأن الستر للشيء قد يحصل مع إبقاء أصله، بخلاف المحو فإنه يزيل الشيء جملة وتفصيلًا[7].

مما سبق يمكن القول بأن العفو هو محو أصل الذنب مع إسقاط العقوبة المترتبة عليه، أما المغفرة فهي الإبقاء على الذنب مع إسقاط العقوبة المترتبة على هذا الذنب.

ويؤيد ذلك ما جاء في صحيح البخاري عن صفوان بن محرز المازني، قال: بينما أنا أمشي مع ابن عمر رضي الله عنهما آخذ بيده، إذ عرض رجل، فقال: كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في النجوى؟ فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **(إن الله يدني المؤمن فيضع عليه كنفه وستره، فيقول: نعم، أي**

---

(١) انظر: المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، أبو حامد الغزالي، ص١٠٥.
(٢) انظر: مذكرة على العقيدة الواسطية، محمد بن صالح العثيمين، ص٣١.
(٣) الفروق اللغوية، العسكري، ص٣٦٣.
(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات ٥/ ٥٣٤، رقم ٣٥١٣.
قال الترمذي: حسن صحيح.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٧/ ١٠٠٨، رقم ٣٣٣٧.
ص٣٨.
(٥) شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين ٥/ ٢٢٣.
(٦) انظر: العذب النمير ٣/ ١٥٢.
(٧) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص٣٦٣.

رب، حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه هلك، قال: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم)[1].

ثانيًا: علم الله بذنوب عباده:

يقول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ [النساء: ١٢٦].

ويقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٥].

هاتان الآيتان الكريمتان من كتاب الله تعالى، تفيدان بأن الله تعالى:

أولًا: بكل شيء محيط، والمعنى أنه تعالى أحاط بكل شيء علمًا، وقدرة، ورحمة، وتدبيرًا[2].

ثانيًا: عليم بالغيب والشهادة، والظاهر، والباطن، وغير ذلك مما دق أو عظم[3].

قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد: ٩-١٠].

وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

مما سبق يمكن القول أن ذنوب العباد هي كسائر أعمالهم غير خافية على الله تعالى، سواء أكانت حقيرة أم عظيمة، وهذا ما ذكره القرآن الكريم في مواضع منها:

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧].

«أي: وكفى بالله خبيرًا بذنوب خلقه مطلعًا عليها، يحصي عليهم أعمالهم ومعاصيهم، فلا يخفى عليه شيء من أفعال المشركين وغيرهم، وهو عالم بجميع أعمالهم خيرها وشرها، لا يخفى عليه منها خافية، والخبير: العليم بهم، والبصير: الذي يبصر أعمالهم، وفي هذا تنبيه على أن الذنوب هي أسباب الدمار والهلاك لا غير، وأن الله عالم بها، ومعاقب عليها»[4].

قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾[الفرقان: ٥٨].

«أي: وحسبك بالحي الذي لا يموت، خبيرًا بذنوب خلقه ما ظهر منها وما بطن، فهو لا يخفى عليه شيء منها، وهو محصيها عليهم ومجازيهم عليها»[5].

ومما تجدر الإشارة إليه أن علم الله

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم والغضب، باب قول الله تعالى: (ألا لعنة الله على الظالمين)، ٣/ ١٢٨، رقم ٢٤٤١.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٢٠٦.

(٣) انظر: المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، أبو حامد الغزالي، ص٤٣.

(٤) التفسير المنير، الزحيلي ١٥/ ٣٨.

(٥) تفسير المراغي، ١٩/ ٣١.

تعالى بذنوب عباده لا يكون عقب ارتكابها، وإنما يكون قبل ذلك، أي: منذ الأزل، فعلم الله تعالى هو علم أزلي.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **(إن أول ما خلق الله تعالى القلم، فقال له: اكتب، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة)**(١).

كما تجدر الإشارة إلى أن علم الله تعالى الأزلي بأن الذنوب ستقع من العباد لا يؤثر على أفعال العباد، وبالتالي فعلم الله تعالى المسبق بوقوع الذنب لا يحمل صاحب الذنب على اقتراف الذنب، وإنما يكون اقتراف الذنوب باختيار العباد، على الرغم من بيان الله تعالى ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم طريق الهداية وحثهم على سلوكه، قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[الإنسان: ٣].

يقول سيد سابق في تفسير هذه الآية: «أي: هديناه وأرشدناه إلى طريق الحق والباطل، والخير والشر، والصدق والكذب، فهو إما سلك السبيل الأهدى، فيكون شاكرًا، أو الطريق المعوج، فيكون كفورًا»(٢).

وهذا يدل على أن الإنسان مخير في أفعاله لا مسير، كما تجدر الإشارة أيضًا إلى أن وقوع الذنوب لا يخرج عن مشيئة الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[التكوير: ٢٩].

(١) أخرجه أحمد في مسنده، حديث عبادة بن الصامت، ٣٧/ ٣٧٨، رقم ٢٢٧٠٥، والترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة نون، ٥/ ٤٢٤، رقم ٣٣١٩.
قال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب.

(٢) العقائد الإسلامية، ص١٠٢.

مراتب الذنوب

مما لا شك فيه أن هنالك تفاوتًا بين المخالفات الشرعية، وهذا الاختلاف يعود إلى تباين الأثر القبيح الذي تتركه تلك الذنوب والمخالفات، ولمزيد المعرفة لهذه المسألة، لابد من التعرف على مراتب ما يرتكبه العباد من الذنوب، وبيان ذلك كما يأتي:

أولًا: الكبائر:

الكبائر: هي الذنوب التي ورد في حقها لعنة أو غضب أو نار أو وعيد شديد[1].

يقول تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: يا رسول الله، وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات)[2].

ذكر في هذا الحديث سبعًا من الكبائر، وذكر في أحاديث أخرى غيرها: مثل عقوق الوالدين، قول الزور، اليمين الغموس.

فالكبائر لا تنحصر في عدد معين، فقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل عن الكبائر أسبع هي ؟ فقال: «هي إلى السبعين أقرب»[3].

ومن أمثلة على الكبائر:

١ . الشرك بالله.

الشرك بالله من أكبر وأعظم الكبائر.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٨].

عن ابن مسعود قال: (سألت النبي صلى الله عليه وسلم أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: أن تجعل الله ندًا وهو خلقك)[4].

والشرك بالله ينقسم إلى قسمين:

الأول: الشرك الأكبر: وهو أن يتخذ العبد مع الله شريكًا أو ندًا يعبده كما يعبد الله،

---

(١) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ١٠/ ٦٦٠٢، اعتقاد أهل السنة شرح أصحاب الحديث، محمد الخميس، ص٧٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى: (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا)، ٤/ ١٠، رقم ٢٧٦٦.

(٣) أخرجه معمر بن راشد، مطبوع ملحقًا بمصنف عبدالرزاق الصنعاني ١٠/ ٤٦٠، رقم ١٩٧٠٢.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده، ١/ ٩٠، رقم ١٤١.

ويدعوه كما يدعو الله، ويرجوه كما يرجو الله، ويخافه كما يخاف الله، وهو مخرج من ملة الإسلام، وإن مات صاحبه عليه يكون مخلدًا في نار جهنم، ولا يخفف عنه من عذابها[1].

الثاني: الشرك الأصغر: و«هو كل وسيلة وذريعة يتطرق منها إلى الشرك الأكبر من الإرادات، والأقوال، والأفعال التي لم تبلغ رتبة العبادة»[2].

والشرك الأصغر، لا يخرج صاحبه من الملة، وإذا مات عليه ولم يتب منه، فهو تحت مشيئة الله، إن شاء عذبه، وإن شاء عفا عنه، ولو عذبه الله سبحانه، فإنه لا يخلد في النار، وينال الشفاعة بإذن الله تعالى[3].

٢. السحر.

السحر: «أمر يمكن تعلم قواعده ومعرفته بالممارسة»[4].

قال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٠٢].

ومما سبق يتضح أن السحر من أكبر الكبائر، ومن أعظم المصائب، وهو من الكفر.

٣. قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق.

وهو الاعتداء على الإنسان وإزهاق روحه عمدًا دون وجه حق[5].

وهذا الفعل حرمه الإسلام، واعتبره من أكبر الكبائر التي توقع صاحبها في الهلاك يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٩٣].

---

(١) انظر: فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، عبد الرحمن بن حسن، ص٢٨٣، تيسير العزيز الحميد، سليمان بن عبد الله ص٣٣٠.

(٢) القول السديد شرح كتاب التوحيد، السعدي ص٥٨.

(٣) انظر: سد الذرائع في مسائل العقيدة على ضوء الكتاب والسنة الصحيحة، عبد الله الجنيدي، ص٢٠٨، عقيدة محمد بن عبد الوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي، صالح بن عبد الله العبود ٢/ ٦٩٤.

(٤) انظر: الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، عبد السلام اللوح، ص١٤.

(٥) انظر: التفسير المنير، وهبة الزحيلي ١٩/ ١١٥.

٤ . أكل الربا.

وهو أخذ زيادة على أصل المال وفائدة دون بيع صحيح مشروع[(١)].

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢٧٥].

فلذلك يعتبر الربا من أكبر الكبائر عند الله تعالى، وقد توعد الله صاحبه بالنار، وآذنه بالحرب إن أصر عليه ولم يتب.

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾ [البقرة:٢٧٨-٢٧٩].

٥ . أكل مال اليتيم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء:١٠].

حرم الله تعالى أكل مال اليتيم بغير حق، وذلك عن طريق إتلافه، فلا يجوز الاقتراب من مال اليتيم إلا لفائدة أو مصلحة لليتيم، وذلك عن طريق حفظه، واستثماره، وتنميته، والأكل منه حال الفقر والحاجة، حتى يصبح رشيدًا، أي: يبلغ مبلغ الرجال، فبعد ذلك يسلم له المال[(٢)].

قال تعالى: ﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [النساء:٦].

٦ . التولي يوم الزحف.

أي: الفرار من أرض المعركة، حرم الإسلام الفرار من أرض المعركة، وجعله من المهلكات، والكبائر[(٣)].

لذلك فلا يجوز الفرار من أرض المعركة إلا للمكيدة، والخدعة بالأعداء، فالذي يفر من أرض المعركة يستحق الغضب من الله، والعذاب في نار جهنم[(٤)].

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾

(١) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٢/ ٢٨٠.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص١٦٣، التفسير الوسيط، الزحيلي ٢/ ١٣٤٦.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٦.

(٤) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٤٨٧.

[الأنفال:١٥-١٦].

٧. قذف المحصنات.

أي: يرمون المسلمات الحرائر العفيفات الطاهرات بالفاحشة، وهن بريئات من ذلك[١].

فقد جاء الإسلام ليحفظ أعراض الناس، لذلك حرم الفاحشة، وكل ما يوصل للفاحشة، كما وضع الإسلام عقوبة لمن خاض في أعراض الناس، ولم يأت بأربعة شهود فجزاؤه كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور:٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور:٢٣].

ثانيًا: الصغائر:

الصغائر: هي الذنوب اليسيرة التي لم تقترن بوعيد أو بحد مقدر، فالشخص يرتكبها بدون إصرار عليها[٢].

والذنوب اليسيرة التي يرتكبها الإنسان بدون إصرار عليها أو استهانة بها أو مداومة عليها، إذا أتبعها فاعلها بالتوبة الصادقة النصوح، يذهبها الله تعالى ويغفرها[٣].

قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ ۚ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود:١١٤].

فالله عز وجل جعل باب التوبة مفتوحًا لعباده.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾

[الفرقان:٦٨-٧٠].

وقد سمى القرآن الكريم الصغائر: لممًا.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النجم:٣٢].

والمقصود بـ(اللمم) في هذه الآية هو ما قل وصغر من الذنوب[٤].

---

(١) انظر: تفسير يحيى بن سلام ١/ ٤٢٧، مدارك التأويل، النسفي ٢/ ٤٨٨، أضواء البيان، الشنقيطي ٥/ ٤٢٩.

(٢) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٣/ ١٣٠، التفسير الوسيط، وهبة الزحيلي ١/ ٣١٢.

(٣) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٣/ ١٣٠.

(٤) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ٥/ ٥١١، التفسير الواضح، محمد حجازي ٣/ ٥٦١.

مكفرات الذنوب

لابد للعبد إذا ما وقع في الذنوب أن يسارع لإزالة أثر تلك الذنوب، لئلا يباغته الموت، فيلقى الله وهو غاضب عنه، فيلقى بذلك ما لا يطيق من العقوبة، وللتمكن من إزالة آثار تلك الذنوب، يجب التعرف على مكفراتها، وفيما يلي الحديث عن أهمها:

أولًا: التوبة والاستغفار:

قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود:٣].

في هذه الآية وغيرها من الآيات قدم الله تعالى الاستغفار على التوبة؛ لأن الاستغفار فيه الابتعاد عن الشرك، وما اتصل به من جحود وعناد وإنكار، أما التوبة فهي الرجوع إلى الله تعالى وطاعته فيما أمر والابتعاد عما نهى عنه[(١)].

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: (**قال الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حيث يذكرني، والله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة، ومن تقرب إلي شبرًا، تقربت إليه ذراعًا، ومن تقرب إلي ذراعًا، تقربت إليه باعًا، وإذا أقبل إلي يمشي، أقبلت إليه أهرول**)[(٢)].

عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، قال: ومن قالها من النهار موقنًا بها فمات من يومه قبل أن يمسي، فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها، فمات قبل أن يصبح، فهو من أهل الجنة**)[(٣)].

والتوبة واجبة على جميع العباد، والدليل على ذلك:

قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور:٣١].

قوله: ﴿وَتُوبُوٓا۟﴾ أمر، وكل أمر للوجوب ما لم يصرفه صارف عن الوجوب، لذلك فالتوبة واجبة بإجماع المسلمين من كل ذنب اقترفه الإنسان[(٤)].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**يا أيها الناس، توبوا إلى الله، فإني أتوب في**

---

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة، ٧/ ٣٦٦٢.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه،كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها، ٤/ ٢١٠٢، رقم ٢٦٧٥.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب أفضل الاستغفار، ٨/ ٦٧، رقم ٦٣٠٦.

(٤) انظر: العذب النمير ١/ ٣٤٧.

اليوم إليه مائة مرة)[1].

ويشترط لقبول التوبة عدة شروط.

إذا كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى فلها ثلاثة شروط وهي:

١. أن يقلع العبد عن المعصية.

٢. أن يندم العبد على فعل المعصية.

٣. أن يعزم على عدم العودة إلى المعصية أبدًا.

أما إذا كانت المعصية تتعلق بحق آدمي فلها أربعة شروط، الثلاثة السابقة، والشرط الرابع: أن يرد العبد المظالم إلى أصحابها[2].

والتوبة لا تقبل إذا طلعت الشمس من المغرب.

قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [الأنعام:١٥٨].

عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله عز وجل جعل بالمغرب بابًا عرضه مسيرة سبعين عامًا للتوبة لا يغلق حتى تطلع الشمس من قبله)[3].

لا تقبل توبة العبد عندما تبلغ روحه الحلقوم ويوقن بالموت.

قال تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾

[يونس:٩٠-٩١].

عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر)[4].

والاستغفار يمحو الذنوب ويسترها ويطهر العبد من الخطايا.

عن النبي صلى الله عليه وسلم، فيما روي عن الله تبارك وتعالى أنه قال: (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم، يا عبادي

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه، ٤/ ٢٠٧٥، رقم ٢٧٠٢.

(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن، ٤/ ٩٩.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات، باب في فضل التوبة والاستغفار، ٥/ ٤٣٧، رقم ٣٥٣٦.
قال الترمذي: حديث حسن صحيح.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٧٧١، رقم ٤١٩١.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات، باب في فضل التوبة والاستغفار، ٥/ ٤٣٨، رقم ٣٥٣٧.
قال الترمذي: حديث حسن غريب.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٣٨٦، رقم ١٩٠٣.

كلكم جائع، إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عارٍ، إلا من كسوته، فاستكسوني أكسكم، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا، فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد، ما نقص ذلك من ملكي شيئًا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد، فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك، فلا يلومن إلا نفسه)[1].

ثانيًا: الحسنات الماحية:

قال تعالي: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ الَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود:١١٤].

أي: فعل الخيرات والأعمال الصالحة ومن هذه الأعمال الصالحة الصلوات الخمس تكفر الذنوب السالفة[2].

إن فعل الحسنات يقوم على الإيمان، والعمل الصالح.

ثالثًا: المصائب:

قد يبتلي الله عز وجل بعض عباده ببعض المصائب، حتى تكون مكفرات لذنوبهم إذا صبروا عليها.

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة:١٢٠].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما يصيب المؤمن من شوكة فما فوقها إلا رفعه الله بها درجة، أو حط عنه بها خطيئة)[3].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، ٤/ ١٩٩٤، رقم ٢٥٧٧.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٥٥.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر و الصلة والآداب، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض، ٤/١٩٩١، رقم٢٥٧٢.

يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه)[1].

والمصائب يمكن أن تكفر ذنوب الإنسان، إلا الكفر؛ لأن من لقي الله كافرًا يستحيل أن يتخلف وعيده[2].

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٨].

رابعًا: الدعاء:

والدعاء بطلب المغفرة وتكفير الذنوب هو من سنن الأنبياء والمرسلين.

قال نوح عليه السلام: ﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [نوح: ٢٨].

وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١].

والدعاء بطلب المغفرة من صفات المؤمنين الصالحين.

قال تعالى: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات:١٨].

وأخبر الله عز وجل أنهم يقولون: ﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران:١٩٣].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرضى، باب ما جاء في كفارة المرض، ٧/ ١١٤، رقم ٥٦٤١.

(٢) انظر: موسوعة الفقه الإسلامي، محمد التويجري ٤/ ٦٢٠.

آثار الذنوب في الدنيا والآخرة

الذنوب لها آثار تعود على الفرد فيضل عقله، ويضطرب فؤاده، ويبلى جسده، وأخرى تعود على المجتمع فتتمزق وحدته، ويتشرذم أفراده، وتضيع هيبته، ومن هذه الآثار ما يأتي:

١ . حرمان العلم.

العلم نور يقذفه الله تعالى في قلب أهله، والذنوب تطفئ ذلك النور، فيحرم المذنب من العلم[3].

قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠].

٢ . وحشة القلب.

وهي وحشة يجدها المذنب في قلبه، فلا يشعر بأي لذة حتى ولو اجتمعت له لذات الدنيا كلها، فلم تف بتلك الوحشة، وهي تجعل المذنب يبتعد عن أهل الصلاح ومجالستهم، وبذلك يحرم بركة الانتفاع بهم حتى يقرب من حزب الشيطان، فتقوى هذه الوحشة حتى تقع بينه وبين أقرب المقربين إليه، بل وبينه وبين نفسه[4].

٣ . الذل والندامة.

(٣) انظر: مجموع فتاوى العلامة عبد العزيز بن باز رحمه الله ٦/ ٢٤٢.

(٤) انظر: الداء والدواء، ابن القيم، ص٥٢.

إن الذنوب تورث في الإنسان الذل والضعف والإهانة؛ لأن العز لايكون إلا في طاعة الله تعالى[1].

قال تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات:٧].

٤ . انتشار الفساد في الأرض:

إن الذنوب تسبب أنواعًا من الفساد في الأرض، مثل فساد في الزرع والمياه والهواء والمساكن.

قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [الروم:٤١].

موضوعات ذات صلة:

الإسراف، الزنا، الصلاح، العبرة، العذاب، الفواحش، الكفر، النفاق

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٩٥.



عناصر الموضوع

التعريف بذي القرنين

أولًا: اسمه:

اختلف فيه على أقوال كثيرة، فقيل: هو الإسكندر المقدوني.

وهناك من زعم أنه قورش الفارسي، أو دارا الفارسي، أو ملك من ملوك اليمن، أو ابن فرعون مصر.

ويرى أبو الكلام أزاد في كتابه: ويسألونك عن ذي القرنين، أنه قورش امبراطور فارس الذي غزا بلاد اليونان، وأنه كان عادلًا.

بينما يرى البعض أنه الإسكندر المقدوني الذي غزا بلاد فارس، وكان عادلًا.

قال المسعودي: «الإسكندر وذوالقرنين: وقد تنازع الناس فيه: فمنهم من رأى أنه ذو القرنين، ومنهم من رأى أنه غيره، وتنازعوا أيضًا في ذي القرنين: فمنهم من رأى أنه سمي بذي القرنين لبلوغه أطراف الأرض، وأن الملك الموكل بجبل قاف سماه بهذا الاسم، ومنهم من رأى أنه من الملائكة»(١).

قلت: جبل قاف هذا من أخبار الإسرائيليات التي لا دليل عليها، ولا مستند من كتاب، أو سنة أو أثر صحيح، والقول بأنه ملك من الملائكة قول بعيد غريب، بل هو من البشر.

وقال القزويني: «وذكر بعض النساب أن أفريدون هو ذو القرنين الذي ذكره الله تعالى في كتابه العزيز، لأنه ملك المشرق والمغرب، وأمر بعبادة الله تعالى، وكان ذا عدل وإحسان»(٢).

والمتأمل في هذه الأقوال وما استندت إليه يجدها لا أصل لها في الكتاب أو السنة، كما أنها مبنيةٌ على الظن والاحتمال، فضلًا عن أن ذا القرنين كان مؤمنًا موحدًا.

وقيل: كان نبيًا من الأنبياء، فقد روى ابن أبي شيبة في المصنف عن عبد الله بن عمرو قال: ذو القرنين نبي(٣).

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنه قال: ذو القرنين نبي(٤).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما أدري أتبع لعينًا كان أم لا، وما أدري ذو القرنين نبيًا كان أم لا، وما أدري الحدود كفاراتٌ لأهلها أم

(١) مروج الذهب، المسعودي ١/ ١٢٧.

(٢) آثار البلاد وأخبار العباد، القزويني ١/ ٩٢.

(٣) المصنف ابن أبي شيبة ٧/ ٤٦٨.

(٤) **انظر**: الدر المنثور، السيوطي ٩/ ٦٣٢.



لا)[1].

وهذا الحديث إن صح ففيه ردٌّ على من قال بنبوة ذي القرنين.

والذي يتجلى لنا من خلال حديث القرآن عنه أنه ملك مؤمن على علمٍ وصلاحٍ، مكن الله له، فسعى جاهدًا ومتجردًا لنشر الحق والعدل.

والذي يعنينا أن نتدبر في قصته، ونستخلص منها الدروس والعبر في الدعوة والإصلاح والقيادة والإدارة والسياسة والقضاء. ثم إن السؤال ليس عن شخص ذي القرنين، وإنما عن حياته وجهاده وأمجاده.

قال البغوي: «والأكثرون على أنه كان مَلِكًا عادلًا صالحًا»[2].

قال ابن القيم: «الإسكندر المقدوني، وهو ابن فيلبس، وليس هو بالإسكندر ذي القرنين الذي قص الله تعالى نبأه في القرآن، بل بينهما قرون كثيرة، وبينهما في الدين أعظم تباين، فذو القرنين كان رجلًا صالحًا موحدًا لله تعالى، يؤمن بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وكان يغزو عباد الأصنام، وبلغ مشارق الأرض ومغاربها، وبنى السد بين الناس وبين يأجوج ومأجوج.

وأما هذا المقدوني فكان مشركًا يعبد الأصنام هو وأهل مملكته، وكان بينه وبين المسيح نحو ألف سنة وستمائة سنة، والنصارى تؤرخ له، وكان أرسطاطاليس وزيره، وكان مشركًا يعبد الأصنام، وهو الذي غزا دارا بن دار ملك الفرس في عقر داره، فثل عرشه ومزق ملكه وفرق جمعه، ثم دخل إلى الصين والهند وبلاد الترك فقتل وسبى. وكان لليونانيين في دولته عز وسطوة بسبب وزيره أرسطو، فإنه كان مشيره ووزيره ومدبر مملكته.

وكان بعده لليونان عدة ملوك يعرفون بالبطالسة، واحدهم بطليموس، كما أن كسرى ملك الفرس، وقيصر ملك الروم، ثم غلبهم الروم واستولوا على ممالكهم، فصاروا رعية لهم وانقرض ملكهم، فصارت المملكة للروم، وصارت المملكة واحدة، وهم على شركهم من عبادة الأصنام، وهو دينهم الظاهر ودين آبائهم»[3].

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، رقم ٤٠٥، ٢/ ١٤.
قال الحاكم: هذا حديثٌ صحيحٌ على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.
ولم يتعقبه الذهبي.
وصحح البخاري إرساله في التاريخ الكبير ١/ ٥٣.
(٢) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٢١٢.
(٣) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ٢/ ٢٦٤.

وأثبت ابن عاشور أنه ليس إسكندر المقدوني، قال: «لأنه لم يكن ملكًا صالحًا، بل كان وثنيًا، فلم يكن أهلًا لتلقي الوحي من الله، وإن كانت له كمالات على الجملة، وأيضًا فلا يعرف في تاريخه أنه أقام سدًا بين بلدين»[1].

وذكر أبو السعود أقوالًا عديدة في سر تسميته بذي القرنين، أكتفي بذكر أقربها للصواب، قال: «واختلف في وجه تسميته بذي القرنين، فقيل: لأنه بلغ قرني الشمس مشرقها ومغربها. وقيل: لأنه ملك الروم وفارس. وقيل: الروم والترك. وقيل: لأنه كان في تاجه ما يشبه القرنين. وقيل: لأنه كان له ذؤابتان. وقيل: لقب به لشجاعته»[2].

ثانيًا: صفات ذي القرنين:

قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾ [الكهف: ٨٣-٨٤].

ذو القرنين كان عبدًا صالحًا، وقائدًا حكيمًا محنكًا، وملكًا عادلًا، جمع الله له بين الصلاح والملك والعلم والهمة العالية في إقامة العدل ونشر الخير، والتيسير على الخلق، أخذ بالأسباب، بل طورها حتى مكن الله له.

قال تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾ [الكهف: ٨٤-٨٥].

مكن الله له في الأرض، ووهبه أسباب النصر والتمكين، وأصول السياسة وفنون التدبير، فأحسن استغلال هذه المنح والمواهب على أتم وجهٍ، بل جعلها ركيزةً ومنطلقًا إلى ريادة الكون بالعلم والإيمان، والعدل والإحسان.

مكن له صاحب العظمة والسلطان تمكينًا عظيمًا في أنحاء المعمورة، وآتاه من الأسباب ما يحتاج إليه في توطيد ملكه وبسط سلطانه، وكبت أعدائه وتحقيق أهدافه.

قال ابن عاشور: «وجعل خبر ذي القرنين تلاوة وذكرًا للإشارة إلى أن المهم من أخباره ما فيه تذكير، وما يصلح لأن يكون تلاوة حسب شأن القرآن، فإنه يتلى لأجل الذكر، ولا يساق مساق القصص»[3].

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/ ١٢٣.
(٢) إرشاد العقل السليم ٥/ ٢٤٠.
(٣) التحرير والتنوير ١٥/ ١٢٥.



ذكر ذي القرنين في القرآن الكريم

ورد ذكر (ذو القرنين) عليه السلام في القرآن الكريم (٣) مرات، في سورة الكهف.

وأما قصته عليه السلام فقد وردت في سورة الكهف.

السورة	الآيات
الكهف	٧٣-٩٨

مناسبة قصة ذي القرنين وسبب نزولها

أولًا: مناسبة القصة:

تتجلى لنا المناسبة بين هذه القصة والقصص التي سبقتها، وبين القصة ومحور السورة ومقصودها:

فبعد الحديث عن رحلة موسى مع الخضر وما انطوت عليه من عجائب وآيات، وما تفتقت عنه من فوائد وثمرات، وما أسفرت عنه من عبرٍ وعظاتٍ، يأتي الحديث عن قصةٍ أخرى عجيبة، قصة ذلك الرجل الصالح الذي مكن الله له، وهيأ له الأسباب فأخذ بها، واجتهد في استثمارها وتطويرها، فطوف في الأرض، وجال في أقطارها، قائدًا ظافرًا، وحكمًا عادلًا، وسلطانًا قويًا ، وعبدًا شكورًا، فملأ الدنيا عدلًا ونورًا.

طاف موسى عليه السلام طلبًا للعلم النافع، وطاف الخضر بأمر الله تعالى حاملًا لواء الجهاد وراية الإصلاح والتغيير، كذلك طاف ذو القرنين بجنده وعتاده، لينشر العدالة في ربوع الكون، ويبلغ دعوة الحق، ويصحح المفاهيم، ويقيم الموازين القسط، ويرسخ القيم الأصيلة، والأخلاق الفاضلة.

قال البقاعي: «ولما فرغ من هذه القصة التي حاصلها أنها طواف في الأرض لطلب العلم، عقبها بقصة من طاف الأرض لطلب الجهاد، وقدم الأولى إشارة إلى علو درجة العلم؛ لأنه أساس كل سعادةٍ، وقوام كل أمرٍ»[1].

كذلك تضعنا الآيات أمام مقارنةٍ بينة بين صاحب الجنتين الذي اغتر بجنتيه وجحد النعمة وتمادى في الضلال، وبين صاحبه الذي يذكره بالله ويحذره من عقابه، وبين ذي القرنين الذي يتذكر دائمًا فضل الله عليه ورحمته به، ويلهج دائمًا بحمده تعالى على ما أولاه من النعم وأسداه من الكرم، ويوظف هذه النعم في نشر الحق والفضيلة في أرجاء الأرض.

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ٣٦ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا ٣٧ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٣٨ وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ٣٩﴾ [الكهف: ٣٥-٣٩].

أما ذو القرنين فإنه نموذجٌ رائعٌ للملك الصالح المتعفف الذي مكنه الله في الأرض فأقام ميزان العدل والإحسان، وأزال سلطان الكفر والطغيان، وحمل راية الحق ومصابيح الهدى، وعاش الناس في عهده حياةً آمنة مطمئنةً. فشتان بين عهدين : عهدٍ ساد فيه

(١) نظم الدرر ٤/ ٥٠١.

الكفر والفساد، وعهد أشرقت فيه شمس الهداية وأضاءت أنوار العدالة. مملكة كافرة تجعل الكفر لها دستورًا وسياجًا، وملكٌ غاصبٌ طاغيةٌ، ومملكة مؤمنة تجعل الإيمان لها عصمةً ومنهاجًا ونورًا وسراجًا! وبضدها تتبين الأشياء.

ومن أوجه المناسبة بين قصة أصحاب الكهف والهدف الرئيسي لسورة الكهف أنها خطت لنا طريق النجاة من الفتن، وأوردت نموذجا عمليًا يحتذى به، حيث تعرض الفتية لفتنة عظيمة عصمهم الله منها، حين سعى الملك إلى فتنتهم في دينهم واستغل سلطانه في مساومتهم على الحق وإغرائهم بكل المغريات، كما استخدم فتنة التهديد والوعيد، فعصمهم الله من كل تلك الفتن، لما خلصت نيتهم وصفت سريرتهم وقويت عزيمتهم وصدق توجههم إلى الله.

قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الكهف: ٩-١٦].

وهكذا نجد السورة الكريمة تبرز لنا طريق النجاة من جميع الفتن، فتنة السلطان وفتنة الأهل والعشيرة وفتنة المال وفتنة الولد وفتنة العلم وفتنة إبليس اللعين وفتنة القوة والتمكين من خلال قصة ذي القرنين، وفتنة يأجوج ومأجوج وفتنة اتباع الأهواء والاغترار بزخرف القول، مما يتواكب مع خواص السورة وفضائلها وعصمتها لتاليها من الفتن الحوالك.

لما بين الله عز وجل أن ما على الأرض من زينة إنما هو للابتلاء والامتحان الذي يبرز معادن الناس، ويجلي عن قصدهم وهمتهم نحو العمل الصالح.

قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾ [الكهف: ٧-٨].

لما بين الله تعالى ذلك ضرب أمثلة تكشف عن موقف الناس من زينة الدنيا، فبدأ بقصة أصحاب الكهف الذين لم يغتروا بزينة الشباب وزينة الأهل والعشيرة

وزينة الأبهة والسلطان، بل تركوا كل هذه الملذات، وأعرضوا عن جميع الإغراءات، وهجروا الأهل والخلان في سبيل الله جل في علاه.

ثم جاءت قصة صاحب الجنتين الذي غره المال ولم يحمد الله عليه، بل ازداد بطرًا وأشرًا، في حين نجح صاحبه في الابتلاء حيث عرف حقيقة هذه الدنيا الفانية، فكان له ناصحًا أمينًا وواعظًا بليغًا.

ثم يأتي التعقيب على هذه القصة مبينًا حقيقة الدنيا الفانية، وما فيها من زينة تسلب القلوب وتأسر النفوس، وتصرفها عن غاية وجودها وعاقبة أمرها.

وإذا كان هناك من يغتر بالمال أو بالولد، فإن هناك من يغتر بالوعود الكاذبة والأماني الباطلة التي يمني بها إبليس اللعين، هذا العدو القديم الذي أظهر عداوته قديمًا يوم أن امتنع عن السجود لآدم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف: ٥٠].

ومن أشد أسلحة إبليس اللعين سلاح التزيين، فكم من معصية زينها، وكم من بدعة حسنها، وكم من طاعة صرف الناس عنها، وكم من ضلالة زخرفها، وكم من توبة سوفها.

ثم يورد لنا السياق حقائق ساطعة، وسننًا ربانية، وقضايا عقدية حول الألوهية والرسالة واليوم الآخر، وسنن الله الماضية والجارية في الأمم، ومن الناس من يغتر بنعمة العلم، بل وربما ظن أنه أعلم الناس، وهنا تأتي قصة موسى والخضر عليهما السلام؛ لتبين أن العالم مهما بلغ من العلم، فإن هناك من هو أعلم منه، ومهما أوتينا من العلم فما قيمته وما قدره أمام علم علام الغيوب!

ثم يضرب الله مثلًا لمن لم يغتر بالقوة والسلطان العبد الصالح ذو القرنين الذي وظف ملكه وسلطانه في نشر الدين ورفع الظلم عن المظلومين ورد الطغاة الباغين، وكان كلما جدد الله له نعمة جدد لها شكرًا، وردها إلى المنعم عز وجل.

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾﴾ [الكهف: ٩٥].

﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾ [الكهف: ٩٨].

فلنقارن بين من اغتر بجنتيه وجحد النعمة وتمادى في الضلال، وبين من يتذكر دائمًا فضل الله عليه ورحمته به، ويلهج دائمًا بحمده تعالى.

كما تدور هذه القصة مع المحور العام للسورة: العواصم من الفتن، فتبرز لنا أهمية

التوكل على الله تعالى واليقين به تعالى مع الأخذ بالأسباب في النجاة من الفتن، كما يتجلى لنا من خلال هذه القصة دور الحاكم العادل في حماية البلاد من شرور الفتن.

ثانيًا: سبب نزول القصة:

ذكر ابن إسحاق: أن قريشًا بعثوا النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود، وقالوا لهما: سلاهم عن محمدٍ، وصفا لهم صفته، وأخبراهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علمٌ ليس عندنا من علم؛ فخرجا حتى قدما المدينة، فسألا أحبار يهود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصفا لهم أمره وأخبراهم ببعض قوله، وقالا لهم: إنكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا؟

فقالت لهما أحبار يهود: سلوه عن ثلاثٍ نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسلٌ، وإن لم يفعل فالرجل متقولٌ، فروا فيه رأيكم.

سلوه عن فتيةٍ ذهبوا في الدهر الأول: ما كان أمرهم؟ فإنه قد كان لهم حديثٌ عجبٌ. وسلوه عن رجلٍ طوافٍ قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها: ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هي؟ فإذا أخبركم بذلك، فاتبعوه فإنه نبيٌّ، وإن لم يفعل فهو رجلٌ متقولٌ فاصنعوا في أمره ما بدا لكم.

فأقبل النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط حتى قدما مكة على قريشٍ، فقالا: يا معشر قريشٍ، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمدٍ، قد أخبرنا أحبار يهود أن نسأله عن أشياء أمرونا بها، فإن أخبركم عنها فهو نبيٌّ، وإن لم يفعل فالرجل متقولٌ، فروا فيه رأيكم. فجاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا محمد أخبرنا عن فتيةٍ ذهبوا في الدهر الأول، قد كانت لهم قصةٌ عجبٌ، وعن رجلٍ كان طوافًا قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها؛ وأخبرنا عن الروح ما هي؟

قال فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: أخبركم بما سألتم عنه غدًا، ولم يستثن، فانصرفوا عنه، فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم -فيما يذكرون- خمس عشرة ليلةً لا يحدث الله إليه في ذلك وحيًا، ولا يأتيه جبريل حتى أرجف أهل مكة، وقالوا: وعدنا محمدٌ غدًا، واليوم خمس عشرة ليلةً قد أصبحنا منها لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه، وحتى أحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم مكث الوحي وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة. ثم جاءه جبريل من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، وخبر ما سألوه عنه من أمر الله الفتية والرجل الطواف[1].

(١) هذه القصة رواها ابن إسحاق عن ابن عباس

قصة ذي القرنين

أولًا: بلوغه مغرب الشمس:

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمٗاۗ قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا ﴿٨٨﴾﴾ [الكهف:٨٦-٨٨].

كانت له ثلاث رحلات رئيسة، والظاهر أنه انطلق من المشرق إلى رحلته الأولى جهة المغرب، حيث بلغ بجنوده أقصى الغرب مستعينًا بما هيأه الله له من أسباب، وهدف الرحلة كما يظهر من خلال الآيات نشر الحق، وهداية الناس، وإقامة العدل، انطلق في رحلته حتى شاهد غروب الشمس، ﴿فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ﴾ عين ماء ذات حمأة، وقرئ ﴿فِي عَيۡنٍ حامية﴾ يعني: أنها تغرب في عين ماء حارة، تلك إشارة إلى نظر المؤمن وتمتعه بجمال الكون وروعته، فللنظرة الجمالية انعكاسها على جمال الحضارة، جمعت بين كونها حمئة وبين حرارتها[1].

﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمٗاۗ قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا ﴿٨٦﴾﴾: لما تمكن منهم، وخير في شأنهم: كان حكمًا مقسطًا، إذ حكم على من بقي على الظلم بالعذاب، وعلى من اختار طريق الهداية بالخير والإحسان، فقال: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا ﴿٨٨﴾﴾.

﴿وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ ذكر جزاء الله له في الآخرة ﴿فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ﴾ أي: الجنة، ثم أتبع ذلك بإحسانه له في الدنيا بقوله: ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا﴾ أي: لا نقول له ما يتكلفه مما هو شاقٌ عليه، بل قولًا ذا يسر وسهولة، قولًا ميسورًا.

وقوله: ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا﴾ أي: يوم القيامة فيعذبه العذاب الشديد الأليم، الذي يحار العقل في أمره، لأنه لم ير مثله، ولا قريبًا منه ليعتبره به[2].

﴿وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُۥ جَزَآءً

---

(1) قرأ ابن عاصم وعامر وحمزة والكسائي (حامية) أي: حارة، والباقون (حَمِئَة) أي: كثيرة الحمأة، وهي الطينة السوداء، تقول: حمأت البئر حمأ بالتسكين إذا نزعت حمأتها، وحمئت البئر حمأ بالتحريك كثرت حمأتها، ويجوز أن تكون حامية من الحمأة، فخففت الهمزة وقلبت ياء، وقد يجمع بين القراءتين، فيقال: كانت حارة وذات حمأة.
انظر: النشر في القراءات العشر، الجزري ٢/ ٣١٤.

رضي الله عنه، كما في السيرة النبوية، ابن هشام ١/ ٣٢١.
وأخرجها الطبري في تفسيره، ١٧/ ٥٩٣، والبيهقي في دلائل النبوة ٢/ ٢٦٩.

(2) نظم الدرر، البقاعي ٤/ ٥٠٢ بتصرف.

﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ أي: يستحق البشارة بها، فضلًا عن حسن معاملته في الدنيا، ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا﴾ فهو أهلٌ لكل فضل وسماحةٍ.

«فالمؤمن المستقيم يجد الكرامة والود والقرب من الحاكم العادل، ويكون من بطانته وموضع عطفه وثقته ورعاية مصالحه وتيسير أموره، أما المعتدي المتجاوز للحد، المنحرف الذي يريد الفساد في الأرض، فسيلقى العذاب الرادع من الحاكم المقسط في الدنيا، ثم يرد إلى ربه يوم القيامة ليلقى العقوبة الأشد بما اقترفت يداه في حياته الأولى»[(١)].

وحين يجد المحسن في الجماعة جزاء إحسانه جزاءً حسنًا، ومكانًا كريمًا، وعونًا وتيسيرًا؛ ويجد المعتدي جزاء إفساده عقوبة وإهانة وجفوة، عندئذ يجد الناس ما يحفزهم إلى الصلاح والاستقامة والجد والاجتهاد، أما حين يضطرب ميزان الحكم فإذا المعتدون المفسدون مقربون إلى الحاكم مقدمون في الدولة؛ وإذا العاملون الصالحون منبوذون أو محاربون؛ فعندئذ تتحول السلطة في يد الحاكم سوط عذاب وأداة إفساد، ويصير نظام الجماعة إلى الفوضى والفساد[(٢)].

قال ابن العربي: «وعلى الملك فرض أن يقوم بحماية الخلق في حفظ بيضتهم، وسد فرجتهم، وإصلاح ثغرهم من أموالهم التي تفيء عليهم، وحقوقهم التي يجمعها خزنتهم تحت يده ونظره، حتى لو أكلتها الحقوق، وأنفدتها المؤن، واستوفتها العوارض، لكان عليهم جبر ذلك من أموالهم، وعليه حسن النظر لهم، وذلك بثلاثة شروطٍ:

١. ألا يستأثر بشيءٍ عليهم.
٢. أن يبدأ بأهل الحاجة منهم فيعينهم.
٣. أن يسوي في العطاء بينهم على مقدار منازلهم.

فإذا فنيت بعد هذا ذخائر الخزانة وبقيت صفرًا، فأطلعت الحوادث أمرًا بذلوا أنفسهم قبل أموالهم، فإن لم يغن ذلك، فأموالهم تؤخذ منهم على تقديرٍ، وتصرف بأحسن تدبيرٍ.

فهذا ذو القرنين لما عرضوا عليه المال قال: لست أحتاج إليه، وإنما أحتاج إليكم فأعينوني بقوةٍ، أي: اخدموا بأنفسكم معي، فإن الأموال عندي والرجال عندكم؛ ورأى أن الأموال لا تغني دونهم، وأنهم إن أخذوها أجرةً نقص ذلك مما يحتاج إليه، فعاد عليهم بالأخذ، فكان التطوع بخدمة الأبدان أولى»[(٣)].

(١) مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم ص ٣٠٥ بتصرف.
(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ١٢.
(٣) أحكام القرآن، ابن العربي ٣/ ٢٤٣.

ثانيًا: بلوغه مطلع الشمس:

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾﴾ [الكهف: ٩٠ - ٩٢].

بعد رحلةٍ ناجحةٍ بلغ فيها ذو القرنين أقصى الغرب، سلك طريقًا إلى أقصى الشرق ليواصل مسيرته في حمل بشائر الخير ونشر مشاعل النور.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾﴾ أي: أقصى الشرق وجدها تطلع على قوم ليس لهم ما يسترهم، لا من البيوت ولا من اللباس، قيل: كانوا حفاة عراة لا يأوون إلى شيء من العمارة؛ وقيل: لأنهم بأرض لا يمكن أن يستقر عليها البناء، أو لما هم عليه من بداوةٍ، وخلوٍ من جميع مظاهر التمدن والرقي.

عن قتادة، في الآية قال: «ذكر لنا أنهم بأرض لا يثبت لهم فيها شيء، فهم إذا طلعت دخلوا في أسراب حتى إذا زالت الشمس خرجوا إلى حروثهم ومعايشهم»[1].

ولا بد أنه رحمه الله وقد حمل مشاعل النور وراية الإصلاح قد ارتقى بتلك البلاد ونهض بها وألحقها بركب الحضارة، فرسالة العبد الصالح رسالة تنوير وتحرير، رسالة إصلاح وتعمير، رسالة نهوض وتطوير.

﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾ أي: لا يعزب ذو القرنين وجيوشه عن علمنا مهما بلغوا من أصقاع بعيدة وبلادٍ نائيةٍ، ولا يخفى علينا تدبيره وسياسته، فهو مهما شرق أو غرب، في محيط ملك الله الواسع وسلطانه العظيم وتحت قهره وإرادته، وكل هذه البلاد البعيدة التي وصلها ذو القرنين: يعلمها الله تعالى فلا يخفى عليه من أحوالها خافيةٌ، وقد أحاط رب العالمين خبرًا بما لدى ذي القرنين من مواهب وملكات وطاقات وإمكانات تؤهله لارتياد الأقطار قائدًا مظفرًا وحاكمًا عادلًا.

فكما مكن الله تعالى له وهيأ له الأسباب وأعانه على الأخذ به فهو تعالى مطلعٌ عليه محيط بما لديه، خبيرٌ ببواطن الأمور.

ولو شاء الله تعالى لأخبر عن قصته على وجه التفصيل، ولكنه تعالى ذكر شيئًا منها للعظة والاعتبار، فلا يتوهمن أحدٌ أن إيجاز القرآن واقتضابه مما يقدح فيه، بل هو من وجوه بلاغته ومراعاته لمقتضى المقام، فذكر من القصة ما فيه تذكرةٌ، وأشار لذلك في البداية ﴿قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾.

قال البقاعي: «﴿وَقَدْ أَحَطْنَا﴾ بما لنا من العظمة، ﴿بِمَا لَدَيْهِ﴾ أي: كله من الأمور التي هي أغرب المستغرب، ﴿خُبْرًا﴾ أي:

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم، ٩/ ٢٣٥.

من جهة بواطن أموره، فضلًا عن ظواهرها، فلا تستغرب إخبارنا عن ذلك، ولا عن أمر أصحاب الكهف، ولا يظن أن تفصيل أمر الوحي خفي عنا؛ لأنا مطلعون على خفايا الأمور وظواهرها، شواهدها وغوائبها، وكيف لا ونحن أوجدنا، ولكنا لا نذكر من ذلك إلا ما نريد، على ما تدعو إليه الحكمة، فلو شئنا لبسطنا هذه القصة وقصة أهل الكهف، وفصلنا أمر الروح تفصيلًا يعجز عن حفظه الألباء»[1].

«و﴿بِمَا لَدَيْهِ﴾ ما عنده من عظمة الملك من جندٍ وقوةٍ وثروةٍ. والخبر: العلم والإحاطة بالخبر، كنايةٌ عن كون المعلوم عظيمًا بحيث لا يحيط به علمًا إلا علام الغيوب»[2].

قال أبو السعود: «وقد أحطنا بما لديه من الأسباب والعدد والعدد خبرًا، يعني: أن ذلك من الكثرة بحيث لا يحيط به إلا علم اللطيف الخبير»[3].

فلما بلغ بلاد الشرق الأقصى قضى فيهم بعدله وحكمته، كما قضى فيمن سبقهم من أهل الغرب، حيث دعاهم لدعوة الحق وأقام عليهم الحجج القاطعة والبراهين الساطعة، ثم عاقب الكفرة الظلمة، وسالم أهل الحق وكرمهم وقربهم وبشرهم بما عند الله من ثواب عظيم. ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾﴾ أي: طريقًا آخر غير الطريق الأولى، وهي التي رجع بها من المغرب وسار فيها إلى المشرق.

قال ابن عطية: «وقوله: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ المعنى: ثم سلك ذو القرنين الطرق المؤدية إلى مقصده، وكان ذو القرنين، على ما وقع في كتب التواريخ يدوس الأرض بالجيوش الثقال، والسيرة الحميدة، والإعداد الموفي، والحزم المستيقظ المتقد، والتأييد المتواصل، وتقوى الله عز وجل، فما لقي أمة ولا مر بمدينة إلا دانت له، ودخلت في طاعته، وكل من عارضه أو توقف عن أمره جعله عظةً وآيةً لغيره»[4].

فلا يزال يرتقي سلم النهوض والتقدم، ويجتهد في الأخذ بالأسباب وتنميتها، وفي تكرار هذه العبارة: ما يدل على حرص هذا القائد الرباني على الأخذ بالأسباب واجتهاده في تحصيلها وتطويرها وتطويعها لتحقيق الهدف، ونيل المراد.

ثالثًا: بلوغه بين السدين:

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ

(١) نظم الدرر ٤/ ٥٠٣.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٦/ ٣٠.
(٣) إرشاد العقل السليم ٥/ ٢٤٤.
(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٠.

﴿وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۝٩٥ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ۝٩٦ فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ۝٩٧ قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ۝٩٨﴾

[الكهف: ٩٣ - ٩٨]

بعد أن ساهم في نهوض هذه الشعوب البدائية الفقيرة وتنويرها، توجه بهذا الخير إلى موضع عبر عنه القرآن بأنه بين السدين، منطقة يحيط بها جبلان شاهقان وعران، حيث يتسلل المفسدون من قوم يأجوج ومأجوج إلى البلاد المجاورة، ينهبون ثرواتها ويعيثون فيها فسادًا، فطلب أولئك المستضعفون المنكوبون من ذي القرنين أن يحميهم من أولئك المعتدين، واقترحوا عليه أن يبني سدًا منيعًا يحجزهم، على أن يجمعوا له ما يشاء من أموال وثروات، وفي هذا ما يدل على ثقتهم في أمانته وقدراته.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾

وجد ذو القرنين من دون السدين قومًا لا يكادون يفقهون قول قائل سوى كلامهم، ولا يكادون يفقهون أحدًا قولهم، مع ذلك تمكن من معرفة مطالبهم وفهمهم وتفهيمهم، بفضل ما وهبه الله تعالى من أسباب[(١)].

﴿قَالُوا۟ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾

عرضوا على ذي القرنين أن يعطوه من أموالهم ما يستعين به على بناء السد، وأجرة بنائه؛ ليحميهم من أولئك المفسدين على سبيل حفزه وترغيبه، فقال لهم ﴿مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾: أجابهم هذا القائد الزاهد والإمام الراشد إلى مطلبهم دون مقابلٍ، فهو صاحب رسالة إصلاح يؤديها في ربوع الكون، فهل يطمح في أعراض الدنيا الزائلة أم يجنح إلى همم قاصرة؟ وقد وهبه الله تعالى من العلم والتمكين والفهم والتوفيق ما زاده طاعة وانقيادًا وعزمًا واجتهادًا في غرس بذور الخير أينما حل.

«قال ذو القرنين: الذي مكنني في عمل ما سألتموني من السد بينكم وبين هؤلاء القوم ربي، ووطأه لي، وقواني عليه، خيرٌ من جعلكم، وأجرتكم التي تعرضونها علي لبناء ذلك، وأكثر وأطيب، ولكن أعينوني منكم بقوة، أعينوني بفعلة وصناعٍ يحسنون العمل والبناء»[(٢)].

وهذا تأييد من الله تعالى لذي القرنين في هذه المحاورة، فإن القوم لو جمعوا له خرجًا لم يعنه أحد، ولو كلوه إلى البنيان

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ١٠٣.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٨/ ١١٣ بتصرف.

ومعونته بأنفسهم أجمل به وأسرع في انقضاء هذا العمل، وربما أربى ما ذكروه له على الخرج[1].

﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ يقول: أجعل بينكم وبين يأجوج ومأجوج ردمًا، والردم: هو الحاجز، ولعله سمى السد الذي وعد بإنجازه ردمًا تواضعًا.

﴿ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا﴾ أي: جيئوني بزبر الحديد، وهي جمع زبرة، والزبرة: القطعة من الحديد. فجعلها بين الصدفين، أي: حافتي الجبلين، حتى إذا ساوى بينهما بما جعل بينهما من زبر الحديد، قال للعمال: انفخوا النار، فنفخوا حتى إذا جعل ما بين الصدفين من الحديد نارًا ﴿قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾، أصب عليه قطرًا، والقطر: النحاس المذاب.

وقد استخدمت هذه الطريقة حديثًا في تقوية الحديد؛ فوجد أن إضافة نسبة من النحاس إليه تضاعف مقاومته وصلابته، كما أن النحاس أملس؛ لا يمكن تسلقه، فهدى الله ذا القرنين إلى هذه الوسيلة الناجحة.

﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ فما استطاع يأجوج ومأجوج أن يعلوا الردم الذي جعله ذو القرنين حاجزًا بينهم، وبين من دونهم من الناس، فيصيروا فوقه وينزلوا منه إلى الناس لعلوه وملاسته، ولم يستطيعوا أن ينقبوه من أسفله؛ لسمكه وصلابته.

قال بعد أن أتم البناء بإحكام وإتقان: ﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ أي: هذا البنيان رحمة وفضل من الله الذي وهبني العلم ومنحني الملكات والطاقات، وهيأ لي الأسباب حتى تم البناء الذي يحجز أولئك المفسدين ويحمي هؤلاء المستضعفين، ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ أي: إذا اقترب الوعد الحق ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ أي: مساويًا للأرض، ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ أي: كائنًا لا محالة. فأشار إلى مدة انتهاء صلاحية هذا الردم، وذلك عند تحقق الوعد الإلهي.

عن زينب بنت أم سلمة عن أم حبيبة، عن زينب بنت جحشٍ رضي الله عنهن أن النبي صلى الله عليه وسلم استيقظ من نومه وهو يقول: (**لا إله إلا الله، ويلٌ للعرب من شرٍ قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه**) الحديث[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (**إن يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم:**

(1) الجامع لأحكام القرآن ١١/ ٦٠.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج، ٢/ ٣٦٨، رقم ٣٣٤٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج، ٤/ ٢٢٠٧، رقم ٢٨٨٠.

ارجعوا فستحفرونه غدًا، فيعودون إليه كأشد ما كان، حتى إذا بلغت مدتهم، وأراد الله عز وجل أن يبعثهم إلى الناس، حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غدًا إن شاء الله، ويستثني، فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه، فيحفرونه ويخرجون على الناس، فينشفون المياه، ويتحصن الناس منهم في حصونهم، فيرمون بسهامهم إلى السماء، فترجع وعليها كهيئة الدم، فيقولون: قهرنا أهل الأرض، وعلونا أهل السماء، فيبعث الله عليهم نغفًا في أقفائهم فيقتلهم بها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: والذي نفس محمدٍ بيده، إن دواب الأرض لتسمن شكرًا من لحومهم ودمائهم)[1].

الدروس من قصة ذي القرنين

من الدروس والعبر التي تؤخذ من قصة ذي القرنين ما يأتي:

- من عوامل النهوض وأسباب الرقي: الأخذ بالأسباب المعينة على ذلك من الإيمان الخالص والعلم النافع والعمل الصالح، مع الإخلاص والتجرد والتوكل واليقين وعلو الهمة.
- العقيدة الصحيحة والإيمان الراسخ من صفات ذي القرنين، لاحظ كثرة ترديده لكلمة ربي، حتى لا تكاد تمر جملة إلا ويذكرها: ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾. ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ﴾. ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾، وفي هذا تعظيمٌ لله ومحبةٌ له، وترسيخٌ للعقيدة، وشكرٌ وامتنانٌ.
- في هذا نموذج يحتذى لخطاب الحكام والساسة، وترسيخ لمعاني الربوبية وتذكيرٌ بآثارها، وفيه ما يدل على محبة وتعظيم وعبودية وتسليم لله تعالى، فهو وإن قاد العالم لكنه ينقاد لخالقه وبارئه.
- خطاب الحاكم وكلماته لا بد وأن يعنى فيها بالترغيب والترهيب، ويذكر دائمًا بأمور الآخرة لما في ذلك من بالغ الأثر في إصلاح القلوب وتهذيب النفوس

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ١٦/ ٣٦٩، رقم ١٠٦٣٢، وابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب فتنة الدجال وخروج عيسى ابن مريم وخروج يأجوج ومأجوج، ٢/ ١٣٦٤، رقم ٤٠٨٠.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٤٥٢، رقم ٢٢٧٦.

وحفز الهمم لثواب الآخرة.

- قيام الحضارات لا يتأتى بين عشية وضحاها؛ بل يأتي بعد جهدٍ جهيدٍ وصبرٍ جميلٍ وإعدادٍ جيدٍ وتخطيطٍ محكمٍ، والأمم إن لم تنهض وتتقدم، فإنها تتقاعس وتتخلف.
- الحضارة الإسلامية تبعث في النفس روح النهوض والأمل، وتنمي ملكة الابتكار والتطوير، ويسعى المسلمون لنشر روح الحضارة والرقي في كافة بقاع الأرض ليعم الخير الجميع.
- ضرورة التخطيط الواعي المقترن بالتنفيذ المحكم لإصلاح البلاد والنهوض بها.
- حتى تصل رسالة التوحيد إلى الأمم والشعوب التي لم تصلها بعد لا بد وأن نكون أمة متحضرة متقدمة حتى يسمع العالم لنا، فهذا ذو القرنين يستمع العالم له ويشيد بعدله ويحتمي بسلطانه.
- في قصة ذي القرنين نموذجٌ رائعٌ ومثالٌ واقعيٌّ للقائد الراشد والحاكم العادل والفاتح المؤيد، الذي يمكنه الله في الأرض، وييسر له الأسباب؛ فيبلغ مشارق الأرض ومغاربها ؛ فلا يتجبر ولا يتكبر، ولا يطغى ولا يتبطر، ولا يتخذ من الفتوح وسيلة للكسب المادي، واستغلال الأفراد وابتزاز الشعوب، ولا يعامل البلاد المفتوحة معاملة الرقيق؛ ولا يسخر أهلها في أغراضه وأطماعه.. إنما ينشر العدل في كل مكان يحل به، ويساعد المتخلفين المستضعفين، ويدرأ عنهم العدوان دون مقابل؛ ويستخدم القوة التي يسرها الله له في التغيير والإصلاح، ودفع العدوان وإحقاق الحق، وهكذا كانت الفتوحات الإسلامية في عهودها الأولى.
- العدل في العقوبة، فلا يتجاوز الحاكم حدود الشرع فيها، والإحسان في المكافأة والإثابة، فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟
- الحزم في الأمور من صفات القائد والحاكم، تأمل قوله تعالى: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾﴾ [الكهف: ٨٧].
- الأدب مع الله: ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ لما ذكر ما أعد الله له من الحسنى جزاء لم يناسب أن يذكر جزاءه بالفعل، بل اقتصر على القول أدبًا مع الله تعالى، وإن كان يعلم أنه يحسن إليه فعلًا وقولًا.
- في تخيير ذي القرنين رحمه الله بين أن يعذبهم وبين أن يتخذ فيهم حسنًا، ما يدل على ما كانوا عليه من ظلمٍ

بينٍ، وصدٍ عن الحق، مما يستوجب معاقبتهم، وفي هذا ما يرشد إلى وجوب مجابهة الظالمين وكفهم عن ظلمهم.

- التيسير من مقاصد الشريعة ومظاهرها، وهو واجب شرعي على الحكام والمسؤولين، فينبغي مراعاته، سيما لمن هو أهله من أهل الصلاح والاستقامة، والتيسير في القول والفعل.
- من صفات الحاكم والقائد الرحمة، فالرحمة من كريم الشمائل، ومن الواجبات والمقاصد الشرعية مهمة الحاكم تحقيقها ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ [الكهف: ٩٨].
- الحاكم العادل يعطي الرعية أكثر مما تطمح إليه، حيث بنى لهم سدًا منيعًا دون مقابل مادي.
- الحاكم المسلم لا بد وأن يكون مؤهلًا بمعارفه الواسعة وثقافاته المتشعبة وفقهه بأمور الدين والحياة.
- أهمية تعلم اللغات للتفاهم والتواصل والتعاون مع الشعوب، عن ابن زيد رضي الله عنه، في قوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾، قال: «علمًا، من ذلك تعليم الألسنة، كان لا يعرف قومًا إلا كلمهم بلسانهم»[1].
- الأخذ بالأسباب وإعداد العدة للأسفار البعيدة بما يناسبها.
- الهمة العالية والعزيمة القوية لبلوغ الأهداف.
- التأكيد على أهمية طلب العلم والتزود بالمعرفة، والسؤال عما يجهله الإنسان أو السؤال للتثبت من الإجابة، والسؤال هو المفتاح الثاني بعد القراءة لطلب المعارف والعلوم واكتشاف المجهول.
- حرص الحاكم القائد على نشر أصول الحضارة والمدنية في دائرة ملكه وخارجها.
- ضرورة إعداد الجيوش وتجهيزها بأحدث التقنيات مع إعداد الجنود والقادة، فلا سبيل إلى إزاحة الأنظمة المستبدة وحماية المستضعفين، وتمهيد طريق الدعوة، وتأمين المدعوين، ونشر العدالة والرحمة، إلا بالجهاد.
- من صفات الإمام العادل أنه حربٌ على أعداء الله وسلم لأولياء الله، يدني أهل الطاعة ويباعد أهل المعصية، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويذكر دائمًا بفضل الله ورحمته، ومن واجبه أن يصون البلاد من كل مكروهٍ.

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٣٠.

❁ جمع إلى جانب العلم النافع والخبرة الدقيقة والمهارة الفائقة والإمكانات الهائلة: التواضع الرفيع والإيمان العميق والنفس الراضية العفيفة، والأيادي السخية النظيفة، والأريحية والشهامة: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾﴾. لم يستغل حاجتهم في تجريدهم من الممتلكات والثروات، كما تفعله في عصرنا الحاضر الأمم الغالبة المتحضرة مع الشعوب المقهورة النامية، من نهب ثرواتهم وحصد خيراتهم وجني ثمارهم! والتآمر على بقائهم تحت وطأة الجهل ونير الاستبداد. ما فعل ذو القرنين كما تفعل تلك الدول التي ترهق الشعوب الفقيرة بالديون المركبة، تطوق بها أعناقهم وتلهب بها ظهورهم، وتنتزع ولاءهم وخنوعهم! وترغم أنوفهم.

❁ في حبس ذي القرنين ليأجوج ومأجوج وراء الردم: دليلٌ على اتخاذ السجون، وحبس أهل الفساد فيها، لمعاقبتهم ومنع شرهم وتقويم سلوكهم . قال القرطبي: في هذه الآية (آية السد) دليل على اتخاذ السجون، وحبس أهل الفساد فيها، ومنعهم من التصرف لما يريدونه، ولا يتركون وما هم عليه، بل يوجعون ضربًا ويحبسون، أو يكفلون ويطلقون[1].

❁ دفع الشر بأيسر ما يندفع به، ذلك أن ذا القرنين مع حزمه وقوته رأى أن بناء السد كافٍ في دفع أذى يأجوج ومأجوج دون الحاجة لإراقة الدماء.

❁ شكر المنعم وإجلاله والتواضع لعظمته والإقرار بفضله: قال السعدي: «فلما فعل هذا الفعل الجميل والأثر الجليل، أضاف النعمة إلى موليها وقال: ﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ أي: من فضله وإحسانه علي، وهذه حال الخلفاء الصالحين، إذا من الله عليهم بالنعم الجليلة، ازداد شكرهم وإقرارهم، واعترافهم بنعمة الله، كما قال سليمان عليه السلام ، لما حضر عنده عرش ملكة سبأ مع البعد العظيم، قال: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل: ٤٠]. بخلاف أهل التجبر والتكبر والعلو في الأرض، فإن النعم تزيدهم أشرًا وبطرًا»[2].

❁ ألا ما أحوج البشرية إلى الدعاة والمصلحين والقادة الراشدين، الذين يبددون ظلام الاستبداد، ويقطعون

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٥٩.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٨٦

دابر الفساد، ويقيمون موازين القسط، ويرفعون مشاعل النور، كما قال محمد إقبال[١]:

فأين جحافل الأبطال منا
يضيء مسيرها للسالكين
وتغبطها شعوبٌ أرهقتها
بالاستبداد أيدي الظالمين

- سرعة تحقيق العدالة وإنجاز الأعمال التي تجلب المصالح أو تدفع المضار للأمم والشعوب، فالعدالة البطيئة ظلم، والتواني في إنجاز المشاريع مفسدة عظيمة.
- السياحة في الأرض والتجوال فيها لا بد وأن تكون هادفةً بناءةً ليس لمجرد المتعة والتسلية، بل لنشر قيم العدالة والخير.
- النظر والتأمل والاستمتاع بروائع الكون وظواهره الخلابة، كمنظر الشمس وهي تغرب، فيلتقي قرصها وهو آخذٌ بالاحمرار مع زرقة البحار، في مشهد يأخذ بالأبصار.
- السياحة في الأرض تؤدي إلى تلاقح الأفكار وتبادل الخبرات، فضلًا عن تقارب الأمم والشعوب ولقاء الحضارات.
- السعي إلى غوث الملهوف ونصرة المظلوم دون ترددٍ ولا تقاعس.
- أهمية الصناعات الثقيلة وأثرها في حالة السلم والحرب.
- العلم والمعرفة والخبرات ملكٌ للإنسانية ليس لأحد أن يحتكرها.
- ربط الأعمال كلها بمشيئة الله سبحانه.
- التعاون والعمل الجماعي يساعد في إنجاز المهمات الكبرى.
- لا تزال هناك أممٌ متخلفة عن ركب الحضارات، وقبائل تعيش في أصقاع الأرض، في جزر نائية أو أدغال، أو قمم جبال منعزلة تمامًا عن البشرية، وتلك مسؤولية الشعوب والحكومات المتحضرة أن تمد يد العون.

(١) ديوان محمد إقبال، مختارات من شعره ص ٣، ٢٨، ١٠٧.

لمسات بيانية في قصة ذي القرنين

- حسن المطلع، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ [الكهف: ٨٣]. فالبداية بالسؤال من بلاغة الاستهلال وروائعه، ومما يسترعي الانتباه ويلفت الأنظار، ويشوق النفوس، وفي الجواب شفاءٌ ووفاءٌ، بما يفي بحاجة السائل، «والتعبير بصيغة الاستقبال ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ لاستحضار الصورة الماضية؛ لما أن في سؤالهم على ذلك الوجه مع مشاهدتهم من أمره ما شاهدوا نوع غرابة، وقيل: للدلالة على استمرارهم على السؤال إلى ورود الجواب»[(١)].
- ﴿قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ۝٨٣﴾ قصة ذي القرنين جديرةٌ بالمذاكرة والمدارسة لما فيها من عبرٍ وعظاتٍ وحكمٍ ومعانٍ وآدابٍ وشمائل، وفوائد للقادة والمصلحين والساسة والمربين والرعايا، فكان جديرًا بأن يذكر في أشرف الكتب ويتردد على مسامع خير الأمم، فهو أسوةٌ للحكام قدوة للقادة إمامٌ للمصلحين.
- بداية القصة بقوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ﴾ من حسن المطلع وروعة الاستهلال، إذ قبل الحديث عن ملك من أعظم ملوك الأرض يأتي الحديث عن ملك الملوك، فهو من وهب لذي القرنين هذا الملك العظيم ومكن له، فالتمكين من الله تعالى. والتعبير بنون العظمة دليل على عظمة الله تعالى وعظمة ما وهبه لذي القرنين من ملك وسلطانٍ وتمكينٍ في الأرض، قال البقاعي: «ولما كانت قصته من أدل دليل على عظمة الله، جلاها في ذلك المظهر فقال: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا﴾ أي: بما لنا من العظمة، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ﴾ بعظمتنا»[(٢)].
- بلاغة الربط بين الأحداث، وجمال الفواصل بينها ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ۝٨٤ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ۝٨٥﴾، ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾، ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ﴾، تكررت مع كل رحلة، وانتهاء الفاصلة بالألف المدية من جمال القرآن الكريم.
- دقة القرآن الكريم في التعبير بالفاء ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ وبـ(ثم) في ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ فالفاء تدل على الجد والمبادرة إلى الأخذ بالمزيد من الأسباب، و(ثم) تدل على التراخي الزمني، بين هذه الرحلات.
- والتعبير بالفاء ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ يشير إلى همةٍ عالية وعزيمةٍ قويةٍ تأخذ

---

(١) روح المعاني، الألوسي ١٦/ ٢٤.

(٢) نظم الدرر ٤/ ٥٠١.

الأمور بجدٍ، فلا توانٍ ولا تقاعس ولا تكاسل ولا تراخي عن الأخذ بأسباب التقدم والنهوض، أما التعبير بـ(ثم) مرتين ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ فيشير إلى دأبه واستمراره على طلب المزيد.

- قدم العذاب الدنيوي على الأخروي لأن الكافر يرعوي وينزجر بالعقاب الدنيوي، بينما قدم ما عند الله على ما عنده؛ لأن نفوس المؤمنين تطمح لما لها عند رب العالمين وتستشرف هذا الثواب المدخر، وتتشوف لنصيبها في الآخرة.
- جاء التعبير بسوف: ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾ للدلالة على إمهاله لهم حتى تقام عليهم الحجج، فإن هم أصروا على كفرهم وظلمهم فقد استوجبوا العقاب، كما أن (سوف) أبلغ من السين، وفي ذلك إمعانٌ في تهديدهم إن لم يتوبوا، قال أبو حيان: «وأتى بحرف التنفيس في ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾ لما يتخلل بين إظهاره كفره وبين تعذيبه من دعائه إلى الإيمان وتأبيه عنه، فهو لا يعاجلهم بالقتل على ظلمهم، بل يدعوهم ويذكرهم، فإن رجعوا وإلا فالقتل»[1].
- ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ تقديم ﴿فَلَهُۥ﴾ للاعتناء والتخصيص، وتأخير الحسنى للتشويق مع مراعاة الفاصلة، مع فصاحة التركيب.
- المقابلة بين الظلم والإيمان: والأصل المقابلة بين الإيمان والكفر؛ لأن الكافر لا يعاقب دنيويًا على كفره فحسب، بل يعاقب على ظلمه واعتدائه.
- دقة القرآن الكريم في ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟﴾، ﴿وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾: قال البقاعي: «وزيادة التاء هنا تدل على أن العلو عليه أصعب من نقبه لارتفاعه وصلابته والتحام بعضه ببعض حتى صار سبيكة واحدة من حديد ونحاس في علو الجبل»[2].

موضوعات ذات صلة:

التمكين، التطوع، الحضارة، السياسة، الفساد

(١) البحر المحيط ٦/ ١٥٦.

(٢) نظم الدرر ٤/ ٥٠٥.



عناصر الموضوع

مفهوم الرؤيا

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن منظور: «والرؤيا ما رأيته في منامك... وهي الرؤى، ورأيت عنك رؤى حسنة حلمتها، وأرأى الرجل إذا كثرت رؤاه بوزن رعاه، وهي أحلامه، جمع الرؤيا، ورأى في منامه رؤيا على فعلى بلا تنوين، وجمع الرؤيا رؤى بالتنوين مثل رعى»[1].

وقال الفراهيدي: «ولا تجمع الرؤيا، ومن العرب من يلين الهمزة فيقول: رويا، ومن حول الهمزة فإنه يجعلها ياءً، ثم يكسر فيقول: رأيت ريًا حسنة، والري ما رأت العين من حال حسنة من المتاع واللباس»[2].

وقال الفراء: «إذا تركت العرب الهمزة من الرؤيا قالوا: الرويا، طلبًا للخفة، فإذا كان من شأنهم تحويل الواو إلى الياء قالوا: (لا تقصص رياك) في الكلام، وأما في القرآن فلا يجوز. قال: ولا تجمع الرؤيا، وقال غيره: تجمع الرؤيا: رؤى، كما يقال: عليا، وعلى»[3].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يوجد فرق كبير بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي، لأنها لا تعدو معنى ما يراه المرء في النوم.

(١) لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٢٩١.
(٢) العين، الفراهيدي ٨/ ٣٠٧.
(٣) تهذيب اللغة، الأزهري ١٥/ ٢٢٨.



الرؤيا في الاستعمال القرآني

وردت مادة (رأي) في القرآن الكريم (٣٢٧) مرة، يخص موضوع البحث منها (١٢) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	٤	﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰ﴾[الصافات:١٠٢]
الفعل الماضي	١	﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء:٦٠]
المفرد	٧	﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [يوسف:٤٣]

وجاءت الرؤيا في الاستعمال القرآني بمعناها اللغوي، وهو: ما يراه الإنسان في منامه[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٢٨٠-٢٨٥.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٢٩٧.

الألفاظ ذات الصلة

١ الحلم:

الحلم لغة:

الحلم بالضم والحلم بضمتين: الرؤيا، وجمعها الرؤى، وهي أحلامٌ، حلم في نومه واحتلم وتحلم وانحلم، وتحلم الحلم: استعمله وحلم به، وعنه: رأى له رؤيا أو رآه في النوم[(١)].

قال الليث: «الحلم الرؤيا، يقال: حلم يحلم إذا رأى في المنام، والحلم: بضم الحاء واللام أو ضم الحاء وسكون اللام، وهو ما يراه النائم، والحلم: بكسر الحاء وسكون اللام هو الأناة والعقل»[(٢)].

الحلم اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي، إلا أنه غلب في الاستعمال الشرعي على ما يراه النائم من الشر والقبيح.

الصلة بين الرؤيا والحلم:

قال ابن الأثير: «الرؤيا والحلم عبارة عما يراه النائم في نومه، لكن غلبت الرؤيا على ما يراه من الخير والشيء الحسن، وغلب الحلم على ما يراه من الشر والقبيح، ومنه قوله تعالى: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ [يوسف:٤٤]. ويستعمل كل واحد منهما موضع الآخر»[(٣)].

ويؤيده الحديث النبوي: (الرؤيا الصالحة من الله، والحلم من الشيطان، فإذا حلم فليتعوذ منه، وليبصق عن شماله، فإنها لا تضره)[(٤)].

قال ابن حجر: «إن التي تضاف إلى الله لا يقال لها: حلم، والتي تضاف للشيطان لا يقال لها: رؤيا، وهو تصرف شرعي وإلا فالكل يسمى رؤيا»[(٥)].

---

(١) القاموس المحيط، الفيرزوآبادي ص ١٠٩٦.
(٢) تهذيب اللغة، الأزهري ٥/ ٦٩.
(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الجزري ص ١٠٣٦.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التعبير، باب الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة، ٦/ ٢٥٦٣، رقم ٦٥٨٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الرؤيا، ٤/ ١٧٧١، رقم ٢٢٦١.
(٥) فتح الباري، ابن حجر ١٢/ ٣٦٩.



٢ الرؤية:

الرؤية لغة:

وتعني إدراك المرئي والإقبال بالبصر نحوه، قد يدرك وقد لا يدرك؛ ولذلك قد ينظر الشخص ولا يرى المرئي، وعليه فيجوز أن يقال لله تعالى: إنه راءٍ، ويقال: إنه ناظر.

الرؤية اصطلاحًا:

هو «المشاهدة بالبصر حيث كان في الدنيا والآخرة»(١).

الصلة بين الرؤيا والرؤية:

إن الاستعمال الشائع للفظة «الرؤيا» هو ما يراه الإنسان في النوم، وأما معنى «الرؤية» فهو ما يراه الإنسان بحاسة بصره، أي: بعينه، وما يراه بقلبه، أي: فكره، وفرق بين الرؤيا والرؤية بتاء التأنيث للفرق بين ما يراه النائم وما يراه اليقظان.

قال ابن حجر: «وأما الرؤيا فهي ما يراه الشخص في منامه، وهي بوزن فعلى، وقد تسهل الهمزة، وقال الواحدي: هي في الأصل مصدر كاليسرى، فلما جعلت اسمًا لما يتخيله النائم أجريت مجرى الأسماء»(٢).

قال الفيروز آبادي: «الرؤية: النظر بالعين وبالقلب»(٣).

قال الراغب: «والرؤية: إدراك المرئي، وذلك أضرب بحسب قوى النفس، والأول: بالحاسة وما يجري مجراها، نحو ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝٧﴾ [التكاثر:٦-٧]. والثاني: بالوهم والتخيل، نحو أرى أن زيدًا منطلق، والثالث: بالتفكر، نحو ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ [الأنفال:٤٨]. والرابع: بالعقل، وعلى ذلك قوله: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ۝١١﴾ [النجم:١١]»(٤).

قال ابن حجر نقلًا عن بعض العلماء: «وقد تجيء الرؤية بمعنى الرؤيا، كقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء:٦٠]»(٥).

---

(١) التعريفات، الجرجاني ص١٠٩.
(٢) فتح الباري، ابن حجر ١٢/ ٣٥٢.
(٣) القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ١٢٨٥.
(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٧٤.
(٥) فتح الباري، ابن حجر ١٢/ ٣٥٢.

٣ الوحي:

الوحي لغة:

الإشارة، والكتابة، والرسالة، والإلهام، والكلام الخفي، وكل ما ألقيته إلى غيرك. يقال: وحيت إليه الكلام وأوحيت، وهو أن تكلمه بكلام تخفيه[١].

الوحي اصطلاحًا:

قال الزرقاني: «الوحي في لسان الشرع أن يعلم الله تعالى من اصطفاه من عباده كل ما أراد إطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم، ولكن بطريقة سرية خفية غير معتادة للبشر»[٢].

الصلة بين الرؤيا والوحي:

الرؤيا في حق الأنبياء عليهم السلام وحي، وأما غيرهم فليست وحيًا، ولكنها من البشارات، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة)[٣].

---

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ٧/ ٣٧٠، لسان العرب، ابن منظور ١٥/ ٣٧٩.

(٢) مناهل العرفان، الزرقاني ١/ ٦٣.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التعبير، باب الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة، ٩/ ٣١، رقم ٦٩٨٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الرؤيا، ٤/ ١٧٧٣، رقم ٢٢٦٣.

انواع الرؤيا

إن النبي صلى الله عليه وسلم قسم الرؤيا إلى ثلاثة أقسام، منها ما تكون رؤيا صادقة، ومنها ما يكون من فعل ابليس، ومنها ما يكون من حديث النفس.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**والرؤيا ثلاثة: فرؤيا صالحة بشرى من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدث المرء نفسه، فإن رأى أحدكم ما يكره فليقم فليصل، ولا يحدث بها الناس**)(١).

قال ابن القيم: «والرؤيا كالكشف، منها رحماني، ومنها نفساني، ومنها شيطاني»(٢).

ولم يحك القرآن الكريم من هذه الأنواع إلا النوع الأول، وجاء ذكر أضغاث الأحلام عرضًا على لسان حاشية ملك مصر تارة، وعلى لسان المشركين تارة أخرى، كما سيأتي.

أولًا: الرؤيا الصالحة:

الرؤيا الصالحة هي الرؤيا الصادقة ومعنى الصادقة: المطابقة للواقع، وهي الرؤيا الحق، لأنها تقع كما هي، وهي الرؤيا الحسنة أيضًا، باعتبار حسن ظاهرها، أو حسن تأويلها، وهذه هي الأسماء والأوصاف النبوية التي أطلقت على الرؤيا الصالحة.

وكل الرؤى التي تناولها القرآن الكريم كانت عبارة عن رؤى صادقة، فقد قص علينا رؤى سيدنا إبراهيم ويوسف ومحمد عليهم الصلاة والسلام رؤاهم الصالحة، وكانت رؤيا الفتيان ورؤيا ملك مصر من الرؤى الصادقة كذلك، وسيأتي الكلام على ذلك بالتفصيل في المباحث اللاحقة.

قال المهلب: «الرؤيا الصالحة هي تباشير النبوة؛ لأنه لم يقع فيها ضغث فيتساوى مع الناس في ذلك، بل خص صلى الله عليه وسلم بصدقها كلها»(٣).

وهي أول ما بدئ الوحي بها، واستمرت مدة ستة أشهر من ربيع الأول إلى شهر رمضان المبارك حيث جاءه الوحي الصريح.

وإنما اقتصر الوحي في بدايته على الرؤيا فقط مراعاة لسنة التدرج، وتلطفًا وإيناسًا له صلى الله عليه وسلم، ورفقًا به، لئلا يفجأه الملك يقظة فيشق عليه، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، أي: فكانت رؤياه صلى الله عليه وسلم كلها صحيحة صادقة، لا يرى رؤيا إلا تحقق تفسيرها وظهر، كما يظهر الصباح في هذا الوجود(٤).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرؤيا، ٤/ ١٧٧٣، رقم ٢٢٦٣.
(٢) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٥١.
(٣) عمدة القاري، العيني ١/ ٥٣.
(٤) منار القاري، حمزة قاسم ١/ ٣٤.

أخرج البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: (كان أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح)[(١)].

وفي صحيح البخاري جاء وصفها بالرؤيا الحسنة، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة)[(٢)].

قال المهلب: «المراد غالب رؤيا الصالحين، وإلا فالصالح قد يرى الأضغاث، ولكنه نادر لقلة تمكن الشيطان منهم، بخلاف عكسهم، فإن الصدق فيها نادر لغلبة تسلط الشيطان عليهم، فالناس على هذا ثلاث درجات الأنبياء ورؤياهم كلها صدق، وقد يقع فيها ما يحتاج إلى تعبير، والصالحون والأغلب على رؤياهم الصدق، وقد يقع فيها ما لا يحتاج إلى تعبير، ومن عداهم يقع في رؤياهم الصدق والأضغاث، وهي على ثلاثة أقسام: مستورون، فالغالب استواء الحال في حقهم، وفسقة، والغالب على رؤياهم الأضغاث ،ويقل فيها الصدق، وكفار، ويندر في رؤياهم الصدق جدًا»[(٣)].

ويكفي الرؤيا الصالحة أنها مضافة إلى الله عز وجل إضافة تشريف، وكما جاء ذلك في الصحيحين عن أبي قتادة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (الرؤيا الصالحة من الله، والحلم من الشيطان، فإذا حلم فليتعوذ منه وليبصق عن شماله، فإنها لا تضره)[(٤)].

وإنها جزء من أجزاء النبوة كما تقدم، وإنها من مبشرات النبوة التي يبشر بها المؤمن، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (كشف رسول الله صلى الله عليه وسلم الستارة والناس صفوف خلف أبي بكر، فقال: (أيها الناس إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة، يراها المسلم أو ترى له)[(٥)].

والرؤيا الصالحة من النعم الإلهية التي تستحق الشكر، ولهذا يستحب لمن رأى رؤيا صالحة تسر بها نفسه أن يشكر الله عليها؛ لأنها نعمة، وأن يحدث بها أحبابه الذين يثق بهم،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ١/ ٤، رقم ٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ١/ ١٣٩، رقم ١٦٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التعبير، باب رؤيا الصالحين، ٦/ ٢٥٦٢، رقم ٦٥٨٢.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ١٢/ ٣٦٢.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود، ١/ ٣٤٨، رقم ٤٧٩.

ويطمئن إلى علمهم ورجاحة عقلهم[(١)].

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (**إذا رأى أحدكم الرؤيا يحبها فإنها من الله، فليحمد الله عليها وليحدث بها، وإذا رأى غير ذلك مما يكره فإنما هي من الشيطان، فليستعذ من شرها ولا يذكرها لأحد، فإنها لن تضره**)[(٢)].

قال ابن القيم: «والرؤيا الصحيحة أقسام، منها: إلهام يلقيه الله سبحانه في قلب العبد، وهو كلام يكلم به الرب عبده في المنام، كما قال عبادة بن الصامت وغيره، ومنها: مثل يضربه له ملك الرؤيا الموكل بها، ومنها: التقاء روح النائم بأرواح الموتى من أهله وأقاربه وأصحابه وغيرهم، ومنها: عروج روحه إلى الله سبحانه وخطابها له، ومنها: دخول روحه إلى الجنة ومشاهدتها وغير ذلك، فالتقاء أرواح الأحياء والموتى نوع من أنواع الرؤيا الصحيحة التي هي عند الناس من جنس المحسوسات»[(٣)].

ومن علامات الرؤيا الصالحة تواتر المسلمين عليها، كما حصل للصحابة رضي الله عنهم في رؤاهم لليلة القدر في السبع الأواخر، فقد روى ابن عمر رضي الله عنهما أن رجالًا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أروا ليلة القدر في المنام في السبع الأواخر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**أرى رؤياكم قد تواطأت في السبع الأواخر، فمن كان متحريها فليتحرها في السبع الأواخر**)[(٤)].

قال ابن القيم: «فإذا تواطأت رؤيا المؤمنين على شيء، كان كتواطؤ روايتهم له وكتواطؤ رأيهم على استحسانه واستقباحه، وما رآه المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن، وما رأوه قبيحًا فهو عند الله قبيح»[(٥)].

ومن علامات الرؤيا الصادقة صدق الحديث، فمن كان أصدق الناس حديثًا كان أصدقهم رؤيا، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المسلم تكذب، وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثًا**)[(٦)].

قال النووي: «ظاهره أنه على إطلاقه، وحكى القاضي عن بعض العلماء أن هذا

---

(١) منار القاري، حمزة قاسم ٥/ ٣٤٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التعبير، باب إذا رأى ما يكره فلا يخبر بها ولا يذكرها، ٦/ ٢٥٨٢، رقم ٦٦٣٨.

(٣) الروح، ابن القيم ص ٢٩.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب صلاة التراويح، باب التماس ليلة القدر في السبع الأواخر، ٢/ ٧٠٩، رقم ١٩١١، ومسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب فضل ليلة القدر والحث على طلبها وبيان محلها وأرجى أوقات طلبها، ٢/ ٨٢٢، رقم ١١٦٥.

(٥) الروح، ابن القيم ص ٩.

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرؤيا، ٤/ ١٧٧٣، رقم ٢٢٦٣.

يكون في آخر الزمان عند انقطاع العلم وموت العلماء والصالحين ومن يستضاء بقوله وعمله، فجعله الله تعالى جابرًا وعوضًا ومنبهًا لهم، والأول أظهر»[1].

وقال ابن القيم: «والذي هو من أسباب الهداية هو الرؤيا التي من الله خاصة، ورؤيا الأنبياء وحي، فإنها معصومة من الشيطان، وهذا باتفاق الأمة؛ ولهذا أقدم الخليل على ذبح ابنه إسماعيل عليهما السلام بالرؤيا، وأما رؤيا غيرهم فتعرض على الوحي الصريح، فإن وافقته وإلا لم يعمل بها.

فإن قيل: فما تقولون إذا كانت رؤيا صادقة أو تواطأت؟

قلنا: متى كانت كذلك استحال مخالفتها للوحي، بل لا تكون إلا مطابقة له منبهة عليه أو منبهة على اندراج قضية خاصة في حكمه لم يعرف الرائي اندراجها فيه فيتنبه بالرؤيا على ذلك، ومن أراد أن تصدق رؤياه فليتحر الصدق وأكل الحلال والمحافظة على الأمر والنهي، ولينم على طهارة كاملة مستقبل القبلة، ويذكر الله حتى تغلبه عيناه، فإن رؤياه لا تكاد تكذب ألبتة»[2].

ثانيًا: حديث النفس:

ولم يرد شيء من هذا النوع «حديث النفس» في القرآن الكريم، إلا أن النبي عليه الصلاة والسلام بين المقصود من رؤيا حديث النفس بأنها: **(ورؤيا يحدث بها الرجل نفسه)** وجاءت بلفظ آخر وهي: **(ومنها ما يهم به الرجل في يقظته فيراه في منامه)**.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(والرؤيا ثلاثة: فرؤيا صالحة بشرى من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدث المرء نفسه، فإن رأى أحدكم ما يكره فليقم فليصل، ولا يحدث بها الناس)**[3].

وفي سنن ابي داود عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن أن تكذب، وأصدقهم رؤيا أصدقهم حديثًا، والرؤيا ثلاث: فالرؤيا الصالحة بشرى من الله، والرؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدث به المرء نفسه، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقم فليصل ولا يحدث بها الناس)**[4].

وعند ابن ماجه والطبراني عن عوف بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(إن الرؤيا ثلاث منها أهاويل من الشيطان ليحزن بها ابن آدم،**

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ١٥/ ٢٠.
(٢) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٥١- ٥٢.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرؤيا، ٤/ ١٧٧٣، رقم ٢٢٦٣.
(٤) أخرجه أبو داود ، في سننه، ٤/ ٤٦٢، والترمذي في سننه، ٤/ ٥٣٢. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

ومنها ما يهم به الرجل في يقظته، فيراه في منامه، ومنها جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة)[1].

قال القاضي عياض: «إن ما يكون من الأخلاط من باب ما يحدث به المرء نفسه، لأن غلبة حديث المرء عليه في يقظته تعتريه في نومه حتى يسمعه يتكلم به، وقد يعتريه عند شدة مرضه وبرسامة إغمائه حتى في صحته عند اشتغال سره، يتكلم بشيء مع غيره، فيقلب اللفظ ويغير الخطاب ببعض الكلمات والأسماء التي يحدث بها المرء نفسه، وكذلك غلبة الخلط عليه هو من هذا الباب»[2].

قال العزيزي: «وهو ما كان في اليقظة يكون في مهم، فيرى ما يتعلق به في النوم»[3].

قال القرطبي: «ويدخل فيه ما يلازمه في يقظته من الأعمال والعلوم والأقوال، وما يقوله الأطباء من أن الرؤيا من خلط غالب على الرائي»[4].

والمراد هنا: جميع الأحلام الناشئة عن أمور نفسية، فمن أراد أمرًا ما، أو تمناه، أو هم به، أو عزم على فعله، أو انشغل فكره بما له تعلق بمزاجه أو عادته المستمرة، وما إلى ذلك، فقد حدث به نفسه، فإذا رأى ذلك الأمر في منامه، فإن رؤياه من قبيل الأحلام النفسية[5].

وهي كما وصفت في الحديث الشريف، مما يحدث به المرء نفسه، أو ما يهم به في يقظته، فيراه في منامه، فهي ما يراه في منامه مما يقع له في مجريات حياته، من الخواطر التي تجري من غير قصد، وهذا كثير في مرائي الناس، كمن يرى أنه يأكل ويشرب ونحو ذلك مما تحدث به نفسه في اليقظة.

وعلامة هذا القسم أنه من الأمور المباحة، فلا يسر كحال الرؤية الصالحة، ولا يحزن كالتي من الشيطان، ومثلها الهم والخواطر في اليقظة، وهذا القسم لا حكم له ولا دلالة له[6].

ثالثًا: أضغاث الاحلام:

قال ابن فارس: «والضغث يدل على التباس الشيء بعضه ببعض، يقال للحالم: أضغثت الرؤيا، والأضغاث الأحلام الملتبسة، والضغث قبضة من قضبان أو حشيش، والأضغاث جمع ضغث»[7].

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب تعبير الرؤيا، باب الرؤيا ثلاث، ٢/ ١٢٨٥، رقم ٣٩٠٧. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٤/ ٤٨٧، رقم ١٨٧٠.
(٢) إكمال المعلم، القاضي عياض ٧/ ٢١٥.
(٣) عون المعبود، العظيم الآبادي ١٣/ ٢٤٧.
(٤) فيض القدير، المناوي ٤/ ٤٧.
(٥) دراسة أحاديث: الرؤيا من أجزاء النبوة ص١٠.
(٦) الرؤى عند أهل السنة والجماعة والمخالفين ص ١١٣-١١٤.
(٧) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٣٦٣.

قال الأزهري: «وكذلك أضغاث الرؤيا اختلاطها والتباسها، وقال مجاهد: أضغاث الرؤيا أهاويلها. وقال غيره ما لا تأويل له. قال: وإنما سميت أضغاث أحلام لأنها مختلطة، فدخل بعضها في بعض، وليست كالصحيحة من الرؤيا»[1].

قال ابن جريج: قال لي عطاء: إن أضغاث الأحلام الكاذبة المخطئة من الرؤيا. وقال جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال: إن الرؤيا منها حق، ومنها أضغاث أحلام، يعني بها: الكاذبة. وقال الهروي: قوله تعالى ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ أي: أخلاط أحلام[2].

وقد جاء هذا الوصف في القرآن الكريم مرتين، مرة في في شأن يوسف عليه السلام مع ملك مصر، قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [يوسف: ٤٤].

ومرة في حكاية سخرية كفار قريش بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾﴾ [الأنبياء: ٥].

قالت د. عائشة بنت الشاطيء: «استعمل القرآن الأحلام ثلاث مرات، يشهد سياقها بأنها الأضغاث المهوشة والهواجس المختلطة، وتأتي في المواضع الثلاثة بصيغة الجمع، دلالة على الخلط والتهويش لا يتميز فيه حلم من آخر»[3].

وقد عرفتها السنة النبوية بأنها تحزين من الشيطان، كما مر في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (**ورؤيا تحزين من الشيطان، فمن رأى ما يكره فليقم فليصل**)[4].

ووردت في رواية عوف بن مالك رضي الله عنه بأنها أهاويل من الشيطان ليحزن بها ابن آدم، كما مرت الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (**إن الرؤيا ثلاث، منها أهاويل من الشيطان ليحزن بها ابن آدم**)[5].

ورواها ابن أبي شيبة عن عوف بن مالك رضي الله عنه بلفظ: تخويف من الشيطان، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**الرؤيا على ثلاثة، منها تخويف من الشيطان ليحزن بها ابن آدم، ومنها الأمر يحدث به نفسه في اليقظة فيراه في المنام، ومنها جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة**)[6].

وأضغاث الأحلام: هي الأحلام

---

(١) تهذيب اللغة، الأزهري ٨/ ٤٩.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٩٩.
(٣) الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق ص ٢١٥.
(٤) سبق تخريجه.
(٥) سبق تخريجه.
(٦) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٦/ ١٨١.

الشيطانية التي يصورها الشيطان للإنسان في أثناء نومه أشكالًا مختلفة من الأشباح المخيفة، التي تؤذي النائم، وتثير في نفسه الآلام والمخاوف، وتسبب له القلق النفسي، فقد يرى أسدًا يفترسه، أو عدوًا يقتله، وما هي إلا مجرد خيالات لا تمت إلى الواقع بصلة[1].

وفي كل الروايات نص بأنها من إفزاع من الشيطان الرجيم، وأن الشيطان يصور للإنسان في منامه ما يخوفه، ولهذا يستحب لمن رأى شيئًا من ذلك أن يستعيذ بالله تعالى من شرها، وذلك كما رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **(إذا رأى أحدكم الرؤيا يحبها فإنها من الله، فليحمد الله عليها وليحدث بها، وإذا رأى غير ذلك مما يكره، فإنما هي من الشيطان، فليستعذ من شرها ولا يذكرها لأحد، فإنها لن تضره)**[2].

وإنما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالتعوذ منها مع أنها خيال لا حقيقة، له ليتخلص من تأثيرها النفسي وما تحدثه من وساوس وأوهام وآلام نفسية قد تؤدي بصاحبها إذا استسلم لها إلى الجنون أو الموت المحقق؛ لأن الوهم وحش كاسر يقتل صاحبه ويفتك به، فالتعوذ من هذه الرؤى يقضي على آثارها النفسية، ويخلص المرء من شرها، كما روي عن أبي سلمة رضي الله عنه أنه قال: لقد كنت أرى الرؤيا فتمرضني، حتى سمعت أبا قتادة رضي الله عنه يقول: وأنا كنت لأرى الرؤيا، فتمرضني حتى سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: **(الحلم من الشيطان)**[3]، فما كنت أباليها، أي: فما عادت تخيفني لقناعتي نفسيًا بعدم تأثيرها سيما بعد الاستعاذة منها[4].

إن للرؤيا الفاسدة أمارات يستدل بها عليها، فمنها أن يرى ما لا يكون كالمحالات وغيرها مما يعلم أنه لا يوجد بأن الله سبحانه وتعالى على صفة مستحيلة عليه، أو يرى نبيًا يعمل عمل الفراعنة، أو يرى قولًا لا يحل التفوه به[5].

ومن الأضغاث ما رواه مسلم عن جابر رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لأعرابي جاءه فقال: إني حلمت أن رأسي قطع فأنا أتبعه، فزجره النبي صلى الله عليه وسلم وقال: **(لا تخبر بتلعب الشيطان بك في المنام)**[6].

(١) منار القاري، حمزة قاسم ١/ ٤٤.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التعبير، باب إذا رأى ما يكره فلا يخبر بها ولا يذكرها، ٦/ ٢٥٨٢، رقم ٦٦٣٨.
(٣) سبق تخريجه.
(٤) منار القاري، حمزة قاسم ١/ ٤٤.
(٥) أدب المفتي والمستفتي، ابن الصلاح ص١٤٣.
(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرؤيا،

قال ابن الجوزي: «وهذا تنبيه على أن كل رؤيا كانت من هذا الجنس، فلا ينبغي أن يتحدث بها، فإنها من الشيطان»[١].

قال المازري: «يحتمل أن النبي صلى الله عليه وسلم علم أن منامه هذا من الأضغاث بوحي أو بدلالة من المنام دلته على ذلك، أو على أنه من المكروه الذي هو من تحزين الشياطين»[٢].

وأخرج ابن أبي حاتم أن عمر بن الخطاب قال: «العجب من رؤيا الرجل، إنه يبيت فيرى الشيء لم يخطر له على باله فتكون رؤيا كأخذ باليد، ويرى الرجل الرؤيا فلا تكون رؤياه شيئًا! فقال علي بن أبي طالب، أفلا أخبرك بذلك يا أمير المؤمنين، يقول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢].

فالله يتوفى الأنفس كلها، فما رأت وهي عنده في السماء فهي الرؤيا الصادقة، وما رأت إذا أرسلت إلى أجسادها تلقتها الشياطين في الهواء فكذبتها وأخبرتها بالأباطيل فكذبت فيها، فعجب عمر من قوله»[٣].

الرؤيا والنبوة

لقد كان للرؤيا الصالحة نصيب من النبوة في القرآن الكريم؛ لأنها من الوحي بالنسبة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهي من المبشرات بالنسبة لغيرهم، وستتناول رؤى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في النقاط الآتية.

أولًا: رؤى الانبياء وحي:

الرؤيا الصالحة هي أول مراتب الوحي للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولهذا عنون الإمام البخاري في أول صحيحه (كتاب بدء الوحي) ويبوب له (باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم)، والمناسبة في ذلك أنه ذكر حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (**أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح**)[٤].

والمراد بفلق الصبح ضياؤه، وخص بالتشبيه؛ لظهوره الواضح الذي لا شك فيه.

باب لا يخبر بتلعب الشيطان به في المنام، ٤/ ١٧٧٦، رقم ٢٢٦٨.

(١) كشف المشكل من حديث الصحيحين، ابن الجوزي ٣/ ٩٧.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ١٥/ ٢٧.

(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٥٢.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ١/ ٤، رقم ٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ١/ ١٣٩، رقم ١٦٠.

قال ابن عباس: «رؤيا الأنبياء وحي»[١].

قال الحافظ ابن حجر: «ورؤيا الأنبياء وحي، بخلاف غيرهم، فالوحي لا يدخله خلل؛ لأنه محروس، بخلاف رؤيا غير الأنبياء، فإنها قد يحضرها الشيطان»[٢].

وكذلك فإن أعينهم تنام، ولكن قلوبهم لا تنام، كما ثبت في الصحيحين أن عائشة رضي الله عنها سئلت كيف كانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم في رمضان؟ فقالت: (ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيد في رمضان ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة، يصلي أربعًا، فلا تسل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي أربعًا، فلا تسل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي ثلاثًا. قالت عائشة: فقلت: يا رسول الله أتنام قبل أن توتر؟ فقال: (يا عائشة إن عيني تنامان ولا ينام قلبي)[٣].

قال ابن عاشور: «وكان أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصادقة، ولكن الشريعة لم يوح بها إليه إلا في اليقظة مع رؤية جبريل دون رؤيا المنام، وإنما كانت الرؤيا وحيًا له في غير التشريع، مثل الكشف على ما يقع، وما أعد له، وبعض ما يحل بأمته، أو بأصحابه، فقد رأى في المنام أنه يهاجر من مكة إلى أرض ذات نخل، فلم يهاجر حتى أذن له في الهجرة، كما أخبر بذلك أبا بكر رضي الله عنه، ورأى بقرًا تذبح، فكان تأويل رؤياه من استشهد من المسلمين يوم أحد»[٤].

والملاحظ أن الرؤيا الصالحة لم ترد في جواب النبي عليه الصلاة والسلام حينما سأله الحارث بن هشام رضي الله عنه كيف يأتيك الوحي؟ قال صلى الله عليه وسلم: (أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشد علي، فيفصم عني وقد وعيت ما قال، وأحيانًا يتمثل لي الملك رجلًا، فيكلمني فأعي ما يقول)، قالت عائشة رضي الله عنها: (ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقًا)[٥].

لأن الرؤيا قد يشاركه فيها غيره، والمقصود من الرؤيا الصادقة هو اعتبار صدقها لا غير، وإلا لساغ لصاحبها أن يسمى نبيًا، وعلى هذا الأساس ذهب أهل العلم إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يوح اليه

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٦٩.
(٢) فتح الباري، ابن حجر ١٢/ ٣٥٤.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أبواب التهجد، باب قيام النبي صلى الله عليه وسلم بالليل في رمضان وغيره، ٢/ ٥٣، رقم ١١٤٧، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة الليل وعدد ركعات النبي صلى الله عليه وسلم، ١/ ٥٠٩، رقم ٧٣٨.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ١٥٠.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ١/ ٤، رقم ٣.

بالقرآن الكريم في النوم عن طريق الرؤيا، أما غير القرآن فهذا هو المقصود بالوحي، لأنه لا خلاف بين أهل العلم في أن رؤيا الأنبياء وحي لما تقدم من حديث البخاري في كتاب بدء الوحي، وكذلك هي داخلة في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى:٥١].

كما تقدم في المبحث الأول في العلاقة بين الرؤيا والوحي.

ولأن إبراهيم عليه السلام ما كان ليذبح ابنه بسبب رؤيا رآها لولا أن تلك الرؤيا من الوحي.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات:١٠٢].

ورؤيا الأنبياء عليهم السلام حق أيضًا، قال تعالى في رؤيا يوسف عليه السلام: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ [يوسف:١٠٠].

وعن معاذ رضي الله عنه قال: (إن كان عمر لمن أهل الجنة، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ما رأى في يقظته أو نومه فهو حق، وإنه قال: (بينما أنا في الجنة إذ رأيت فيها دارًا، فقلت: لمن هذه؟ فقيل: لعمر بن الخطاب رضي الله عنه)[1].

وهي صدق أيضًا، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفتح:٢٧].

والرؤى التي رآها النبي صلى الله عليه وسلم كثيرة، وقد عدها العلماء من دلائل نبوته عليه الصلاة والسلام؛ لتضمنها أمورًا غيبية مستقبلية، وتحقق وقوعها كلها كما رآها عليه الصلاة والسلام وكما عبرها، ولنكتفي بذكر بعض الأمثلة من الصحيح على ذلك، ففي حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب وهلي إلى أنها اليمامة أو هجر، فإذا هي المدينة يثرب، ورأيت في رؤياي هذه أني هززت سيفًا فانقطع صدره، فإذا هو ما أصيب من المؤمنين يوم أحد، ثم هززته بأخرى فعاد أحسن ما كان، فإذا هو ما جاء الله به من الفتح واجتماع المؤمنين، ورأيت فيها بقرًا والله خير، فإذا هم المؤمنون يوم أحد،

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٦/ ٤٣١، رقم ٢٢١٢٠.

قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٧٤: رواه أحمد والطبراني ورجالهما رجال الصحيح.

وإذا الخير ما جاء الله به من الخير، وثواب الصدق الذي آتانا الله بعد يوم بدر)[1].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: **(كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل على أم حرام بنت ملحان، وكانت تحت عبادة بن الصامت، فدخل عليها يومًا، فأطعمته وجعلت تفلي رأسه، فنام رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم استيقظ وهو يضحك، قالت: فقلت: ما يضحكك يا رسول الله؟ قال: (ناس من أمتي عرضوا علي غزاة في سبيل الله يركبون ثبج هذا البحر ملوكًا على الأسرة أو مثل الملوك على الأسرة)، قالت: فقلت: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم، فدعا لها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم وضع رأسه، ثم استيقظ وهو يضحك، فقلت: ما يضحكك يا رسول الله؟ قال: (ناس من أمتي عرضوا علي غزاة في سبيل الله) كما قال في الأولى، قالت: فقلت: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم، قال: (أنت من الأولين)، فركبت البحر في زمان معاوية بن أبي سفيان، فصرعت عن دابتها حين خرجت من البحر فهلكت)[2].**

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: **(أعطيت مفاتيح الكلم، ونصرت بالرعب، وبينما أنا نائم البارحة إذ أتيت بمفاتيح خزائن الأرض حتى وضعت في يدي).** قال أبو هريرة: فذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنتم تنتقلونها[3].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(رأيت ذات ليلة فيما يرى النائم كأنا في دار عقبة بن رافع، فأتينا برطب من رطب ابن طاب، فأولت الرفعة لنا في الدنيا، والعاقبة في الآخرة، وأن ديننا قد طاب)[4].**

ثانيًا: رؤيا إبراهيم عليه السلام:

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾ [الصافات:١٠٢].

إن الله سبحانه وتعالى قص علينا قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام مع ابنه إسماعيل عليه السلام، منذ أن سأل إبراهيم عليه السلام

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الاسلام، ٣/ ١٣٢٦، رقم ٣٤٢٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الرؤيا، باب رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم، ٤/ ١٧٧٩، رقم ٢٢٧٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التعبير، باب الرؤيا بالنهار، ٦/ ٢٥٧٠، رقم ٦٦٠٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضل الغزو في البحر، ٣/ ١٥١٨، رقم ١٩١٢.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التعبير، باب رؤيا الليل، ٦/ ٢٥٦٨، رقم ٦٥٩٧.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرؤيا، باب رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم، ٤/ ١٧٧٩، رقم ٢٢٧٠.

الله عز وجل أن يرزقه ولدًا من الصالحين، فبشره الله تعالى بذلك ورزقه غلامًا حليمًا، ولما كبر وترعرع وبلغ السعي مع أبيه وصار يقضي شؤونه، رأى أبوه إبراهيم عليه السلام رؤيا، وقال له: يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى، وكان عمر إسماعيل عليه السلام يومئذ ثلاث عشرة سنة، كما تذكر ذلك كتب التفاسير[(١)].

قال ابن عاشور: «والنظر هنا نظر العقل لا نظر البصر، فحقه أن يتعدى إلى مفعولين، ولكن علقه الاستفهام عن العمل، والمعنى تأمل في الذي تقابل به هذا الأمر، وذلك لأن الأمر لما تعلق بذات الغلام، كان للغلام حظ في الامتثال، وكان عرض إبراهيم هذا على ابنه عرض اختبار لمقدار طواعيته بإجابة أمر الله في ذاته، لتحصل له بالرضى والامتثال مرتبة بذل نفسه في إرضاء الله، وهو لا يرجو من ابنه إلا القبول؛ لأنه أعلم بصلاح ابنه، وليس إبراهيم مأمورًا بذبح ابنه جبرًا، بل الأمر بالذبح تعلق بمأمورين: أحدهما بتلقي الوحي، والآخر بتبليغ الرسول إليه، فلو قدر عصيانه لكان حاله في ذلك حال ابن نوح الذي أبى أن يركب السفينة لما دعاه أبوه، فاعتبر كافرًا»[(٢)].

قال الطبري: «اختلفت القراء في قراءة قوله: (ماذا ترى)؟، فقرأته عامة قراء أهل المدينة والبصرة، وبعض قراء أهل الكوفة: (فانظر ماذا ترى)؟ بفتح التاء، بمعنى: أي شيء تأمر، أو فانظر ما الذي تأمر، وقرأ ذلك عامة قراء الكوفة: (ماذا ترى) بضم التاء، بمعنى: ماذا تشير، وماذا ترى من صبرك أو جزعك من الذبح؟ والذي هو أولى القراءتين في ذلك عندي بالصواب قراءة من قرأه: (ماذا ترى) بفتح التاء، بمعنى: ماذا ترى من الرأي[(٣)].

فإن قال قائل: أو كان إبراهيم يؤامر ابنه في المضي لأمر الله، والانتهاء إلى طاعته؟ قيل: لم يكن ذلك منه مشاورة لابنه في طاعة الله، ولكنه كان منه ليعلم ما عند ابنه من العزم: هل هو من الصبر على أمر الله على مثل الذي هو عليه؟ فيسر بذلك أم لا؟ وهو في الأحوال كلها ماض لأمر الله»[(٤)].

قال الفراء: «المعنى ماذا تريني من رأيك أو ضميرك، و(رأى) في الكلام على خمسة

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ٩٩.

(٢) التحرير والتنوير ٢٣/ ١٥١.

(٣) قال الأزهري: قرأ حمزة والكسائي: (ماذا تُري) بضم التاء وكسر الراء، وقرأ الباقون: (ماذا تَرَى) بفتح التاء، وأمال أبو عمرو الراء من (ترى)، وفتحها الباقون، قال أبو منصور: من قرأ: (ماذا تَرَى) فهو من الرأي، المعنى: ماذا ترى فيما أمر الله به؟ ومن قرأ: (ماذا تُري) فله وجهان: أحدهما: ماذا تشير؟ وقال الفراء: معناه: ماذا ترى من صبرك؟ والقراءة الأولى أجود القراءتين.
معاني القراءات، الأزهري ٢/ ٣٢٠- ٣٢١.

(٤) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٧٥.

أوجه: بمعنى (أبصر) نحو: رأيت، وبمعنى (علم) نحو: رأيت زيدًا عالمًا، وبمعنى (ظن) نحو قوله: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ۝٧﴾ [المعارج:٦-٧].

فالأول بمعنى الظن، والثاني بمعنى العلم، وبمعنى اعتقد، وبمعنى الرأي، نحو قولك: رأيت هذا الرأي.

فأما (رأيت في المنام) فمن رؤية البصر، فلا يجوز أن تكون (ترى) هاهنا بمعنى تبصر؛ لأنه لم يشر إلى شيء يبصر بالعين، ولا يجوز أن تكون بمعنى (علم) أو (ظن) أو (اعتقد)؛ لأنه هذه الأشياء تتعدى إلى مفعولين، وليس هاهنا إلا مفعول واحد، مع استحالة المعنى، فلم يبق إلا أن يكون من (الرأي)، والمعنى ماذا تراه»[١].

قال مقاتل: رأى ذلك إبراهيم عليه السلام ثلاث ليال متتابعات، وقال محمد بن كعب: كانت الرسل يأتيهم الوحي من الله تعالى أيقاظًا ورقودًا، فإن الأنبياء لا تنام قلوبهم، وهذا ثابت في الخبر المرفوع، قال صلى الله عليه وسلم: (إنا معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا)[٢].

وقال ابن عباس: رؤيا الأنبياء وحي، واستدل بهذه الآية، ويقال: إن إبراهيم رأى في ليلة التروية كأن قائلًا يقول: إن الله يأمرك بذبح ابنك، فلما أصبح روى في نفسه، أي: فكر أهذا الحلم من الله أم من الشيطان؟ فسمي يوم التروية، فلما كانت الليلة الثانية رأى ذلك أيضًا، وقيل له: الوعد، فلما أصبح عرف أن ذلك من الله فسمي يوم عرفة، ثم رأى مثله في الليلة الثالثة، فهم بنحره فسمي يوم النحر[٣].

قال ابن كثير: «وإنما أعلم ابنه بذلك ليكون أهون عليه، وليختبر صبره وجلده وعزمه من صغره على طاعة الله تعالى وطاعة أبيه ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ أي: امض لما أمرك الله من ذبحي، ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ أي: سأصبر وأحتسب ذلك عند الله عز وجل، وصدق صلوات الله وسلامه عليه فيما وعد؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ۝٥٤﴾ [مريم:٥٤]»[٤].

وعند تفكيك البنية التركيبية في نص الرؤيا نجدها تضم عشرة أفعال، ثلاثة منها في الزمن الماضي (قال-أرى-قال) وأربعة في الزمن المضارع المبني للمعلوم (أذبحك-ترى-ستجدني-إن شاء) وواحد للمضارع المبني للمجهول (تؤمر) وفعلا أمر (أنظر-افعل) في حين اشتملت على

(١) النكت في القرآن الكريم، القيرواني ص ٤١٩.

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى ١/ ١٧١، عن عطاء مرسلًا.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ١٠٢.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٨.

خمسة أسماء هي (بني–المنام–أبت–الله–الصابرين) جاءت الأفعال ضعف الأسماء؛ لأن الأفعال تتحرك بين ثلاث: الله يأمر، إبراهيم يستجيب ويخبر وينفذ، إسماعيل يستجيب وينفذ.

ويرسم شبكة العلاقات القائمة في الآية نجد تناغمًا وتجاوبًا كبيرين بين الابن وأبيه، يتضح ذلك من خلال البيان التالي:

الأب (المرسل):

١. ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ﴾.

٢. ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾.

٣. ﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰ﴾.

الابن (المستقبل):

١. ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ﴾.

٢. ﴿ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُ﴾.

٣. ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

وهذا يظهر دلالة المحبة والود والقرب المتحقق بين الأب وابنه، وكأنه يقول له: أنت ابني قبل كل شيء، وهذه العلاقة هي التي دفعت الأب لمصارحة ابنه بما رأى، وكان بإمكانه تنفيذ الرؤيا دون أن يخبر ولده، ولكن ليتجلى الدرس الأخلاقي بأجل صورة، ولتظل هذه الصورة ماثلة أمام كل من يقرأ القرآن الكريم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. ثلاث إشارات بثها الوالد لابنه، وكانت الإستجابة من الإبن سريعة وشافية لم يهمل أية جزئية من جزئياتها. هذه العلاقات جاءت في نسيج الرؤيا نفسها[1].

قال ابن عاشور: «والمقصود من هذا الابتلاء إظهار عزمه وإثبات علو مرتبته في طاعة ربه، فإن الولد عزيز على نفس الوالد، والولد الوحيد الذي هو أمل الوالد في مستقبله أشد عزة على نفسه لا محالة، وقد علمت أنه سأل ولدًا ليرثه نسله ولا يرثه مواليه، فبعد أن أقر الله عينه بإجابة سؤله وترعرع ولده، أمره بأن يذبحه فينعدم نسله ويخيب أمله ويزول أنسه ويتولى بيده إعدام أحب النفوس إليه، وذلك أعظم الابتلاء فقابل أمر ربه بالامتثال، وحصلت حكمة الله من ابتلائه، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ١٠٦﴾ [الصافات:١٠٦].

وإنما برز هذا الابتلاء في صورة الوحي المنامي إكرامًا لإبراهيم عن أن يزعج بالأمر بذبح ولده بوحي في اليقظة، لأن رؤى المنام يعقبها تعبيرها، إذ قد تكون مشتملة على رموز خفية، وفي ذلك تأنيس لنفسه لتلقي هذا التكليف الشاق عليه، وهو ذبح ابنه الوحيد»[2].

قال الرازي: «بيان الحكمة في ورود هذا التكليف في النوم لا في اليقظة، أن هذا التكليف كان في نهاية المشقة على الذابح

(١) الرؤيا في القران ص ٣٤- ٣٧.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ١٥٠- ١٥١.

والمذبوح، فورد أولًا في النوم حتى يصير ذلك كالمنبه لورود هذا التكليف الشاق، ثم يتأكد حال النوم بأحوال اليقظة، فحينئذ لا يهجم هذا التكليف دفعة واحدة، بل شيئًا فشيئًا»[1].

ونقل القرطبي عن بعض أهل الإشارة: «أن إبراهيم ادعى محبة الله، ثم نظر إلى الولد بالمحبة، فلم يرض حبيبه محبة مشتركة، فقيل له: يا إبراهيم اذبح ولدك في مرضاتي، فشمر وأخذ السكين وأضجع ولده، ثم قال: اللهم تقبله مني في مرضاتك، فأوحى الله إليه: يا إبراهيم لم يكن المراد ذبح الولد، وإنما المراد أن ترد قلبك إلينا، فلما رددت قلبك بكليته إلينا رددنا ولدك إليك، وقال كعب وغيره: لما أري إبراهيم ذبح ولده في منامه، قال الشيطان: والله لئن لم أفتن عند هذا آل إبراهيم لا أفتن منهم أحدًا أبدًا، فتمثل الشيطان لهم في صورة الرجل، ثم أتى أم الغلام وقال: أتدرين أين يذهب إبراهيم ابنك؟ قالت: لا، قال: إنه يذهب به ليذبحه، قالت: كلا هو أرأف به من ذلك، فقال: إنه يزعم أن ربه أمره بذلك، قالت: فإن كان ربه قد أمره بذلك فقد أحسن أن يطيع ربه، ثم أتى الغلام فقال: أتدري أين يذهب بك أبوك؟ قال: لا، قال: فإنه يذهب بك ليذبحك، قال: ولم؟ قال: زعم أن ربه أمره بذلك، قال: فليفعل ما أمره الله به، سمعًا وطاعة لأمر الله، ثم جاء إبراهيم فقال: أين تريد؟ والله إني لأظن أن الشيطان قد جاءك في منامك فأمرك بذبح ابنك، فعرفه إبراهيم فقال: إليك عني يا عدو الله، فوالله لأمضين لأمر ربي، فلم يصب الملعون منهم شيئًا، وقال ابن عباس: لما أمر إبراهيم بذبح ابنه عرض له الشيطان عند جمرة العقبة فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم عرض له عند الجمرة الأخرى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم مضى إبراهيم لأمر الله تعالى»[2].

لقد حملت هذه الرؤيا خيرًا للبشرية جمعاء، وفي ذلك حكمة إلهية في امتثاله عليه السلام لأمر الله ولو كان فيما يكره، وهو بهذا الأمر دلل على طهارة قلب كل من الأب والابن، فكلاهما على خلق عظيم، وهذه صفات الأنبياء، وفيها بشرى بأن إسماعيل نبي كأبيه، وفيها إشارة لاستجابة دعوة إبراهيم عليه السلام ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ١٣٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ١٠٥-١٠٦.
وأثر ابن عباس أخرجه أحمد في مسنده، ٤/ ٤٣٧، والحاكم في المستدرك، ١/ ٦٣٨.
قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

وإسماعيل الممتثل لأمر الله لم يكن ظالمًا، لذا كانت البشرى بنبوته اقتداء سيدنا إسماعيل عليه السلام بالكبش، وهو بمثابة افتداء للبشرية بأسرها[1].

ودلت الآية على أن من نذر نحر ابنه أو ذبحه أنه يفديه بكبش، كما فدى به إبراهيم ابنه، قاله ابن عباس، وعنه رواية أخرى: ينحر مائة من الإبل كما فدى بها عبدالمطلب ابنه، روى الروايتين عنه الشعبي وروى عنه القاسم بن محمد: يجزيه كفارة يمين، وقال مسروق: لا شيء عليه، وقال الشافعي: هو معصية يستغفر الله منها، وقال أبو حنيفة: هي كلمة يلزمه بها في ولده ذبح شاة، ولا يلزمه في غير ولده شيء، قال محمد: عليه في الحلف بنحر عبده مثل الذي عليه في الحلف بنحر ولده إذا حنث.

وذكر ابن عبد الحكم عن مالك فيمن قال: أنا أنحر ولدي عند مقام إبراهيم في يمين، ثم حنث فعليه هدي، قال: ومن نذر أن ينحر ابنه ولم يقل: عند مقام إبراهيم، ولا أراد فلا شيء عليه، قال: ومن جعل ابنه هديًا أهدى عنه.

قال القاضي ابن العربي: يلزمه شاة كما قال أبو حنيفة، لأن الله تعالى جعل ذبح الولد عبارة عن ذبح الشاة شرعًا، فألزم الله إبراهيم ذبح الولد، وأخرجه عنه بذبح شاة وكذلك إذا نذر العبد ذبح ولده يلزمه أن يذبح شاة، لأن الله تعالى قال ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج:٧٨].

والإيمان التزام أصلي، والنذر التزام فرعي، فيجب أن يكون محمولًا عليه. فإن قيل: كيف يؤمر إبراهيم بذبح الولد، وهو معصية والأمر بالمعصية لا يجوز؟

قلنا: هذا اعتراض على كتاب الله، ولا يكون ذلك ممن يعتقد الإسلام، فكيف بمن يفتي في الحلال والحرام، وقد قال الله تعالى:« افعل ما تؤمر» والذي يجلو الإلباس عن قلوب الناس في ذلك: أن المعاصي والطاعات ليست بأوصاف ذاتية للأعيان، وإنما الطاعات عبارة عما تعلق به الأمر من الأفعال، والمعصية عبارة عما تعلق به النهي من الأفعال، فلما تعلق الأمر بذبح الولد إسماعيل من إبراهيم صار طاعة وابتلاء، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾ [الصافات:١٠٦].

في الصبر على ذبح الولد والنفس، ولما تعلق النهي بنا في ذبح أبنائنا صار معصية.

فإن قيل: كيف يصير نذرًا وهو معصية؟

قلنا: إنما يكون معصية لو كان يقصد ذبح الولد بنذره ولا ينوي الفداء.

فإن قيل: فلو وقع ذلك وقصد المعصية ولم ينو الفداء؟

(١) الرؤيا في القرآن الكريم لفتحية صرصور ص ٣٩.



قلنا: لو قصد ذلك لم يضره في قصده ولا أثر في نذره، لأن نذر الولد صار عبارة عن ذبح الشاة شرعًا[1].

قال الزرقاني: «فأنت ترى في هذا العرض الكريم لقصة إبراهيم الخليل وولده الذبيح إسماعيل ما يفيد أنه سبحانه قد أمر إبراهيم بذبح ولده ثم نسخ ما أمره به قبل أن يتمكن من تنفيذه وفعله، أما أنه أمره بالذبح فيرشد إليه:

أولًا: قول إبراهيم لولده ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ لأن رؤيا الأنبياء حق من ناحية، ولأن مفاوضة إبراهيم لولده في هذا الأمر الجلل تدل على أن هذا أمر لا بد منه من ناحية أخرى، وإلا لما فاوضه تلك المفاوضة الخطيرة المزعجة التي هي أول مراحل السعي إلى التنفيذ.

ثانيًا: أن إسماعيل أجاب أباه بإعلان خضوعه وامتثاله لأمر ربه: ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات:١٠٢].

ثالثًا: أن إبراهيم اتخذ سبيله إلى مباشرة الأسباب القريبة للذبح حيث أسلم ولده وأسلم إسماعيل نفسه: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣﴾ [الصافات:١٠٣].

رابعًا: أن الله ناداه بأنه قد صدق الرؤيا، أي: فعل من صدقها وحققها، ولو لم يكن هذا أمرًا من الله واجب الطاعة ما مدحه الله على تصديقه لرؤياه وسعيه إلى تحقيق ما أمره مولاه.

خامسًا: أن الله فدى إبراهيم بذبح عظيم، فلو لم يكن ذبح إسماعيل مطلوبًا لما كان ثمة داع يدعو إلى الفداء.

سادسًا: أن الله امتدح إبراهيم بأنه من المؤمنين ومن المحسنين المستحقين لإكرام الله إياه بالفرج بعد الشدة، وقرر سبحانه أن هذا هو البلاء المبين، وكافأه بأنه ترك عليه في الآخرين ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ١٠٩﴾ [الصافات:١٠٩].

وكل ذلك يدل على أن الله أمره فأطاع، وابتلاه أشد الابتلاء فاستسلم وانصاع.

وأما أن الله نسخ هذا الأمر قبل تمكن إبراهيم من امتثاله، فيرشد إليه محاولة إبراهيم للتنفيذ بالخطوات التي خطاها، والمحاولات التي حاولها، وهي مفاوضة ولده حتى يستوثق منه أو يتخذ إجراء آخر، ثم استسلامهما بالفعل لحادث الذبح وصرعه فلذة كبده وقرة عينه على جبينه، كيما يضع السكين ويذبحه كما أمره رب العالمين، ولكن جاء النداء بالفداء قبل التمكن من الامتثال وتنفيذ الذبح»[2].

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ١١١-١١٢.

(٢) مناهل العرفان، الزرقاني ٢/ ٢٢٨-٢٣٠.

ثالثًا: رؤيا يوسف عليه السلام:

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥﴾ [يوسف: ٤-٥].

سورة يوسف من السور المميزة في باب الرؤيا؛ لوجود أربع رؤى فيها من بين الرؤى المعدودة في القرآن الكريم، وقد ابتدأت قصة يوسف عليه السلام برؤياه التي رآها، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤﴾ [يوسف: ٤].

وانتهت القصة بتصديق رؤياه، قال تعالى: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠].

وإن الأحداث التي في رؤيا يوسف عليه السلام تختلف عن الأحداث التي في رؤيا إبراهيم عليه السلام، ويترتب على ذلك اختلاف في التأويل، وكما أن رؤيا إبراهيم عليه السلام لها مكانة كما مر بنا، فإن رؤيا يوسف عليه السلام لها مكانة أيضًا، بحيث اعتبرت قصة يوسف التي ابتدأت بها من أحسن القصص.

وقد تكلم المفسرون على تعبير هذا المنام أن الأحد عشر كوكبًا عبارة عن إخوته، وكانوا أحد عشر رجلًا سواه، والشمس والقمر عبارة عن أبيه وأمه، روي هذا عن ابن عباس والضحاك وقتادة وسفيان الثوري وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقد وقع تفسيرها بعد أربعين سنة، وقيل: ثمانين سنة، وذلك حين رفع أبويه على العرش، -وهو سريره- وإخوته بين يديه ﴿وَخَرُّوا لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠][(١)].

قال الطبري: «وقوله ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ يقول: والشمس والقمر رأيتهم في منامي سجودًا، وقال ﴿سَٰجِدِينَ﴾ والكواكب والشمس والقمر إنما يخبر عنها بـ«فاعلة» و«فاعلات» لا بالواو والنون، لأن الواو والنون إنما هي علامة جمع أسماء ذكور بني آدم أو الجن أو الملائكة، وإنما قيل ذلك كذلك، لأن السجود من أفعال من يجمع أسماء ذكورهم بالياء والنون أو الواو والنون، فأخرج جمع أسمائها مخرج جمع أسماء من يفعل ذلك، كما قيل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا مَسَٰكِنَكُمْ﴾ [النمل: ١٨].

وقال: ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾ وقد قيل: ﴿رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ فكرر الفعل، وذلك على لغة من قال: كلمت أخاك كلمته، توكيدا للفعل بالتكرير»[(٢)].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٦٩-٣٧٠.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٥٥٦.

وقال القرطبي في قوله تعالى: ﴿سَٰجِدِينَ﴾ وكيف جاء مذكرًا: «فالقول عند الخليل وسيبويه أنه لما أخبر عن هذه الأشياء بالطاعة السجود، وهما من أفعال من يعقل أخبر عنهما كما يخبر عمن يعقل»[(١)].

قال أبو جعفر: «يقول جل ذكره قال يعقوب لابنه يوسف: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ﴾ هذه ﴿عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ﴾ فيحسدوك ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًا﴾ يقول: فيبغوك الغوائل ويناصبوك العداوة، ويطيعوا فيك الشيطان ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ يقول: إن الشيطان لآدم وبنيه عدو قد أبان لهم عداوته وأظهرها، يقول: فاحذر الشيطان أن يغري إخوتك بك بالحسد منهم لك إن أنت قصصت عليهم رؤياك، وإنما قال يعقوب ذلك؛ لأنه قد كان تبين له من أخوته قبل ذلك حسدًا»[(٢)].

قال القرطبي: «إن قيل: إن يوسف عليه السلام كان صغيرًا حين رؤياه، والصغير لا حكم لفعله، فكيف تكون له رؤيا لها حكم حتى يقول له أبوه: لا تقصص رؤياك على إخوتك؟ فالجواب أن الرؤيا إدراك حقيقة، فتكون من الصغير كما يكون منه الإدراك الحقيقي في اليقظة، وإذا أخبر عما رأى صدق، فكذلك إذا أخبر عما يرى في المنام، وقد أخبر الله سبحانه عن رؤياه وأنها وجدت كما رأى فلا اعتراض، وروي أن يوسف عليه السلام كان ابن اثنتي عشرة سنة»[(٣)].

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عن قول يعقوب لابنه يوسف حين قص عليه ما رأى من هذه الرؤيا، التي تعبيرها خضوع إخوته له وتعظيمهم إياه تعظيمًا زائدًا، بحيث يخرون له ساجدين إجلالًا وإكرامًا واحترامًا، فخشي يعقوب عليه السلام أن يحدث بهذا المنام أحدًا من إخوته فيحسدوه على ذلك فيبغوا له الغوائل؛ حسدًا منهم له ولهذا قال له ﴿لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًا﴾ أي: يحتالوا لك حيلة يردونك فيها، ولهذا ثبتت السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إذا رأى أحدكم ما يحب فليحدث به، وإذا رأى ما يكره فليتحول إلى جنبه الآخر، وليتفل عن يساره ثلاثًا، وليستعذ بالله من شرها، ولا يحدث بها أحدًا، فإنها لن تضره)[(٤)]»[(٥)].

قال القرطبي: «هذه الآية أصل في أن لا نقص الرؤيا على غير شفيق ولا ناصح، ولا

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٢٢.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٥٥٨.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٢٦.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التعبير، باب إذا رأى ما يكره فلا يخبر بها ولا يذكرها، ٩/ ٤٣، رقم ٧٠٤٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الرؤيا، ٤/ ١٧٧٢، رقم ٢٢٦١.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٧١.

على من لا يحسن التأويل فيها، وفي هذه الآية دليل على أن مباحًا أن يحذر المسلم أخاه المسلم ممن يخافه عليه، ولا يكون داخلًا في معنى الغيبة، لأن يعقوب عليه السلام قد حذر يوسف أن يقص رؤياه على إخوته فيكيدوا له، وفيها ما يدل على جواز ترك إظهار النعمة عند من تخشى غائلته حسدًا وكيدًا، وفيها دليل واضح على معرفة يعقوب عليه السلام بتأويل الرؤيا، فإنه علم من تأويلها أنه سيظهر عليهم ولم يبال بذلك من نفسه، فإن الرجل يود أن يكون ولده خيرًا منه، والأخ لا يود ذلك لأخيه، ويدل أيضًا على أن يعقوب عليه السلام كان أحس من بنيه حسد يوسف وبغضه، فنهاه عن قصص الرؤيا عليهم خوفًا أن تغل بذلك صدورهم، فيعملوا الحيلة في هلاكه، ومن هذا ومن فعلهم بيوسف يدل على أنهم كانوا غير أنبياء في ذلك الوقت»[(١)].

وقد أخرج الطبري بسنده عن جابر رضي الله عنه رواية ذكر فيها أسماء الكواكب التي رآها يوسف عليه السلام، قال: أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجل من يهود يقال له: بستانة اليهودي، فقال له: يا محمد أخبرني عن الكواكب التي رآها يوسف ساجدة له ما أسماؤها؟ قال: فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يجبه بشيء، ونزل عليه جبريل وأخبره بأسمائها، قال: فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه فقال: (هل أنت مؤمن إن أخبرتك بأسمائها؟) قال: نعم، فقال: (جربان والطارق، والذيال، وذو الكنفات، وقابس، ووثاب، وعمودان، والفليق، والمصبح، والضروح، وذو الفرغ، والضياء، والنور). فقال اليهودي: والله إنها لأسماؤها[(٢)].

قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۝١٠٠﴾ [يوسف:١٠٠].

وقوله: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: يعني: السرير، أي: أجلسهما معه على سريره ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ أي: سجد له أبواه وإخوته الباقون، وكانوا أحد عشر رجلًا، ﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: التي كان قصها على أبيه ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف:٤].

وقد كان هذا سائغًا في شرائعهم، إذا

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٢٦-١٢٧.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ١٥/ ٥٥٥.

سلموا على الكبير يسجدون له، ولم يزل هذا جائزًا من لدن آدم إلى شريعة عيسى عليه السلام، فحرم هذا في هذه الملة وجعل السجود مختصًا بجناب الرب سبحانه وتعالى، والغرض أن هذا كان جائزًا في شريعتهم؛ ولهذا خروا له سجدًا، فعندها قال يوسف: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّاۖ﴾، أي: هذا ما آل إليه الأمر، فإن التأويل يطلق على ما يصير إليه الأمر، كما قال تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ﴾ [الأعراف:٥٣].

أي: يوم القيامة يأتيهم ما وعدوا من خير وشر.

وقوله: ﴿قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّاۖ﴾ أي: صحيحة صدقًا، يذكر نعم الله عليه ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾ أي: البادية[1].

قال الرازي: «لعل الله تعالى أمر يعقوب بتلك السجدة لحكمة خفية لا يعرفها إلا هو، كما أنه أمر الملائكة بالسجود لآدم لحكمة لا يعرفها إلا هو، ويوسف ما كان راضيًا بذلك في قلبه إلا أنه لما علم أن الله أمره بذلك سكت، ثم حكى تعالى أن يوسف لما رأى هذه الحالة ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّاۖ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: إنه لما رأى سجود أبويه وإخوته هاله ذلك واقشعر جلده منه، وقال ليعقوب: هذا تأويل رؤياي من قبل، كأنه يقول: يا أبت لا يليق بمثلك على جلالتك في العلم والدين والنبوة أن تسجد لولدك إلا أن هذا أمر أمرت به وتكليف كلفت به، فإن رؤيا الأنبياء حق، كما أن رؤيا إبراهيم ذبح ولده صار سببًا لوجوب ذلك الذبح عليه في اليقظة، فكذلك صارت هذه الرؤيا التي رآها يوسف وحكاها ليعقوب سببًا لوجوب ذلك السجود»[2].

وقد جاء في كتاب ضوابط تعبير الرؤيا تسع فوائد مستنبطة من رؤيا يوسف عليه السلام وهي على التوالي:

الأولى: مشروعية قص الرؤيا على أهل العلم والفضل، فيعقوب نبي، وهو من أهل العلم والفضل، ولذا قصها يوسف عليه ولعلمه بتأويله لها.

الثانية: معرفة يعقوب عليه السلام برؤيا يوسف وغايتها وما تؤول إليه ووسائلها التي تتقدم عليها، ففسر الشمس والقمر بأبيه وأمه والأحد عشر كوكبًا بإخوته، وأن الحال سيكون بأن الجميع سيسجد له.

الثالثة: حصول المكانة العظيمة ليوسف عند أبويه عند رؤياه التي قصها عليه، ولذا تراه كان معظمًا تعظيمًا بليغًا عندهم.

الرابعة: إن حصول الرؤيا الصالحة لا

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤١٢.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٨/ ٥١٢.

تكون لكل البشر، فلا تحصل لأهل العلوم الفاسدة والأعمال الخبيثة الذين ينشرون الرذيلة في المجتمعات، بل لا تكون إلا لأهل الاجتباء من الله، فلا تحصل إلا لأهل العلوم النافعة والأعمال الصالحة والأخلاق الجميلة. ولذا قال يعقوب ليوسف: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف:٦].

الخامسة: إن من علم أن المكاره والمشقات تفضي إلى الخير والراحات، تسلى وهانت عليه مشقتها وسهلت عليه وطأتها وحصل بذلك من اللطف والروح شيء عظيم، وهذا من جملة اللطف الذي أشار إليه يوسف في قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ وكأن يوسف عليه السلام له علم أنه ستكون له مكانة عظيمة ولكن لا يكون ذلك إلا بعد حصول مكروه له، فيجب عليه أن يصبر، وكأن يعقوب بذلك يريد أن يسهل على ابنه وطأة ما يحصل له، وهكذا ينبغي لكل معبر أنه إذا عبر لإنسان رؤياه وكان مآلها إلى خير، لكن بعد حصول مكروه للرائي، فإنه يدعو الرائي إلى الاستعداد ولمقابلة ما يحدث له.

السادسة: البشارة العظيمة ليعقوب وأم يوسف وأخوته بحصول الرفعة والصلاح والخير.

السابعة: إنه يتعين على الإنسان أن يعدل بين أولاده، وينبغي له إذا كان يحب أحدهم أكثر من غيره أن يخفي ذلك ما أمكنه، وأن لا يفضله بما يقتضيه الحب من إيثار بشيء من الأشياء، فإنه أقرب إلى صلاح الأولاد وبرهم له واتفاقهم فيما بينهم، ولهذا لما ظهر لأخوة يوسف من محبة يعقوب الشديدة ليوسف وعدم صبره عنه وانشغاله به عنهم سعوا في أمر وخيم وهو التفريق بينه وبين أبيه.

الثامنة: في قوله تعالى: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

ففيها الآتي:

١. أن الأصل أن لا تقص الرؤيا إلا على شفيق أو ناصح، ولا تقص إلا على من يحسن تأويلها.
٢. أن يحذر المسلم أخاه المسلم، وإن كان أخاه في النسب مما يخاف عليه.
٣. جواز ترك إظهار النعمة عند من يخشى غائلته حسدًا وكيدًا.
٤. فيها أيضا دليل واضح على معرفة يعقوب بتأويل الرؤيا فإنه علم من تأويلها أنه سيظهر عليهم.
٥. أنه يجوز ذكر الإنسان بما يكره على وجه النصيحة لغيره، وهذا لقوله تعالى: ﴿فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾.

التاسعة: في قول إخوة يوسف لأبيهم:

﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ٩٧﴾ [يوسف:٩٧].

إن العبرة في حال العبد بكمال النهاية لا بنقص البداية، فإن أولاد يعقوب جرى منهم ما جرى في أول الأمر مما هو أكبر أسباب النقص واللوم، ثم انتهى أمرهم إلى التوبة النصوح والسماح من يوسف ومن أبيهم الدعاء لهم بالمغفرة[1].

رابعًا: رؤى النبي محمد صلى الله عليه وسلم:

لا شك أن رؤيا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وحي، وأن القرآن الكريم ذكر رؤيا نبي الله إبراهيم عليه السلام ونبي الله يوسف عليه السلام كما تقدم، ولقد تعرض القرآن الكريم لأكثر من رؤيا لنبينا محمد عليه الصلاة والسلام، منها ما هو متفق عليها عند المفسرين أنها رؤيا في المنام، ومنها ما هو مختلف في تفسيرها: هل هي رؤيا عين أم أنها رؤيا في المنام؟

ولنبدأ بما هو متفق عليه وهي رؤيا النبي عليه الصلاة والسلام المنصوص عليها في القرآن الكريم وهي:

١ . رؤيا دخول مكة.

قال تعالى: ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتۡحٗا قَرِيبًا ٢٧﴾ [الفتح:٢٧].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: لقد صدق الله رسوله محمدًا رؤياه التي أراها إياه أنه يدخل هو وأصحابه بيت الله الحرام آمنين لا يخافون أهل الشرك، مقصرًا بعضهم رأسه ومحلقًا بعضهم»[2].

ومعنى صدق الله رسوله الرؤيا أنه أراه رؤيا صادقة، لأن رؤيا الأنبياء وحي، فآلت إلى معنى الخبر فوصفت بالصدق لذلك، وهذا تطمين لهم بأن ذلك سيكون لا محالة، وهو في حين نزول الآية لما يحصل بقرينة قوله: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

ومعنى ﴿لَتَدۡخُلُنَّ﴾ تحقيق دخول المسجد الحرام في المستقبل، فيعلم منه أن الرؤيا إخبار بدخول لم يعين زمنه فهي صادقة فيما يتحقق في المستقبل، وهذا تنبيه للذين لم يتفطنوا لذلك، فجزموا بأن رؤيا دخول المسجد تقتضي دخولهم إليه أيامئذ وما ذلك بمفهوم من الرؤيا، وكان حقهم أن يعلموا أنها وعد لم يعين إبان موعوده، وقد فهم ذلك أبو بكر إذ قال لهم: إن المنام لم يكن مؤقتًا بوقت وأنه سيدخل. وقد جاء في سورة يوسف ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾

(١) ضوابط تعبير الرؤيا، الطيار ص ٢٠-٢١.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٢٥٧.

[يوسف:١٠٠](١).

قال ابن كيسان: إنه حكاية ما قيل للنبي صلى الله عليه وسلم في منامه، خوطب في منامه بما جرت به العادة، فأخبر الله عن رسوله أنه قال ذلك، ولهذا استثنى، تأدب بأدب الله تعالى حيث قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف:٢٣-٢٤].

وقيل: خاطب الله العباد بما يحب أن يقولوه، كما قال ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾.

وقيل: استثنى فيما يعلم ليستثني الخلق فيما لا يعلمون، قاله ثعلب، وقيل: كان الله علم أنه يميت بعض هؤلاء الذين كانوا معه بالحديبية فوقع الاستثناء لهذا المعنى، قاله الحسين بن الفضل.

وقيل: الاستثناء من ﴿ءَامِنِينَ﴾، وذلك راجع إلى مخاطبة العباد على ما جرت به العادة.

وقيل: معنى ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ إن أمركم الله بالدخول.

وقيل: أي: إن سهل الله.

وقيل: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: كما شاء الله.

فوعدهم دخول المسجد الحرام، وعلقه بشرط المشيئة، وذلك عام الحديبية، فأخبر أصحابه بذلك فاستبشروا، ثم تأخر ذلك عن العام الذي طمعوا فيه، فساءهم ذلك واشتد عليهم وصالحهم ورجع، ثم أذن الله في العام المقبل، فأنزل الله ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾.

وإنما قيل له في المنام: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فحكى في التنزيل ما قيل له في المنام، فليس هنا شك، كما زعم بعضهم أن الاستثناء يدل على الشك، والله تعالى لا يشك، و﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾ تحقيق، فكيف يكون شك.

فـ﴿إِن﴾ بمعنى (إذا). ﴿ءَامِنِينَ﴾ أي: من العدو.

﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ أي: من دون رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم فتح خيبر، قاله ابن زيد والضحاك.

وقيل: فتح مكة، وقال مجاهد: هو صلح الحديبية، وقاله أكثر المفسرين.

قال الزهري: ما فتح الله في الإسلام كان أعظم من صلح الحديبية، لأنه إنما كان القتال حين تلتقي الناس، فلما كانت الهدنة وضعت الحرب أوزارها وأمن الناس بعضهم بعضًا، فالتقوا وتفاوضوا الحديث والمناظرة، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئًا إلا دخل فيه، فلقد

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ١٩٨-١٩٩.

دخل تينك السنتين في الإسلام مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك وأكثر، يدلك على ذلك أنهم كانوا سنة ست يوم الحديبية ألفًا وأربعمائة، وكانوا بعد عام الحديبية سنة ثمان في عشرة آلاف[(١)].

قال ابن كثير: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أري في المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت، فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة، فلما ساروا عام الحديبية لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤيا تتفسر هذا العام، فلما وقع ما وقع من قضية الصلح ورجعوا عامهم ذلك على أن يعودوا من قابل، وقع في نفوس بعض الصحابة من ذلك شيء، حتى سأل عمر ابن الخطاب رضي الله عنه في ذلك فقال له فيما قال: أفلم تكن تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: (بلى، أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا) قال: لا، قال: (فإنك آتيه ومطوف به). وبهذا أجاب الصديق، رضي الله عنه، أيضًا حذو القذة بالقذة[(٢)].

ولهذا قال تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ وهذا لتحقيق الخبر وتوكيده، وليس هذا من الاستثناء في شيء»[(٣)].

وفي الصحيحين أن سهل بن حنيف رضي الله عنه قام يوم صفين فقال: أيها الناس اتهموا أنفسكم، فإنا كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية ولو نرى قتالًا لقاتلنا، فجاء عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ فقال: (بلى). فقال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: (بلى). قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ أنرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقال: (يا ابن الخطاب إني رسول الله، ولن يضيعني الله أبدًا). فانطلق عمر إلى أبي بكر فقال له مثل ما قال للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال: إنه رسول الله ولن يضيعه الله أبدًا، فنزلت سورة الفتح، فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم على عمر إلى آخرها، فقال عمر: يا رسول الله أو فتح هو؟ قال: (نعم).

قال الزهري: «قال عمر: فعملت لذلك أعمالًا»[(٤)].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ٢٩٠-٢٩١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، ٢/ ٩٧٤، رقم ٢٥٨١.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣٥٦.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، أبواب الجزية والموادعة، باب اثم من عاهد ثم غدر، ٣/ ١١٦٢، رقم ٣٠١١، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية في الحديبية، ٣/ ١٤١١، رقم ١٧٨٥.

قال الحافظ ابن حجر: «المراد به الأعمال الصالحة، ليكفر عنه ما مضى من التوقف في الامتثال ابتداء، وقد ورد عن عمر التصريح بمراده بقوله: «أعمالًا»، ففي رواية ابن إسحاق: وكان عمر يقول: ما زلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذ؛ مخافة كلامي الذي تكلمت به. وعند الواقدي من حديث ابن عباس قال عمر: لقد أعتقت بسبب ذلك رقابًا، وصمت دهرًا»[(١)].

وقد وقع تصديق رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم في عمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع، ودخلوها آمنين غير خائفين كما وعدهم الله عز وجل.

٢. رؤيا ليلة الاسراء والمعراج.

والرؤيا الثانية التي ذكرت في القرآن الكريم وذكر فيها أن الله سبحانه وتعالى أراها للنبي صلى الله عليه وسلم هي رؤيا ليلة الإسراء والمعراج، وقد ذكرت بعض التفاسير الخلاف فيها: هل هي رؤيا عين أم هي رؤيا منام؟

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾ [الإسراء: ٦٠].

روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ قال: «هي رؤيا عين أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به إلى بيت المقدس، قال: ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ قال: هي شجرة الزقوم»[(٢)].

وعلى الرغم من نقل بعض التفاسير الخلاف في المراد بهذه الرؤيا إلا أنهم لم يثبتوا فيها قولًا أعلى من قول ابن عباس، لا من حيث السند ولا من حيث الدرجة، فهو ترجمان القرآن وحبر الأمة، وروايته هذه في صحيح البخاري، نعم إن الطبري قد نقل عنه قولًا ثانيًا في المراد من الرؤيا بأنها رؤياه التي رأى أنه يدخل مكة.

قال الطبري: حدثني محمد بن سعد قال: ثني أبي قال: ثني عمي قال: ثني أبي عن أبيه عن ابن عباس قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ قال: يقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أري أنه دخل مكة هو وأصحابه وهو يومئذ بالمدينة، فعجل رسول الله صلى الله عليه وسلم السير إلى مكة قبل الأجل، فرده المشركون، فقالت أناس: قد رد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد كان حدثنا أنه سيدخلها، فكانت

(١) فتح الباري، ابن حجر ٥/ ٣٤٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب المعراج، ٣/ ١٤١٢، رقم ٣٦٧٥.

رجعته فتنتهم[١].

قال القرطبي: وفي هذا التأويل ضعف؛ لأن السورة مكية، وتلك الرؤيا كانت بالمدينة[٢].

بالإضافة إلى ذلك، فإن هذا السند ضعيف لا يرقى من أي وجه للمقارنة مع سند الامام البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقد قال عنه الشيخ أحمد شاكر في تحقيقه: هذا الإسناد من أكثر الأسانيد دورانا في تفسير الطبري، وهو إسناد مسلسل بالضعفاء من أسرة واحدة، إن صح هذا التعبير[٣].

وعليه فإن ابن عباس رضي الله عنهما قد حسم القول فيها بأنها رؤيا عين، ولا عبرة بأي قول آخر.

قال ابن كثير: «وهكذا فسر ذلك بليلة الإسراء: مجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، ومسروق، وإبراهيم، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد، وغير واحد»[٤].

قال البغوي: «فالأكثرون على أن المراد منه ما رأى النبي صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج من العجائب والآيات، قال ابن عباس: هي رؤيا عين أريها النبي صلى الله عليه وسلم، وهو قول سعيد بن جبير والحسن ومسروق وقتادة ومجاهد وعكرمة وابن جريج والأكثرين، والعرب تقول: رأيت بعيني رؤية ورؤيا، فلما ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس أنكر بعضهم ذلك، وكذبوا، وكان فتنة للناس»[٥].

٣. رؤيا المشركين في بدر.

والرؤيا الثالثة التي ذكرت في القرآن الكريم وأن النبي عليه الصلاة والسلام رآها، هي رؤيا المشركين في غزوة بدر، قال تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنفال:٤٣].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: وإن الله يا محمد سميع لما يقول أصحابك، عليم بما يضمرونه، إذ يريك الله عدوك وعدوهم ﴿فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾، يقول: يريكهم في نومك قليلًا، فتخبرهم بذلك، حتى قويت قلوبهم واجترأوا على حرب عدوهم، ولو أراك ربك عدوك وعدوهم كثيرًا لفشل أصحابك، فجبنوا وخافوا ولم يقدروا على حرب القوم، ولتنازعوا في ذلك، ولكن الله سلمهم من ذلك بما أراك في منامك من الرؤيا، إنه عليم بما تجنه الصدور، لا يخفى عليه شيء مما تضمره القلوب»[٦].

(١) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٤٨٣.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٢٨٢.
(٣) جامع البيان، الطبري ١/ ٢٦٣.
(٤) تفسير القرآن العظيم ٥/ ٩٢.
(٥) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ١٤١.
(٦) جامع البيان، الطبري ١٣/ ٥٦٩-٥٧٠.

قال ابن كثير: «وقد زعم بعضهم أن معنى قوله: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ أي: في عينك التي تنام بها فصير المنام هو العين كأنه أراد: إذ يريكهم الله في عينك قليلًا.

قال مجاهد: أراه الله إياهم في منامه قليلًا، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بذلك، فكان تثبيتًا لهم، وكذا قال ابن إسحاق وغير واحد، وقد روى ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ قال: بعينك[1].

قال ابن كثير: وهذا القول غريب، وقد صرح بالمنام هاهنا، فلا حاجة إلى التأويل الذي لا دليل عليه»[2].

قال الزمخشري: «وهذا تفسير فيه تعسف، وما أحسب الرواية صحيحة فيه عن الحسن، وما يلائم عليه بكلام العرب وفصاحته»[3].

وتصديقًا لرؤيا النبي عليه الصلاة والسلام وتثبيتًا للصحابة رضي الله عنهم، قلل الله عز وجل جيش الكفار داخل المعركة في أعين الصحابة رضي الله عنهم أيضًا.

روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: لقد قللوا في أعيننا يوم بدر، حتى قلت لصاحبي الذي إلى جانبي: كم تراهم؟ أتراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة، حتى أخذنا منهم رجلًا فسألناه فقال: كنا ألفًا[4].

فانظر إلى رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنفال:٤٣] كم حصل بها من منافع واندفع من مضار.

وكذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفتح:٢٧].

كم حصل بها من زيادة إيمان، وتم بها من كمال إيقان، وكانت من آيات الله العظيمة[5].

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٥/ ١٧٠٩.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٦٩.
(٣) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٢١٣.
(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، ٨/ ٤٧٨، والطبراني في المعجم الكبير ١٠/ ١٤٧.
(٥) بهجة قلوب الأبرار، السعدي ص ١٤٩-١٥٠.

رؤيا ملك مصر وفتيانه

أولًا: رؤيا ملك مصر:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يوسف:٤٣-٤٩].

قال القرطبي: «إن الملك الأكبر الريان بن الوليد رأى في نومه، كأنما خرج من نهر يابس سبع بقرات سمان، في أثرهن سبع عجاف، أي: مهازيل، وقد أقبلت العجاف على السمان، فأخذن بآذانهن فأكلنهن إلا القرنين، ورأى سبع سنبلات خضر قد أقبل عليهن سبع يابسات فأكلنهن، حتى أتين عليهن، فلم يبق منهن شيء وهن يابسات، وكذلك البقر كن عجافًا فلم يزد فيهن شيء من أكلهن السمان، فهالته الرؤيا، فأرسل إلى الناس وأهل العلم منهم والبصر بالكهانة والنجامة والعرافة والسحر وأشراف قومه، فقال: يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي، فقص عليهم، فقال القوم: أضغاث أحلام»[(١)].

قال الألوسي: «وعبر عن ذلك بالأمر وعن طلب تأويله بالاستفتاء، تهويلًا لأمره وتفخيمًا لشأنه، إذ الاستفتاء إنما يكون في النوازل المشكلة الحكم المبهمة»[(٢)].

قال ابن كثير: «هذه الرؤيا من ملك مصر مما قدر الله تعالى أنها كانت سببًا لخروج يوسف عليه السلام من السجن معززًا مكرمًا، وذلك أن الملك رأى هذه الرؤيا فهالته وتعجب من أمرها وما يكون تفسيرها، فجمع الكهنة والحزاة[(٣)] وكبراء دولته وأمراءه وقص عليهم ما رأى وسألهم عن تأويلها، فلم يعرفوا ذلك واعتذروا إليه بأن هذه ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ أي: أخلاط اقتضت رؤياك هذه ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ أي: ولو كانت رؤيا صحيحة من أخلاط لما كان لنا معرفة بتأويلها وهو تعبيرها، فعند ذلك تذكر ذلك الذي نجا من ذينك الفتيين اللذين كانا في السجن مع يوسف، وكان الشيطان قد أنساه ما وصاه به

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٩٨.
(٢) روح المعاني، الألوسي ١٢/ ٢٤٦.
(٣) وهم الكهنة، قال الأصمعي: التحزي التكهن. انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٥/ ١١٤.

يوسف من ذكر أمره للملك، فعند ذلك تذكر ﴿بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾ أي: مدة.

وقال بعضهم: ﴿بَعۡدَ أَمَهٍ﴾ أي: بعد نسيان.

فقال للملك والذين جمعهم لذلك: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾ أي: بتأويل هذا المنام، ﴿فَأَرۡسِلُونِ﴾ أي: فابعثون إلى يوسف الصديق إلى السجن. ومعنى الكلام: فبعثوا فجاء. فقال: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا﴾ وذكر المنام الذي رآه الملك.

فعند ذلك ذكر له يوسف عليه السلام، تعبيرها من غير تعنيف لذلك الفتى في نسيانه ما وصاه به، ومن غير اشتراط للخروج قبل ذلك، بل قال: ﴿تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا﴾ أي: يأتيكم الخصب والمطر سبع سنين متواليات، ففسر البقر بالسنين؛ لأنها تثير الأرض التي تستغل منها الثمرات والزروع، وهن السنبلات الخضر.

ثم أرشدهم إلى ما يعتمدونه في تلك السنين فقال: ﴿فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ﴾ أي: مهما استغللتم في هذه السبع السنين الخصب فاخزنوه في سنبله، ليكون أبقى له وأبعد عن إسراع الفساد إليه، إلا المقدار الذي تأكلونه، وليكن قليلًا قليلًا لا تسرفوا فيه، لتنتفعوا في السبع الشداد، وهن السبع السنين المحل التي تعقب هذه السبع متواليات، وهن البقرات العجاف اللاتي يأكلن السمان؛ لأن سني الجدب يؤكل فيها ما جمعوه في سني الخصب، وهن السنبلات اليابسات، وأخبرهم أنهن لا ينبتن شيئًا، وما بذروه فلا يرجعون منه إلى شيء.

ولهذا قال: ﴿يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ﴾ ثم بشرهم بعد الجدب العام المتوالي بأنه يعقبهم بعد ذلك ﴿عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ أي: يأتيهم الغيث، وهو المطر، وتغل البلاد، ويعصر الناس ما كانوا يعصرون على عادتهم من زيت ونحوه، وسكر ونحوه حتى قال بعضهم: يدخل فيه حلب اللبن أيضًا، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ﴾ يحلبون»[1].

قال الطبري في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ﴾: «وهذا خبر من يوسف عليه السلام للقوم عما لم يكن في رؤيا ملكهم، ولكنه من علم الغيب الذي آتاه الله دلالة على نبوته وحجة على صدقه»[2].

قال ابن عاشور: «إن الرؤيا قد تحاكي الصورة التي في نفس الأمر، وهو الأكثر في مرائي الأنبياء، وقد تحاكي المعنى الرمزي وهو الغالب في مرائي غير الأنبياء، مثل رؤيا ملك مصر سبع بقرات، ورؤيا صاحبي يوسف في السجن، وهو القليل في مرائي

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٩٢-٣٩٣.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٦/ ١٢٨.

الأنبياء»[1].

قال القرطبي: «هذه الآية أصل في صحة رؤيا الكافر، وأنها تخرج على حسب ما رأى، لا سيما إذا تعلقت بمؤمن، فكيف إذا كانت آية لنبي ومعجزة لرسول وتصديقًا لمصطفى للتبليغ وحجة للواسطة بين الله جل جلاله وبين عباده»[2].

ثم قال: «إن قيل: إذا كانت الرؤيا الصادقة جزءًا من النبوة فكيف يكون الكافر والكاذب والمخلط أهلًا لها؟ وقد وقعت من بعض الكفار وغيرهم ممن لا يرضى دينه منامات صحيحة صادقة، كمنام رؤيا الملك الذي رأى سبع بقرات، ومنام الفتيين في السجن، ورؤيا بخت نصر، التي فسرها دانيال في ذهاب ملكه، ورؤيا كسرى في ظهور النبي صلى الله عليه وسلم، ومنام عاتكة، عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمره وهي كافرة، وقد ترجم البخاري «باب رؤيا أهل السجن» فالجواب أن الكافر والفاجر والفاسق والكاذب وإن صدقت رؤياهم في بعض الأوقات لا تكون من الوحي ولا من النبوة، إذ ليس كل من صدق في حديثه عن غيب يكون خبره ذلك نبوة، وقد تقدم في «الأنعام» أن الكاهن وغيره قد يخبر بكلمة الحق فيصدق، لكن ذلك على الندور والقلة، فكذلك رؤيا هؤلاء، قال المهلب: إنما ترجم البخاري بهذا لجواز أن تكون رؤيا أهل الشرك رؤيا صادقة، كما كانت رؤيا الفتيين صادقة، إلا أنه لا يجوز أن تضاف إلى النبوة إضافة رؤيا المؤمن إليها، إذ ليس كل ما يصح له تأويل من الرؤيا حقيقة يكون جزءًا من النبوة»[3].

وقد تصدق رؤيا لكافر ولا تكون حينئذ جزءًا من النبوة ولا مبشرات، ولكن إنذارًا له أو لغيره ووعظًا[4].

وقد ذكر الشيخ عبدالله الطيار بعض الفوائد المستنبطة من رؤيا ملك مصر وقد جمعها جمعًا لطيفًا من بعض كتب التفسير نذكر منها:

- إن مكانة الرؤيا عظيمة في نفوس أصحابها، فكان ولا بد من عرضها على أهل تأويلها، ولذا أرسل الملك إلى أهل العلم منهم والبصر بالكهانة والعرافة والسحر وأشراف قومه وقص عليهم رؤياه.
- قوة يوسف عليه السلام في تعبير الرؤيا، فلما عجز الناس عن تفسير رؤيا الملك للبقرات والسنبلات، فسرها بالسنين الخصبة والسنين الجدبة، ووجه المناسبة أن الملك ترتبط به

(1) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٢٤.
(2) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٢٠٤.
(3) المصدر السابق ٩/ ١٢٤-١٢٥.
(4) الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم ٥/ ١٤.

أحوال الرعية ومصالحها وبصلاحه تصلح وبفساده تفسد، وكذلك السنون بها صلاح أحوال الرعية واستقامة أمر الناس أو عدمه، وأما البقر فإنها تحرث الأرض عليها ويستقي عليها الماء، وإذا أخصبت السنة سمنت وإذا أجدبت صارت عجافًا، وكذلك السنابل في الخصب تكثر وتخضر وفي الجدب تقل وتيبس، وهي أفضل غلال الأرض.

- إنه ينبغي للمسؤول أن يدل السائل على أمر ينفعه مما يتعلق بسؤاله ويرشده إلى الطريقة التي ينتفع بها في دينه ودنياه، فإن هذا من كمال نصحه وفطنته وحسن إرشاده، فإن يوسف عليه السلام لم يقتصر على تعبير رؤيا الملك، بل دلهم مع ذلك على ما يضعون في تلك السنين المخصبات من كثرة الزرع وكثرة جبايته[1].

وإضافة إلى ذلك نذكر قول القرطبي بأن هذه الآية أصل في القول بالمصالح الشرعية التي هي حفظ الأديان والنفوس والعقول والأنساب والأموال، فكل ما تضمن تحصيل شيء من هذه الأمور فهو مصلحة، وكل ما يفوت شيئًا منها فهو مفسدة، ودفعه مصلحة، ولا خلاف أن مقصود الشرائع إرشاد الناس إلى مصالحهم الدنيوية، ليحصل لهم التمكن من معرفة الله تعالى وعبادته الموصلتين إلى السعادة الأخروية، ومراعاة ذلك فضل من الله عز وجل ورحمة رحم بها عباده من غير وجوب عليه ولا استحقاق، هذا مذهب كافة المحققين من أهل السنة أجمعين، وبسطه في أصول الفقه[2].

ويوسف عليه السلام عندما جاءه ساقي الملك طالبًا منه تأويل رؤيا الملك، ذكر يوسف عليه السلام لذلك الفتى تعبيرها مباشرة من غير أن يشترط عليه الخروج من السجن مقابل ذلك، ومن غير تعنيف ولا تأنيب لذلك الفتى في نسيانه ما وصاه به قبل أن يخرج من السجن[3].

وأخيرًا نقول: إن هذه الرؤيا كانت سببًا لكي يكون يوسف عليه السلام على خزائن الأرض لمدة خمس عشرة سنة أو أكثر، وإدارة الأزمة التي ستمر بمصر، وذلك من خلال وضع خطة اقتصادية تتحكم في الإنتاج الزراعي وتخزينه واستهلاكه، حتى تمر فترة الجفاف والقحط بسلام ولا يهلك الناس فيها.

(١) ضوابط تعبير الرؤيا، الطيار ص ٢١-٢٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٢٠٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٩٢-٣٩٣.

ثانيًا: رؤيا الفتيان:

قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًاۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾ [يوسف: ٣٦-٤١].

ذكر القرآن الكريم قصة هذين الشابين اللذين دخلا السجن مع يوسف عليه السلام، قال قتادة: كان أحدهما ساقي الملك، والآخر خبازه[١].

وقد قيل: إن الخباز وضع السم في الطعام، فلما حضر الطعام قال الساقي: أيها الملك لا تأكل؛ فإن الطعام مسموم، وقال الخباز: أيها الملك لا تشرب، فإن الشراب مسموم، فقال الملك للساقي: اشرب، فشرب فلم يضره، وقال للخباز: كل، فأبى فجرب الطعام على حيوان، فنفق مكانه، فحبسهما سنة، وبقيا في السجن تلك المدة مع يوسف[٢].

قال الخباز ليوسف عليه السلام: رأيت كأني اختبزت في تنانير ثلاثة، وجعلته في ثلاث سلال، فوضعته على رأسي، فجاء الطير فأكل منه، وقال الآخر: رأيت كأني أخذت عناقيد من عنب أبيض، فعصرتهن في ثلاث أوان، ثم صفيته، فسقيت الملك كعادتي فيما مضى، فذلك قوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ أي: عنبًا[٣].

قالا له: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، وكان يوسف عليه السلام قد اشتهر في السجن بالجود والأمانة وصدق الحديث وحسن السمت وكثرة العبادة، صلوات الله عليه وسلامه، ومعرفة التعبير والإحسان إلى أهل السجن وعيادة مرضاهم والقيام بحقوقهم[٤].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٨٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٨٩.

(٣) المصدر السابق ٩/ ١٩٠.

وسمي العنب خمرًا باعتبار ما سيؤول اليه.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٤/ ٣٨٧-٣٨٨.

قال الألوسي: وأما رؤيا صاحبي السجن فقد لبث عليه السلام بعد تعبيرها في السجن بضع سنين، وفي تعليق الجزاء المذكور بالمحسنين إشعار بعلية الإحسان له، وتنبيه على أنه تعالى إنما أتاه ما آتاه لكونه محسنًا في أعماله متقنًا في عنفوان أمره، ومن هنا قال الحسن: من أحسن عبادة الله سبحانه في شبيبته آتاه الله تعالى الحكمة في اكتهاله[(١)].

قال تعالى على لسان يوسف عليه السلام: ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾ أي: قال للساقي: إنك ترد على عملك الذي كنت عليه من سقي الملك بعد ثلاثة أيام، وقال للآخر: وأما أنت فتدعى إلى ثلاثة أيام فتصلب فتأكل الطير من رأسك، قال: والله ما رأيت شيئًا، قال: رأيت أو لم تر ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾[(٢)].

وقد ذكر أهل التفسير قولين في رؤيا صاحبي السجن، الأول لابن عباس رضي الله عنهما ومن تابعه بأن رؤيا صاحبي السجن رؤيا صحيحة، والثاني لابن مسعود رضي الله عنه ومن تابعه بأن رؤيا صاحبي السجن رؤيا كذب.

روى الطبري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: ما رأى صاحبا يوسف شيئًا، وإنما كانا تحالما ليجربا علمه، وقال قوم: إنما سأله الفتيان عن رؤيا كانا رأياها على صحة وحقيقة، وعلى تصديق منهما ليوسف لعلمه بتعبيرها[(٣)].

قال ابن كثير: «والمشهور عند الأكثرين ما ذكرناه، وأنهما رأيا منامًا، وطلبا تعبيره»[(٤)].

قال القرطبي: «قال ابن عباس ومجاهد: كانت رؤيا صدق، رأياها وسألاه عنها، ولذلك صدق تأويلها»[(٥)].

ونقل القرطبي عن العلماء قولهم: «إن قيل: من كذب في رؤياه ففسرها العابر له، أيلزمه حكمها؟ قلنا: لا يلزمه، وإنما كان ذلك في يوسف لأنه نبي، وتعبير النبي حكم، وقد قال: إنه يكون كذا وكذا فأوجد الله تعالى ما أخبر كما قال: تحقيقًا لنبوته، فإن قيل: فقد روى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال: جاء رجل إلى عمر بن الخطاب فقال: إني رأيت كأني أعشبت ثم أجدبت ثم أعشبت ثم أجدبت، فقال له عمر: أنت رجل تؤمن ثم تكفر، ثم تؤمن ثم تكفر، ثم تموت كافرًا، فقال الرجل: ما رأيت شيئًا، فقال له عمر: قد قضي لك ما قضي لصاحب يوسف، قلنا: ليست لأحد بعد عمر؛ لأن عمر كان محدثًا»[(٦)].

(١) روح المعاني، الألوسي ٦/ ٤٠٠.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٩٣.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٦/ ٩٦.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٨٨.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٨٩- ١٩٠.
(٦) المصدر السابق ٩/ ١٩٣.

وقد مر بنا في مطلب رؤيا ملك مصر بأن هذه الآيات أصل في صحة رؤيا الكافر، وأنها تخرج على حسب ما رأى، لا سيما إذا تعلقت بمؤمن، فكيف إذا كانت آية لنبي ومعجزة لرسول، وانها ليست من أجزاء النبوة.

وقد ظهرت فوائد كثيرة من هذه الرؤيا من أهمها:

ذلك الدرس الواعي للدعاة في سبيل الله، وكيف استطاع سيدنا يوسف عليه السلام، أن يستثمر سؤالهم عن تعبير الرؤيا إلى دعوتهم إلى عقيدة توحيد الله عز وجل وعبادته، وأنه عليه السلام لم يتعجل الإجابة مع علمه بتأويل رؤياهما.

قال الألوسي: «وقد تلطف عليه السلام بهما في ردهما إلى الحق وإرشادهما إلى الهدى، حيث أبرز لهما ما يدل على بطلان ما هما عليه بصورة الاستفهام، حتى لا تنفر طباعهما من المفاجأة، بإبطال ما ألفاه دهرًا طويلًا ومضت عليه أسلافهما جيلًا فجيلًا، فقال: ءأرباب متفرقون متعددون متكثرون يستعبدكما منهم هذا وهذا، والكلام على ما صرح به أبو حيان على حذف مضاف، أي: أعبادة أرباب متفرقين خير لكما، أم الله؟ أي: أم عبادة الله سبحانه الواحد المنفرد بالألوهية القهار الغالب الذي لا يغالبه أحد جل وعلا؟»[1].

ونقل ابن كثير عن ابن جريج أنه قال: إنما عدل بهم يوسف عن تعبير الرؤيا إلى هذا، لأنه عرف أنها ضارة لأحدهما، فأحب أن يشغلهما بغير ذلك، لئلا يعاودوه فيها، فعاودوه، فأعاد عليهم الموعظة.

قال ابن كثير: «وفي هذا الذي قاله -يعني: ابن جريج- نظر؛ لأنه قد وعدهما أولًا بتعبيرها، ولكن جعل سؤالهما له على وجه التعظيم والاحترام وصلة وسببًا إلى دعائهما إلى التوحيد والإسلام، لما رأى في سجيتهما من قبول الخير والإقبال عليه والإنصات إليه، ولهذا لما فرغ من دعوتهما، شرع في تعبير رؤياهما، من غير تكرار سؤال»[2].

ظهر أدب يوسف عليه السلام في مخاطبتهما إذ قال في تعبيره عن الرؤى، أما أحدكما ولم يسمه؛ كي لا يحزن الآخر، وترك التحديد لفهمهما، ولوقت تحقق الرؤيا[3].

يجوز للعالم أن يخبر الناس بعلمه، لا لأجل التفاخر والمباهاة، بل ليستفيد الناس منه ومن علمه.

لا بأس بطلب العالم ممن يعلمه، القيام

(١) روح المعاني، الألوسي ٦/ ٤٣٤.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٩٠.
(٣) الرؤيا في القران الكريم، فتحية صرصور ص ٥٢.

بخدمته وقضاء حاجاته، إن كان ذلك بمقدور المتعلم واستطاعته.

وذكر السعدي منها، أن علم التعبير من العلوم الشرعية، وأنه يثاب الإنسان على تعلمه وتعليمه، وأن تعبير الرؤيا داخل في الفتوى لقوله للفتيين ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾، وقال الملك ﴿أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ﴾، وقال الفتى ليوسف ﴿أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ﴾ فلا يجوز الإقدام على تعبير الرؤيا من غير علم[1].

الأصول القرآنية في تعبير الرؤى

لم يترك القرآن الكريم شيئًا من مصالح الناس إلا وقد أمر به، ولا شيئًا من مضار الناس إلا وقد نهى عنه، سواء كان ذلك نصًا، أو ضمن ألفاظ العموم.

ولهذا أجمع أهل العلم على أن مقاصد الشريعة مبنية على جلب المصالح ودرء المفاسد، ومن هذه المصالح المتعلقة بالإنسان والتي راعى القرآن الكريم وجودها في طبيعته، هي الرؤيا وتعبيرها، والتي وضع لها أصولًا معتبرة لتأويلها أخذًا من قصة إبراهيم ويوسف ونبينا محمد عليهم الصلاة والسلام، فضلًا عن باقي الرؤى الثلاث التي ذكرت في سورة يوسف.

قال ابن خلدون: «هذا العلم من العلوم الشرعية، وهو حادث في الملة، عندما صارت العلوم صنائع وكتب الناس فيها، وأما الرؤيا والتعبير لها فقد كان موجودًا في السلف كما هو في الخلف، وربما كان في الملوك والأمم من قبل، إلا أنه لم يصل إلينا للاكتفاء فيه بكلام المعبرين من أهل الإسلام، وإلا فالرؤيا موجودة في صنف البشر على الإطلاق ولا بد من تعبيرها، فلقد كان يوسف الصديق صلوات الله عليه يعبر الرؤيا كما وقع في القرآن، وكذلك ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٠٧.

وعن أبي بكر رضي الله عنه، والرؤيا مدرك من مدارك الغيب»[1].

ومن أهم أصول وقواعد تعبير الرؤى:

١. السؤال عن الرؤيا.

الرؤى التي جاءت في القرآن الكريم محدودة جدًا منها للأنبياء عليهم الصلاة والسلام وهم إبراهيم ويوسف ومحمد عليهم الصلاة والسلام، وهم لم يطلبوا لرؤياهم تأويلًا، لاستغنائهم عنه بالوحي، وثلاث رؤى أخرى لغير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في سورة يوسف، وهي رؤيا ملك مصر، ورؤيا الفتيين صاحبي السجن، وهؤلاء طلبوا من نبي الله يوسف عليه السلام تأويلًا لرؤاهم، لحاجتهم لها وجهلهم بتعبيرها، بل إن يوسف عليه السلام شجعهم على ذلك ورغبهم فيه حينما قال لهما ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ [يوسف:٣٧].

ومن هنا استحب لمن يجهل تعبير رؤياه أن يسأل عنها من يكون أهلًا للتعبير وعالمًا به.

وقد حث النبي عليه الصلاة والسلام على تعبير الرؤى، حينما كان يسأل أصحابه عما رأوه.

فعن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يكثر أن يقول لأصحابه: (هل رأى أحد منكم من رؤيا؟) قال: فيقص عليه من شاء الله أن يقص)[2].

وفي صحيح مسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنه قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مما يقول لأصحابه: (من رأى منكم رؤيا فليقصها أعبرها له)[3].

قال النووي: «وفي هذا الحديث الحث على علم الرؤيا، والسؤال عنها، وتأويلها. قال العلماء: وسؤالهم محمول على أنه صلى الله عليه وسلم يعلمهم تأويلها وفضلها واشتمالها على ما شاء الله تعالى من الإخبار بالغيب»[4].

قال ابن عبد البر: «وهذا الحديث يدل على شرف علم الرؤيا وفضلها، لأنه لم يكن صلى الله عليه وسلم يقول إذا انصرف من صلاة الغداة: هل رأى أحد منكم الليلة رؤيا، إلا ليقصها عليه ويعبرها؛ ليتعلم أصحابه كيف الكلام في تأويلها، وذلك دليل على فضل عبارة الرؤيا وشرف علمها، وحسبك بيوسف صلى الله عليه وسلم وما أعطاه الله

(١) مقدمة ابن خلدون ٢/ ١٦٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التعبير، باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح، ٦/ ٢٥٨٣، رقم ٦٦٤٠.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرؤيا، باب في تأويل الرؤيا، ٤/ ١٧٧٧، رقم ٢٢٦٩.

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم ١٥/ ٣٠-٣١.

منها، وفي أنبياء الله أسوة حسنة صلوات الله عليهم»[1].

٢. الرؤى الصالحة تقع كما ترى، وتقع على غير ما ترى.

قال الكرماني: «رؤيا الأنبياء تنقسم قسمين: رؤيا تقع كما ترى، وذلك مثل ما رأى النبي عليه السلام أنه يدخل المسجد الحرام ومعه المؤمنون، فكان كما رأى لقوله: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الفتح:٢٧] الآية، ورؤيا تعبر فتقع على غير ما يرى، كرؤيا يوسف عليه السلام، وهو قوله ﴿إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ [يوسف:٤] الآية، فكانت أخوة يوسف وأبويه لقوله: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يوسف:١٠٠] الآية، وبعدها ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ﴾، وكانت رؤيا إبراهيم من القبيل الثاني فاحتاط، فأخذ بظاهرها وعدها من القبيل الأول فقصد ذبحه، ففداه الله، وقال: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [الصافات:١٠٧]»[2].

قلت: وهذا ليس محصورًا برؤيا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، بل هو كذلك في رؤى غيرهم من الصالحين، فمنهم من تقع رؤياه كما رآها ولا تحتاج إلى تأويل، ومنهم من تقع رؤياه على غير ما رأى، وأما قول الكرماني بأن رؤيا إبراهيم عليه السلام من القبيل الثاني فلا نسلم به، بل الأرجح أن رؤيا إبراهيم عليه السلام من النوع الأول، ولكن الله عز وجل صرف وقوعها، لأنه ليس من المعقول على سيدنا إبراهيم أو أي نبي آخر عليهم الصلاة والسلام أن يتجرأ على قتل أحد، ولو كان ابنه، برؤيا يتأولها، والإشكال هنا ليس في أن رؤيا الأنبياء وحي، بل هو في التأويل الذي هو أقرب إلى الاجتهاد، فضلًا عن سياق الآيات، وقول ابنه إسماعيل عليه السلام ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ وهذا صريح في أنها أمر على الحقيقة، وليس تأويلًا، والله أعلم.

وقد ورد هذان القسمان في السنة النبوية كثيرًا، فمن قبيل الأول: رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها، قال صلى الله عليه وسلم: **(أريتك في المنام مرتين، إذا رجل يحملك في سرقة من الحرير، فيقول: هذه امرأتك، فأكشفها، فإذا هي أنت، فأقول: إن يكن هذا من عند الله يمضه)**[3].

وقد أمضاه الله تعالى له عليه الصلاة والسلام.

ومن قبيل الثاني: رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة، فعن عبد

---

(١) الاستذكار، ابن عبد البر ٨/ ٤٥٦.

(٢) غرائب التفسير، الكرماني ٢/ ٩٨٢.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب تزويج النبي صلى الله عليه وسلم عائشة وقدومها المدينة وبنائه بها، ٣/ ١٤١٥، رقم ٣٦٨٢، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب في فضل عائشة رضي الله تعالى عنها ٤/ ١٨٨٩، رقم ٢٤٣٨.

الله بن عمر رضي الله عنهما قال صلى الله عليه وسلم: (رأيت امرأة سوداء ثائرة الرأس خرجت من المدينة حتى نزلت بمهيعة، فتأولتها أن وباء المدينة نقل إلى مهيعة) وهي الجحفة[1].

٣. تعبير الرؤى علم عظيم.

إن تعبير الرؤيا علم من العلوم بنص الآيات القرآنية، ولهذا تجد بأن الإمام البخاري أفرد كتابًا في صحيحه سماه كتاب التعبير، وضمنه ثمانية وأربعين بابًا، روى فيه عشرات الأحاديث في الرؤى، وكذلك فعل مسلم في صحيحه في كتاب الرؤيا، وكذلك أصحاب السنن والمصنفات الحديثية.

قال القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٦﴾ [يوسف:٦]: «والاجتباء اختيار معالي الأمور للمجتبى، وأصله من جبيت الشيء أي: حصلته، ومنه جبيت الماء في الحوض، قال النحاس: وهذا ثناء من الله تعالى على يوسف عليه السلام، وتعديد فيما عدده عليه من النعم التي آتاه الله تعالى، من التمكين في الأرض، وتعليم تأويل الأحاديث، وأجمعوا أن ذلك في تأويل الرؤيا. قال عبد الله بن شداد بن الهاد: كان تفسير رؤيا يوسف صلى الله عليه وسلم بعد أربعين سنة، وذلك منتهى الرؤيا، وعنى بالأحاديث ما يراه الناس في المنام، وهي معجزة له، فإنه لم يلحقه فيها خطأ»[2].

قال الطبري: «وقوله: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾ يقول: ويعلمك ربك من علم ما يؤول إليه أحاديث الناس، عما يرونه في منامهم، وذلك تعبير الرؤيا»[3].

قال ابن عبد البر: «وقد أثنى الله عز وجل على يوسف بن يعقوب صلى الله عليهما، وعدد عليه فيما عدد من النعم التي آتاه: التمكين في الأرض وتعليم تأويل الأحاديث، وأجمعوا أن ذلك في تأويل الرؤيا، وكان يوسف عليه السلام أعلم الناس بتأويلها»[4].

قال البغوي في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف:٣٦]: «أي: العالمين بعبارة الرؤيا»[5].

٤. لا ينبني على الرؤيا حكم شرعي.

ومن المعلوم أن الرؤيا الصالحة بالنسبة للأنبياء وحي، وبالنسبة لغيرهم من المؤمنين الصالحين جزء من أجزاء النبوة، إلا أنه لا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التعبير، باب المرأة السوداء، ٦/ ٢٥٨٠، رقم ٦٦٣١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٢٨-١٢٩.

(٣) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٥٦٠.

(٤) التمهيد، ابن عبد البر ١/ ٣١٣-٣١٤.

(٥) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٤٩١.

ينبني عليها حكم شرعي.

قال النووي: «لو كانت ليلة الثلاثين من شعبان، ولم ير الناس الهلال، فرأى إنسان النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقال له: الليلة أول رمضان، لم يصح الصوم بهذا المنام لا لصاحب المنام ولا لغيره، ذكره القاضي حسين في الفتاوى وآخرون من أصحابنا، ونقل القاضي عياض الإجماع عليه، وقد قررته بدلائله في أول شرح صحيح مسلم، ومختصره أن شرط الراوي والمخبر والشاهد أن يكون متيقظًا حال التحمل وهذا مجمع عليه، ومعلوم أن النوم لا تيقظ فيه ولا ضبط، فترك العمل بهذا المنام لاختلاط ضبط الراوي لا للشك في الرؤية، فقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (من رآني في المنام فقد رآني حقًا فإن الشيطان لا يتمثل في صورتي)[١]. والله تعالى أعلم»[٢].

ويتفرع عن هذا رؤيا الصحابة رضي الله عنهم إذا أقرها الرسول صلى الله عليه وسلم، فإنه يعمل بها بلا خلاف، لا لأنها حجة، بل لتقرير النبي صلى الله عليه وسلم لها، ومن أمثلة ذلك رؤيا الأذان الذي أريه عبد الله بن زيد رضي الله عنه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنها لرؤيا حق إن شاء الله، فقم مع بلال فألق عليه ما رأيت فليؤذن به، فإنه أندى صوتًا منك)[٣][٤].

٥. طرق تعبير الرؤى.

قال ابن القيم: «من فهم القرآن فإنه يعبر به الرؤيا أحسن تعبير، وأصول التعبير الصحيحة إنما أخذت من مشكاة القرآن»[٥].

قال السيوطي: «واستنبط قوم مما فيه من أصول التعبير، مثل ما ورد في قصة يوسف في البقرات السمان، وفي منامي صاحبي السجن، وفي رؤياه الشمس والقمر والنجوم ساجدة، وسموه تعبير الرؤيا، واستنبطوا تفسير كل رؤيا من الكتاب، فإن عز عليهم إخراجها منه فمن السنة التي هي شارحة للكتاب، فإن عسر فمن الحكم والأمثال، ثم نظروا إلى اصطلاح العوام في مخاطباتهم وعرف عاداتهم الذي أشار إليه القرآن بقوله: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ [الأعراف:١٩٩]»[٦].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب إثم من كذب على النبي صلى الله عليه وسلم، ١/ ٥٢، رقم ١١٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الرؤيا، باب قول النبي عليه الصلاة و السلام: من رآني في المنام فقد رآني، ٤/ ١٧٧٦، رقم ٢٢٦٨.

(٢) المجموع، النووي ٦/ ٢٨٤.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٦/ ٤٠٢، رقم ١٦٤٨٧، وأبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب كيف الأذان، ١/ ١٣٥، رقم ٤٩٩. وحسنه الألباني في الإرواء، ١/ ٢٦٥، رقم ٢٤٦.

(٤) الرؤى الصادقة حجيتها وضوابطها، آل عابد ص ٢٩.

(٥) إعلام الموقعين، ابن القيم ١/ ١٩١- ١٩٤.

(٦) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي ٤/ ٣٢.

قال ابن عاشور: «عبر -يعني: يوسف عليه السلام- الرؤيا بجميع ما دلت عليه، فالبقرات لسنين الزراعة، لأن البقرة تتخذ للإثمار، والسمن رمز للخصب، والعجف رمز للقحط، والسنبلات رمز للأقوات، فالسنبلات الخضر رمز لطعام ينتفع به، وكونها سبعًا رمز للانتفاع به في السبع السنين، فكل سنبلة رمز لطعام سنة، فذلك يقتاتونه في تلك السنين جديدًا، والسنبلات اليابسات رمز لما يدخر، وكونها سبعًا رمز لادخارها في سبع سنين، لأن البقرات العجاف أكلت البقرات السمان، وتأويل ذلك: أن سني الجدب أتت على ما أثمرته سنو الخصب»[1].

إن الرؤيا تختلف باختلاف حال الرائي لها، وذلك أن الصالح الذاكر لله يقل سلطان الشيطان عليه في اليقظة، وقد يتلاشى وينتفي كما هو حال الأنبياء، لذلك تقع رؤاهم كلها صالحة، وكلما كان الانسان صالحًا كلما ضعف سلطان الشيطان عليه وعلى رؤياه فتقع صالحة، أما الفاسق العاصي فللشيطان سلطان عليه في اليقظة، وسلطانه عليه في النوم أشد، لانه غائب الوعي والعقل، وقد بين الله تعالى في القرآن أن للشيطان سلطانًا على الفاسقين والغافلين عن ذكر الله وطاعته فقال: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف:٣٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل: ٩٩-١٠٠][2].

قال البغوي: «وقد يتغير التأويل عن أصله باختلاف حال الرائي، كالغل في النوم مكروه، وهو في حق الرجل الصالح قبض اليد عن الشر، وكان ابن سيرين يقول في الرجل يخطب على المنبر يصيب سلطانًا، فإن لم يكن من أهله يصلب، وسأل رجل ابن سيرين، قال: رأيت في المنام كأني أؤذن. قال: تحج. وسأله آخر، فأول بقطع يده في السرقة، فقيل له في التأويلين، فقال: رأيت الأول على سيماء حسنة، فأولت قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ [الحج:٢٧].

ولم أرض هيئة الثاني، فأولت قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ [يوسف:٧٠].

وقد يرى الرجل في منامه فيصيبه عين ما رأى حقيقة من ولاية، أو حج، أو قدوم غائب، أو خير، أو نكبة، فقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم الفتح، فكان كذلك، قال الله

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ٢٨٦.

(٢) أحكام تفسير الرؤى والأحلام في القران الكريم والسنة المطهرة، العوضي ص ٣١.

سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ﴾ [الفتح:٢٧]»[1].

قال الراغب الأصفهاني: «ومن الفراسة علم الرؤيا»[2].

وقال ابن قتيبة: «وقد تتغير الرؤيا عن أصلها، باختلاف هيئات الناس وصناعاتهم وأقدارهم وأديانهم فيكون لواحد رحمة وعلى الآخر عذابًا»[3].

قال الملا علي القاري: «والحاصل أن الرؤيا مختلفة باختلاف الرائي، فإنه قد يكون سالكًا من مسالك طريق الدنيا، وقد يكون سائرًا في مسائر صراط العقبى، فلكل تأويل يليق به ويناسب بحاله ومقامه، وهذا أمر غير منضبط، ولذا لم يجعل السلف فيه تأليفًا مستقلًا جامعًا شاملًا كافلًا لأنواع الرؤيا، وإنما تكلموا في بعض ما وقع لهم من القضايا، ولذا لم تلق معبرين يكونان في تعبيرهما لشيء متفقين»[4].

قال الإمام القرطبي عند تفسيره قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [يوسف:٤٤]: «في الآية دليل على بطلان قول من يقول: إن الرؤيا على أول ما تعبر؛ لأن القوم قالوا ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ ولم تقع كذلك، فإن يوسف فسرها على سني الجدب والخصب، فكان كما عبر، وفيها دليل على فساد أن الرؤيا على رجل طائر فإذا عبرت وقعت»[5].

قال الشيخ عبدالله الطيار: «قلت: وكلام الإمام القرطبي رحمه الله فيه نظر؛ لأن الذي قال بأن الرؤيا على رجل طائر فإذا عبرت وقعت هو النبي صلى الله عليه وسلم، فقد روى أحمد وأبو داود وابن ماجه عن أبي رزين العقيلي رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر، فإذا عبرت وقعت) قال الراوي: وأحسبه قال: (لا يقصها إلا على واد، يعني: محب، أو ذي رأي)»[6][7].

قلت: والعجيب أن الإمام القرطبي ذكر هذه الرواية في تفسير السورة نفسها، وذكر تخريجها أيضًا، وعرف باسم الراوي! فالعجب كيف وقع في مثل هذا؟! فقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ الشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾﴾ [يوسف:٥]: «هذه

---

(١) شرح السنة، البغوي ١٢/ ٢٢٤.
(٢) محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ١٥٠.
(٣) تعبير الرؤيا، ابن قتيبة ص ٤٥.
(٤) مرقاة المفاتيح، الملا علي القاري ٧/ ٢٩٢١.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٢٠١.
(٦) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٦/ ١٠٠، رقم ١٦١٨٢، وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب ما جاء في تعبير الرؤيا، ٤/ ٣٠٥، رقم ٥٠٢٠، وابن ماجه في سننه، كتاب تعبير الرؤيا، باب الرؤيا إذا عبرت وقعت، ٢/ ١٢٨٨، رقم ٣٩١٤.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٦٦٣، رقم ٣٥٣٥.
(٧) ضوابط تعبير الرؤيا، الطيار ص ٢١-٢٣.

الآية أصل في ألا نقص الرؤيا على غير شفيق ولا ناصح، ولا على من لا يحسن التأويل فيها، روى أبو رزين العقيلي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (الرؤيا جزء من أربعين جزءًا من النبوة). و (الرؤيا معلقة برجل طائر ما لم يحدث بها صاحبها، فإذا حدث بها وقعت، فلا تحدثوا بها إلا عاقلًا أو محبًا أو ناصحًا) أخرجه الترمذي وقال فيه: حديث حسن صحيح، وأبو رزين اسمه لقيط بن عامر»[1].

قال ابن كثير: «ومن هذا يؤخذ الأمر بكتمان النعمة حتى توجد وتظهر»[2].

قال ابن قتيبة: «قالوا: كيف تكون الرؤيا على رجل طائر؟ وكيف تتأخر عما تبشر به أو تنذر منه بتأخر العبارة لها، وتقع إذا عبرت؟ وهذا يدل على أنها إن لم تعبر لم تقع.

قال أبو محمد: ونحن نقول: إن هذا الكلام خرج مخرج كلام العرب وهم يقولون للشيء، إذا لم يستقر: هو على رجل طائر وبين مخاليب طائر، وعلى قرن ظبي، يريدون: أنه لا يطمئن ولا يقف، وكذلك الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر، يراد أنها تجول في الهواء حتى تعبر، فإذا عبرت وقعت.

ولم يرد أن كل من عبرها من الناس وقعت كما عبر، وإنما أراد بذلك العالم بها، المصيب الموفق.

وكيف يكون الجاهل المخطئ في عبارتها لها عابرًا، وهو لم يصب ولم يقارب؟ وإنما يكون عابرًا لها إذا أصاب.

يقول الله عز وجل: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف:٤٣].

يريد: إن كنتم تعلمون عبارتها.

ولا أراد أن كل رؤيا تعبر وتتأول؛ لأن أكثرها أضغاث أحلام، فمنها ما يكون عن غلبة الطبيعة، ومنها ما يكون عن حديث النفس، ومنها ما يكون من الشيطان.

وإنما تكون الصحيحة، التي يأتي بها الملك، ملك الرؤيا عن نسخة أم الكتاب، في الحين بعد الحين»[3].

قال البغوي: «واعلم أن تأويل الرؤيا ينقسم أقسامًا، فقد يكون بدلالة من جهة الكتاب، أو من جهة السنة، أو من الأمثال السائرة بين الناس، وقد يقع التأويل على الأسماء والمعاني، وقد يقع على الضد والقلب»[4].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٢٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٧١.
(٣) تأويل مختلف الحديث، ابن قتيبة ص ٤٨٣-٤٨٥.
(٤) شرح السنة، البغوي ١٢/ ٢٢٠.

❁ التعبير بدلالة القرآن الكريم.

قال البغوي: «فالتأويل بدلالة القرآن، كالحبل يعبر بالعهد، لقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ﴾ [آل عمران:١٠٣].

والسفينة تعبر بالنجاة، لقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾ [العنكبوت:١٥].

والخشب يعبر بالنفاق، لقوله عز وجل: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون:٤].

والحجارة تعبر بالقسوة، لقوله جل ذكره: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة:٧٤].

والمريض بالنفاق، لقوله تبارك وتعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة:١٠].

والبيض يعبر بالنساء، لقوله سبحانه وتعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾ [الصافات:٤٩].

وكذلك اللباس، لقوله سبحانه وتعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:١٨٧].

واستفتاح الباب يعبر بالدعاء، لقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا﴾ [الأنفال:١٩]. أي: تدعوا.

والماء يعبر بالفتنة في بعض الأحوال، لقوله عز وجل: ﴿لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن:١٦-١٧].

وأكل اللحم النيء يعبر بالغيبة، لقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ [الحجرات:١٢].

ودخول الملك محلة، أو بلدة، أو دارًا تصغر عن قدره، وينكر دخول مثله مثلها، يعبر بالمصيبة والذل ينال أهلها، لقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ [النمل:٣٤]».[1]

❁ التعبير بدلالة الحديث النبوي الشريف.

قال البغوي: «وأما التأويل بدلالة الحديث كالغراب يعبر بالرجل الفاسق؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم سماه فاسقًا.

والفأرة يعبر بالمرأة الفاسقة؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم سماها فويسقة.

والضلع يعبر بالمرأة، لقوله صلى الله عليه وسلم: (إن المرأة خلقت من ضلع أعوج)[2].

والقوارير تعبر بالنساء، لقوله صلى الله عليه وسلم: (يا أنجشة، رويدك سوقًا بالقوارير)»[3][4].

---

(١) شرح السنة، البغوي ١٢/ ٢٢٠- ٢٢١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب خلق آدم عليه السلام وذريته، ٤/ ١٣٣، رقم ٣٣٣١، ومسلم في صحيحه، كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء، ٢/ ١٠٩٠، رقم ١٤٦٨.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب ما يجوز من الشعر والرجز والحداء وما يكره منه، ٥/ ٢٢٧٨، رقم ٥٧٩٧، ومسلم في صحيحه كتاب الفضائل، باب رحمة النبي صلى الله عليه وسلم النساء وأمر السواق مطاياهن بالرفق بهن، ٤/ ١٨١١، رقم ٢٣٢٣.

(٤) شرح السنة، البغوي ١٢/ ٢٢٠-٢٢١.

❁ التعبير بدلالة المعاني.

قال البغوي: «والتأويل بالمعنى كالأترج يعبر بالنفاق، لمخالفة باطنه ظاهره، إن لم يكن في الرؤيا ما يدل على المال.

وكالورد والنرجس يعبر بقلة البقاء إن عدل به عما ينسب إليه، لسرعة ذهابه.

ويعبر الآس بالبقاء؛ لأنه يدوم.

حكي أن امرأة سألت معبرًا بالأهواز: إني رأيت في المنام كأن زوجي ناولني نرجسا، وناول ضرة لي آسا.

فقال: يطلقك ويتمسك بضرتك، أما سمعت قول الشاعر:

ليس للنرجس عهد

إنما العهد لآس»[1].

قال السعدي: «وإن أغلب ما تبنى عليه، أي: الرؤيا، المناسبة والمشابهة في الاسم والصفة، فإن رؤيا يوسف التي رأى فيها الشمس والقمر وأحد عشر كوكبًا له ساجدين، وجه المناسبة فيها أن هذه الأنوار هي زينة السماء وجمالها وبها منافعها.

فكذلك الأنبياء والعلماء، زينة الأرض وجمالها، وبهم يهتدى في الظلمات، كما يهتدى بهذه الأنوار.

ولأن الأصل أبوه وأمه وإخوته هم الفرع، فمن المناسب أن يكون الأصل أعظم نورًا وجرمًا لما هو فرع عنه، فلذلك كانت الشمس أمه، والقمر أباه، والكواكب إخوته.

ومن المناسبة أن الشمس لفظ مؤنث، فلذلك كانت أمه، والقمر والكواكب مذكرات فكانت لأبيه وإخوته.

ومن المناسبة أن الساجد معظم محترم للمسجود له، والمسجود معظم محترم، فلذلك دل ذلك على أن يوسف يكون معظمًا ومحترمًا عند أبويه وإخوته، ومن لازم ذلك أن يكون مجتبى مفضلًا في العلم والفضائل الموجبة لذلك. ولذلك قال أبوه: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف:٦].

ومن المناسبة في رؤيا الفتيين، أن الرؤيا الأولى، التي رأى صاحبها أنه يعصر خمرًا، أن الذي يعصر خمرًا في العادة، يكون خادمًا لغيره، والعصر يقصد لغيره، فكذلك أوله بما يؤول إليه، أنه يسقي ربه، وذلك متضمن لخروجه من السجن.

وأول رؤيا الآخر: أي أنه يحمل فوق رأسه خبزًا، تأكل الطير منه، بأن جلدة رأسه ولحمه وما في ذلك من المخ، أنه هو الذي يحمل، وأنه سيبرز للطير بمحل تتمكن من الأكل من رأسه، فرأى من حاله أنه سيقتل ويصلب بعد موته فيبرز للطيور فتأكل من رأسه، وذلك لا يكون إلا بالصلب بعد القتل.

وأول رؤيا الملك للبقرات والسنبلات

(١) المصدر السابق ١٢/ ٢٢٣.

بالسنين المخصبة والسنين المجدبة، ووجه المناسبة أن الملك به ترتبط أحوال الرعية ومصالحها، وبصلاحه تصلح، وبفساده تفسد.

وكذلك السنون، بها صلاح أحوال الرعية، واستقامة أمر المعاش أو عدمه.

وأما البقر، فإنها تحرث الأرض عليها، ويستقى عليها الماء، وإذا أخصبت السنة سمنت وإذا أجدبت صارت عجافًا.

وكذلك السنابل في الخصب، تكثر وتخضر، وفي الجدب تقل وتيبس، وهي أفضل أغلال الأرض»[١].

ومن هذا القبيل ما رواه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **(بينما أنا نائم أتيت بقدح لبن فشربت منه حتى أني لأرى الري يخرج في أظفاري، ثم أعطيت فضلي عمر بن الخطاب)، قالوا: فما أولته ذلك يا رسول الله؟ قال: (العلم)**[٢].

قال الحافظ ابن حجر: «وتفسير اللبن بالعلم لاشتراكهما في كثرة النفع بهما»[٣].

وأخرجا عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **(بينما أنا نائم رأيت الناس عرضوا علي وعليهم قمص، فمنها ما يبلغ الثدي، ومنها ما يبلغ دون ذلك، وعرض علي عمر بن الخطاب وعليه قميص يجره، قالوا: فما أولته يا رسول الله؟ قال: الدين)**[٤].

قال ابن القيم: «ألا ترى أن الثياب في التأويل كالقمص تدل على الدين، فما كان فيها من طول أو قصر أو نظافة أو دنس فهو في الدين، كما أول النبي صلى الله عليه وسلم القميص بالدين والعلم والقدر المشترك بينهما أن كلًا منهما يستر صاحبه ويجمله بين الناس، فالقميص يستر بدنه، والعلم والدين يستر روحه وقلبه ويجمله بين الناس»[٥].

التعبير بدلالة الأسماء.

قال ابن قتيبة: «فأما التأويل بالأسماء فتحمل على ظاهر اللفظ، كرجل يسمى الفضل تتأوله إفضالًا، ورجل يسمى راشدًا تتأوله رشدًا، أو سالمًا تتأوله سلامة، وأشباه

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤١٢.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب فضل العلم، ١/ ٤٣ رقم ٨٢، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل عمر رضي الله عنه، ٤/ ١٨٥٩ رقم ٢٣٩١.
(٣) فتح الباري، ابن حجر ١/ ١٨٠.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تفاضل أهل الإيمان في الأعمال، ١/ ١٧، رقم ٢٣، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر رضي الله عنه، ٤/ ١٨٥٩، رقم ٢٣٩٠.
(٥) إعلام الموقعين، ابن القيم ١/ ٢٢٥.

هذا كثير.

ثم روى عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (رأيت ذات ليلة فيما يرى النائم، كأنا في دار عقبة بن رافع، فأتينا برطب من رطب ابن طاب، فأولت الرفعة لنا في الدنيا، والعاقبة في الآخرة، وأن ديننا قد طاب)[1].

قال ابن قتيبة: فأخذ من رافع الرفعة، وأخذ طيب الدين من رطب ابن طاب.

ثم روى عن الأصمعي قال: قيل لابن سيرين: رجل رؤي على حمار ولا يزال يلقيه في ماء وطين، ثم رؤي كأنه أردف جارية، قال: ما اسمها؟ قال: عتبة، قال: أعتب الرجل»[2].

قال ابن سيرين: نوى التمر نية السفر، وقد يعبر السفرجل بالسفر إذا لم يكن في الرؤيا ما يدل على المرض، لأن أوله سفر، والسوسن بالسوء، لأن أوله سوء، إذا عدل به عما ينسب إليه في التأويل[3].

❁ **التعبير بدلالة الأمثال.**

قال البغوي: «والتأويل بالأمثال، كالصائغ يعبر بالكذاب، لقولهم: أكذب الناس الصواغون.

وحفر الحفرة يعبر بالمكر، لقولهم: من حفر حفرة وقع فيها، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر:٤٣].

والحاطب يعبر بالنمام، لقولهم لمن وشى: إنه يحطب عليه، وفسروا قوله سبحانه وتعالى: ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ [المسد:٤] بالنميمة.

ويعبر طول اليد بصنائع المعروف، لقولهم: فلان أطول يدًا من فلان.

ويعبر الرمي بالحجارة وبالسهم بالقذف، لقولهم: رمى فلانًا بفاحشة، قال الله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ [النور:٤].

ويعبر غسل اليد باليأس عما يأمل، لقولهم: غسلت يدي عنك»[4].

❁ **التعبير بدلالة الضد والقلب.**

قال ابن قتيبة: «وأما التأويل بالضد والمقلوب، فكقولهم في البكاء: إنه فرح، ما لم يكن معه رنة أو صوت، وفي الفرح والضحك: إنه حزن.

وقولهم في الوالي يرى عهده أتاه: إنه العزل، ومن رأى ذلك من ليس بوالٍ: إنه ابتداء ولايته»[5].

قال البغوي: «وأما التأويل بالضد والقلب، فكما أن الخوف في النوم يعبر بالأمن، لقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرؤيا، باب رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم، ٤/ ١٧٧٩ رقم ٢٢٧٠.

(٢) تعبير الرؤيا، ابن قتيبة ص ٣٢- ٣٣.

(٣) شرح السنة، البغوي ١٢/ ٢٢٣.

(٤) شرح السنة، البغوي ١٢/ ٢٢٢.

(٥) تعبير الرؤيا، ابن قتيبة ص ٤٥.

﴿مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗا﴾ [النور: ٥٥].

والأمن فيه يعبر بالخوف.

ويعبر البكاء بالفرح إذا لم يكن معه رنة.

ويعبر الضحك بالحزن، إلا أن يكون تبسمًا»(١).

موضوعات ذات صلة:

البصر، الرؤية، يوسف عليه السلام

(١) شرح السنة، البغوي ١٢/ ٢٢٣.





عناصر الموضوع

مفهوم الرؤية

أولًا: المعنى اللغوي:

الرؤية لغة مأخوذة من الفعل رأى، قال ابن فارس: «(رأى) الراء والهمزة والياء أصل يدل على نظر وإبصار بعين أو بصيرة»[(١)]، أي: أن الرؤية لغة هي: إدراك المرئي، وذلك أضرب بحسب قوى النفس:

الأول: إدراك المرئي بالحاسة وما يجري مجراها، نحو قوله تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝٧﴾ [التكاثر:٦-٧].

والثاني: إدراك المرئي بالوهم والتخيل، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ [الأنفال:٥٠].

والثالث: إدراك المرئي بالتفكر، نحو قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ [الأنفال:٤٨].

والرابع: إدراك المرئي بالعقل، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١﴾ [النجم:١١][(٢)].

ورأى إذا عدي إلى مفعولين اقتضى معنى العلم نحو قوله تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ﴾ [سبأ:٦][(٣)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

هي: المشاهدة بالبصر حيث كان في الدنيا والآخرة[(٤)].

ويمكن تعريف الرؤية اصطلاحًا بأنها: عبارة عن الإدراك بالبصر للأشياء الظاهرة والمحسوسة، أو بالبصيرة، وهي نور في القلب يدرك به الحقائق والمعقولات، والأمور المعنوية، حين يكون القلب مشحونًا باليقين والإيمان[(٥)].

(١) مقاييس اللغة٢/ ٤٧٢.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٧٥.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٧٣.
(٤) التعريفات، الجرجاني ص١٠٩.
(٥) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٣٢٧، تفسير الشعراوي ٨/ ٤٥٤١.

الرؤية في الاستعمال القرآني

ورد الجذر (رأي) في القرآن الكريم (٣٢٧) مرة، يخص موضوع (الرؤية) (٣١٦) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٩٣	﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾[الأنعام:٧٦]
الفعل المضارع	٢٢٠	﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[الروم:٢٤]
صفة مشبهة	١	﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ۝٧٤﴾ [مريم:٧٤]
مصدر سماعي	٢	﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ﴾[آل عمران:١٣]

وجاءت الرؤية في القرآن على ثلاثة أوجه[٢]:

الأول: النظر والمشاهدة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ [المنافقون:٤]، يعني: نظرت إليهم.

الثاني: العلم، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء:١٠٥]، يعني: بما أعلمك الله.

الثالث: الاعتبار، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ [الملك:١٩]، يعني: أولم يعتبروا بها.

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٢٨٠-٢٨٥.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص ٢٤٤-٢٤٥.

الألفاظ ذات الصلة

١ النظر:

النظر لغة:

هو تقليب البصر والبصيرة لإدراك الشيء ورؤيته[1]. والنظر يقع على الأجسام والمعاني، فما كان بالأبصار فهو للأجسام، وما كان بالبصائر كان للمعاني[2].

النظر اصطلاحًا:

لا يختلف معناه الاصطلاحي عن معناه اللغوي.

الصلة بين الرؤية والنظر:

يشتركان في أنهما: عبارة عن الإدراك بالبصر للأشياء الظاهرة والمحسوسة، أو بالبصيرة في الأمور المعنوية، وقد يكون في كل منهما رؤية مجردة للأشياء أو مع التأمل والفحص.

٢ البصر:

البصر لغة:

الإدراك بالعين التي هي حاسة الرؤية[3]، ويطلق على العلم، فيقال: بصرت بالشيء: إذا صرت به بصيرًا عالمًا[4].

البصر اصطلاحًا:

لا يختلف معناه الاصطلاحي عن معناه اللغوي.

الصلة بين الرؤية والبصر:

أن الرؤية تتم بواسطة حاسة البصر، وعلى قدر سلامة البصر تكون الرؤية.

---

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٨١٢.
(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٥/ ٧٧.
(٣) انظر: تاج العروس، الزبيدي ١٠/ ١٩٦.
(٤) مقاييس اللغة ١/ ٢٥٣.

٣ التأمل:

التأمل لغة:

التثبت، وتأملت الشيء أي: نظرت إليه مستثبتًا له[(١)].

التأمل اصطلاحًا:

تدبر الشيء وإعادة النظر فيه مرة بعد أخرى ليتحققه[(٢)]، التأمل: هو استعمال الفكر، والتدبر: تصرف القلب بالنظر في الدلائل[(٣)].

الصلة بين الرؤية والتأمل:

أن الرؤية والتأمل يشترك كل منهما في إدراك الأشياء بالبصيرة إلا أن الرؤية قد تكون مجردة عن التأمل كما في الإدراك بالبصر.

٤ الرؤيا:

الرؤيا لغة:

ما يرى في المنام، أي: ما رأيته في منامك، وهي الرؤى، ورأيت عنك رؤى حسنة: حلمتها، وأرأى الرجل: إذا كثرت رؤاه، وهي أحلامه، جمع الرؤيا[(٤)]، ومنه قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ﴾ [الفتح:٢٧][(٥)].

الرؤيا اصطلاحًا:

ما يراه النائم في المنام[(٦)].

الصلة بين الرؤية والرؤيا:

أن الرؤية هي إدراك الأشياء في اليقظة، والرؤيا إدراك الأشياء في المنام.

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١١/ ٢٧.
(٢) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٨٩.
(٣) انظر: الكليات، الكفوي ص٢٨٧.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٢٩٧.
(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٧٥.
(٦) انظر: الكليات، الكفوي ص٤٠٤، معجم لغة الفقهاء، محمد رواس وحامد قنيبي ص ٢٢٨.

رؤية الله تعالى

تحدث القرآن الكريم عن جانبين يتعلقان برؤية الله تعالى، أحدهما: رؤية الله تعالى لعباده، والثاني: رؤية العباد لله تعالى، وبيانهما في النقاط الآتية:

أولًا: رؤية الله تعالى لعباده:

إن رؤية الله تعالى لعباده تكون لأعمالهم في الحياة الدنيا.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [يونس: ١٤].

قال أبو جعفر الطبري: «يقول تعالى ذكره: ثم جعلناكم، أيها الناس، خلائف من بعد هؤلاء القرون الذين أهلكناهم لما ظلموا، تخلفونهم في الأرض، وتكونون فيها بعدهم ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾، يقول: لينظر ربكم أين عملكم من عمل من هلك من قبلكم من الأمم بذنوبهم وكفرهم بربهم، تحتذون مثالهم فيه، فتستحقون من العقاب ما استحقوا، أم تخالفون سبيلهم فتؤمنون بالله ورسوله وتقرون بالبعث بعد الممات، فتستحقون من ربكم الثواب الجزيل»[1].

«فقد أخبر تعالى عما أحل بالقرون الماضية في تكذيبهم الرسل فيما جاءوهم به من البينات والحجج الواضحات، ثم استخلف الله هؤلاء القوم من بعدهم وأرسل إليهم رسولًا لينظر طاعتهم له، واتباعهم رسوله، وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء)**»[2][3].

وقال تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف: ١٢٩].

والمعنى: ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ أي: «يرى ذلك بوقوع منكم؛ لأن الله جل وعز لا يجازيهم على ما يعلمه منهم من خطيئاتهم التي يعلم أنهم عاملوها لا محالة، إنما يجازيهم على ما وقع منهم»[4].

وفي قول موسى عليه السلام ذلك لقومه أمران: أحدهما: الوعد بالنصر والاستخلاف في الأرض، والثاني: التحذير من الفساد فيها؛ لأن الله تعالى ينظر كيف يعملون[5].

(١) جامع البيان ١٥/ ٣٨.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرقاق، باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء وبيان الفتنة بالنساء، رقم ٢٧٤٢، ٤/ ٢٠٩٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٢١.

(٤) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ٣٦٧.

(٥) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٢٥٠.

وقال تعالى في المنافقين: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [التوبة:٩٤].

قال ابن عباس رضي الله عنه: «نزلت في المنافقين، يعتذرون إليكم إذا رجعتم من غزوة تبوك، فلا تعذروهم فليس لهم عذر، فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم أتوه يعتذرون، فقال الله تعالى: قل لا تعتذروا لن نصدقكم، قد أخبرنا الله أنه ليس لكم عذر، وسيرى الله عملكم ورسوله إن عملتم خيرًا وتبتم من تخلفكم، ثم تردون بعد الموت إلى عالم الغيب والشهادة، فيخبركم بما كنتم تعملون في السر والعلانية»[1]؛ لأنه سبحانه مطلع على سرهم وعلنهم لا يفوت عن علمه شيء من ضمائرهم وأعمالهم[2].

وقال تعالى في المتخلفين عن الجهاد من المؤمنين: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [التوبة:١٠٥].

والمعنى: «قل يا محمد لهؤلاء الذين اعترفوا لك بذنوبهم من المتخلفين عن الجهاد معك: ﴿اعْمَلُوا﴾، لله بما يرضيه، من طاعته، وأداء فرائضه، فسيرى الله إن عملتم عملكم، ويراه رسوله والمؤمنون، في الدنيا، وستردون يوم القيامة إلى من يعلم سرائركم وعلانيتكم، فلا يخفى عليه شيء من باطن أموركم وظواهرها﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: فيخبركم بما كنتم تعملون، وما منه خالصًا، وما منه رياء، وما منه طاعة، وما منه لله معصية، فيجازيكم على ذلك كله، المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته»[3].

ورؤية الله تعالى لأعمال العباد كما تكون في الدنيا تكون كذلك في الآخرة.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [النجم:٤٠].

أي: وإن عمل كل عامل سوف يراه الله يوم القيامة، فيجازيه عليه الجزاء الأوفى من خير أو شر، وهو المجازي جميع عباده بأعمالهم صالحهم وطالحهم[4].

وبهذا يتبين أن محل نظر الله تعالى هو القلوب والأعمال، وليس الصور والأموال؛ لما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى

(١) زاد المسير، ابن الجوزي٢/ ٢٨٩.
(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي٣/ ٩٤.

(٣) جامع البيان، الطبري١٤/ ٤٦٢.
(٤) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ١١/ ٧١٧٢، الجواهر الحسان، الثعالبي٥/ ٣٣١.

قلوبكم وأعمالكم»[1].

والمعنى: إن الله لا ينظر نظر اعتبار إلى(صوركم)؛ إذ لا اعتبار بحسنها وقبحها (وأموالكم)؛ إذ لا اعتبار بكثرتها وقلتها، ولكن ينظر إلى قلوبكم، وإلى ما فيها من اليقين والصدق، والإخلاص، وقصد الرياء، والسمعة، وسائر الأخلاق الرضية، (وأعمالكم) من صلاحها وفسادها، فيجازيكم على وفقها[2].

قال النووي: «ومعنى نظر الله هنا مجازاته ومحاسبته، أي: إنما يكون ذلك على مافي القلب دون الصور الظاهرة، ونظر الله رؤيته محيط بكل شيء، ومقصود الحديث أن الاعتبار في هذا كله بالقلب»[3].

ورؤية الله تعالى لعباده هي رؤية شاملة وليست محصورة برؤية الأعمال والقلوب، بل تشمل الأجساد وخفايا النفوس، ولكن الرؤية التي يترتب عليها الثواب والعقاب تكون لأعمالهم في الحياة الدنيا، وأن محل نظر الله تعالى هو القلوب والأعمال، وليس الصور والأموال.

ثانيًا: رؤية العباد لله تعالى:

ثبتت رؤية العباد لله تعالى في الآخرة بالكتاب والسنة والإجماع:

أولًا: من القرآن الكريم:

قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القيامة:٢٢-٢٤].

قال ابن عباس وأكثر المفسرين: «تنظر إلى ربها عيانًا بلا حجاب، قال الحسن: حق لها أن تنظر إلى الخالق سبحانه وتعالى، وروي عن مجاهد وأبي صالح أنهما فسرا النظر في هذه الآية: بالانتظار، قال مجاهد تنتظر من ربها ما أمر لها به، وقال أبو صالح: تنتظر الثواب من ربها»[4].

قال ابن جرير الطبري: «وأولى القولين في ذلك عندنا بالصواب القول الذي ذكرناه عن الحسن وعكرمة، من أن معنى ذلك تنظر إلى خالقها، وبذلك جاء الأثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم»[5].

وقال ابن كثير: « قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ من النضارة، أي: حسنة بهية مشرقة مسرورة إلى ربها ناظرة، أي: تراه عيانًا، كما رواه البخاري في صحيحه: (إنكم سترون

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم، وخذله، واحتقاره ودمه، وعرضه، وماله، رقم ٢٥٦٤، ٤/ ١٩٨٧.

(٢) مرقاة المفاتيح، علي ملا قاري ٨/ ٣٣٣١.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ١٦/ ١٢١ .

(٤) لباب التأويل، الخازن ٤/ ٣٧٢. وانظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ٢٥٣، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ١٠٧.

(٥) جامع البيان ٢٤/ ٧٣.

ربكم عيانًا)[1]، وقد ثبتت رؤية المؤمنين لله عز وجل في الدار الآخرة في الأحاديث الصحاح من طرق متواترة عند أئمة الحديث لا يمكن دفعها ولا منعها»[2].

وقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [يونس:٢٦].

قال الماوردي: «﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾ يعني: عبادة ربهم ﴿ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ فيه خمسة تأويلات:

أحدها: أن الحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الله تعالى، وهذا قول أبي بكر الصديق وحذيفة بن اليمان وأبي موسى الأشعري.

والثاني: أن الحسنى واحدة من الحسنات، والزيادة مضاعفتها إلى عشر أمثالها، قاله ابن عباس.

الثالث: أن الحسنى حسنة مثل حسنة، والزيادة مغفرة ورضوان، قاله مجاهد.

والرابع: أن الحسنى الجزاء في الآخرة والزيادة ما أعطوا في الدنيا، قاله ابن زيد.

والخامس: أن الحسنى الثواب، والزيادة الدوام، قاله ابن بحر.

ويحتمل سادسًا: أن الحسنى ما يتمنونه، والزيادة ما يشتهونه»[3].

قال أبو جعفر الطبري: «يعني: جل ثناؤه بقوله: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾، لا يغشى وجوههم كآبة، ولا كسوف، حتى تصير من الحزن كأنما علاها قتر. والقتر: الغبار، ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾، ولا هوان ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾، يقول: هؤلاء الذين وصفت صفتهم، هم أهل الجنة وسكانها ومن هو فيها ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، يقول: هم فيها ماكثون أبدًا، لا تبيد، فيخافوا زوال نعيمهم، ولا هم بمخرجين فتتنغص عليهم لذتهم»[4].

وقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [يونس:٢٦].

قال ابن عباس: للذين قالوا: لا إله إلا الله، الجنة وزيادة، وهي النظر إلى وجه الله في قول أبي بكر الصديق، وأبي موسى الأشعري، وحذيفة، وابن عباس، وقتادة،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾، رقم ٧٤٣٥، ٩/ ١٢٧، من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) تفسير القرآن العظيم٨/ ٢٨٧.

(٣) النكت والعيون٢/ ٤٣٢.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري١٥/ ٧٢، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج٣/ ١٥.

والضحاك، والسدي، ونحو ذلك فسرها النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح الذي رواه صهيب رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة، وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل**)، ثم تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦][1][2].

وقال ابن كثير: «يخبر تعالى أن لمن أحسن العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح: الحسنى في الدار الآخرة، كقوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن:٦٠].

وقوله: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ هي تضعيف ثواب الأعمال بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف وزيادة على ذلك أيضًا، ويشمل ما يعطيهم الله في الجنان من القصور والحور والرضا عنهم، وما أخفاه لهم من قرة أعين، وأفضل من ذلك وأعلاه النظر إلى وجهه الكريم، فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه لا يستحقونها بعملهم، بل بفضله ورحمته، وقد روي تفسير الزيادة بالنظر إلى وجهه الكريم عن أبي بكر الصديق وحذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وسعيد بن المسيب وعبد الرحمن بن أبي ليلى وعبد الرحمن بن سابط ومجاهد وعكرمة وعامر بن سعد وعطاء والضحاك والحسن وقتادة والسدي ومحمد بن إسحاق وغيرهم من السلف والخلف[3]»..

ثانيًا: من السنة النبوية الشريفة:

وردت فيه أحاديث كثيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم، فمن ذلك:

ما رواه صهيب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ وقال: (**إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد: يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدًا يريد أن ينجزكموه، فيقولون: وما هو؟ ألم يثقل موازيننا؟ ألم يبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار؟ قال: فيكشف لهم الحجاب، فينظرون إليه، فو الله ما أعطاهم الله شيئًا أحب إليهم من النظر إليه ولا أقر لأعينهم**)[4][5].

وما رواه جرير بن عبد الله رضي الله عنه، قال: كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم، فنظر إلى القمر ليلة -يعني: البدر-

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى، رقم ١٨١، ١/ ١٦٣.

(٢) انظر: الوسيط، الواحدي ٢/ ٥٤٤.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٢٩.

(٤) سبق تخريجه قريبًا.

(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٢٩.

فقال: (إنكم سترون ربكم، كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا)، ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [ق:٣٩][1].

وما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: أن الناس قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: (هل تمارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟)، قالوا: لا يا رسول الله قال: (فهل تمارون في الشمس ليس دونها سحاب؟)، قالوا: لا، قال: (فإنكم ترونه كذلك، يحشر الناس يوم القيامة، فيقول: من كان يعبد شيئًا فليتبع، فمنهم من يتبع الشمس، ومنهم من يتبع القمر، ومنهم من يتبع الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها، فيأتيهم الله فيقول: أنا ربكم، فيقولون: هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاء ربنا عرفناه، فيأتيهم الله فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا، فيدعوهم فيضرب الصراط بين ظهراني جهنم، فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته ولا يتكلم يومئذ أحد إلا الرسل)[2].

ثالثًا: الإجماع:

قال ابن كثير بعد أن ساق تفسير الآيات السابقة: «وهذا بحمد الله مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة، كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام، وهداة الأنام، ومن تأول ذلك بأن المراد بـ(إلى) مفرد الآلاء، وهي النعم، كما قال الثوري عن منصور عن مجاهد ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ قال: تنتظر الثواب من ربها، رواه ابن جرير من غير وجه عن مجاهد، وكذا قال أبو صالح أيضًا، فقد أبعد هذا القائل النجعة وأبطل فيما ذهب إليه، وأين هو من قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥﴾ [المطففين:١٥].

قال الشافعي: ما حجب الكفار إلا وقد علم أن الأبرار يرونه عز وجل، ثم قد تواترت الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بما دل عليه سياق الآية الكريمة»[3].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، رقم٥٥٤، ١/ ١١٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب فضل السجود، رقم٨٠٦، ١/ ١٦٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم ١٨٢، ١/ ١٦٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم٨/ ٢٨٧.

أنواع الرؤية في القرآن

إن أنواع الرؤية في القرآن ثلاثة هي: الرؤية البصرية، والرؤية العلمية، والرؤية المنامية، وسيتم توضيح ذلك في المطالب الآتية:

أولًا: الرؤية البصرية:

وردت الرؤية البصرية في القرآن الكريم بثلاثة ألفاظ، وهي:

١ . لفظ (رأى) ومشتقاتها.

وقد وردت هذه الرؤية بمعنى الرؤية البصرية للتأمل والاعتبار، ومنها:

- النظر في ملكوت السموات والأرض.

قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾ [سبأ:٩].

أي: ألم يتأملوا ويعلموا أن الذي خلق السماء والأرض قادر على أن يبعثهم، وقادر أن يخسف بهم الأرض أو يسقط السماء عليهم كسفًا[(١)]؛ لأن رؤية مخلوقات الله في السماء والأرض من شأنها أن تهديهم لو تأملوا حق التأمل، والاستفهام للإنكار على انتفاء تأملهم فيما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض، أي: من المخلوقات العظيمة الدالة على أن الذي قدر على خلق تلك المخلوقات من عدم هو قادر على تجديد خلق الإنسان بعد العدم[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأنعام:٧٥-٧٨].

فالمراد من الرؤية في الآيات الرؤية البصرية بالعين، والمعنى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: نبين له وجه الدلالة في نظره إلى خلقهما، على وحدانية الله عز وجل في ملكه وخلقه، وإنه لا إله غيره ولا رب سواه، كقوله تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس:١٠١] وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٨٥][(٣)].

- النظر في إحياء الأرض بالغيث.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٢٤٢.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ١٥٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٥٩، وانظر: تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ١١٨.

﴿ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ٦٣﴾ [الحج:٦٣].

والمراد هو الرؤية الحقيقية، لأن الماء النازل من السماء يرى بالعين، واخضرار النبات على الأرض مرئي، وإذا أمكن حمل الكلام على حقيقته فهو أولى[1].

٢. لفظ (بصر) ومشتقاتها.

وردت الرؤية البصرية بلفظ (البصر) ومشتقاتها في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ٤﴾ [الملك:٣-٤].

قال الماوردي: «﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ﴾ قال قتادة: معناه: فانظر إلى السماء، ﴿هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾ فيه أربعة أوجه:

أحدها: من شقوق، قاله مجاهد والضحاك.

الثاني: من خلل، قاله قتادة.

الثالث: من خروق، قاله السدي.

الرابع: من وهن، قاله ابن عباس.

﴿ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ﴾ أي: انظر إلى السماء مرة بعد أخرى، ويحتمل أمره بالنظر مرتين وجهين:

أحدهما: لأنه في الثانية أقوى نظرًا وأحد بصرًا.

الثاني: لأنه يرى في الثانية من سير كواكبها واختلاف بروجها ما لا يراه من الأولى، فيتحقق أنه لا فطور فيها.

وتأول قوم بوجه ثالث: أنه عنى بالمرتين قلبًا وبصرًا»[2].

وقوله تعالى: ﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ٥﴾ [القلم:٥].

والمعنى: فسترى يا محمد، ويرى مشركو قومك الذين يدعونك مجنونًا[3]. ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ ٦﴾ أي: ستبصر يا محمد ويبصر الكفار إذا تبين الحق وانكشف الغطاء، وذلك يوم القيامة، ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ ٦﴾، أي: أيكم المفتون بالجنون[4].

والخلاصة: ستبصر ويبصرون غلبة الإسلام، واستيلاءك عليهم بالقتل والأسر، وهيبتك في أعين الناس أجمعين، وصيرورتهم أذلاء صاغرين[5].

٣. لفظ (نظر) ومشتقاتها.

وقد وردت في الآيات الآتية:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ١٦﴾ [الحجر:١٦].

أي: وزينا السماء بالكواكب لمن نظر

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣/ ٢٤٦.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٥١.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٥٣٠.

(٤) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٩/ ٢٧٢، فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٣١٩.

(٥) انظر: تفسير المراغي ٢٩/ ٢٩.

إليها وأبصرها[1].

والمعنى: أي ولقد خلقنا في السماء نجومًا كبارًا، ثوابت وسيارات، وجعلناها وكواكبها بهجة لمن تأمل وكرر النظر فيما يرى من عجائبها الظاهرة، وآياتها الباهرة التي يحار الفكر في دقائق صنعتها، وقدرة مبدعها[2].

قال تعالى: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ٣٣﴾ [الشعراء:٣٣].

والمراد: الرؤية البصرية[3].

والمعنى: أخرج يده من درعه بعد ما أدخلها فيه فإذا هي بيضاء تتلألأ من غير برص ولا مرض، كما قال تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [النمل:١٢].

قال ابن عباس: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ يعني: من غير برص، ثم أعادها إلى كمه فعادت إلى لونها الأول، وكذا قال مجاهد وغير واحد[4].

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ٢٠﴾ [محمد:٢٠].

أي: أن المنافقين يشخصون نحوك بأبصارهم، وينظرون نظرًا شديدًا، كما ينظر الشاخص بصره عند الموت، وإنما ذلك لأنهم منافقون، يكرهون القتال[5].

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ٤٥﴾ [الشورى:٤٥].

ومعنى: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ﴾ أي: لا يرفعون أبصارهم للنظر رفعًا تامًا؛ لأنهم ناكسو الرؤوس، والعرب تصف الذليل بغض الطرف، كما يستعملون في ضده حديد النظر إذا لم يتهم بريبة، فيكون عليه منها غضاضة، وقال قتادة والسدي والقرظي وسعيد بن جبير: يسارقون النظر من شدة الخوف، وقيل: المعنى ينظرون من عين ضعيفة النظر، وقال يونس: ﴿مِن﴾ بمعنى الباء، أي: ينظرون بطرف خفي، أي: ضعيف من الذل والخوف، ونحوه عن الأخفش، وقال ابن عباس رضي الله عنه: بطرف ذابل ذليل، وقيل: أي: يفزعون أن ينظروا إليها بجميع أبصارهم لما يرون من أصناف العذاب[6].

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٧٧.
(٢) انظر: تفسير المراغي ١٤/ ١٣.
(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ٣١٠.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٠٩.
(٥) انظر: الوسيط، الواحدي ٤/ ١٢٦.
(٦) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ٤٥.

ثانيًا: الرؤية العلمية:

إن الرؤية العلمية في القرآن وردت في العديد من الآيات منها:

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ [البقرة:١٢٨].

﴿وَأَرِنَا﴾ أي: علمنا وبصرنا مناسكنا، أي: شرائع ديننا وأعلام حجنا[١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ [النساء:١٠٥].

قوله: ﴿بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ معناه: بما أعلمك الله، وسمي ذلك العلم بالرؤية؛ لأن العلم اليقيني المبرأ عن جهات الريب يكون جاريًا مجرى الرؤية في القوة والظهور[٢].

وقال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت:٥٣].

وقال سبحانه: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [النمل:٩٣].

وهذه الإراءة في الآيتين المراد بها الإراة العلمية[٣].

قال ابن جرير: «إن الله عز وجل وعد نبيه صلى الله عليه وسلم أن يري هؤلاء المشركين الذين كانوا به مكذبين آيات في الآفاق، وغير معقول أن يكون تهددهم بأن يريهم ما هم راءوه، بل الواجب أن يكون ذلك وعدًا منه لهم أن يريهم ما لم يكونوا رأوه قبل من ظهور نبي الله صلى الله عليه وسلم على أطراف بلدهم وعلى بلدهم، فأما النجوم والشمس والقمر، فقد كانوا يرونها كثيرًا قبل وبعد، ولا وجه لتهددهم بأنه يريهم ذلك.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ يقول جل ثناؤه: أري هؤلاء المشركين وقائعنا بأطرافهم وبهم حتى يعلموا حقيقة ما أنزلنا إلى محمد، وأوحينا إليه من الوعد له بأنا مظهرو ما بعثناه به من الدين على الأديان كلها، ولو كره المشركون، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ يقول تعالى ذكره: أولم يكف بربك يا محمد أنه شاهد على كل شيء مما يفعله خلقه، لا يعزب عنه علم شيء منه، وهو مجازيهم على أعمالهم، المحسن بالإحسان، والمسيء جزاءه»[٤].

---

(١) لباب التأويل، الخازن١/ ٨١.
وانظر: معالم التنزيل، البغوي١/ ١٦٧.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي١١/ ٢١١.

(٣) انظر: معالم التنزيل، البغوي٣/ ٥٢٠، في ظلال القرآن، سيد قطب٥/ ٢٦٢٥.

(٤) جامع البيان ٢١/ ٤٩٣.

العالم غير المرئي

بين القرآن الكريم أن في الوجود أشياء لا تدركها أبصارنا، ولا نستطيع أن نراها بأعيننا، ومن ذلك:

أولًا: الملائكة:

إن الملائكة أجسام لطيفة هوائية تقدر على التشكل بأشكال مختلفة مسكنها السموات، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون[(١)].

قال ابن عاشور عن الملائكة: «أجسام لطيفة نورانية أخيار ذوو قوة عظيمة، ومن خصائصهم القدرة على التشكل بأشكال مختلفة، والعلم بما تتوقف عليه أعمالهم، ومقرهم السماوات، ما لم يرسلوا إلى جهة من الأرض»[(٢)].

«ومن الأصول المعتبرة في القرآن: الإيمان بالملائكة، كما قال تعالى: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ [البقرة:٢٨٥].

والقرآن يشتمل على شرح صفاتهم تارة على سبيل الإجمال، وأخرى على طريق التفصيل، أما بالإجمال فقوله: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾، أما بالتفصيل فمنها: ما يدل على كونهم رسل الله، قال تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر:١].

ومنها: أنها مدبرات لهذا العالم، قال تعالى: ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾﴾ [النازعات:٤-٥].

وقال تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾﴾ [الصافات:١].

ومنها: حملة العرش، قال: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٧].

ومنها: الحافون حول العرش، قال: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ [الزمر:٧٥].

ومنها: خزنة النار، قال تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦].

ومنها: الكرام الكاتبون، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الانفطار:١٠-١١].

ومنها: المعقبات، قال تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد:١١].

وقد يتصل بأحوال الملائكة أحوال الجن والشياطين»[(٣)].

والقوة البشرية لا تقوى على رؤية الملك في صورته، قال عز وجل: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأنعام:٩].

أي: لو أرسلنا إليهم ملكًا لم نرسله إلا

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢/ ٣٨٤.
(٢) التحرير والتنوير ٢٢/ ٢٥٠.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٤٤٥.



في صورة إنسان؛ لأن الملك فيما قيل لو نظر إليه ناظر على هيئته لصعق، وكانت الملائكة تأتي الأنبياء في صورة الإنس[1].

فقدكان جبريل عليه السلام يأتي النبي صلى الله عليه وسلم في صورة دحية الكلبي رضي الله عنه، فعن أبي هريرة، وأبي ذر رضي الله عنه، قالا: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس بين ظهراني أصحابه، فيجيء الغريب فلا يدري أيهم هو حتى يسأل... ثم قال: (لا والذي بعث محمدًا بالحق هدًى وبشيرًا، ما كنت بأعلم به من رجل منكم، وإنه لجبريل عليه السلام نزل في صورة دحية الكلبي)[2].

وجاء الملكان إلى داود عليه السلام في صورة رجلين على قول في تفسير قوله عز وجل: ﴿۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾﴾ [ص:٢١]؛ لأنهما وردا على داود، وهما ملكان في صورة رجلين يختصمان إليه، ومنه أن الملائكة أتت إبراهيم في صورة الضيفان: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الذاريات:٢٤-٢٥].

وكذلك أتت لوطًا عليه السلام ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الحجر:٦١-٦٢].

فلذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأنعام:٩][3].

ولم تر الملائكة على حقيقتها التي خلقها الله عليها إلا جبريل عليه السلام، فقد رآه النبي عليه السلام على حقيقته.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [النجم:١٣-١٤].

يعني: رأى جبريل في صورته التي خلق عليه نازلًا من السماء نزلة أخرى، وذلك أنه رآه في صورته مرتين، مرة في الأرض، ومرة في السماء[4].

عن عائشة رضي الله عنها قالت: (رأى جبريل عليه السلام في صورته مرتين)[5].

وعن زر بن حبيش، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ

---

(١) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج٢/ ٢٣١.

(٢) أخرجه النسائي في سننه، كتاب الإيمان وشرائعه، باب صفة الإيمان والإسلام، رقم٤٩٩١، ٨/ ١٠١.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ١١١١، ٣/ ١٠٤.

(٣) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج٢/ ٢٣١.
وانظر: الوجيز، الواحدي ص ٣٤٦، معالم التزيل، البغوي ٢/ ١١١، أنوار التنزيل، البيضاوي٢/ ١٥٥.

(٤) معالم التنزيل، البغوي٤/ ٣٠٥.
وانظر: جامع البيان، الطبري٢٢/ ٥١١.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق باب إذا قال أحدكم: آمين، والملائكة في السماء: آمين، فوافقت إحداهما الأخرى، غفر له ما تقدم من ذنبه، رقم٤٨٥٥، ٦/ ١٤٠.

﴿ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ١٨﴾ [النجم:١٨]. قال: (رأى جبريل في صورته له ستمائة جناح)[1].

أما في الآخرة فإن المؤمنين يرون الملائكة، قال سبحانه: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٧٥﴾ [الزمر:٧٥].

والمعنى: أن الرائي يراهم بهذه الصفة في ذلك اليوم، حال كونهم مسبحين لله متلبسين بحمده، وقيل: معنى يسبحون: يصلون حول العرش شكرًا لربهم، والحافين: أي: محدقين حول العرش، ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بين العباد بإدخال بعضهم الجنة وبعضهم النار[2]، ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: وترى أيها الرائي الملائكة محيطين بجوانب العرش، قائمين بجميع ما يطلب منهم، فيسمع لحفوفهم صوت التسبيح والتقديس، ويصلون حول العرش، شكرًا لربهم وتنزيهًا له عن كل نقص[3].

وهذه الآية كقوله سبحانه: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ٢٤﴾ [الرعد:٢٣-٢٤].

كما قال تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ١٠٣﴾ [الأنبياء:١٠٣].

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ٣١﴾ [فصلت:٣٠-٣١].

وأما عن رؤية المجرمين للملائكة، فقد قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ٢٢﴾ [الفرقان:٢٢].

«يقول تعالى ذكره: يوم يرى هؤلاء الذين قالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ بتصديق محمد الملائكة، فلا بشرى لهم يومئذ بخير ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ يعني: أن الملائكة يقولون للمجرمين: حجرًا محجورًا، حرامًا محرمًا عليكم اليوم البشرى أن تكون لكم من الله»[4].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين، والملائكة في السماء: آمين، فوافقت إحداهما الأخرى، غفر له ما تقدم من ذنبه، رقم٣٢٣٢، ٤/ ١١٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: (ولقد رآه نزلة أخرى)، رقم١٧٤، ١/ ١٥٨.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني٤/ ٥٤٩.

(٣) انظر: تفسير المراغي٢٤/ ٣٩.

(٤) جامع البيان، الطبري١٩/ ٢٥٤.

«وأعلم الله عز وجل أن الوقت الذي يرون فيه الملائكة هو يوم القيامة، وأن الله قد حرمهم البشرى في ذلك الوقت»[1].

المعنى في هذه الآية: أن الكفار لما قالوا ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الفرقان: ٢١-٢٢].

أخبر الله تعالى أنهم يوم يرون الملائكة إنما هو يوم القيامة، وقد كان أول الآية يحتمل أن يريد يوم تفيض أرواحهم، لكن آخرها يقتضي أن الإشارة إلى يوم القيامة، ومعنى هذه الآية أن هؤلاء الذين تمنوا نزول الملائكة لا يعرفون ما قدر الله في ذلك، فإنهم يوم يرون الملائكة هو شر لهم، ولا بشرى لهم، بل لهم الخسار ولقاء المكروه يومئذ[2].

ثانيًا: الجن:

الجن مخلوقات نارية لا ترى، أصل خلقهم من النار[3]، من شأنها التشكل بأشكال مختلفة[4].

وقد بين الله تعالى أن الجن لا ترى في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف: ٢٧].

فقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾ جنوده، قال مجاهد: يعني: الجن والشياطين، ابن زيد: (قبيله) نسله، وقيل: جيله، من حيث لا ترونهم، قال بعض العلماء: في هذا دليل على أن الجن لا يرون، لقوله ﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ وقيل: جائز أن يروا؛ لأن الله تعالى إذا أراد أن يريهم كشف أجسامهم حتى ترى[5].

قال النحاس: «في قوله: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧]. يدل على أن الجن لا يرون إلا في وقت نبي ليكون ذلك دلالة على نبوته؛ لأن الله جل وعز خلقهم خلقًا لا يرون فيه، وإنما يرون إذا نقلوا عن صورهم، وذلك من المعجزات التي لا تكون إلا في وقت الأنبياء صلى الله عليهم وسلم»[6]؛ لأن الله تعالى خلق في عيون الجن إدراكًا، فهم به يرون الإنس؛ والإنس لا يرونهم؛ لأنه تعالى لم يخلق هذا الإدراك في عيون الإنس[7].

(١) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج٤/ ٦٣.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية٤/ ٢٠٦.
(٣) انظر: معجم لغة الفقهاء، محمد رواس قلعجي وحامد قنيبي ص١٦٦.
(٤) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ١٣١.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي٧/ ١٨٦. وانظر: تفسير القرآن، السمعاني٢/ ١٧٦.
(٦) إعراب القرآن، النحاس٢/ ٥٠.
(٧) مفاتيح الغيب، الرازي ١/ ٩٤.

كما تدل الآية على أن الإنس لا يرون الجن على العموم في ذلك؛ لأن قوله: ﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ يتناول أوقات الاستقبال من غير تخصيص[1].

ويؤيد ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(إن عفريتًا من الجن جعل يفتك علي البارحة، ليقطع علي الصلاة، وإن الله أمكنني منه فذعته، فلقد هممت أن أربطه إلى جنب سارية من سواري المسجد، حتى تصبحوا تنظرون إليه أجمعون-أو كلكم- ثم ذكرت قول أخي سليمان:** ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾ [ص:٣٥]، **فرده الله خاسئًا)**[2].

ووجود الجن معلوم من هذه الشريعة، كما أن الملائكة أيضًا معلوم وجودهم من هذه الشريعة، وقد قام البرهان العقلي القاطع على وجوده وقد صح تصورهم في الأجسام الكثيفة ورؤية بني آدم لهم في تلك الأجسام، كالشيطان الذي رآه أبو هريرة رضي الله عنه حين جعل يحفظ تمر الصدقة[3]، والعفريت الذي رآه الرسول وقال فيه: **(لولا دعوة أخي سليمان لربطته إلى سارية من سواري المسجد)**[4]، وكحديث خالد بن الوليد حين سير لكسر ذي الخلصة، وكحديث سواد بن قارب مع رئيه من الجن[5] إلا أن رؤيتهم في الصور الكثيفة نادرة، كما أن الملائكة قد تبدو في الصور الكثيفة كحديث جبريل، وحديث الملك الذي أتى الأعمى والأقرع والأبرص[6]، وهذا أمر قد استفاض في الشريعة، فلا يمكن رد تصورهم في بعض الأحيان في الصور الكثيفة[7].

وعالم الجن، أو الشيطان، وإن يكن غير منظور لنا، فإن علينا الإيمان به، وأنه يعيش معنا على هذه الأرض، ويرانا من حيث لا نراه، كما يقول تعالى عن الشيطان: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:٢٧].

«وهذا العالم غير المرئي، هو عدو لنا، متربص بنا، أشبه بجراثيم الأمراض التي لا

(١) المصدر السابق ١٤/ ٢٢٣.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب الأسير أو الغريم يربط في المسجد، رقم٤٦١، ١/ ٩٩، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جواز لعن الشيطان في أثناء الصلاة، رقم٥٤١، ١/ ٣٨٤.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوكالة، باب إذا وكل رجلًا، رقم٢٣١١، ٣/ ١٠١.
(٤) سبق تخريجه.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب إسلام عمر رضي الله عنه، رقم٣٨٦٦، ٥/ ٤٨.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم٣٤٦٤، ٤/ ١٧١.
(٧) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٣٢.

ترى بالعين المجردة، وإن كان يمكن رؤيتها بأجهزة خاصة، كما يمكن أن يرى الشيطان لكثير من المؤمنين بعين البصيرة لا الإبصار، فلنحذر هذا العدو الراصد، كما نحذر الوباء، كما يقول سبحانه: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر:٦].

وإنه ليس علينا أن نبحث عن كنه الشيطان، ولا عن حياته الخاصة في عالمه، ولا عن طعامه، شرابه، وتزاوجه، وتوالده، وإنما الذي علينا أن نعلمه، هو أنه عدو غير مرئى لنا، وأنه يتدسس إلى مشاعرنا، ومدركاتنا، وعواطفنا، ويحاول جاهدًا أن يؤثر فيها، وأن يخرج بها عن جادة الحق والخير، إلى طريق الغواية والضلال، فيزين لنا الشر، فنراه خيرًا، والضلال، فتراه هدى! والشيطان، ليس هو النفس الأمارة بالسوء، كما يرى ذلك بعض الناس، وإنما هو كائن له وجوده المستقل خارج العالم الإنساني، وله حياته الخاصة، شأنه في هذا شأن الكائنات والعوالم غير المرئية التي تعيش معنا، كالجراثيم، والهواء، بل والإنسان الذي يلبس ثوب الوسواس، فإنه شيطان غير مرئي»[1].

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٦/ ١٧٥١.

الرؤية الوهمية

أشار القرآن الكريم إلى هناك رؤية موهومة، يرى الرائي شيئًا، والحقيقة تختلف عما يراه.

ومن تلك النماذج التي أشار إليها القرآن الكريم:

أولًا: رؤية الجبال:

قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النمل:٨٨].

وقد اختلف المفسرون في الرؤية الواردة في الآية هل هي في الدنيا أو في الآخرة؟ على قولين:

القول الأول: ذهب جمهور المفسرين: إن الآية حكت حادثًا يحصل يوم ينفخ في الصور فجعلوا قوله: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ عطفا على ﴿يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ [النمل:٨٧].

أي: ويوم ترى الجبال تحسبها جامدة إلخ.. وجعلوا الرؤية بصرية، ومر السحاب تشبيهًا لتنقلها بمر السحاب في السرعة[2].

قال ابن كثير: «وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل:٨٨] أي: تراها كأنها ثابتة باقية على ما كانت عليه، وهي تمر مر السحاب، أي:

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ٤٧.

تزول عن أماكنها، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا ۝١٠﴾ [الطور:٩-١٠].

وقال تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا ۝١٠٧﴾ [طه:١٠٥-١٠٧].

وقال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ﴾ [الكهف:٤٧].

وقوله تعالى: ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍ﴾ أي: يفعل ذلك بقدرته العظيمة الذي أتقن كل شيء، أي: أتقن كل ما خلق، وأودع فيه من الحكمة ما أودع، ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾ أي: هو عليم بما يفعل عباده من خير وشر، وسيجازيهم عليه أتم الجزاء»[1].

القول الثاني: إن هذه الرؤية في الدنيا.

قال ابن جرير: «﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ﴾ يا محمد ﴿تَحۡسَبُهَا﴾ قائمة ﴿وَهِيَ تَمُرُّ﴾ قاله ابن عباس، قوله: ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ﴾ يقول: قائمة، وإنما قيل: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ لأنها تجمع ثم تسير، فيحسب رائيها لكثرتها أنها واقفة، وهي تسير سيرًا حثيثًا، قوله: ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍ﴾ أوثق خلقه»[2].

وقال الزمخشري: «﴿جَامِدَةٗ﴾ من جمد في مكانه إذا لم يبرح، تجمع الجبال فتسير كما تسير الريح السحاب، فإذا نظر إليها الناظر حسبها واقفه ثابتة في مكان واحد، وهي تمر مرًا حثيثًا كما يمر السحاب، وهكذا الأجرام العظام المتكاثرة العدد: إذا تحركت لا تكاد تتبين حركتها»[3].

﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍ﴾ وهذا تمجيد لهذا النظام العجيب إذ تتحرك الأجسام العظيمة مسافات شاسعة والناس يحسبونها قارة ثابتة، وهي تتحرك بهم، ولا يشعرون[4].

لذلك قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل:٨٨].

فليس غريبًا الآن أن نعرف أن للجبال حركة، وأن كنا لا نراها؛ لأنها ثابتة بالنسبة لموقعك منها؛ لأنك تسير بنفس حركة سيرها، كما لو أنك وصاحبك في مركب، والمركب تسير بكما، فأنت لا تدرك حركة صاحبك لأنك تتحرك بنفس حركته.

وقد شبه الله حركة الجبال بمر السحاب، فالسحاب لا يمر بحركة ذاتية فيه، إنما يمر بدفع الرياح، كذلك الجبال لا تمر بحركة ذاتية إنما بحركة الأرض كلها، وهذا دليل واضح على حركة الأرض[5].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٦/ ١٩٥. وانظر: معالم التنزيل، البغوي٣/٥١٩، المحرر الوجيز، ابن عطية٤/ ٢٧٣، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٥٧٤.

(٢) جامع البيان ١٩/ ٥٠٥.

(٣) الكشاف ٣/ ٣٨٧.

(٤) انظر: التحرير والتنوير٢٠/ ٥٠.

(٥) انظر: تفسير الشعراوي ١٥/ ٩٥٢٧.

فللجبال حركة مرتبطة بحركة الأرض، وهذه الحركة لا ترى؛ لأنه لا يمكن لمن على الأرض أن يشعر بحركتها؛ لأنه يتحرك معها، وما دامت الجبال أوتادًا في الأرض وهي -أي: الجبال- تمر مر السحاب، فلا بد أن الأرض كذلك تمر، وتتحرك بنفس الحركة، وحركة الجبال ليست ذاتية، إنما هي تابعة لحركة الأرض، والحق سبحانه شبه حركة الجبال بحركة السحاب، والسحاب حركته غير ذاتية، إنما هي تابعة لحركة الرياح[١].

ثانيًا: رؤية السراب:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ۝٣٩﴾ [النور:٣٩].

وقال تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا ۝٢٠﴾ [النبأ:٢٠][٢].

السراب: ما يرى في نصف النهار من اشتداد الحر؛ كالماء في المفاوز يلصق بالأرض، وهو غير الآل[٣] الذي يرى في طرفي النهار، ويرتفع عن الأرض حتى يصير كأنه بين الأرض والسماء[٤].

وهذا مثل ضربه الله لأعمال أهل الكفر به، فقال: والذين جحدوا توحيد ربهم وكذبوا بهذا القرآن، وبمن جاء به مثل أعمالهم التي عملوها (كسراب) يقول: مثل سراب، والقاع: ما انبسط من الأرض واتسع، وفيه يكون السراب.

والمعنى: حتى إذا جاء الظمآن السراب ملتمسًا ماءً، يستغيث به من عطشه ﴿لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ يقول: لم يجد السراب شيئًا، فكذلك الكافرون بالله من أعمالهم التي عملوها في غرور، يحسبون أنها منجيتهم عند الله من عذابه، كما حسب الظمآن الذي رأى السراب، فظنه ماء يرويه من ظمئه، حتى إذا هلك وصار إلى الحاجة إلى عمله الذي كان يرى أنه نافعه عند الله، لم يجده ينفعه شيئًا؛ لأنه كان عمله على كفر بالله، ووجد الله، هذا الكافر عند هلاكه بالمرصاد، فوفاه يوم القيامة حساب أعماله التي عملها في الدنيا، وجازاه بها جزاءه الذي يستحقه عليه منه[٥].

والسراب: هي ظاهرة ضوئية تلاحظ في ظروف مناخية وجغرافية متعددة، وأكثرها شيوعًا ما يلاحظه المسافر في المناطق الصحراوية خلال فترة الظهيرة، من وجود

(١) المصدر السابق ١٩/ ١١٦٠٠.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٤٠٥.
(٣) الآل: والسراب واحد، وقيل: الآل من الضحى إلى زوال الشمس، والسراب بعد الزوال إلى صلاة العصر.
انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٥/ ٣١٥، لسان العرب، ابن منظور ١١/ ٣٦، تاج العروس، الزبيدي ٣/ ٥٢.

(٤) الكليات، الكفوي ص٥١٤.
(٥) جامع البيان، الطبري١٩/ ١٩٥.

رقعة مائية أمامه، وكلما تقدم، تقدمت تلك الرقعة المائية أمامه، وما هي في الحقيقة بماء، وهو لن يدركها أبدًا، وقد ضرب الله في قرآنه المحكم مثلًا بهذه الظاهرة الطبيعية التي يراها الناس بأعينهم ويعرفون مدلولها: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور:٣٩].

فقد شبه الله أعمال الكافرين بالسراب، وما هو بماء حقيقي، ولكنه وهم وخداع نظر، فهي أعمال يحسبها الكافرون تنفعهم بدون إيمان، حتى إذا جاءوا يوم القيامة وجدوا أعمالهم هباءً منثورًا[1].

رؤية النعم

لقد منَّ الله عز وجل على بني آدم بنعم كثيرة، لا تعد ولا تحصى، يرونها في جميع تفاصيل حياتهم، لا يختلف في ذلك غنيهم عن فقيرهم، فالكل منعم عليه.

ولكن نظرة الناس إلى تلك النعم تختلف، وهذا ما سنناقشه في النقاط الآتية:

أولًا: رؤية الشاكر:

إن الشاكر يرى أن النعم من الله تعالى، ولهذا فهو يطلب من الله تعالى أن يلهمه شكر هذه النعم.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف:١٥].

والمعنى: أغرني بشكر نعمتك التي أنعمت علي[2]، يعني: ألهمني ما أؤدي به شكر نعمتك، وما أوزعت به نفسي، أن أكفها عن كفران نعمتك، وأصله من وزعته، أي: دفعته، يعني: ادفعني أن أؤدي شكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي بالإسلام، ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ يعني: تقبله ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ يعني: أكرمهم بالتوحيد[3].

(١) القرآن وعلوم الأرض، محمد سميح عافية ص٤٧.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ١١٤.

(٣) انظر: تفسير السمرقندي ٣/ ٢٨٨.



كما أن الشاكر يرى أن الله سخر له ما في السموات والأرض وتم تلك النعم عليه الظاهرة والباطنة.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [لقمان:٢٠].

يقول تعالى منبهًا خلقه على نعمه عليهم في الدنيا والآخرة بأنه سخر لهم ما في السموات من نجوم يستضيئون بها في ليلهم ونهارهم، وما يخلق فيها من سحاب وأمطار وثلج وبرد، وجعله إياها لهم سقفًا محفوظًا، وما خلق لهم في الأرض من قرار وأنهار وأشجار وزروع وثمار، وأسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة من إرسال الرسل وإنزال الكتب وإزاحة الشبه والعلل، ثم مع هذا كله ما آمن الناس كلهم، بل منهم من يجادل في الله، أي: في توحيده وإرساله الرسل ومجادلته في ذلك بغير علم، ولا مستند من حجة صحيحة، ولا كتاب مأثور صحيح، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [لقمان:٢٠]. أي: مبين مضيء[١].

وكذلك يرى الشاكر أن من شكر النعم أن يحدث بها، ويذكرها ويعمل بمقتضاها[٢].

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى:١١].

أي: انشر ما أنعم الله عليك بالشكر والثناء، والتحدث بنعم الله، والاعتراف بها شكر[٣].

والتحدث بنعمة والإخبار بها، وقول العبد: أنعم الله علي بكذا وكذا شكر.. عن النعمان بن بشير رضي الله عنه، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم على المنبر: (من لم يشكر القليل، لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس، لم يشكر الله، التحدث بنعمة الله شكر، وتركها كفر، والجماعة رحمة، والفرقة عذاب)[٤].

وعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن الله تعالى جميل، يحب الجمال، ويحب أن يرى أثر النعمة على عبده)[٥].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣١٠.
وانظر: مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٧١٧.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٤٨٩.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٠/ ١٠٢.
(٤) أخرجه أحمد في مسنده، رقم١٨٤٤٩، ٣٠/ ٣٩٠.
وحسنه الألباني في الجامع الصغير، رقم ٣٠١٤، ١/ ٥٧٨.
(٥) أخرجه أحمد في مسنده رقم ٨١٠٧، ١٣/ ٤٦٨ ، والترمذي في سننه، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في المتشبع بما لم يعطه، رقم٢٨١٩، ٥/ ١٢٣.
وصححه الألباني في صحيح الجامع،

يعني: يشكر بما أنعم الله تعالى عليه، ويحدث به، فيظهر على نفسه أثر النعمة[(١)].

وفي حديث جابر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من أعطي عطاء، فوجد فليجز به، ومن لم يجد فليثن، فإن من أثنى فقد شكر، ومن كتم فقد كفر، ومن تحلى بما لم يعطه كان كلابس ثوبي زور): ومعنى قوله: (ومن كتم فقد كفر) يقول: قد كفر تلك النعمة[(٢)].

فذكر أقسام الخلق الثلاثة، شاكر النعمة المثني بها، والجاحد لها، والكاتم لها، والمظهر أنه من أهلها وليس من أهلها، فهو متحل بما لم يفعله[(٣)].

والشكر ثلاثة أشياء:

الأول: معرفة النعمة بمعنى إحضارها في الخاطر بحيث يتميز عندك أنها نعمة، فرب جاهل يحسن إليه وينعم عليه، وهو لا يدري، فلا جرم أنه لا يصح منه الشكر.

والثاني: قبول النعمة بتلقيها من المنعم بإظهار الفقر والفاقة، فإن ذلك شاهد بقبولها حقيقة.

والثالث: الثناء بها بأن تصف المنعم بالجود والكرم ونحوه مما يدل على حسن تلقيك لها واعترافك بنزول مقامك في الرتبة عن مقامه، فإن اليد العليا خير من اليد السفلى[(٤)].

وشكر الله تعالى مبنى على خمس قواعد: خضوع الشاكر للمشكور، وحبه له، واعترافه بنعمته، والثناء عليه بها، وألا يستعملها فيما يكره، هذه الخمسة هي أساس الشكر، وبناؤه عليها، فمتى عدم منها واحدة اختلت قاعدة من قواعد الشكر[(٥)].

والشاكر في الحقيقة: من يرى عجزه عن شكره، ويرى شكره من الله عز وجل، لتحققه أنه هو الذي خلقه، وهو الذي وفقه لشكره، وهو الذي رزقه الشكر، وهو الذي اجتباه حتى كان بالكلية له سبحانه[(٦)].

والخلاصة أن: رؤية الشاكر للنعم هو القيام بالشكر اعتقادًا وقولًا وفعلًا، كما قال تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣].

وبهذا يتبين أن رؤية الشاكر للنعم تتمثل في الاعتراف بها والإقرار بوجوب الشكر، اعتقادًا بأن النعم من الله وحده لا شريك له،

رقم١٧٤٢، ١/ ٣٥٩.

(١) انظر: تفسير السمرقندي٣/ ٥٩٢.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده رقم ٢٤٥٩٣، ٤١/ ١٤٢، والترمذي في سننه، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في المتشبع بما لم يعطه، رقم٢٠٣٤، ٤/ ٣٧٩.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٦٠٥٦، ٢/ ١٠٤٦.

(٣) انظر: التفسير القيم، ابن القيم ص٥٧٣.

(٤) انظر: نظم الدرر، البقاعي ١٤/ ١٤٥.

(٥) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣/ ٣٣٧.

(٦) انظر: لطائف الإشارات، القشيري ٢/ ٣٢٧.

وقولًا بالتحدث بالنعم وإظهارها، وعملًا ببذلها لمن يحتاجها؛ لما رواه ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن لله عبادًا اختصهم بالنعم لمنافع العباد، يقرهم فيها ما بذلوها، فإذا منعوها نزعها منهم، فحولها إلى غيرهم)[1].

ثانيًا: رؤية الجاحد:

إن الله تعالى إذا أنعم على الجاحد فإنه يرى أن هذه النعم هي بسبب فضله وعلمه ومكانته بين الناس، كما قال تعالى عن قارون: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [القصص:٧٦-٧٨].

قال عطاء: فكفر قارون لما رأى أن المال حصل له بعلمه، ولم يعتبره من عطاء الله، فكأنه أراد بعلمه في التصرف وأنواع المكاسب، وقال آخرون: معناه: إنما أوتيته على خير علمه الله عندي، فكنت أهلًا لما أعطيته لفضل علمي، وقال الكلبي: على علم عندي بصنعة الذهب[2].

وقال ابن زيد: أي: إنما أوتيته لعلمه بفضلي ورضاه عني، أي: أن الله تعالى آتاني هذه الكنوز على علم منه باستحقاقي إياها لفضل في، وقيل: أوتيته على علم من عندي بوجوه التجارة والمكاسب[3].

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾ [الفجر:١٥-١٦].

يقول تعالى ذكره: فأما الإنسان إذا ما امتحنه ربه بالنعم والغنى فأكرمه بالمال، وأفضل عليه، ونعمه بما أوسع عليه من فضله فيقول: ربي أكرمن، فيفرح بذلك ويسر به ويقول: ربي أكرمني بهذه الكرامة.

وأما إذا ما امتحنه ربه بالفقر فقدر عليه رزقه يقول: فضيق عليه رزقه وقتره، فلم يكثر ماله، ولم يوسع عليه فيقول: ربي أهانن، يقول: فيقول ذلك الإنسان: ربي أهانني، يقول: أذلني بالفقر، ولم يشكر الله على ما وهب له من سلامة جوارحه، ورزقه

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، رقم٥١٦٢، ٥/٢٢٨، والبيهقي في شعب الإيمان، رقم٧٢٥٦، ١٠/١١٧.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٢١٦٤، ١/٤٣٢.

(٢) انظر: الوسيط، الواحدي٣/٤٠٨.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/٣١٥.

من العافية في جسمه»[1].

والمعنى: إذا ما اختبره ربه وأوسع عليه فيقول: ربي أكرمن، وإذا جعل رزقه مقدرًا، فيقول: ربي أهانن، أي: ليس الأمر كما يظن الإنسان، وهذا يعنى به الكافر الذي لا يؤمن بالبعث، وإنما الكرامة عنده والهوان بكثرة الحظ في الدنيا، وصفة المؤمن أن الإكرام عنده توفيق الله إياه، أي: ما يؤديه إلى حظ الآخرة[2].

وبهذا يتبين أن الجاحد لا يرى أن النعمة من الله تعالى، بل وينسبها لغير الله تعالى، وهو بهذا يقع في الشرك وكفران النعم، ويدل على ذلك ما رواه زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه، قال: (صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية في إثر السماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: (هل تدرون ماذا قال ربكم؟) قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: قال: (أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب)[3].

قال النووي: «اختلف العلماء في كفر من قال: مطرنا بنوء كذا، على قولين: أحدهما هو: كفر بالله سبحانه وتعالى، سالب لأصل الإيمان، مخرج من ملة الإسلام، قالوا: وهذا فيمن قال ذلك معتقدًا أن الكوكب فاعل مدبر منشئ للمطر،كما كان بعض أهل الجاهلية يزعم، ومن اعتقد هذا، فلا شك في كفره، وهذا القول هو الذي ذهب إليه جماهير العلماء والشافعي منهم، وهو ظاهر الحديث، قالوا: وعلى هذا لو قال: مطرنا بنوء كذا، معتقدًا أنه من الله تعالى وبرحمته، وأن النوء ميقات له وعلامة اعتبارًا بالعادة، فكأنه قال: مطرنا في وقت كذا، فهذا لا يكفر، واختلفوا في كراهته، والأظهر كراهته، لكنها كراهة تنزيه لا إثم فيها، وسبب الكراهة أنها كلمة مترددة بين الكفر وغيره، فيساء الظن بصاحبها؛ ولأنها شعار الجاهلية، ومن سلك مسلكهم، والقول الثاني: في أصل تأويل الحديث أن المراد: كفر نعمة الله تعالى؛ لاقتصاره على إضافة الغيث إلى الكوكب، وهذا فيمن لا يعتقد تدبير الكوكب»[4].

والجاحد هو الذي لا يعرف نعمة الله تعالى ولا يقوم بشكرها، وهذا بفعل الشيطان به، قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ

---

(1) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٤١٢.

(2) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ٣٢٢.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب قول الله تعالى: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾، رقم١٠٣٨، ٢/ ٣٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان كفر من قال: مطرنا بالنوء، رقم٧١، ١/ ٨٣.

(4) شرح النووي على صحيح مسلم ٢/ ٦٠.

﴿أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف:١٧].

والمعنى: ولا تجد أكثر بني آدم شاكرين لك نعمتك التي أنعمت عليهم، وشكرهم إياه، طاعتهم له بالإقرار بتوحيده، واتباع أمره ونهيه[1].

رؤية الأدلة العلمية والجنائية

سيكون هذا المبحث في بيان رؤية الأدلة العلمية، والجنائية في القرآن الكريم، وذلك في النقاط الآتية:

أولًا: رؤية الأدلة العلمية:

تتمثل رؤية الأدلة العلمية في المعجزات التي أقامها الأنبياء عليهم السلام على صدق نبوتهم، وكذلك في الأدلة العلمية للمعجزة الخالدة (القرآن الكريم) في العصر الحاضر، وسيتم بيان ذلك في الفقرات الآتية:

١. رؤية معجزات النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

لقد رأى الصحابة الكرام رضي الله عنه المعجزات التي أقامها الرسول صلى الله عليه وسلم على صدق نبوته، وهي كثيرة، ومنها: رؤية انشقاق القمر المذكورة في القرآن.

قال تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾﴾ [القمر:١-٢].

«قال مجاهد: انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فصار فرقتين، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر رضي الله عنه: (اشهد يا أبا بكر)، فقال المشركون: سحر القمر حتى

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٣٤٢.

انشق﴾[(١)].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقتين، فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اشهدوا)[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا ءَايَةً﴾ أي: دليلًا وحجة وبرهانًا ﴿يُعْرِضُوا﴾ أي: لا ينقادون له، بل يعرضون عنه ويتركونه وراء ظهورهم ﴿وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ أي: ويقولون: هذا الذي شاهدناه من الحجج سحر، ومعنى مستمر: ذاهب، أي: باطل مضمحل لا دوام له، قاله مجاهد وقتادة وغيرهما﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: كذبوا بالحق إذ جاءهم، واتبعوا ما أمرتهم به آراؤهم وأهواؤهم من جهلهم وسخافة عقلهم[(٣)].

٢. رؤية معجزات موسى عليه السلام.

لقد ذكر القرآن الكريم رؤية فرعون وقومه لمعجزات سيدنا موسى عليه السلام في كثير من الآيات.

منها قوله تعالى: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأعراف:١٠٥-١٠٨].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [الشعراء:٣١-٣٣].

والمعنى: أنه أخرج يده من جيبه أو من تحت جناحه ﴿فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه وغيره: أخرج يده من جيبه فرآها بيضاء من غير سوء، يعني: من غير برص، وقيل: إن موسى عليه عليه السلام أدخل يده تحت جيبه ثم نزعها منه، وقيل: أخرج يده من تحت إبطه، فإذا هي بيضاء لها شعاع غلب نور الشمس، وكان موسى عليه السلام آدم اللون، ثم ردها إلى جيبه فأخرجها، فإذا هي كما كانت، ولما كان البياض المفرط عيبًا في الجسد، وهو البرص قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [طه:٢٢].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٤٤٠. وانظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٥٧٠، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ٨٥، الوسيط، الواحدي ٤/ ٢٠٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾، رقم٤٨٦٤، ٦/ ١٤٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٤٤٠. وانظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ٨٥، الوسيط، الواحدي ٤/ ٢٠٧.

يعني: من غير برص، والمعنى: فإذا هي بيضاء للنظارة ولا تكون بيضاء للنظارة إلا إذا كان بياضها بياضًا عجيبًا خارجًا عن العادة يتعجب منه[1].

ومعنى: ﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾ أن بياضها مما يقصده الناظرون لأعجوبته، وكان لون جلد موسى عليه السلام السمرة، والتعريف في ﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾ للاستغراق العرفي، أي: لجميع الناظرين في ذلك المجلس، وهذا يفيد أن بياضها كان واضحًا بينًا مخالفًا لون جلده بصورة بعيدة عن لون البرص[2].

٣. رؤية أدلة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم.

أمر الله تعالى بالنظر في السموات والأرض لرؤية أدلة الإعجاز العلمية.

قال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ١٠١﴾ [يونس:١٠١].

والمعنى كما قال أبو جعفر الطبري: «يقول تعالى ذكره: قل، يا محمد، لهؤلاء المشركين من قومك، السائليك الآيات على صحة ما تدعوهم إليه من توحيد الله، وخلع الأنداد والأوثان: انظروا، أيها القوم، ماذا في السموات من الآيات الدالة على حقيقة ما أدعوكم إليه من توحيد الله، من شمسها وقمرها، واختلاف ليلها ونهارها، ونزول الغيث بأرزاق العباد من سحابها، وفي الأرض من جبالها، وتصدعها بنباتها، وأقوات أهلها وسائر صنوف عجائبها، فإن في ذلك لكم إن عقلتم وتدبرتم موعظة ومعتبرًا، ودلالة على أن ذلك من فعل من لا يجوز أن يكون له في ملكه شريك، ولا له على تدبيره وحفظه ظهير يغنيكم عما سواه من الآيات.

﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ أي: وما تغني الحجج والعبر والرسل المنذرة عباد الله عقابه، عن قوم قد سبق لهم من الله الشقاء، وقضى لهم في أم الكتاب أنهم من أهل النار، لا يؤمنون بشيء من ذلك ولا يصدقون به؟»[3].

وقد أخبر تعالى بأنه هو الذي يري عباده الأدلة العلمية.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ١٣﴾ [غافر:١٣].

والمعنى: هو الذي يريكم أيها الناس حججه وأدلته على وحدانيته وربوبيته، وينزل لكم من أرزاقكم من السماء بإدرار الغيث الذي يخرج به أقواتكم من الأرض، وغذاء أنعامكم عليكم، وما يتذكر حجج

---

(١) لباب التأويل، الخازن٢/ ٢٣٣.
وانظر: تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ٢٠٢، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٢/ ٥١.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور١٩/ ١٢٤.

(٣) جامع البيان ١٥/ ٢١٤.

الله التي جعلها أدلة على وحدانيته، فيعتبر بها ويتعظ ويعلم حقيقة ما تدل عليه، إلا من ينيب، يقول: إلا من يرجع إلى توحيده، ويقبل على طاعته[1].

وآيات الله: تعم آيات قدرته، وآيات قرآنه، والمعجزات الظاهرة على أيدي رسله[2].

قال ابن كثير: «هو الذي يريكم آياته، أي: يظهر قدرته لخلقه بما يشاهدونه في خلقه العلوي والسفلي من الآيات العظيمة الدالة على كمال خالقها ومبدعها ومنشئها ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾، وهو المطر الذي يخرج به من الزروع والثمار ما هو مشاهد بالحس من اختلاف ألوانه وطعومه وروائحه وأشكاله وألوانه، وهو ماء واحد فبالقدرة العظيمة فاوت بين هذه الأشياء، ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾، أي: يعتبر ويتفكر في هذه الأشياء ويستدل بها على عظمة خالقها ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ أي: من هو بصير منيب إلى الله تبارك وتعالى»[3].

ورؤية أدلة الإعجاز العلمي ليست محددة بوقت، بل تشمل جميع الأزمان قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت:٥٣].

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ﴾ يعني: أقطار الأرض والسماء من الشمس والقمر والنجوم والنبات والأشجار والأنهار والبحار والأمطار، ﴿وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ من لطيف الصنعة وبديع الحكمة، وسبيل الغائط والبول، حتى إن الرجل ليأكل ويشرب من مكان واحد، ويخرج ما يأكل ويشرب من مكانين.

﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ يعني: إن ما نريهم ونفعل من ذلك هو الحق، وقيل: إنه يعني: الإسلام، وقيل: محمد صلى الله عليه وسلم، وقيل: القرآن[4].

ومثل الآية قوله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنبياء:٣٧].

﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾: معناه أن بنيته وخلقته من العجلة وعليها طبع، كما قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء:١١][5].

﴿سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ والمعنى: يا أيها المستعجلون ربهم بالآيات القائلون لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم: بل هو شاعر، فليأتنا بآية كما أرسل الأولون،

(١) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٣٦٢.
وانظر: تفسير القرآن، السمعاني ٥/ ١٠.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٥٥٠.
(٣) تفسير القرآن العظيم ٧/ ١٢١.
(٤) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٨/ ٣٠٠.
(٥) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٢٨٨.

﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي﴾، كما أريتها من قبلكم من الأمم التي أهلكناها بتكذيبها الرسل، إذا أتتها الآيات، ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾، يقول: فلا تستعجلوا ربكم، فإنا سنأتيكم بها ونريكموها[1].

ونتيجة رؤية الأدلة العلمية هي الإيمان والتصديق بالنسبة للمؤمنين، أما الكافرين فقد أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ۝١٤﴾ [الصافات: ١٤].

أي: إذا رأوا حجة من حجج الله عليهم، ودلالة على نبوة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم يسخرون ويستهزءون بها[2].

٤. رؤية الأدلة العلمية على ثبوت الوقائع.

ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٣٥﴾ [يوسف: ٣٥].

والمعنى: ظهر للعزيز وأهل مشورته أدلة وعلامات براءة يوسف عليه السلام من قد القميص من دبر، وشهادة الشاهد، وحز الأيدي، وقلة صبرهن عن لقاء يوسف عليه السلام، أن يسجنوه كتمانًا للقصة ألا تشيع في العامة، وللحيلولة بينه وبينها، فالقميص من الآيات، وشهادة الشاهد من الآيات، وقطع الأيدي من الآيات، وإعظام النساء إياه من الآيات[3]، والأدلة على صدقه في عفته ونزاهته[4].

ويدخل في رؤية الأدلة العلمية ما يهبه الله تعالى للعلماء من ملكة فقهية لرؤية الأدلة العلمية في الكتاب والسنة على الأحكام، ومن ثم بناء الأحكام الفقهية عليها.

ثانيًا: رؤية الأدلة الجنائية:

ورد في القرآن ما يختص برؤية الأدلة الجنائية، وهي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ۝٢٨﴾ [يوسف: ٢٨].

استدل العلماء بهذه الآية في إعمال الأمارات في مسائل من الفقه كالقسامة وغيرها، كما استدل يعقوب عليه السلام على كذبهم بصحة القميص، فيجب على الناظر أن يلحظ الآيات، والعلامات إذا تعارضت، فما ترجح منها قضى بجانب الترجيح، وهي قوة التهمة، ولا خلاف بين العلماء في الحكم بها[5].

فيحتج بالآية من يرى الحكم بالأمارات والعلامات، فيما لا تحضره البينات، كاللقطة والسرقة والوديعة ومعاقد الحيطان

(١) انظر: جامع البيان، الطبري١٨/ ٤٤٤.
(٢) انظر: المصدر السابق٢١/ ٢٤.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٨٦.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٣١.
(٥) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١١/ ٤١.

والسقوف وشبهها[(١)].

فمن ذلك قول المالكية وغيرهم: إن القرينة الجازمة ربما قامت مقام البينة، مستدلين على ذلك بجعل شاهد يوسف شق قميصه من دبر قرينة على صدقه، وكذب المرأة[(٢)].

وسمي قوله شهادة؛ لأنه يؤول إلى إظهار الحق في إثبات اعتداء يوسف عليه السلام على سيدته أو دحضه، وهذا من القضاء بالقرينة البينة؛ لأنها لو كانت أمسكت ثوبه لأجل القبض عليه لعقابه لكان ذلك في حال استقباله له إياها، فإذا أراد الانفلات منها تخرق قميصه من قبل، وبالعكس إن كان إمساكه في حال فرار وإعراض، ولا شك أن الاستدلال بكيفية تمزيق القميص نشأ عن ذكر امرأة العزيز وقوع تمزيق القميص تحاول أن تجعله حجة على أنها أمسكته لتعاقبه، ولولا ذلك ما خطر ببال الشاهد أن تمزيقًا وقع وإلا فمن أين علم الشاهد تمزيق القميص، والظاهر أن الشاهد كان يظن صدقها، فأراد أن يقيم دليلًا على صدقها، فوقع عكس ذلك كرامة ليوسف عليه السلام[(٣)].

ويفهم من هذه الآية لزوم الحكم بالقرينة الواضحة الدالة على صدق أحد الخصمين وكذب الآخر؛ لأن ذكر الله لهذه القصة في معرض تسليم الاستدلال بتلك القرينة على براءة يوسف عليه السلام يدل على أن الحكم بمثل ذلك حق وصواب؛ لأن كون القميص مشقوقًا من جهة دبره دليل واضح على أنه هارب عنها، وهي تنوشه من خلفه، ولكنه تعالى بين في موضع آخر أن محل العمل بالقرينة ما لم تعارضها قرينة أقوى منها، فإن عارضتها قرينة أقوى منها أبطلتها، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ۝١٨﴾ [يوسف:١٨].

وهذه الآيات المذكورة أصل في الحكم بالقرائن[(٤)].

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ۝١٨﴾ [يوسف:١٨].

قال بعض العلماء: لما أرادوا أن يجعلوا الدم علامة على صدقهم؛ قرن الله بهذه العلامة علامة تعارضها، وهي سلامة القميص من التخريق، إذ لا يمكن افتراس الذئب ليوسف، وهو لابس القميص، ويسلم القميص من التخريق، ولما تأمل يعقوب عليه السلام القميص لم يجد فيه

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ١٧٠.
(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ٣٨٠.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ٢٥٧.
(٤) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٢١٥.

خرقًا، ولا أثرًا، استدل بذلك على كذبهم، وقال لهم: تزعمون أن الذئب أكله، ولو أكله لشق قميصه[1].

وبهذا يكون النظر في الأدلة الجنائية وأدوات الجريمة مما يساعد في كشف الجريمة وملابستها ومعرفة الجاني.

(١) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١١/ ٤١.

الرؤية والاعتبار

إن الرؤية والاعتبار في القرآن الكريم يكون في التفكر والاعتبار في الآيات الكونية، وفي الاعتبار والعظة بهلاك الأمم السابقة، وبيان ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: الآيات الكونية:

الآيات الكونية هي: الآيات المنسوبة إلى الكون الذي هو الخلق الذي كونه الله تعالى فكان، وذلك السموات والأرض والجبال والسهول والأنهار والشمس والقمر والنبات والحيوان والجماد، وخلق الإنسان، وآيات الله عز وجل في الآفاق، وما فيهما وما بينهما من سائر المخلوقات[2].

جاء الأمر الصريح في القرآن على الحث على التفكر في الكون، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ١٠١ ﴾ [يونس: ١٠١].

قال أبو جعفر الطبري: «يقول تعالى ذكره: قل، يا محمد، لهؤلاء المشركين من قومك، السائليك الآيات على صحة ما تدعوهم إليه من توحيد الله وخلع الأنداد والأوثان: انظروا، أيها القوم، ماذا في السموات من الآيات الدالة على حقيقة ما أدعوكم إليه من توحيد الله، من شمسها

(٢) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ١/ ١٤١.

وقمرها، واختلاف ليلها ونهارها، ونزول الغيث بأرزاق العباد من سحابها وفي الأرض من جبالها، وتصدعها بنباتها، وأقوات أهلها، وسائر صنوف عجائبها، فإن في ذلك لكم إن عقلتم وتدبرتم موعظة ومعتبرًا، ودلالة على أن ذلك من فعل من لا يجوز أن يكون له في ملكه شريك، ولا له على تدبيره وحفظه ظهير يغنيكم عما سواه من الآيات»[١].

وهذه الآية أمر للكفار بالاعتبار والنظر في المصنوعات الدالة على الصانع، وغير ذلك من آيات السماوات وأفلاكها وكواكبها وسحابها ونحو ذلك، والأرض ونباتها ومعادنها وغير ذلك[٢].

أي: انظروا بالتفكر والاعتبار ماذا في السماوات والأرض من الآيات والعبر التي تدل على وحدانيته ونفاذ قدرته كالشمس، والقمر، والنجوم، والجبال، والشجر، وكل هذا يقتضي خالقًا مدبرًا سبحانه[٣].

قال الإمام الرازي: «ولو أن الإنسان أخذ يتفكر في كيفية حكمة الله سبحانه في تخليق جناح بعوضة لانقطع عقله قبل أن يصل إلى أقل مرتبة من مراتب تلك الحكم والفوائد، ولا شك أن الله سبحانه أكثر من ذكر هذه الدلائل في القرآن المجيد، فلهذا السبب ذكر قوله: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ولم يذكر التفصيل، فكأنه تعالى نبه على القاعدة الكلية، حتى إن العاقل يتنبه لأقسامها، وحينئذ يشرع في تفصيل حكمة كل واحد منها بقدر القوة العقلية والبشرية، ثم إنه تعالى لما أمر بهذا التفكر والتأمل، بين بعد ذلك أن هذا التفكر والتدبر في هذه الآيات لا ينفع في حق من حكم الله تعالى عليه في الأزل بالشقاء والضلال»[٤].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [العنكبوت:٢٠].

أرشد الله تعالى في الآية إلى الاعتبار بما في الآفاق من الآيات المشاهدة من خلق الله الأشياء: السموات وما فيها من الكواكب النيرة الثوابت والسيارات، والأرضين وما فيها من مهاد وجبال، وأودية وبراري وقفار، وأشجار وأنهار، وثمار وبحار، كل ذلك دال على حدوثها في أنفسها، وعلى وجود صانعها الفاعل المختار، الذي يقول للشيء: كن، فيكون[٥].

والمعنى: سيروا في الأرض وشاهدوا السموات وما فيها من الكواكب النيرة، ثوابتها وسياراتها، والأرض وما فيها من

(١) جامع البيان ١٥/ ٢١٤.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ١٤٥.
(٣) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٣٥٣.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ١٧/ ٣٠٦.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٤٤.

جبال ومهاد، وبراري وقفار، وأشجار وثمار، وأنهار وبحار، فكل ذلك شاهد على حدوثها في أنفسها، وعلى جود صانعها الذي يقول للشيء: كن، فيكون[١].

وإنما أمر بالسير في الأرض؛ لأن السير يدني إلى الرائي مشاهدات جمة من مختلف الأرضين بجبالها وأنهارها ومحوياتها، ويمر به على منازل الأمم حاضرها وبائدها، فيرى كثيرًا من أشياء وأحوال لم يعتد رؤية أمثالها، فإذا شاهد ذلك جال نظر فكره في تكوينها بعد العدم جولانًا لم يكن يخطر له ببال، حينما كان يشاهد أمثال تلك المخلوقات في ديار قومه؛ لأنه لما نشأ فيها من زمن الطفولة فما بعده قبل حدوث التفكير في عقله اعتاد أن يمر ببصره عليها دون استنتاج من دلائلها حتى إذا شاهد أمثالها مما كان غائبًا عن بصره جالت في نفسه فكرة الاستدلال، فالسير في الأرض وسيلة جامعة لمختلف الدلائل، فلذلك كان الأمر به لهذا الغرض من جوامع الحكمة وجيء في جانب بدء الخلق بالفعل الماضي؛ لأن السائر ليس له من قرار في طريقه، فندر أن يشهد حدوث بدء مخلوقات، ولكنه يشهد مخلوقات مبدوءة من قبل فيفطن إلى أن الذي أوجدها إنما أوجدها بعد أن لم تكن، وأنه قادر على إيجاد أمثالها، فهو بالأحرى قادر على إعادتها بعد عدمها[٢].

قال محمد إسماعيل إبراهيم: «وها هو القرآن يدعونا إلى التفكر في بدء الخلق منذ أن تصلبت قشرة الأرض الخارجية، وتكونت عليها القارات والمحيطات، لذلك اجتهد علماء الجيولوجيا أن يقرأوا تاريخ الأرض من طبقات الصخور الرسوبية التى تراكمت عليها، وفي طياتها الكثير من بقايا الكائنات الحية التى عاشت عليها، سواء كانت لحيوان أو نبات، وهذه البقايا المتحجرة هي ما نسميه اليوم بالحفريات، وهي في واقعها سجل حافل بتاريخ الخليقة منذ بدايتها، وقد استطاع العلم بوسائله المتقدمة أن يقرأ كثيرًا من صفحات هذا السجل، ويعرف حقائق كثيرة عن نشأة الأرض وتطوراتها خلال الأزمنة الجيولوجية»[٣].

وقوله عز وجل: ﴿ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾ [الإسراء:٩٩].

«يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: أولم ينظر هؤلاء القائلون من المشركين: ﴿أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء:٩٨] بعيون قلوبهم، فيعلمون أن الله الذي خلق

(١) انظر: تفسير المراغي ٢٠/ ١٢٧.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ٢٣٠.

(٣) القرآن وإعجازه العلمي، محمد إسماعيل إبراهيم ص ٦٨.

السماوات والأرض، فابتدعها من غير شيء، وأقامها بقدرته، قادر بتلك القدرة على أن يخلق مثلهم أشكالهم، وأمثالهم من الخلق بعد فنائهم، وقبل ذلك، وأن من قدر على ذلك فلا يمتنع عليه إعادتهم خلقًا جديدًا، بعد أن يصيروا عظامًا ورفاتًا»[1].

وقد أمر الله تعالى بالنظر إلى آية المطر للاستدلال على قدرته سبحانه.

قال تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٥٠﴾ [الروم:٥٠].

والمعنى: انظروا نظر استبصار واستدلال، أي: استدلوا بذلك على أن من قدر على ذلك قادر على إحياء الموتى[2].

وقد نعى الله تعالى على تاركي التفكر في الآيات الكونية، ووصفهم بأنهم لا يفكرون في ما حولهم، وشنع عليهم تركهم التفكر[3].

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ۝٨ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٩ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ۝١٠ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝١١﴾ [الروم:٨-١١].

والمعنى: «أولم يثبتوا التفكر في أنفسهم، أي: في قلوبهم الفارغة، فيتفكروا بها في مصنوعات الله، حتى يعلموا أنها ما خلقت عبثًا، والتفكر لا يكون إلا في القلوب، ولكن زيادة تصوير لحال المتفكرين، كقوله: اعتقده في قلبك، ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم﴾، التي هي أقرب إليهم من غيرها، وهم أعلم بأحوالها، فيتدبروا ما أودعها الله تعالى، ظاهرًا وباطنًا، من غرائب الحكمة الدالة على التدبير من الحكيم القديم، وأنه لا بد لها من الانتهاء إلى وقت تجازي فيه، على الإحسان إحسانًا، وعلى الإساءة مثلها، حتى يعلموا، عند ذلك أن سائر الخلائق مثلها، وأنه لا بد لهم من الانتهاء إلى ذلك الوقت، فيعلموا أن ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى أي: ما خلقها باطلًا وعبثًا من غير حكمة ولا لتبقى خالدة، وإنما خلقها مقرونة بالحق مصحوبة بالحكمة البالغة، وتنتهي إلى أجل مسمى وهو قيام الساعة، ووقت الحساب

---

(١) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٥٦٢.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ٤٥.

(٣) انظر: غرائب القرآن، النيسابوري ٣/ ٢٥٣.

بالثواب والعقاب، فيخرب هذا العالم، ويقوم عالم آخر، لا انتهاء لوجوده»[1].

وقد وصف الله تعالى تاركي التفكر والاعتبار بأنهم مكذبون وكافرون بهذه الآيات ووبخهم وتهكم عليهم[2]، فقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنبياء: ٣٠-٣٢].

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف: ١٠٥].

قال أبو جعفر الطبري: «يقول جل وعز: وكم من آية في السموات والأرض لله، وعبرة وحجة، وذلك كالشمس والقمر والنجوم ونحو ذلك من آيات السموات، وكالجبال والبحار والنبات والأشجار وغير ذلك من آيات الأرض ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾، يقول: يعاينونها فيمرون بها معرضين عنها، لا يعتبرون بها، ولا يفكرون فيها وفيما دلت عليه من توحيد ربها، وأن الألوهة لا تنبغي إلا للواحد القهار الذي خلقها وخلق كل شيء، فدبرها»[3].

[انظر: الآيات الكونية، مجالات استدلال القرآن بالآيات الكونية]

ثانيًا: هلاك الأمم السابقة:

أمر الله تعالى بالسير في الأرض للاعتبار بهلاك الأمم السابقة، قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأنعام: ١١].

والمعنى: سيروا في الأرض لتعرفوا أحوال أولئك الأمم، وتفكروا في أنهم كيف أهلكوا لما كذبوا الرسل وعاندوا، فتعرفوا صحة ما توعظون به، وفي السير في الأرض، والسفر في البلاد، ومشاهدة تلك الآثار الخاوية على عروشها تكملة للاعتبار، وتقوية للاستبصار[4].

كما حض الله سبحانه على رؤية ما حل بالأمم السابقة وأخذ العبرة من ذلك، فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأنعام: ٦][5].

قال أبو جعفر الطبري: «يقول تعالى ذكره

(١) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ٤/ ٣٢٦.
(٢) انظر: تفسير المراغي ٢١/ ٣١.
(٣) جامع البيان ١٦/ ٢٨٥.
وانظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ١٣١.
(٤) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٤/ ٣٢١.
(٥) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٢٦٨.

لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ألم ير هؤلاء المكذبون بآياتي، الجاحدون نبوتك، كثرة من أهلكت من قبلهم من القرون، وهم الأمم الذين وطأت لهم البلاد والأرض توطئة لم أوطئها لهم، وأعطيتهم فيها ما لم أعطهم؟»[1].

والقرن الأمة من الناس، والجمع القرون[2]، وقيل: القرن مدة أغلب أعمار الناس وهي سبعون سنة، وقيل: ثمانون، ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: لم يغن ذلك عنهم شيئًا، وأحدثنا من بعدهم قرنًا آخرين بدلًا منهم، والمعنى: أنه سبحانه وتعالى كما قدر على أن يهلك من قبلكم كعاد وثمود، وينشئ مكانهم أقوامًا يعمر بهم بلاده، يقدر أن يفعل ذلك بكم[3].

وقد بين الله تعالى أن قوة وشدة الأمم السابقة لم تمنع عنهم الهلاك، ولم تكن قوتهم وعمارتهم للأرض وقاية لهم من ذلك.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الروم:٩].

وقوله تعالى: ﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾ [غافر:٢١].

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [غافر:٨٢].

والمعنى: أولم يسر هؤلاء المكذبون بالله، الغافلون عن الآخرة في البلاد التي يسلكونها للتجارة ونحوها، فينظروا إلى آثار الله فيمن كان قبلهم من الأمم المكذبة، كيف كان عاقبة أمرها في تكذيبها رسلها، فقد كانوا أشد منهم قوة.

﴿وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: استخرجوا الأرض، وحرثوها وعمروها أكثر مما عمرها هؤلاء، فأهلكهم الله بكفرهم وتكذيبهم رسلهم، فلم يقدروا على الامتناع، مع شدة قواهم مما نزل بهم من عقاب الله، ولا نفعتهم عمارتهم ما عمروا من الأرض، فأحل الله بهم بأسه، وعلل ذلك الهلاك بقوله: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ بعقابه إياهم على تكذيبهم رسله، وجحودهم آياته، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بمعصيتهم

---

(١) جامع البيان ١١/ ٢٦٣.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٣٩١.
(٣) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ١٥٤.

ربهم(١).

وفي الآيات تقرير لسيرهم في البلاد، ونظرهم إلى آثار المدمرين من عاد وثمود وغيرهم من الأمم العاتية ثم وصف حالهم فقال: ﴿كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ وحرثوها ﴿وَعَمَرُوهَآ﴾ أي: المدمرون ﴿أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ أي: من عمارة أهل مكة وغيرهم(٢).

ومع السير في الأرض للاعتبار بهلاك الأمم السابقة بين تعالى أن الآخرة خير للمتقين.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يوسف:١٠٩].

والمعنى: أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم من المكذبين بالرسل والآيات فيحذروا تكذيبك، أو من المشغوفين بالدنيا المتهالكين عليها، فيقلعوا عن حبها، ولدار الآخرة أي: الحياة الآخرة، ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ الشرك والمعاصي، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: يستعملون عقولهم ليعرفوا أنها خير(٣).

وقد بين الله تعالى أن للكافرين مثل ذلك الهلاك الذي حل بالأمم السابقة: ﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾﴾ [محمد:١٠].

يقول: وللكافرين من قريش المكذبي رسول الله صلى الله عليه وسلم من العذاب العاجل، أمثال عاقبة تكذيب الأمم الذين كانوا من قبلهم رسلهم على تكذيبهم رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم(٤).

والمعنى: فينظروا كيف كان عاقبة الكافرين الذين من قبلهم ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أهلكهم الله ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ أي: أمثال تلك العاقبة، فأهلك الله عز وجل بالسيف من أهلك ممن صد عن النبي صلى الله عليه وسلم(٥).

ومن الاعتبار في هلاك الأمم السابقة أنهم لا يرجعون إلى الدنيا.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [يس:٣١-٣٢].

قال السعدي: «يقول تعالى: ألم ير هؤلاء ويعتبروا بمن قبلهم من القرون المكذبة، التي أهلكها الله تعالى وأوقع بها عقابها، وأن جميعهم قد باد وهلك، فلم يرجع إلى الدنيا، ولن يرجع إليها، وسيعيد الله

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٧٨.
(٢) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٦٩٢.
(٣) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١٧٩.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ١٦٢.
(٥) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ٨.

الجميع خلقًا جديدًا، ويبعثهم بعد موتهم، ويحضرون بين يديه تعالى، ليحكم بينهم بحكمه العدل الذي لا يظلم مثقال ذرة»[1].

وبعد أن ذكر أنه أهلكهم وبين طريق ذلك، أعقب هذا بأن لهم حسابًا وعقابًا فقال: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ أي: وإن جميع الأمم ماضيها وحاضرها وآتيها ستحضر يوم القيامة بين يدى الله، فيجازيهم بأعمالهم خيرها وشرها، ولو أن من أهلك ترك لكان الموت راحة له، والخلاصة: إن الناس يجمعون للحساب والجزاء، ويوفى كل عامل جزاء عمله من خير أو شر[2].

رؤية ثواب الأعمال

في الآخرة يعرف العباد مصيرهم، ويرون ثواب أعمالهم، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

وسيكون حديثنا في هذا المبحث في النقاط الآتية:

أولًا: رؤية ثواب الأعمال الصالحة:

بين الله تعالى رؤية ثواب الأعمال الصالحة في قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ⁽٦⁾﴾ [الزلزلة:٦].

يقول: يومئذ يصدر الناس أشتاتًا متفرقين، عن اليمين وعن الشمال، ليروا أعمالهم، فيرى المحسن في الدنيا المطيع لله عمله، وما أعد الله له يومئذ من الكرامة على طاعته إياه كانت في الدنيا، ويرى المسيء العاصي لله عمله وجزاء عمله، وما أعد الله له من الهوان والخزي في جهنم على معصيته إياه كانت في الدنيا، وكفره به[3].

وقوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ⁽٧⁾﴾ [الزلزلة:٧].

يقول: فمن عمل في الدنيا وزن ذرة من خير، يرى ثوابه هنالك[4].

قال ابن عباس رضي الله عنه: «من يعمل من الكفار مثقال ذرة خيرًا يره في الدنيا، ولا

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص٦٩٥.
(٢) انظر: تفسير المراغي ٢٣/ ٥.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٥٤٩.
(٤) المصدر السابق ٢٤/ ٥٤٩.

يثاب عليه في الآخرة، ومن يعمل مثقال ذرة من شر عوقب عليه في الآخرة مع عقاب الشرك، ومن يعمل مثقال ذرة من شر من المؤمنين يره في الدنيا، ولا يعاقب عليه في الآخرة إذا مات، ويتجاوز عنه، وإن عمل مثقال ذرة من خير يقبل منه، ويضاعف له في الآخرة»[١].

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾ [آل عمران: ٣٠].

والمعنى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ في الدنيا من خير ﴿مُّحْضَرًا﴾ يعني: تجد ثوابه حاضرًا، ولا ينقص من ثواب عمله شيء، ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾ يعني: من شر في الدنيا ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ يعني: تتمنى النفس أن تكون بينها، وبين ذلك العمل أجلًا بعيدًا، كما بين المشرق والمغرب، ولم تعمل ذلك العمل قط، ثم قال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ أي: عقوبته في عمل السوء، ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ قال ابن عباس: يعني: بالمؤمنين خاصة، وهو رحيم بهم»[٢].

والخير: اسم جامع لكل ما يقرب إلى الله من الأعمال الصالحة صغيرها وكبيرها، كما أن السوء اسم جامع لكل ما يسخط الله من الأعمال السيئة صغيرها وكبيرها ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ أي: مسافة بعيدة، لعظم أسفها وشدة حزنها، فليحذر العبد من أعمال السوء التي لا بد أن يحزن عليها أشد الحزن[٣].

وأسند الإحضار إلى النفوس لأنها الفاعلة للأعمال التي يظهر جزاؤها يومئذ، فهذا الإسناد من إسناد فعل الشيء إلى سبب فعله، فحصل هنا مجازان: مجاز لغوي ومجاز عقلي، وحقيقتهما في قوله تعالى: ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ وجعلت معرفة النفوس لجزاء أعمالها حاصلة عند حصول مجموع الشروط التي ذكرت في الجمل الثنتي عشرة، لأن بعض الأحوال التي تضمنتها الشروط مقارن لحصول علم النفوس بأعمالها، وهي الأحوال الستة المذكورة أخيرًا، وبعض الأحوال حاصل من قبل بقليل، وهي الأحوال الستة المذكورة أولًا[٤].

ثانيًا: رؤية جزاء الأعمال السيئة:

إن ثواب الأعمال السيئة هي الجحيم، وقد أخبر سبحانه أنها تبرز لمن يرى.

---

(١) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٢٠/ ٤٥٠.

(٢) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ٢٠٦.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٢٨.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ١٥١.

قال تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [النازعات:٣٦].

قال مقاتل: يكشف عنها الغطاء، فينظر إليها الخلق[١]، والحكمة في إظهار الجحيم هو مشاهدة الكفار مكان عقوبتهم، وليعلم المؤمنون من أي عذاب نجوا[٢].

ومثلها قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾﴾ [التكاثر:٥-٧].

هذا تفسير الوعيد المتقدم في قوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾ [التكاثر:٣-٤].

توعدهم بهذا الحال، وهي رؤية أهل النار إذا زفرت زفرة واحدة خر كل ملك مقرب ونبي مرسل على ركبتيه من المهابة والعظمة ومعاينة الأهوال[٣].

أي: إن دار العذاب التي أعدت لمن يلهو عن الحق لا ريب فيها ولترونها بأعينكم، فاجعلوا صورة عذابها حاضرة في أذهانكم، لتنبهكم إلى ما هو خير لكم مما تلهون به.

والمراد برؤية الجحيم: ذوق عذابها، وهذا استعمال شائع في الكتاب الكريم، ثم كرر ذلك للتأكيد فقال: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾﴾ [التكاثر:٧] أي: لترونها رؤية هي اليقين نفسه، إلى أي دين أو إلى أي شخص كانت نسبتكم، فلتتقوا الله ربكم، ولتنتهوا عما يقذف بكم فيها، ولتنظروا إلى ما أنتم فيه من نعمة، ولترعوا حق الله فيها، فاستعملوها فيما أمر أن تستعمل فيه، ولا تجترحوا السيئات وتقترفوا المنكرات، إنكم لتمنون أنفسكم بأنكم ممن يعفو الله عنهم، ويزحزحهم من النار بمجرد نسبتكم إلى الدين الإسلامي وتلقيبكم بألقابه، مع مخالفتكم أحكام القرآن، وعملكم عمل أعداء الإسلام[٤].

قال الرازي: «في تكرار الرؤية وجوه: أحدها: أنه لتأكيد الوعيد أيضًا، لعل القوم كانوا يكرهون سماع الوعيد، فكرر لذلك، ونون التأكيد تقتضي كون تلك الرؤية اضطرارية، يعني: لو خليتم ورأيكم ما رأيتموها، لكنكم تحملون على رؤيتها شئتم أم أبيتم، وثانيها: أن أولهما الرؤية من البعيد: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الفرقان:١٢].

وقوله: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [النازعات:٣٦].

والرؤية الثانية إذا صاروا إلى شفير النار، وثالثها: أن الرؤية الأولى عند الورود، والثانية عند الدخول فيها، قيل: هذا التفسير ليس بحسن؛ لأنه قال: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ﴾ والسؤال يكون قبل الدخول، ورابعها: الرؤية الأولى

(١) انظر: الوسيط، الواحدي٤/ ٤٢١.
(٢) انظر: تفسير القرآن، السمعاني٦/ ١٥٢.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٨/ ٤٥٢.
(٤) تفسير المراغي٣٠/ ٢٣٢.

للوعد، والثانية المشاهدة، وخامسها: أن يكون المراد ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ غير مرة، فيكون ذكر الرؤية مرتين عبارة عن تتابع الرؤية واتصالها؛ لأنهم مخلدون في الجحيم، فكأنه قيل لهم: على جهة الوعيد، لئن كنتم اليوم شاكين فيها غير مصدقين بها فسترونها رؤية دائمة متصلة، فتزول عنكم الشكوك، فإن قيل: ما فائدة تخصيص الرؤية الثانية باليقين؟ قلنا: لأنهم في المرة الأولى رأوا لهبًا لا غير، وفي المرة الثانية رأوا نفس الحفرة وكيفية السقوط فيها وما فيها من الحيوانات المؤذية، ولا شك أن هذه الرؤية أجلى، والحكمة في النقل من العلم الأخفى إلى الأجلى التفريع على ترك النظر؛ لأنهم كانوا يقتصرون على الظن، ولا يطلبون الزيادة»[1].

ورؤية ثواب الأعمال في الآخرة قد سبقه الإنذار بذلك.

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾ [النبأ:٤٠].

فقوله: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ يعني: العذاب في الآخرة، وكل ما هو آت قريب.

﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ يعني: أن كل أحد يرى عمله في ذلك اليوم، ما قدم من خير وشر مثبتًا عليه في صحيفته، فيرجو ثواب الله على صالح عمله، ويخاف العقاب على سوء عمله، وأما الكافر فإنه يقول: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾.

قال الحسن: إذا جمع الله الخلائق يوم القيامة، فقضى بين الثقلين الجن والإنس، وأنزلهم منازلهم، قال لسائر الخلق: كونوا ترابًا، فكانوا ترابًا، فحينئذ يقول الكافر: يا ليتني كنت ترابًا[2].

ورؤية ثواب الأعمال الصالحة، وثواب الأعمال السيئة يكون بعد رؤية ما كسبه الإنسان في الدنيا.

قال تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النجم:٣٩-٤١].

كما قال تعالى في بدو سيئات ما كسب الكافرون: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الزمر:٤٨].

أي: أنه ظهر للكافرين ما كانوا يعملون من سيئات، وانكشف لهم وجهها القبيح الذي ينادى عليهم بالويل والثبور ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي: حل وأحاط بهم، هذا اليوم الذي كانوا يستهزئون به، وينكرون أن يكون واقعًا أبدًا[3].

(١) مفاتيح الغيب ٣٢/ ٢٧٣.

(٢) الوسيط، الواحدي ٤/ ٤١٧.

(٣) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٣/ ٢٥٥.

ورؤية ثواب الأعمال يقوم على ميزان العدل الإلهي، وقد أوضح هذا المعنى في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٤٤﴾ [يونس: ٤٤].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٤٠﴾ [النساء: ٤٠].

وقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ۝٤٧﴾ [الأنبياء: ٤٧].

والآيات بمثل ذلك كثيرة[1].

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٢٨٩.

رؤية النعيم والعذاب

يترتب على السعي في الحياة الدنيا رؤية العمل وثوابه، كما يترتب على ذلك رؤية النعيم، ورؤية العذاب، وبيان ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: رؤية النعيم:

ذكر الله تعالى رؤية النعيم في قوله تعالى: ﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ۝١٩ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ۝٢٠ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ۝٢١﴾ [الإنسان: ١٩-٢١].

والنعيم: سائر ما يتنعم به[2]، والملك الكبير هو كما قال ابن كثير: «وإذا رأيت يا محمد الجنة ونعيمها وسعتها وارتفاعها وما فيها من الحبرة والسرور رأيت نعيمًا وملكًا كبيرًا، أي: مملكة لله هناك عظيمة وسلطانًا باهرًا، وثبت في الصحيح أن الله تعالى يقول لآخر أهل النار خروجًا منها، وآخر أهل الجنة دخولًا إليها: (إن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها)[3].

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ١٤٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم ٦٥٧١، ٨/ ١١٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب آخر أهل النار خروجًا، رقم ١٨٦، ١/ ١٧٣، عن عبد الله بن مسعود.

فإذا كان هذا عطاءه تعالى لأدنى من يكون في الجنة، فما ظنك بما هو أعلى منزلة وأحظى عنده تعالى؟»[1].

وقال المراغي: «﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ أي: وإذا نظرت في الجنة رأيت نعيمًا عظيمًا وملكًا كبيرًا لا يحيط به الوصف.

وقد اختلفوا في المراد من هذا الملك الكبير، فقيل: إن أدناهم منزلة من ينظر ملكه في مسيرة ألف عام يرى أقصاه، كما يرى أدناه، وقيل: هو استئذان الملائكة عليهم، فلا يدخلون إلا بإذنهم، وقيل: هو الملك الدائم الذي لا زوال له، ولم يجئ في الأخبار الصحيحة ما يفسر هذا الملك الكبير، فأولى بنا أن نؤمن به ونترك تفصيله إلى علام الغيوب»[2].

ومن رؤية النعيم رؤية الولدان المخلدون في قوله تعالى: ﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإنسان:١٩].

والمعنى: «إذا رأيت يا محمد هؤلاء الولدان مجتمعين أو مفترقين، تحسبهم في حسنهم، ونقاء بياض وجوههم وكثرتهم، لؤلؤًا مبددًا، أو مجتمعًا مصبوبًا»[3].

(١) تفسير القرآن العظيم ٨/ ٢٩٩.
(٢) تفسير المراغي ٢٩/ ١٧٠.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢٤/ ١١١.

ثانيًا: رؤية العذاب:

أخبر تعالى أن الظالمين يرون العذاب يوم القيامة في آيات من كتابه الكريم، منها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة:١٦٥-١٦٦].

تقدير الكلام في الآية: لو عاينوا العذاب لعلموا حينئذ أن القوة لله جميعًا، أي: إن الحكم له وحده لا شريك له، وأن جميع الأشياء تحت قهره وغلبته وسلطانه[4].

والمعنى: ولو يشاهد الذين ظلموا أنفسهم بتدنيسها بالشرك، وظلم الناس وغشهم، بحملهم على أن يحذو حذوهم، ويتخذوا الأنداد مثلهم، حين يرون العذاب في الآخرة، فتقطع بهم الأسباب، ولا تغني عنهم الأنداد والأرباب، أن القوة لله وحده، بها يتصرف في كل موجود، لعلموا أن هذه القوة التي تدبر عالم الآخرة هي عين القوة التي تدبر عالم الدنيا، وأنهم كانوا ضالين حين لجئوا إلى سواها، وأشركوا معها غيرها، وكان ذلك منشأ عقابهم وعذابهم[5].

كما أخبر تعالى أن الظالمين يسرون الندامة حين يرون العذاب، قال تعالى:

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٤٦.
(٥) تفسير المراغي ٢/ ٤٠.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِۦ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [يونس:٥٤].

قال أبو جعفر الطبري: «ولو أن لكل نفس كفرت بالله، وظلمها في هذا الموضع عبادتها غير من يستحق عبادته، وتركها طاعة من يجب عليها طاعته ﴿مَا فِي الْأَرْضِ﴾ من قليل أو كثير ﴿لَافْتَدَتْ بِهِۦ﴾ يقول: لافتدت بذلك كله من عذاب الله إذا عاينته، وقوله: ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ يقول: وأخفت رؤساء هؤلاء المشركين من وضعائهم وسفلتهم الندامة حين أبصروا عذاب الله قد أحاط بهم، وأيقنوا أنه واقع بهم ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ يقول: وقضى الله يومئذ بين الأتباع والرؤساء منهم بالعدل ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ وذلك أنه لا يعاقب أحدًا منهم إلا بجريرته، ولا يأخذه بذنب أحد، ولا يعذب إلا من قد أعذر إليه في الدنيا وأنذر وتابع عليه الحجج»[(١)].

ومن المفسرين من قال بأن الإسرار في الآية المراد به الإظهار، أي: إظهار الندامة؛ لأن الإسرار من الأضداد الذي يتناول الإخفاء والإظهار؛ لأنهم إنما أخفوا الندامة على الكفر والفسق في الدنيا لأجل حفظ الرياسة، وفي القيامة بطل هذا الغرض فوجب الإظهار[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الفرقان:٤٢].

يقول تعالى ذكره مخبرًا عن هؤلاء المشركين الذين كانوا يهزءون برسول الله صلى الله عليه وسلم: إنهم يقولون إذا رأوه: قد كاد هذا يضلنا عن آلهتنا التي نعبدها، فيصدنا عن عبادتها لولا صبرنا عليها، وثبوتنا على عبادتها.

﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾ يقول جل ثناؤه: سيبين لهم حين يعاينون عذاب الله قد حل بهم على عبادتهم الآلهة ﴿مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ يقول: من الراكب غير طريق الهدى، والسالك سبيل الردى أنت أو هم؟[(٣)].

كما أن الله تعالى يأمر المشركين أن يدعوا شركاءهم حين يروا العذاب، قال تعالى: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [القصص:٦٤].

والمعنى: وقيل للمشركين بالله في الدنيا: ﴿ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ الذين كنتم تدعون من دون الله من الآلهة والأنداد ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ

(١) جامع البيان ١٥/ ١٠٣.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٧/ ٢٦٥.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري١٩/ ٢٧٤.

﴿يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ يقول: فلم يجيبوهم ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾ يقول: وعاينوا العذاب ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ يقول: فودوا حين رأوا العذاب لو أنهم كانوا في الدنيا مهتدين للحق[(١)].

وحين يرى الظالمون العذاب يوم القيامة يطلبون الرجوع إلى الدنيا.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الشورى:٤٤][(٢)].

أي: وترى الكافرين بالله حين يعاينون العذاب يوم القيامة يتمنون الرجعة إلى الدنيا ويقولون: هل من رجعة لنا إليها؟

ونحو الآية قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام:٢٧-٢٨][(٣)].

والمراد: أنهم يطلبون الرجوع إلى الدنيا لعظم ما يشاهدون من العذاب، ثم ذكر حالهم عند عرض النار عليهم فقال: ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى:٤٥].

أي: حال كونهم خاشعين حقيرين مهانين بسبب ما لحقهم من الذل[(٤)].

وقد أخبر تعالى بأن الكافرين لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم في الآخرة.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ [يونس:٨٨].

ومعناه: فلا يصدقوا بتوحيد الله ويقروا بوحدانيته، حتى يروا العذاب الموجع[(٥)]، قيل: هذا بمعنى الدعاء(كأنه) قال: فلا آمنوا حتى يروا العذاب الأليم، وقيل: معناه معنى الخبر[(٦)].

(١) انظر: المصدر السابق١٩/ ٦٠٦.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٧/ ١٩٦.
(٣) انظر: تفسير المراغي٢٥/ ٥٨.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٦٠٨.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري١٥/ ١٨٢.
(٦) انظر: تفسير القرآن، السمعاني٢/ ٤٠١.

أثر الرؤية على النفس

في القرآن الكريم آثار للرؤية كثيرة على النفس، أهمها ما يأتي:

أولًا: الإيمان والتقوى:

وهذا الأثر ناتج عن النظر فيما يقدم الإنسان لليوم الآخر.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الحشر:١٨].

أي: لينظر أحدكم إلى شيء قدم لنفسه من الأعمال عملًا صالحًا ينجيه أم سيئًا يوبقه، والمراد بالغد يوم القيامة، وقربه على الناس كأن يوم القيامة يأتي غدًا، وكل ما هو آتٍ فهو قريب ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وكرر الأمر بالتقوى تأكيدًا، وقيل: معنى الأول: اتقوا الله في أداء الواجبات، ومعنى الثاني: واتقوا الله فلا تأتوا المنهيات ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: تركوا أمر الله فأنساهم أنفسهم، أي: أنساهم حظوظ أنفسهم حتى لم يقدموا لها خيرًا ينفعها وعنده ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[1].

ثانيًا: العمل لليوم الآخر:

وهذا الأثر يأتي من خلال معرفة أن يوم القيامة هو اليوم الحق الذي ينظر المرء ما قدم له، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾ [النبأ:٣٩-٤٠].

﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ﴾ يعني: يوم القيامة، وهو يوم يقوم الروح والملائكة صفًا ﴿ٱلْحَقُّ﴾ يقول: إنه حق كائن لا شك فيه، وقوله: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ يقول: فمن شاء من عباده اتخذ بالتصديق بهذا اليوم الحق، والاستعداد له، والعمل بما فيه النجاة له من أهواله ﴿مَـَٔابًا﴾، يعني: مرجعًا، وهو مفعل من قولهم: آب فلان من سفره.

﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ «يقول: إنا حذرناكم أيها الناس عذابًا قد دنا منكم وقرب، وذلك ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ﴾ المؤمن ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ من خير اكتسبه في الدنيا، أو شر سلفه، فيرجو ثواب الله على صالح أعماله، ويخاف عقابه على سيئها»[2].

ثالثًا: العظة والعبرة:

وهذا الأثر يحصل لصاحب النفس الذي يسير في الأرض فينظر كيف عاقبة المكذبين.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٤/ ٢٧٦.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢٤/ ١٧٩.

﴿مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠٩﴾ [يوسف:١٠٩].

فإن معرفة هلاك الأمم السابقة تدفع المؤمن للعمل بما يخالف أعمال أمم الذين من قبلهم من المكذبين بالرسل والآيات، أو من من المشغوفين بالدنيا المتهالكين عليها، فيقلعوا عن حبها، ويعملوا للحياة الآخرة، ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [يوسف:١٠٩].

أي: يستعملون عقولهم ليعرفوا أنها خير[١].

وقال تعالى: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ١٣٧﴾ [آل عمران:١٣٧].

أي: مضت من قبلكم سنن، أي: وقائع من أنواع المؤاخذات والبلايا للأمم المكذبين، فسيروا في الأرض التي فيها ديارهم الخربة وآثار إهلاكهم، فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين، أي: وقيسوا بهم عاقبة اللاحقين بهم في الهلاك والاستئصال، والأمر بالسير والنظر؛ لما أن لمشاهدة آثار المتقدمين أثرًا في الاعتبار والروعة، أقوى من أثر السماع[٢].

والسير في الأرض والبحث عن أحوال الماضين وتعرف ما حل بهم هو الذي يوصل إلى معرفة تلك السنن والاعتبار بها كما ينبغي، كما أن النظر في التاريخ الذي يشرح ما عرفه الذين ساروا في الأرض ورأوا آثار الذين خلوا يعطي الإنسان من المعرفة ما يهديه إلى تلك السنن ويفيده عظة واعتبارًا، فتحصل العظة والعبرة، ولكنها تكون دون اعتبار الذين يسيرون في الأرض بأنفسهم، ويرون الآثار بأعينهم[٣].

رابعًا: الإحسان والإخلاص في القول والعمل:

من آثار موضوع الرؤية في القرآن الإحسان والإخلاص في القول والعمل؛ لما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يومًا بارزًا للناس، إذ أتاه رجل يمشي، فقال: (يا رسول الله ما الإيمان؟ قال: **(الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، ولقائه، وتؤمن بالبعث الآخر)، قال: يا رسول الله ما الإسلام؟ قال: (الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان)، قال: يا رسول الله ما الإحسان؟ قال: (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك)**[٤].

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١٧٩.

(٢) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٢/ ٤١٦.

(٣) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٤/ ١١٧، تفسير المراغي ٤/ ٧٧.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان، رقم٥٠، ١/ ١٩، ومسلم في

قال الإمام النووي في شرح الحديث: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، هذا من جوامع الكلم التي أوتيها صلى الله عليه وسلم؛ لأنا لو قدرنا أن أحدنا قام في عبادة وهو يعاين ربه سبحانه وتعالى لم يترك شيئًا مما يقدر عليه من الخضوع والخشوع وحسن السمت واجتماعه بظاهره وباطنه على الاعتناء بتتميمها على أحسن وجوهها إلا أتى به، فقال صلى الله عليه وسلم: اعبد الله في جميع أحوالك كعبادتك في حال العيان، فإن التتميم المذكور في حال العيان إنما كان لعلم العبد باطلاع الله سبحانه وتعالى عليه، فلا يقدم العبد على تقصير في هذا الحال للاطلاع عليه، وهذا المعنى موجود مع عدم رؤية العبد، فينبغي أن يعمل بمقتضاه، فمقصود الكلام الحث على الإخلاص في العبادة ومراقبة العبد ربه تبارك وتعالى في إتمام الخشوع والخضوع وغير ذلك»[1].

خامسًا: التفقه في الدين:

وهذا الأثر يحصل من خلال أن النظر والرؤية، هي وسيلة الحصول على العلم، فقد أخبر تعالى بأنه هو الذي يري عباده الأدلة العلمية، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [غافر:١٣].

والمعنى: هو الذي يريكم أيها الناس حججه وأدلته على وحدانيته وربوبيته[2].

وآيات الله: تعم آيات قدرته وآيات قرآنه والمعجزات الظاهرة على أيدي رسله[3].

ومثل الآية قوله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنبياء:٣٧].

فرؤية الآيات هي العلم الذي جعله الله[4].

وعلى الرؤية والنظر بنى الفقهاء والعلماء الكثير من الأحكام والاجتهادات الفقهية، وعلى الرؤية والاختلاف فيها ظهرت المدارس والمذاهب الفقهية.

موضوعات ذات صلة:

الآيات الكونية، البصر، التفكر، الرؤيا، السير، العبرة، العقل، العين

صحيحه، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، والإسلام، والقدر وعلامة الساعة، رقم٨، ١/ ٣٦.

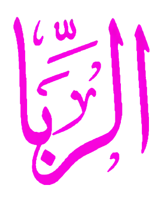
(١) شرح النووي على صحيح مسلم١/ ١٥٧.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٣٦٢. وانظر: تفسير القرآن، السمعاني ٥ / ١٠.

(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٥٥٠.

(٤) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٤٤٤.





عناصر الموضوع

مفهوم الربا

أولًا: المعنى اللغوي:

الربا مصدر من الفعل ربا، بمعنى: نما وزاد، يقال: ربا يربو ربًا، فهو رابٍ، وأربيته نميته، والربا: الزيادة، يقال: ربا المال، أي: زاد وارتفع، وربت الأرض أي: انتفخت وعظمت وزادت؛ فالربا معناها: الزيادة في كل شيء[(١)].

والربوة والربوة والرابية: كل ما ارتفع من الأرض، وأربى الرجل: إذا قام على رابيةٍ، وربوت الرابية: علوتها[(٢)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الربا: عقدٌ على عوضٍ مخصوصٍ، غير معلومِ التماثل في معيار الشرع حالة العقد، أو مع تأخير في البدلين أو أحدهما[(٣)].

وقيل: بأنه تفاضلٌ في أشياء، ونسءٌ في أشياء، مختصٌ بأشياء، ورد الشرع بتحريمها -أي: تحريم الربا فيها- نصًا في بعضها، وقياسًا في الباقي منها[(٤)].

فالربا: «هو الزيادة على أصل المال من غير عقد تبايعٍ»[(٥)]، والربا يطلق على شيئين: «يطلق على ربا الفضل، وربا النسيئة»[(٦)].

وربا الفضل هو: البيع الذي فيه زيادة أحد العوضين على الآخر، كبيع دينار بدينارين، نقدًا ونسيئة، وصاع بصاعين، ورطل برطلين، يدًا بيد، ونسيئة.

وربا النسيئة هو: الزيادة المشروطة التي يأخذها الدائن من المدين نظير التأجيل[(٧)].

والمعنى الاصطلاحي للربا مشتق من المعنى اللغوي له، الذي يدل على الزيادة والنماء.

---

(١) انظر: لسان العرب ١٤/ ٣٠٤، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٣٢٦.
(٢) انظر: لسان العرب ٤/ ٣٠٤.
(٣) انظر: أسنى المطالب، زكريا الأنصاري ٢/ ٢١، مغني المحتاج، الشربيني ٢/ ٣٦٣.
(٤) انظر: شرح منتهى الإرادات، البهوتي ٢/ ٦٤.
(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢/ ١٩٢.
(٦) فتح القدير، الشوكاني ١/ ٢٩٤.
(٧) القاموس الفقهي، سعدي أبو جيب ص ١٤٣-١٤٤.



الربا في الاستعمال القرآني

وردت مادة (ربو) في القرآن الكريم (١٨) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢	﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥﴾[الحج:٥]
الفعل المضارع	٣	﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ﴾[الروم:٣٩]
اسم فاعل	٢	﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾[الرعد:١٧]
مصدر	٨	﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾[البقرة:٢٧٥]
أفعل التفضيل	١	﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾[النحل:٩٢]
اسم مكان	٢	﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ۝٥٠﴾ [المؤمنون:٥٠]

وجاء الربا في القرآن على ثلاثة أوجه[(٢)]:

أحدها: الزيادة والكثرة، ومنه قوله تعالى: ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ [النحل: ٩٢]، يعني: أغنى وأكثر عددًا.

والثاني: المكان المرتفع، ومنه قوله تعالى: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠]، يعني: موضع مشرف ومكان مرتفع.

والثالث: الشدة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ۝١٠﴾[الحاقة:١٠]، يعني: شديدة.

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص ٣١٣.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٢٣٩-٢٤٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ الزكاة:

الزكاة لغة:

النماء، يقال: زكى الزرع يزكو أي: نما، وهي الطهارة والبركة والمدح[١].

الزكاة اصطلاحًا:

إيجاب طائفة من المال في مال مخصوص لمالكٍ مخصوص، معتبرًا فيه الحول والنصاب[٢].

الصلة بين الزكاة والربا:

كلا اللفظين يحمل معنى الزيادة والنماء، إلا أن لفظ الزكاة فيه زيادة دلالة؛ إذ يدل أيضًا على الطهارة والبركة، وقد سمى الله عز وجل ما يخرجه الإنسان من ماله إلى الفقراء والمستحقين زكاة لما فيه من معاني النمو والبركة والتزكية للنفس وللمال.

٢ البركة:

البركة لغة:

مشتقة من الفعل: برك، قال ابن فارس: «الباء والراء والكاف أصلٌ واحدٌ، وهو ثبات الشيء»[٣]. ومن ذلك اشتقت البركة، والتي هي بمعنى الزيادة والنماء، سميت بذلك لدلالتها على ثبات الخير[٤].

البركة اصطلاحًا:

هي ثبوت الخير الإلهي في الشيء[٥].

الصلة بين البركة والربا:

كلا اللفظين يدل على الزيادة، إلا أن الزيادة التي يدل عليها لفظ الربا زيادة محسوسة مشاهدة، أما الزيادة التي يتضمنها لفظ البركة فهي زيادة غير محسوسة.

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر ٢/ ٣٠٧، طلبة الطلبة، النسفي ص ١٦.
(٢) التعريفات ص ١١٤.
(٣) مقاييس اللغة ١/ ٢٢٧.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ٢٦٥.
(٥) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص١٢٦.



٣ المحق:

المحق لغة:

مشتق من الفعل (محق)، قال ابن فارس: «الميم والحاء والقاف كلماتٌ تدل على نقصان، ومحقه: نقصه»[١]. فالمحق: النقصان وذهاب البركة، ومنه المحاق وهو آخر الشهر إذا محق الهلال[٢].

المحق اصطلاحًا:

لا يختلف المعنى الاصطلاحي للمحق عن المعنى اللغوي له، فهو في الاصطلاح يعني: النقص والمحو، قال ابن الأثير: «المحق: النقص والمحو والإبطال»[٣].

الصلة بين المحق والربا:

المحق ضد الربا، فإذا كانت الربا تعني الزيادة والنماء، فإن المحق يعني النقصان والمحو؛ ولذا فقد جازى الله عز وجل الذي يأكل الربا بنقيض قصده؛ فإن المرابي يريد الزيادة والكثرة، والله عز وجل يعاقبه على انتهاكه لحرماته بالنقص والمحو والإبطال، محو لماله في الدنيا، ومحو وإبطال لعمله وثوابه يوم القيامة.

(١) مقاييس اللغة ٥/ ٣٠١.
(٢) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٤/ ٨٢.
(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر ٤/ ٣٠٣.

أنواع الربا

أولًا: ربا النسيئة:

هو الربا الذي كان موجودًا قبل الإسلام، من «نسأ الشيء ينسؤه نسًا وأنسأه: أخره، والاسم النسيئة والنسيء، ونسأ الشيء: باعه بتأخير، فتقول: نسأته البيع وأنسأته، وبعته بنسأةٍ، وبعته بنسيئةٍ، أي: بأخرةٍ»[1].

والنسيء: شهرٌ كانت العرب تؤخره في الجاهلية، فنهي عنه.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [التوبة: ٣٧].

وربا النساء، هو البيع بشرط أجلٍ، ولو قصيرٌ في أحد العوضين، ومن ثم فربا النسيئة مأخوذ من النسأ، وهو التأخير، وهو نوعان:

الأول: قلب الدين على المعسر، وهذا هو ربا الجاهلية، فيكون للرجل على الرجل مالٌ مؤجلٌ فإذا ما حل موعد قضاء الدين، قال له صاحب الدين: إما أن تقضي، وإما أن تربي فإن قضاه وإلا زاد الدائن في الأجل، وزاد في الدين مقابل التأجيل، فيتضاعف الدين في ذمة المدين.

الثاني: ما كان في بيع جنسين اتفقا في علة ربا الفضل، مع تأخير قبضهما أو قبض أحدهما، كبيع الذهب بالذهب أو بالفضة، أو الفضة بالذهب مؤجلًا أو بدون تقابض في مجلس العقد.

وسمي ربا النسيئة لأن الزيادة فيه مقابل الأجل أيًا كان سبب الدين، بيعًا كان أو قرضًا، وسمي ربا القرآن؛ لأنه حرم بالقرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً﴾ [آل عمران: ١٣٠].

ثانيًا: ربا الفضل:

يكون بالتفاضل في الجنس الواحد من أموال الربا إذا بيع بعضه ببعضٍ، كبيع درهمٍ بدرهمين نقدًا أو بيع صاع قمحٍ بصاعين من القمح، ونحو ذلك.

ويسمى ربا الفضل لفضل أحد العوضين على الآخر، وإطلاق التفاضل على الفضل، إنما هو من باب المجاز، فإن الفضل في أحد الجانبين دون الآخر.

ويسمى ربا النقد في مقابلة ربا النسيئة: ويسمى الربا الخفي، قال ابن القيم: «الربا نوعان: جليٌّ وخفيٌّ؛ فالجلي حرم؛ لما فيه من الضرر العظيم، والخفي حرم؛ لأنه ذريعةٌ إلى الجلي، فتحريم الأول قصدًا، وتحريم الثاني؛ لأنه وسيلةٌ، فأما الجلي، فربا النسيئة، وهو الذي كانوا يفعلونه في الجاهلية».

وجاء تحريم ربا الفضل من باب سد الذرائع، كما صرح به في حديث ابن عمر

(١) لسان العرب، ابن منظور ١/ ١٦٦.

رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**لا تبيعوا الدرهم بالدرهمين؛ فإني أخاف عليكم الرماء، والرماء هو الربا**)[1].

فمنعهم من ربا الفضل لما يخافه عليهم من ربا النسيئة؛ وذلك أنهم إذا باعوا درهمًا بدرهمين، ولا يفعل هذا إلا للتفاوت الذي بين النوعين، إما في الجودة، وإما في السكة، وإما في الثقل والخفة، وغير ذلك، تدرجوا بالربح المعجل فيها إلى الربح المؤخر، وهو عين ربا النسيئة، وهذا ذريعةٌ قريبةٌ جدًا، فمن حكمة الشارع أن سد عليهم هذه الذريعة، وهي تسد عليهم باب المفسدة.

فلو باع رجلٌ كيلو من التمر من النوع الجيد باثنين كيلو من التمر من النوع الرديء، فإن هذا غير جائزٍ، ومن ثم يعد من ربا الفضل الذي دل على تحريمه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ربا اليد: هو البيع مع تأخير قبض البدلين أو تأخير قبض أحدهما دون ذكر أجل التسليم في العقد، وذلك كأن يبيع رجلٌ لآخر مائة جرامٍ من الذهب بثلاثمائة من الفضة مثلًا من غير أن يقبض كل من البائع والمشتري ما اتفقا عليه، أو يقبض أحدهما، ولا يقبض الآخر دون أن يتفقا على وقت تسليم العوض غير المقبوض، وسمي بهذا الاسم نظرًا لخلو يد أحد المتبايعين مما يستحق من العوض، أو خلو يديهما معًا.

وفي الحديث: عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبر بالبر، والشعير بالشعير، والتمر بالتمر، والملح بالملح؛ مثلًا بمثلٍ، يدًا بيدٍ، فمن زاد أو استزاد فقد أربى، الآخذ والمعطي فيه سواءٌ**)[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**التمر بالتمر، والحنطة بالحنطة، والشعير بالشعير، والملح بالملح، مثلًا بمثلٍ، يدًا بيدٍ، فمن زاد، أو استزاد، فقد أربى، إلا ما اختلفت ألوانه**)[3].

وللخروج من مثل هذه الحالة أن يبيع المرء ما معه من البر أو الشعير بالمال، ثم يشتري بالمال ما شاء من النوع الآخر من البر أو التمر، أو الشعير، حتى يسلم من الربا.

ولكن إذا اختلفت هذه الأجناس بين الناس، فيبيعون كيف شاؤوا إذا كان يدًا بيدٍ؛ إذ تدل السنة على أنه لا يجوز أن يباع عشرة أصواعٍ من التمر الجيد بعشرين صاعًا من

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ١٠/ ١٢٥، رقم ٥٨٨٥.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب الصرف، ٣/ ١٢١٠، رقم ١٥٨٧.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب الصرف، ٣/ ١٢١١، رقم ١٥٨٨.

الرديء؛ لأن هذا هو ربا الفضل، وحرم سدًّا لباب ربا النسيئة، وقد أكدت السنة النبوية المثال التطبيقي الفعلي لتحريم الربا.

ففي الحديث عن أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه قال: (**جاء بلالٌ رضي الله عنه إلى النبي صلى الله عليه وسلم بتمرٍ برني، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: (من أين هذا؟) قال بلالٌ: كان عندنا تمرٌ رديٌّ، فبعت منه صاعين بصاعٍ؛ لنطعم النبي صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم عند ذلك: (أوه أوه، عين الربا، عين الربا، لا تفعل، ولكن إذا أردت أن تشتري فبع التمر ببيعٍ آخر ثم اشتره)**)[(١)].

وعن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل رجلًا على خيبر، فجاءه بتمرٍ جنيبٍ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**أكل تمر خيبر هكذا؟) قال: لا والله يا رسول الله، إنا لنأخذ الصاع من هذا بالصاعين والصاعين بالثلاثة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تفعل، بع الجمع بالدراهم، ثم ابتع بالدراهم جنيبًا)**[(٢)].

وأكدت السنة النبوية تحريمه في خطبة الوداع، وفي أحاديث أخرى، ومن ثم انعقد إجماع المسلمين على تحريمه.

والربا الذي كانت العرب تعرفه، وتفعله، إنما كان قرض الدراهم والدنانير إلى أجلٍ بزيادةٍ على مقدار ما استقرض على ما يتراضون به، والذي كانوا يفعلونه في الجاهلية، كأن يؤخر دينه ويزيده في المال، وكلما أخره زاده في المال المضاف (الفائدة) حتى تصير المائة عنده آلافًا، فالمرابي يقول: إن الذي أخذ المال بالربا، اشترى به إبلًا وأرضًا وتاجر فيه وكسب كثيرًا، وليس بمحرمٍ علي أن يعطيني نسبةً مما ربحه، وكثير من الذين يأخذون الربا، إنما يأخذونه للاستثمار، وقليلٌ منهم من يأخذ للحاجة الماسة أو للضرورة.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوكالة، باب إذا باع الوكيل شيئًا فاسدًا فبيعه مردود، ٣/ ١٠١، رقم ٢٣١٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب إذا أراد بيع تمر بتمر خير منه، ٣/ ٧٧، رقم ٢٢٠١، ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب بيع الطعام مثلًا بمثل، ٣/ ١٢١٣، رقم ١٥٩٣.

حكم الربا

إن هذا القرآن العظيم لا تنتهي فوائده، وكلما قلب العلماء النظر في آياته، وتأملوا دلالاته يفتح الله عليهم من فيض علمه سبحانه وتعالى ما ينير به بصائرهم، ومازال العلماء ينهلون من كتاب الله تعالى، ويظهرون إعجازه إلى أن يرث الله الأرض من عليها، فمن خصائص القرآن: أنه معجزٌ.

ومن الأصول المقررة في الشريعة، أن الله تعالى لا يأمر بشيءٍ إلا بما يحقق مصلحة عباده، ولا ينهاهم إلا عما يفسد حياتهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

فلم يبق عدلٌ ولا إحسانٌ ولا صلةٌ إلا أمر به في هذه الآية الكريمة، ولا منكرٌ متعلقٌ بحقوق الله ولا بغي على الخلق في دمائهم وأموالهم وأعراضهم إلا نهى عنه، ووعظ عباده أن يتذكروا ما في هذه النواهي من الشر والضرر، فيجتنبوه، وقد نهى الله تعالى عن المعاصي جميعها، وتوعد من خالف أمره بالعقاب.

أولًا: تحريم الربا في الإسلام:

لقد حرم الله الربا وجعله من أكبر الكبائر، كما بين أنه سببٌ لعقوباتٍ عديدةٍ في الدنيا والآخرة، ومنع الإسلام من تقديم مساعدة للتعامل الربوي، ومن ثم تنوعت أدلة تحريمه في الكتاب والسنة، وأجمع علماء المسلمين على تحريمه.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٢٧٨ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٨-٢٧٩].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗ﴾ [آل عمران: ١٣٠].

وفي الحديث في خطبة الوداع: عن سليمان بن عمرو عن أبيه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع يقول: **(ألا إن كل ربًا من ربا الجاهلية موضوعٌ، لكم رءوس أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون)**[١].

ولذلك فإن كل التزامٍ بالربا يجب التنازل عنه، فمن لديه مالٌ من ربًا، فليتخلص منه، ولكن له أن يبقي رأس ماله، لا يلحقه ظلمٌ،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم، ٢/ ٨٨٦، رقم ١٢١٨.

ولا أن يظلم أحدًا.

إن الله تعالى حكم ببطلان الربا، وكل ربا الجاهلية موضوعٌ، وأول ربًا وضع وحظر كان ربا العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه عم الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد أجمع المسلمون على تحريم الربا.

ومن ثم، فليس ثمة اختلافٌ في الرأي بين علماء المسلمين بشأن حظر التعامل بالربا في الشريعة الإسلامية؛ لأن القرآن والسنة لم يدعا مجالًا للشك في تحريمه.

وقد جاء في الحديث عن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(من شفع لأخيه بشفاعةٍ، فأهدى له هديةً عليها، فقبلها فقد أتى بابًا عظيمًا من أبواب الربا)**[1].

وعن جابرٍ رضي الله عنه قال: **(لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: آكل الربا، ومؤكله، وكاتبه، وشاهديه، وقال: هم سواءٌ)**[2].

ومن ثم فإنه لا يجوز لرجلٍ ما أن يضمن صاحبه للحصول على قرضٍ من أحد المصارف مقابل حصول المصرف على فائدة ما.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(الربا سبعون حوبًا، أيسرها أن ينكح الرجل أمه)**[3].

إن الربا وبالٌ على المجتمعات والدول التي لا تحرمه؛ إذ يتدهور اقتصاد تلك البلدان المتعاملة به؛ لأن الله سبحانه عد الربا من الموبقات وحرمه في القرآن وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم تحريمًا أكيدًا.

ولما كان الربا من المحرمات التي انتشرت في هذه الأيام، وأصبح الناس يتعاملون به بينهم، كان من الواجب أن يتبينوا حكم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم في هذه المعاملة المحرمة.

ولبيان بشاعة الربا، هب مثلًا أن رجلًا لديه مثلًا ألف جنيهٍ، ورجلٌ آخر لا يملك شيئًا، فصاحب الألف يستطيع أن يديرها، وأن يعيش منها، أما الآخر الذي لا يملك شيئًا، فقد يضطر إلى أن يقترض ليعيش مثل صاحبه، فإن اقترض: الألف جنيهٍ قرضًا بمائة جنيهٍ فائدةً، فمن أين يوفر هذه المائة المضافة؟ إذ إنه لا يملك شيئًا أصلًا.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، أبواب الإجارة، باب في الهدية لقضاء الحاجة، ٣/ ٢٩١، رقم ٣٥٤١.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٠٨٢، رقم ٦٣١٦.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب لعن آكل الربا وموكله، ٣/ ١٢١٨، رقم ١٥٩٧.

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب التجارات، باب التغليظ في الربا، ٢/ ٧٦٤، رقم ٢٢٧٤.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٦٦٤، رقم ٣٥٤١.

إن أخذها من عائد المال يخسر، وإن أخذها من السلعة بأن يقلل من الجودة، أو من العناصر الفعالة المكونة للسلعة، أو في التغليف، أو غير ذلك جاءت السلعة أقل من مثيلاتها، وبارت، ولم تجد من يقبل على شرائها.

إذن: الزيادة لابد أن يتحملها المستهلك، وهذا إضرارٌ به، وهو ليس طرفًا في العقد، إذن: العقد باطلٌ، لوقوع الضرر على المستهلك الذي لا ناقة له في الأمر، ولا جمل.

ثانيًا: التدرج في تحريم الربا:

لقد سلك القرآن الكريم أسلوب الرفق والتدرج، في نقل المخاطبين من حياة الجاهلية، إلى سماحة الإسلام ويسره، وتجلى ذلك في شرائع الإسلام، وأحكامه العملية، إن التدرج في التشريع هو المنهج الكامل للقرآن الكريم، والسنة النبوية، فالتدرج سنة الحياة، فقد خلق الله السماوات والأرض في ستة أيام، وقال العلماء: (من طلب العلم جملةً فاته العلم جملةً).

لقد كان الربـا بأنواعه وأشكاله المختلفة عصب الاقتصاد في المجتمع العربي الجاهلي، ومن ثم كانت الحكمة تقتضي أن يتدرج التشريع القرآني في تحريمه، حتى لايحدث ما يؤدي إلى التفكك والانهيار الاجتماعي والاقتصادي، فكان التدرج.

وقد ذكر بعض الباحثين أن الربا في القرآن الكريم، قد تدرجت الآيات في تحريمه، كما تدرجت في تحريم الخمر[1].

وسبب هذا التدرج في تحريم بعض الأحكام الفرعية، إنما هو رسوخ، وتعلق المخاطبين بهذه العادات والأفعال، حتى أنه كان من الصعب عليهم الامتثال، للإقلاع عنها دفعةً واحدةً، فكان التدرج.

ومن ثم نجد هذا التدرج في تحريم الربا في أربع آياتٍ قرآنيةٍ، تتعلق بتحريم الربا، واحدةٌ منها نزلت بمكة، وثلاثٌ في المدينة، ويمكن ترتيب هذا التدرج، على عدة مراحل.

المرحلة الأولى: هي ما جاء في سورة الروم، وهي مكية نزلت قبل الهجرة ببضع سنين، حيث جاء الأمر مقرونًا بذم الربا، ومدح الزكاة، وذلك قبل فرض الزكاة.

قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩].

(١) انظر: دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية، محمد عبد الله دراز، ص ١٥٧، الربا والقرض في الفقه الإسلامي، أبو سريع عبد الهادي، ص٢١، الربا والفائدة، دراسة اقتصادية مقارنة، محمد رفيق المصري، ومحمد رياض الأبراش، ص ٣٠.

وقد جاء في السور المكية أصول الواجبات، والمحرمات بشكل إجمالي، كما في هذه الآية الكريمة، وجاءت هذه الآية لتوجه الأنظار، وتهيء النفوس؛ لتقبل فكرة التحريم، ومن ثم ترى أن التدرج أول الأمر حيث أوضح الله أن الربا لا نماء فيه، ولا بركة، وقارن بينه وبين الزكاة مبينًا أن الزكاة مما يضاعف الله ثوابها، ويبارك فيها.

قال أبو إسحاق: «يعني به دفع الإنسان الشيء؛ ليعوض ما هو أكثر منه، وذلك في أكثر التفسير ليس بحرام، ولكنه لا ثواب لمن زاد على ما أخذ، والربا ربوان، والحرام: كل قرضٍ يؤخذ به أكثر منه، أو يجر منفعةً، فهذا حرامٌ، والذي ليس بحرام أن يهبه الإنسان يستدعي به ما هو أكثر منه، أو يهدي الهدية، ليهدى له ما هو أكثر منها»[1].

وقال الفراء: «وما أعطيتم من شيءٍ لتأخذوا أكثر منه؛ فليس ذلك بزاكٍ عند الله»[2].

المرحلة الثانية: وهي في سورة النساء، وهي سورةٌ مدنيةٌ.

قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٠-١٦١].

تبين الآيات أن الله تعالى قد نهى اليهود عن الربا، فتناولوه وأخذوه، واحتالوا عليه بأنواعٍ من الحيل وصنوفٍ من الشبه[3]، إذ يخبر الله تعالى، أنه بسبب ظلم اليهود بما ارتكبوه من الذنوب العظيمة حرم عليهم طيبات كان أحلها لهم.

وهذا تلميحٌ بالتحريم؛ لأنه جاء على سبيل الحكاية عن بني إسرائيل، وأن الربا كان محرمًا عليهم، فاحتالوا على أكله، ومن ثم فهو بذلك تمهيدٌ، وإيماءٌ إلى إمكان تحريم الربا على المسلمين، كما هو محرمٌ على بني إسرائيل، وفي الآية إيماءٌ آخر، أنه إذا حرم عليكم الربا، فلا تكونوا مثل اليهود، ولا تفعلوا مثل فعلهم، فتلقوا من العذاب الأليم مثل ما لقوا؛ لأن هذا سلوك الكافرين، فكانت هذه الآية بيانًا من الله بعدم قبول الربا، ومقدمة للمنع.

المرحلة الثالثة: هي ما جاء في سورة آل عمران بشأن النهي عن أكل الربا.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٠-١٣١].

في الآية خطابٌ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا﴾ في إسلامكم بعد إذ هداكم

---

(١) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ١٨٧.
(٢) معاني القرآن، الفراء ٢/ ٣٢٥.
(٣) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ١٨٧.

الله، كما كنتم تأكلونه في جاهليتكم، وهذا النهي مفيدٌ لتحريم الربا، ويريد بالأكل الأخذ أضعافًا مضاعفةً، وهو أن يقول المرابي لمن عليه الدين بعد حلول الأجل: إما أن تقضي، وإما أن تربي، فإن لم يدفعه ضاعف ذلك عليه، ثم يفعل كذلك عند حلوله من بعد حتى تصير أضعافًا مضاعفةً، وقد نهي الله بعد ذلك عن تعاطي الربا في الصورة التي كانت شائعةً بين الناس.

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ يدل على أن الربا من الكبائر التي يستحق عليها الوعيد بالنار، إلا أنه لم يكن فيه من التهديد والوعيد على نحو ما سنرى.

المرحلة الرابعة: هي المرحلة التي جاءت الآيات الكريمة فيها بالحكم الشرعي، فقد جاء التشريع بالتحريم للربا بجميع أنواعه، مصحوبًا بالتهديد الشديد، وإعلان الحرب على المرابين، ولم يكن ذلك إلا حين استقر في نفوس المسلمين أن الربا لا فائدة فيه، ولا طائل منه، وأن الله لا يرضى عن التعامل به.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥-٢٧٩].

وهذه الآيات آخر ما نزل من القرآن الكريم، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: «هذه آخر آيةٍ نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم»[1].

ويستمر تحريم الربا إلى أن يرث الله الأرض وما عليها، ولكن يأبى الذين استحوذ عليهم الشيطان إلا عتوًا ونفورًا؛ ليستمروا على التحكم بأموال الناس بغير حقٍ.

وقد أباح الإسلام استثمار المال عن طريق التجارة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [النساء: ٢٩].

وأثنى سبحانه وتعالى على الضاربين في الأرض للتجارة، قال تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾

---

(١) علقه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب موكل الربا، ٣/ ٥٩.

[المزمل: ٢٠].

وقد أعلن الرسول صلى الله عليه وسلم حربه على الربا والمرابين، وبين خطره على المجتمع، فقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم: إنه إذا ظهر الربا والزنا في قريةٍ، فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله.

فعن عبد الله بن مسعودٍ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(لعن الله آكل الربا وموكله وشاهديه وكاتبه)**، قال: وقال: **(ما ظهر في قومٍ الربا والزنا إلا أحلوا بأنفسهم عقاب الله عز وجل)**[1].

ومن ثم، نرى أن الربا من أكبر الكبائر، إن لم يكن أكبرها مطلقًا، وقد آذن الله المرابين بحربٍ منه، إن لم يتركوا ما بقي من الربا، كما أمرهم وأعلمهم بأنهم في حربٍ من الله ورسوله، وهذه الحرب معروفة المصير، مقررة العاقبة، لا هوادة فيها، إنها حربٌ على الأعصاب والقلوب وحربٌ على البركة والرخاء، وحربٌ على السعادة والطمأنينة.

ثالثًا: تحريم الربا عند الأمم الأخرى:

إن الغالب في المال الحرام أن يأتي عن طريق الربا، وقد يأتي عن طريق الرشوة (الهدية)، وقد جاء الكتاب الكريم والسنة بالنهي عن الربا والوعيد الشديد فيه ما لم يرد في غيره من الذنوب، فمن تجرأ على الله عز وجل، ولم يتب عن الربا، فقد عرض نفسه لأنواع العقوبات العاجلة والآجلة في الدنيا والآخرة.

وقد ذكر في سبب تحريم الربا وجوهًا:

أحدها: الربا يقتضي أخذ مال الإنسان من غير عوضٍ؛ لأن من يبيع الدرهم بدرهمين نقدًا كان أو نسيئةً، فيحصل له زيادة درهمٍ من غير عوضٍ، ومال الإنسان متعلق حاجته، وله حرمةٌ عظيمةٌ عند الله، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرامٌ، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ليبلغ الشاهد الغائب، فإن الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى له منه)**[2].

فوجب أن يكون أخذ ماله من غير عوضٍ محرمًا.

فإن قيل: لم لا يجوز أن يكون لبقاء رأس المال في يده مدة مديدة عوضًا عن الدرهم الزائد؛ وذلك لأن رأس المال لو بقي في يده هذه المدة لكان المال الذي يتجر فيه، ويستفيد بسبب تلك التجارة ربحًا، فلما تركه في المدين وانتفع به المدين، لم يبعد أن يدفع إلى رب المال ذلك الدرهم الزائد

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٦/ ٣٥٨، رقم ٣٨٠٩.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٩٨٤، رقم ٥٦٣٤.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم، ٢/ ٨٨٦، رقم ١٢١٨.

عوضًا عن انتفاعه بماله[١].

قلنا: إن هذا للانتفاع الذي ذكر أمرٌ موهومٌ، قد يحصل، وقد لا يحصل، وأخذ الدرهم الزائد أمرٌ متيقنٌ، فتفويت المتيقن لأجل الأمر الموهوم لا ينفك عن نوع ضرر.

وثانيها: قال بعضهم: الله إنما حرم الربا من حيث أنه يمنع الناس عن الاشتغال بالمكاسب؛ وذلك لأن صاحب الدرهم إذا تمكن بواسطة عقد الربا من تحصيل الدرهم الزائد نقدًا كان أو نسيئةً خف عليه اكتساب وجه المعيشة؛ فلا يكاد يتحمل مشقة الكسب والتجارة والصناعة الشاقة، وذلك يفضي إلى انقطاع منافع الخلق، ومن المعلوم أن مصالح العالم لا تنتظم إلا بالتجارات والحرف والصناعات والعمارات[٢].

وثالثها: قيل: السبب في تحريم عقد الربا، أنه يفضي إلى انقطاع المعروف بين الناس من القرض؛ لأن الربا إذا حرم طابت النفوس بقرض الدرهم، واسترجاع مثله، ولو حل الربا لكانت حاجة المحتاج تحمله على أخذ الدرهم بدرهمين، فيفضي ذلك إلى انقطاع المواساة والمعروف والإحسان.

رابعها: أن الغالب أن المقرض يكون غنيًا، والمستقرض يكون فقيرًا؛ فالقول بتجويز عقد الربا تمكينٌ للغني من أن يأخذ من الفقير مالًا زائدًا، وذلك غير جائزٍ برحمة الرحيم.

خامسها: أن حرمة الربا قد ثبتت بالنص، ولا يجب أن يكون حكم جميع التكاليف معلومةً للخلق، فوجب القطع بحرمة عقد الربا، وإن كنا لا نعلم الوجه فيه[٣].

ومن ثم فإنه إذا كان الله تعالى قد حرم الربا، فلا مجال للجدال في هذا التحريم؛ لأنه لا اجتهاد مع النص، ولا يجوز لنا أن نفسر الآيات تبعًا للهوى، وطمعًا في مكسبٍ ممحوق البركة.

تحريم الربا في التشريع اليهودي:

لقد خلق الله الناس لعبادته تعالى، فالناس جميعًا أمةٌ واحدةٌ، وربهم واحدٌ لا شريك له.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[الأنبياء: ١٠٨].

وبالنظر في حكم الربا في الشرائع السابقة، كاليهودية والمسيحية، لم نر في شريعتهم ما يحل الربا، فالربا لم يحل في شريعةٍ قط؛ لقوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٠-١٦١].

إن اليهود هم أكلة الربا، لقد حرم الله

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٧/ ٧٩٣.
(٢) المصدر السابق ٧/ ٩٤.
(٣) المصدر السابق.

الربا على اليهود، وهم يعلمون ذلك، وينهون عنه فيما بينهم، لكنهم يبيحونه مع غيرهم، قال الإمام الحافظ ابن كثيرٍ رحمه الله تعالى: «أي: أن الله قد نهاهم عن الربا، فتناولوه وأخذوه، واحتالوا عليه بأنواعٍ من الحيل وصنوفٍ من الشبه، وأكلوا أموال الناس بالباطل»[١].

وقد صرف اليهود النص المحرم للربا؛ حيث قصروا التحريم فيه على التعامل بين اليهود بعضهم بعضًا، أما معاملة اليهودي لغير اليهودي بالربا، فجعلوه جائزًا لا بأس به.

لقد حرم الله الربا في التوراة على اليهود، ولكنهم خالفوا أمره، واحتالوا، وحرفوا، وبدلوا كلام الله واعتبروا أن التحريم إنما يكون بين اليهود فقط، أما مع غيرهم فلا يكون محرمًا في زعمهم الباطل؛ ولذلك ذمهم الله في هذه الآيات كما بيناه.

قال تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة: ٤٢].

ومن سمات اليهود أنهم أكالون للسحت، وهو المال الحرام الذي يسحت الطاعات، أي: يستأصلها.

أما ما جاء في تحريم الربا عند اليهود[٢]، فقد ذكر الربا في مواضع متعددةٍ من التوراة، فقصت في سفر الخروج: «إن أقرضت فضة لشعبي الفقير الذي عندك، فلا تكن له كالمرابي، لا تضعوا عليه ربًا»[٣].

والشريعة اليهودية في كتاب التوراة، كانت تنهى الناس في العهد القديم عن أخذ الربا من إخوتهم وينص العدد (٢٠) في نسخة التوراة التي يتداولها يهود اليوم، على أن «للأجنبي تقرض بربا، ولكن لأخيك لا تقرض بربا؛ لكي يباركك الرب، إلهك في كل ما تمتد إليه يدك في الأرض التي أنت داخلٌ إليها لتمتلكها»[٤].

وقد حفلت النصوص برعاية المدينين، ومنعت مضارتهم في الرهون المقبوضة منهم، وفرضت إبراء المعسر مما عليه من القرض كل سبع سنين، وكل ذلك عندهم ما لم يكن المدين أجنبيًا.

ويذهب بعض المفسرين من أهل الكتاب[٥] إلى أن نصوص سفري الخروج واللاويين التي سلفت إنما حرمت الربا الفاحش، وأن تحريم مطلق الفائدة، لم يشرع إلا من بعد ذلك بما جاء في سفر التثنية، وقيل: إن صحف موسى حرمت

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤٦٧.
(٢) نصوص تحريم الربا عند اليهود، مجلة البحوث الإسلامية، العدد الخامس، ص ١٩٦.
(٣) الإصحاح ٢٢، رقم ٢٥.
(٤) سفر التثنية ٢٣، رقم ١٩-٢٠.
(٥) نصوص تحريم الربا عند اليهود، مجلة البحوث الإسلامية، العدد الخامس، ص ١٩٦.

على اليهود أخذ الربا من الفقراء، ولو كانوا من الأجانب، ثم انحصر التحريم في إقراض اليهود، وإن كان المقترض موسرًا.

ولم يكن اليهود يعملون بالتجارة حين أنزلت التوراة، فلم تشر نصوصها إلى الديون التجارية، ولكنهم حين حرموا أخذ الربا على الديون التجارية، قد رخصوا في الوقت ذاته، فيما يؤدي إلى التهرب من هذا التحريم من طريق الحيلة القانونية، بأن يعتبر المقرض بالربا بمثابة شريكٍ مستحقٍ لأرباح المشروع التجاري الذي أمده برأس ماله، لكن دون أن يتحمل المقرض نصيبه من الخسائر. ويبين لنا القرآن الكريم أن الربا حرم في شريعة اليهود، فهو محرمٌ في كل الشرائع السماوية.

تحريم الربا في التشريع المسيحي:

الشريعة المسيحية تحرم الربا، وتنهى عنه، وتشير بعض المراجع التاريخية إلى أن الكنيسة كانت ومازالت تحرم الربا في نطاق أخذ الفائدة من الفقراء عند اقراضهم لسد احتياجاتهم، وقد حث السيد المسيح عليه السلام الناس دائمًا على أن يحب الناس بعضهم بعضًا، وأن يساعد بعضهم بعضًا، وجاء النهي عن الربا في شريعتهم.

ففي إنجيل لوقا: «إذا أقرضتم الذين ترجون منهم المكافأة، فأي فضلٍ يعرف لكم، لكن افعلوا الخيرات، وأقرضوا غير متنظرين عائدتها، وإذًا يكون ثوابكم جزيلًا»، وقد أجمع رجال الكنيسة ورؤساؤها، وقد اتفقت مجامعها على تحريم الربا تحريمًا قاطعًا.

ولم يكن تحريم الربا قاصرًا على أرباب الديانتين، بل حرمه من اشتهر بالعلم والفهم والحكمة، والفكر.

«أحبوا أعداءكم وأحسنوا، وأقرضوا وأنتم لا ترجون شيئًا؛ فيكون أجركم عظيمًا»[(١)].

وجاء التحريم في سفر الخروج: «إن أقرضت لشعبي الفقير الذي عندك، فلا تكن له كالمرابي لا تضعوا عليه ربًا»[(٢)].

وجاء في سفر المزامير: «والرزيل محتقرٌ في عينيه، ويكرم خائفي الرب، يحلف للضرر، ولا يغير فضته، لا يعطيها بالربا، ولا يأخذ الرشوة على البريء، الذي يصنع هذا لا يتزعزع إلى الدهر»[(٣)].

ومن ثم فإنني لم أر فيما اطلعت عليه تشريعًا من عند الله يحل الربا، أو يبيح التعامل به؛ لأن أخذ الربا ظلمٌ، وما كان الله ليشرع للناس إلا ما فيه خيرهم.

وأما العرب في جاهليتهم على الرغم من تعاملهم بالربا إلا أنهم كانوا ينظرون إليه نظرة ازدراءٍ، ويدل على ذلك أنه عندما تهدم

(١) إنجيل لوقا: الإصحاح ٦، رقم ٣٥.
(٢) سفر الخروج: الإصحاح ٢٢، رقم ٢٥.
(٣) مزمور: ١٥، رقم ٥.

سور الكعبة، وأرادت قريش إعـادة بنائـه حرصت على أن تجمع الأموال لذلك من بيوت الأشراف التي لا تتعامل بالربا، حتى لا يدخل في بناء البيت مالٌ حرامٌ.

إن الربا «كان محرمًا في الشرائع، والذي فعله العرب في الجاهلية، إنما كان عادة المشركين، واشتمال شرائع الأنبياء قبلنا على تحريم الربا مشهورٌ مذكورٌ في كتاب الله تعالى، كما حكي عن اليهود في قوله تعالى: ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَوٰا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ﴾ [النساء: ١٦١]».

وقيل: «جاء رجلٌ إلى مالك بن أنسٍ، فقال: يا أبا عبد الله، إني رأيت رجلًا سكرانًا يتعاقر يريد أن يأخذ القمر، فقلت: امرأتي طالقٌ إن كان يدخل جوف ابن آدم أشر من الخمر، فقال: ارجع حتى أنظر في مسألتك، فأتاه من الغد، فقال له: ارجع حتى أنظر في مسألتك، فأتاه من الغد، فقال له: امرأتك طالقٌ، إني تصفحت كتاب الله وسنة نبيه، فلم أر شيئًا أشر من الربا؛ لأن الله أذن فيه بالحرب»[1].

ومن ثم نؤكد أن أكل الربا والعمل به من الكبائر، ولا خلاف في ذلك عند كل ذي عقلٍ رشيدٍ.

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ١٢٨٤.

رابعًا: شبهٌ حول تحريم الربا:

لقد تناول القرآن الكريم الحديث عن الربا في أربعة مواضع، وكان أول موضعٍ منها وحيًا مكيًا، والثلاثة الباقية مدنية.

وإذا نظرنا إلى مواقف العلماء من مسألة الربا، نجد منهم من يحاول التحايل على النص، والتماس مخرج يبيحه، ومنهم من يحرم، وهم كثرٌ، ولكن هب أنهم متساوون من يحرم، ومن يحلل، فما حكم الشرع، فيما تساوت فيه الاجتهادات؟

فعن النعمان بن بشيرٍ رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **(إن الحلال بينٌ، وإن الحرام بينٌ، وبينهما مشتبهاتٌ لا يعلمهن كثيرٌ من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملكٍ حمًى، ألا وإن حمى الله محارمه)**[2].

إن النبي صلى الله عليه وسلم قد بين لنا مسألة الشبهة بما أوتي من جوامع الكلم، في الحديث الشريف، ولم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم: فمن فعل الشبهات،

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، ١/ ٢٠، رقم ٥٢، ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، ٣/ ١٢١٩، رقم ١٥٩٩.

وإنما قال: (فمن اتقى): أي تركها، إذن: من وقع في الشبهات، لم يستبرئ لا لدينه ولا لعرضه، ومن ثم لا يرضى أحدٌ أن يوصف هذا الوصف.

إن المتأمل في المجتمعات التي تحيط بنا، يجد في كل بلدٍ أناسًا يتعاملون بالربا، ولا يجدون في ذلك غضاضةً، وهؤلاء المرابون لا يموتون بخيرٍ، وثرواتهم كاملةٌ؛ لأن الله تعالى توعد المرابي بأن يزيل ما كسبه، قال تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَوٰا وَيُرْبِي الصَّدَقَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦]؛ لذلك نسمع مقولات (فلانٌ ماهرٌ في التجارة)، (فلانٌ يضع يده في التراب يصير ذهبًا) فالله تعالى يعطي الكافر ويوسع عليه زهرة الدنيا، حتى إذا أخذه كان أخذه أليمًا، فإن أردت أن توقع عدوك لا توقعه من مكانٍ منخفضٍ، إنما من مكانٍ عالٍ حتى يكون السقوط مؤلمًا.

والله يمحق المال المكتسب من الربا، والمال المحرم ممحوق البركة معرضٌ هو، وما خالطه من الحلال للتلف والزوال، وإن بقي، فلا يقبل الله منه صدقةً، ولا حجًا ولا صلةً، وإنما يقاسي صاحبه أتعابه، ويتحمل حسابه، وهذا في الدنيا.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوٓا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

إن المرابي مهما اكتسب، واغتنى، فإنما غناه كيدٌ فيه، ومبالغةٌ في إيذائه، إنما يمد له حتى إذا أخذه لم يفلته.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا بِمَآ أُوتُوٓا أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤].

فالدنيا لا قيمة لها عند الله، وإنما هي متاعٌ، وعملٌ للآخرة.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ۚ وَالْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٣-٣٦].

ويسعى بعض الناس جاهدين التمسك بمفاهيم خاطئةٍ، فهم يبيحون الفوائد (الربا) إذ يقولون: إن العقد شريعة المتعاقدين، وأن كلا الطرفين (الدائن والمدين) راضيان عن هذا العقد، وأن العقد شريعة المتعاقدين، بيد أنهم نسوا أن هناك مشرعًا أعلى، وهو الله سبحانه وتعالى، وأن مقولة: (العقد شريعة المتعاقدين) لا تصلح إلا في العقود الحلال، وإلا لأصبحت عقود الزنى حلالًا؛ لوجود التراضي بين الاثنين.

ولا شك أن الربا عقوده باطلةٌ قانونيًا،

وليس شرعيًا فقط، فالأصل أن القانون يحمي الطرفين: المقرض والمقترض، أما عقود الربا فإنها تحمى المقرض فقط؛ لأنها تبيح له أن يأخذ كل الضمانات التى يريدها من المقترض، فتبيح الحجز على متاع بيته، أو غير ذلك، ولا يعطي للمقترض أي حق؛ ومن ثم فإن عقد الربا مفسوخٌ لا يجوز بحالٍ؛ لما رواه الأئمة عن أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه قال: (جاء بلالٌ إلى النبي صلى الله عليه وسلم بتمرٍ برني، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: (من أين هذا؟) قال بلالٌ: كان عندنا تمرٌ رديٌّ، فبعت منه صاعين بصاعٍ؛ لنطعم النبي صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم عند ذلك: (أوه أوه، عين الربا عين الربا، لا تفعل، ولكن إذا أردت أن تشتري فبع التمر ببيعٍ آخر، ثم اشتره)[1].

وفي روايةٍ: (هذا الربا، فردوه، ثم بيعوا تمرنا واشتروا لنا من هذا).

قال علماؤنا: «فقوله: (أوه عين الربا) أي: هو الربا المحرم نفسه لا ما يشبهه»[2].

وقول النبي صلى الله عليه وسلم: (فردوه) يدل على وجوب فسخ صفقة الربا، وأنها لا تصح بوجهٍ، وهو قول الجمهور، خلافًا لأبي حنيفة حيث يقول: «إن بيع الربا جائزٌ بأصله من حيث هو بيعٌ، ممنوعٌ بوصفه من حيث هو ربًا، فيسقط الربا ويصح البيع، ولو كان على ما ذكر لما فسخ النبي صلى الله عليه وسلم هذه الصفقة، ولأمره برد الزيادة على الصاع، ولصحح الصفقة في مقابلة الصاع»[3].

ومن الشبهات ما قيل: إن تحريم الربا في الإسلام يصيب الاقتصاد العالمي بالشلل التام:

والحقيقة غير ما ادعاه المبطلون؛ ذلك أن الربا، كما قال الاقتصادي الألماني شاخت: «ليتسبب في مصائب عالمية، وإن الربا ليضر بالاقتصاد العالمي، وإنه ليزيد الفقير فقرًا، والغنى غنًى»؛ لأن الغني تتضاعف أمواله بالربا، أما الفقير فإنه ينشغل بسداد ديونه وفوائدها، فيزداد فقرًا على فقرٍ ويضطر إلى الحرام.

وكذلك فإن البريطاني (كينز) مؤسس علم الاقتصاد العالمي، قال: «حين تصل قيمة الفوائد إلى الصفر، يشيع النماء والرخاء في العالم كله»، ومعنى هذا هو عدم الربا، وقد لجأت الولايات المتحدة في السنوات الأخيرة للإقراض بدون فوائد؛ لتشجيع الاستثمار فى المجتمع الأمريكي، كما أن المصرف المركزي للاتحاد الأوروبي

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوكالة، باب إذا باع الوكيل شيئًا فاسدًا فبيعه مردود، ٣/ ١٠١، رقم ٢٣١٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ١٢٧٩.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ١٢٨٠.

يجعل سعر الفائدة نصف في المائة[١].

ويرى كينز أن من واجب الدولة أن تعمد إلى تحقيق وفرة المدخرات، ومن ثم وفرة رؤوس الأموال المتاحة؛ للتوظيف في النشاط الاقتصادي، وبهذا تتحقق العدالة الكاملة، وتنتفي ندرة رأس المال، ويهبط سعر الفائدة إلى الصفر[٢].

بيد أن الإسلام عندما حرم الربا، لم يترك الفقراء عالةً يتكففون الناس، وإنما حث على الصدقة والقرض الحسن، وجعل أجره أعلى من أجر الصدقة، ووعد من صبر على المعسر بجزيل الأجر والثواب، وفي هذا تكافلٌ اجتماعي كبيرٌ.

ويخوض بعض الناس في شبهات حول الربا، منها أن الاقتصاد العالمي قائمٌ على البنوك والتعامل بالربا، وأن عمل البنوك اليوم يشبه المضاربة؛ لأن البنك يجني أرباحًا من الودائع، ويدفع نسبةً من هذه الأرباح طواعيةً ورضًا، ومن ثم يرون أنه يمكن اعتبار ما يدفعه البنك من ربًا، مثل نسبة ربحٍ قياسًا على المضاربة، خاصةً وأن البنك يدفعها عن رضًا، وإذا خسر البنك، فإنه يمكنه أن يلجأ للقضاء، ويثبت خسارته، ومن ثم يصبح غير ملزمٍ بدفع نسبة الربح المتفق عليها.

ويروج بعض الناس عدة أمورٍ عن الربا:

إذ يرون أن الزيادة في القرض حقٌّ للمرابي؛ لأن المال الذي يدفعه للمقترض يتيح له الفرصة للعمل وللربح تمامًا، وهذا ادعاءٌ غير صحيحٍ؛ لأن رأس المال في القرض يتحمل مسئوليته المقترض، بالإضافة إلى الزيادة (الفائدة)، من دون أن يتحمل صاحب المال شيئًا، فهو رابحٌ دائمًا، بينما يكون العامل معرضًا للربح والخسارة.

من الشبهات عدم الوسع، وهي كلمة حقٍ أريد بها باطلٌ:

إذ تسمع الرويبضة المتفيهقين يصرفون الناس عن منهج الإسلام، فيفتون بما لا يعلمون، فيقول قائلهم: قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[البقرة: ٢٨٦].

أي: ليس في وسعه الآن تنفيذ شرع الله، نقول له: من الذي يحدد الوسع؟ أنت أم المشرع سبحانه وتعالى؟

ونقول: مادام الله تعالى قد كلف، فاعلم أن التكليف في وسعك، فخذ الوسع من التكليف، لا أن تقدر أنت الوسع، وتنسى ما كلفك الله به.

لذلك ترى أن الله تعالى إذا ضاق الوسع يخفف عنك دون أن تطلب أنت التخفيف؛ لأن الله شرع الدين للبشرية إلى يوم القيامة،

(١) موقع البنك الدولي.

(٢) وضع الربا في البناء الاقتصادي، عيسى عبده ص ١٨٣-١٨٦، النظرية الاقتصادية في الإسلام، فكري أحمد نعمان ص ٢٣٢-٢٣٣.

فلا تقل: إن تعاليم الدين لا تناسب العصر، إذن: اجعل العصر هو المشرع، وانصرف عن تشريع الله إلى ما يحتمله العصر، إن الله سبحانه هو أعلم بما يصلح البشرية وينظم حركة الكون.

من الناس من لا يرى بأسًا في الربا، ويرى أن تحريم الربا لم يرد إلا في المضاعفة للفوائد الربوية، أما ما دون الضعف فليس ربًا، بيد أن هذا القول يعد تلصصًا على النص؛ إذ اتفق المفسرون والفقهاء على أن المراد من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ [آل عمران: ١٣٠].

هو بيان الواقع، لا اختصاص التحريم بحالة المضاعفة.

قال ابن عطية: «وقوله ﴿مُّضَٰعَفَةً﴾ إشارةٌ إلى تكرار التضعيف عامًا بعد عام، كما كانوا يصنعون، فدلت هذه العبارة المؤكدة على شنعة فعلهم وقبحه؛ ولذلك ذكرت حال التضعيف خاصةً، وقد حرم الله جميع أنواع الربا، فهذا هو مفهوم الخطاب؛ إذ المسكوت عنه من الربا في حكم المذكور، وأيضًا فإن الربا يدخل جميع أنواعه التضعيف والزيادة على وجوهٍ مختلفةٍ من العين أو من التأخير، ونحوه»[١].

وقال الشوكاني: «وقوله تعالى: ﴿أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ ليس لتقييد النهي لما هو معلومٌ من تحريم الربا على كل حالٍ، ولكنه جيء به باعتبار ما كانوا عليه من العادة التي يعتادونها في الربا، فإنهم كانوا يربون إلى أجلٍ، فإذا حل الأجل زادوا في المال مقدارًا يتراضون عليه، ثم يزيدون في أجل الدين، فكانوا يفعلون ذلك مرةً بعد مـرةٍ؛ حتى يأخذ المربي أضعاف دينه الذي كان له في الابتداء»[٢].

وقال الألوسي في روح المعاني: «وليس هذه الحال لتقييد المنهي عنه ليكون أصل الربا غير منهي، بل لمراعاة الواقع، فقد روى غير واحدٍ أنه كان الرجل يربي إلى أجلٍ، فإذا حل قال للمدين: زدني في المال حتى أزيدك بالأجل فيفعل، وهكذا عند كل أجل، فيستغرق بالشيء ماله بالكلية، فنهوا عن ذلك»[٣].

وقد ترى آراء ظهرت تبرر أخذ الفائدة، وترى أنها تغطيةٌ للنفقات الكتابية والإدارية للمصرف، والشريعة الإسلامية تجعل النفقة مشروعة، ولكن لا تجعلها في إطار الفائدة والربا، فنفقة سداد القرض في مكانٍ غير المكان الذي تم فيه الإقراض يتحملها المتسبب في النقل سواءٌ أكان المدين، أم الدائن.

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٥٠٧.

(٢) فتح القدير، الشوكاني ١/ ٣٨١.

(٣) روح المعاني ٤/ ٥٥.

والفقه الإسلامي يقر أن أخذ النفقة والأجرة أمرٌ مشروعٌ، فعن مالكٍ أنه بلغه أن عمر رضي الله عنه سئل في رجلٍ أسلف طعامًا على أن يعطيه إياه في بلدٍ آخرٍ، فكره عمر، وقال: «أين كراء الحمل؟»[1].

وهم لا يرون الفائدة القليلة ربًا، بل الربا في زعمهم الزيادة الفاحشة، أما الزيادة المعقولة بزعمهم: فإنها جائزةٌ عندهم، ويدعون أن الربا إنما هو الفائدة المرتفعة فقط.

وهذا القول باطلٌ؛ لأن الربا في الشريعة الإسلامية، هو الزائد على رأس المال اشتراطًا، وإن كان قبضة شعيرٍ واحدةٍ، وهذا التفريق بين القليل والكثير منهجٌ غير إسلاميٍ، يقصد به التلاعب بالعقول.

ومن ثم يبطل اعتبار الفائدة أجرة المصرف على أعماله التي يقدمها للعميل، فالأجرة مشروعةٌ، أما الفائدة فحرامٌ، ولكن يجوز للمصرف أن يستوفي من عميله المقترض أجرًا مقابل الأعباء الإدارية، والكتابية المتعلقة بالقرض؛ إذ إن الأجر يستقضى مقابل منفعةٍ، ويشترط فيها أن تكون معلومة القدر، إما بغايتها أو بتحديد مدتها.

ومن ثم يجب أن يكون الأجر مبلغًا معينًا مقطوعًا لا يتكرر إلا بتكرار الخدمة التي يقدمها المصرف، فاستحقاق المصرف للأجر، إنما يكون نظير قيامه بأعمالٍ معينةٍ؛ لذلك يجب أن يكون على أساس مبلغٍ مقطوعٍ، وليس على أساس نسبةٍ من قيمة القرض.

(١) تيسير الوصول إلى جامع الوصول من حديث الرسول، ابن الربيع الشيباني ١/ ٧٧.

التوبة من الربا

التوبة: الرجوع من الذنب، فالندم توبةٌ، وتاب إلى الله يتوب توبًا وتوبةً ومتابًا: أناب ورجع عن المعصية إلى الطاعة، وتاب الله عليه: وفقه لها، ورجلٌ توابٌ: تائبٌ إلى الله، والله توابٌ: يتوب على عبده؛ فالله غافر الذنب، وقابل التوب، والله التواب: يتوب على عبده بفضله، إذا تاب إليه من ذنبه.

ومن المعلوم يقينًا أن رحمة الله واسعةٌ، وأنه يغفر الذنوب جميعًا، لا يتعاظم ذنبٌ عن عفوه ومغفرته، فما جعل الله التوبة إلا للخطاة، وما أرسل الأنبياء إلا للضالين من الناس، وما جعل المغفرة إلا للمذنبين، وما سمى نفسه الغفار التواب العفو الكريم، إلا من أجل أننا نخطئ فيغفر لنا، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

ولكن للتوبة الصادقة من الربا شروط:

- الرجوع إلى الله، والندم على اقتراف الذنب، والعزم على عدم العودة إلى المعصية والذنب مرةً أخرى.
- التخلص من المال الربوي برده لأصحابه إن أمكن، وإلا فيصرفه في وجوه البر والإحسان.

فلا بد لآكل الربا أن يرد المال الذي أخذه زيادةً، والاكتفاء برأس المال، ويدلنا على ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٩].

ولكن إذا طالت المدة، ولم يعرف الرجل الذي أخذ منه الربا، فعلى آكل الربا التائب أن يتحرى ويجد في ذلك، فإن عجز عن معرفته، فله أن يتصدق بهذا المال عنه.

عقوبة أكل الربا

إن من فضائل الله تعالى علينا أنه سبحانه وتعالى يحاسبنا على أعمالنا حسابًا عادلًا؛ فمن أحسن حسنةً، يضاعفها له، ومن أساء سيئة جزاه سيئة، ولايظلم ربك أحدًا، قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

فالجزاء من جنس العمل؛ لذلك كان الجزاء مماثلًا للعمل من جنسه في الخير والشر.

وقال تعالى: ﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [التغابن: ١٧].

ومظاهر عدل الله سبحانه وتعالى كثيرةٌ، فمن ستر مسلمًا ستره الله، ومن يسر على معسرٍ، يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن تجاوز تجاوز الله عنه، فهذا شرع الله وقدره، وثوابه وعقابه، كله قائمٌ بهذا الأصل، وهو إلحاق المثل بالمثل، فمن رحمته وفضله سبحانه وتعالى أن جعل الجزاء من جنس العمل.

أولًا: جزاء آكل الربا في الدنيا:

لقد بينت السنة النبوية جزاء آكل الربا في الدنيا، فآكل الربا يحال بينه وبين أبواب الخير في الدنيا، فالمرابي لا يقرض القرض الحسن، ولا ينظر المعسر، ولا ينفس الكربة عن المكروب؛ لأنه جشعٌ يعز عليه إعطاء المال بدون فوائد ماديةٍ محسوسةٍ، فقد نسي فضل الله عليه، وتغافل عن حقيقة أن المال مال الله.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤].

وعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما أحدٌ أكثر من الربا إلا كان عاقبة أمره إلى قلةٍ)[(١)].

وعن عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لعن الله آكل الربا، وموكله وشاهديه، وكاتبه)، قال: وقال: (ما ظهر في قومٍ الربا والزنا إلا أحلوا بأنفسهم عقاب الله عز وجل)[(٢)].

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٨-٢٧٩].

هذا وعيدٌ إن لم يذروا الربا، والحرب داعية القتل، قال ابن عباس: «من كان

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب التجارات، باب التغليظ في الربا، ٢/ ٨١٢، رقم ٢٤٣١. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٩٦٨، رقم ٥٥١٨.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٦/ ٣٥٨، رقم ٣٨٠٩. وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٩٨٤، رقم ٥٦٣٤.

مقيمًا على الربا لا ينزع عنه؛ فحق على إمام المسلمين أن يستتيبه، فإن نزع، وإلا ضرب عنقه»[1].

وذلك بعقوبة التعزير في الفعل المحرم، مثل: (العمل بالربا، وشهادة الزور)[2].

وعقوبة التعزير، إذا لم يكن هناك حدٌّ مقدرٌ.

وقيل: أوعد الله أهل الربا بالقتل فجعلهم بهرجًا أينما ثقفوا، وقيل: المعنى: إن لم تنتهوا فأنتم حربٌ لله ولرسوله، أي: أعداء.

وقال ابن خويز منداد: «ولو أن أهل بلدٍ اصطلحوا على الربا استحلالًا كانوا مرتدين، والحكم فيهم، كالحكم في أهل الردة، وإن لم يكن ذلك منهم استحلالًا جاز للإمام محاربتهم»[3]؛ لأن الله تعالى قد أذن في ذلك، فقال تعالى: ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

والحرب التي يتعرض لها المرابون، هي ما نراه في أناسٍ لا ينالون استقرارًا، ولا طمأنينةً ولا راحةً، فالناس مع ما هم فيه من الرقي والتقدم والرخاء المادي قلقون خائفون مضطربون، قد فشت فيهم الأمراض العصبية، والنفسية؛ لخواء أرواحهم من صدق الإيمان، هذا الإيمان الذي يسبب الهدوء والسكينة والراحة والطمأنينة للنفس.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وهذا التشرذم والصراع على مطالب الدنيا، إنما هو ابتلاءٌ من الله لما قدمت أيدينا.

قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٦٥].

«ذكر ابن بكير، قال: جاء رجلٌ إلى مالكِ ابن أنسٍ، فقال: يا أبا عبد الله، إني رأيت رجلًا سكرانًا يتعاقر يريد أن يأخذ القمر، فقلت: امرأتي طالقٌ إن كان يدخل جوف ابن آدم أشر من الخمر، فقال: ارجع حتى أنظر في مسألتك، فأتاه من الغد فقال له: ارجع حتى أنظر في مسألتك فأتاه من الغد، فقال له: امرأتك طالقٌ؛ إني تصفحت كتاب الله وسنة نبيه، فلم أر شيئًا أشر من الربا؛ لأن الله أذن فيه بالحرب»[4].

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ١٢٨٥.
(٢) المصدر السابق.
(٣) الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية الكويتية، ١٢/ ٢٥٧.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ١٢٨٥.

(يأتي على الناس زمانٌ يأكلون فيه الربا)، قال: قيل له: الناس كلهم؟ قال: (من لم يأكله منهم ناله من غباره)[1].

وروى الدارقطني عن عبد الله بن حنظلة غسيل الملائكة، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لدرهم ربًا أشد عند الله تعالى من ستٍ وثلاثين زنيةٍ في الخطيئة)[2].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الربا سبعون حوبًا، أيسرها أن ينكح الرجل أمه)[3].

الرسول صلى الله عليه وسلم ينفر أمته من الوقوع في خطيئة الربا، فمثل لها بمثالٍ تأباه كل نفسٍ؛ لما في ضرب المثل من تأثيرٍ ينفر من ارتكاب هذه الأفعال غير المرغوب فيها؛ وذلك حتى يأخذ العصاة في الربا بطرفٍ من وعيد هذا الحديث.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (اجتنبوا السبع الموبقات)، قالوا: يا رسول الله: وما هن؟ قال: (الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات)[4].

وعن جابرٍ رضي الله عنه قال: (لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم آكل الربا، ومؤكله، وكاتبه، وشاهديه، وقال: هم سواءٌ)[5].

وعن عبد الله بن مسعودٍ عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لعن الله آكل الربا، وموكله، وشاهديه، وكاتبه)، قال: وقال: (ما ظهر في قومٍ الربا والزنا إلا أحلوا بأنفسهم عقاب الله عز وجل)[6].

وقد بين الله فضل من أعان عباده المؤمنين ونفس عنهم الكرب.

قال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١١].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ١٦/ ٢٥٨، رقم ١٠٤١٠، وأبو داود في سننه، كتاب البيوع، باب في اجتناب الشبهات، ٣/ ٢٤٣، رقم ٣٣٣١.
وضعفه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٧٠٢، رقم ٤٨٦٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ١٢٨٥.

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب التجارات، باب التغليظ في الربا، ٢/ ٧٦٤، رقم ٢٢٧٤.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٦٦٤، رقم ٣٥٤١.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، باب قوله تعالى: (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا)، ٤/ ١٠، رقم ٢٧٦٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، ١/ ٩٢، رقم ٨٩.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب لعن آكل الربا وموكله، ٣/ ١٢١٨، رقم ١٥٩٧.

(٦) أخرجه أحمد في مسنده، ٦/ ٣٥٨، رقم ٣٨٠٩.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٩٨٤، رقم ٥٦٣٤.

وقال تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦].

والأحاديث عن إنظار المعسر، أو التجاوز عما عنده، وجواز التصدق على غير القادرين كثيرةٌ.

فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(من أنظر معسرًا أو وضع عنه، أظله الله في ظله)**[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(من نفس عن مؤمنٍ كربةً من كرب الدنيا نفس الله عنه كربةً من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسرٍ يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه)**[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(كان الرجل يداين الناس، فكان يقول لفتاه: إذا أتيت معسرًا فتجاوز عنه، لعل الله أن يتجاوز عنا، قال: فلقي الله فتجاوز عنه)**[3].

الرسول صلى الله عليه وسلم يعلمنا قيمة من أعظم قيم التكافل والتراحم بين البشر، فبين أن من يمهل المديون حتى يستطيع تدبير أمره وسداد ما عليه بأن الله تعالى أعد له ثوابًا يعادل ثواب الصدقة عن كل يوم يمهل فيه صاحبه، وفي ذلك توجيهٌ عظيمٌ لمن يريدون الثواب من الله.

ثانيًا: جزاء آكل الربا في الآخرة:

وأما في الآخرة، فالأمر أشد، والخطب عظيمٌ، والمصاب جسيمٌ، وأي مصيبةٍ أعظم من أن يعرض أحدٌ نفسه لسخط الله، فيكون من الذين غضب الله عليهم، وتوعدهم بالعذاب الشديد، كما في قوله تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٤].

وحريٌ بنا أن نبين أن تخلف بعض العقوبات عن بعض الناس في الدنيا، قد يكون شرًا من نزولها بهم، فإذا رأيت المرابي المعرض عن الله آمنًا في أهله وماله، فلا

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب حديث جابر الطويل، ٤/ ٢٣٠١، رقم ٣٠٠٦.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن، ٤/ ٢٠٧٤، رقم ٢٦٩٩.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب من أنظر معسرًا، ٣/ ٥٨، رقم ٢٠٧٨.

تظن أن الله تاركه، ولكنه يملي له حتى إذا حان أخذه له أخذه أخذًا شديدًا مباغتًا.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٧].

إن جزاء المرابي عند الله شديدٌ، فقد أعد له ما يستحقه من العذاب؛ لأنه حارب الله ورسوله. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾[البقرة: ٢٧٥].

فالآية تشبه حال القائم بحرصٍ وجشعٍ إلى تجارة الدنيا بقيام المجنون؛ لأن الطمع والرغبة تستفزه حتى تضطرب أعضاؤه، وهذا كما تقول لمسرعٍ في مشيه يخلط في هيئة حركاته إما من فزعٍ أو غيره: قد جن هذا، ويبعثون من قبورهم، على هذه الهيئة، عقوبةً لهم وتمقيتًا عند أهل المحشر.

وقوله تعالى: ﴿يَتَخَبَّطُهُ﴾ جعل الله هذه العلامة لأكلة الربا؛ وذلك أنه أرباه في بطونهم فأثقلهم، فهم إذا خرجوا من قبورهم يقومون ويسقطون.

ويقال: إنهم يبعثون يوم القيامة، وقد انتفخت بطونهم، كالحبالى، وكلما قاموا سقطوا، والناس يمشون عليهم.

وقال بعض العلماء: إنما ذلك شعارٌ لهم يعرفون به يوم القيامة، ثم العذاب من وراء ذلك، كما أن الغال يجيء بما غل يوم القيامة بشهرةٍ يشهر بها، ثم العذاب من وراء ذلك.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ﴾ المراد يكسبون الربا ويفعلونه، وإنما خص الأكل بالذكر لأنه أقوى مقاصد الإنسان في المال، ولأنه دالٌّ على الجشع، وهو أشد الحرص، وقد أقيم هذا البعض من توابع الكسب مقام الكسب كله، فاللباس والسكنى والادخار والإنفاق على العيال داخل فيه، والمس: الجنون، يقال: مس الرجل، فهو ممسوسٌ، إذا كان مجنونًا، وذلك علامة الربا في الآخرة.

وفي الحديث عن جابرٍ رضي الله عنه قال: (لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم آكل الربا، ومؤكله، وكاتبه وشاهديه، وقال: هم سواءٌ)[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الربا سبعون حوبًا، أيسرها أن ينكح الرجل أمه)[2].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب لعن آكل الربا وموكله، ٣/ ١٢١٨، رقم ١٥٩٧.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب التجارات، باب التغليظ في الربا، ٢/ ٧٦٤، رقم ٢٢٧٤.

وعن النعمان بن بشيرٍ رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (الحلال بينٌ، والحرام بينٌ، وبينهما أمورٌ مشتبهةٌ، فمن ترك ما شبه عليه من الإثم كان لما استبان أترك، ومن اجترأ على ما يشك فيه من الإثم أوشك أن يواقع ما استبان، والمعاصي حمى الله، من يرتع حول الحمى يوشك أن يواقعه)[1].

ووجه دلالة الحديث أنه منع من الإقدام على المتشابهات مخافة الوقوع في المحرمات؛ سدًا للذريعة.

موضوعات ذات صلة

الاقتصاد، الإنفاق، الحرام، الزكاة، المال

وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٦٦٤، رقم ٣٥٤١.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، ١/ ٢٠، رقم ٥٢، ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، ٣/ ١٢١٩، رقم ١٥٩٩.

